

المحذية في السودان

تأليف

ب. م. هولت



ترجمة د. جميل عبيد

مراجعة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

بستان
١٩٧٨

المهذب في السُّودان

تأليف
ت. م. هولت
P. M. HOLT
الأستاذ بجامعة لندن

مراجعة
د. أحمد عبد الرحيم مصطفى
كلية الآداب - جامعة الكويت
الكويت

ترجمة
د. جميل عبيد
كلية الآداب - جامعة البصرة
العراق

ملتنز الطبع والنشر
دار الفكر العربي

تقديم

يعد هذا الكتاب « المهدية في السودان ١٨٨١-١٨٩٨ » The Mahdist state in the Sudan 1881 - 1898 مؤلفه ب. م. هولت P. M. Holt الأستاذ المحاضر بجامعة لندن من الكتب الأصيلة . ان هذا الكتاب يمثل اول بحث عن المهدية في السودان اعتمد كلية على المصادر العربية الموجودة في أرشيف المهدية بالخرطوم . وهو يدرس الأحوال الاجتماعية والسياسية في السودان المصرى في بداية الثورة ويناقشها . ثم يحلل الفكر المهدى ويتابع المراحل التى نجحت المهدية خلالها في ازاحة الادارة المصرية واقامة حكومة ذات شكل او طابع دينى في السودان . وفي بعض الفصول من الكتاب شرح لمجريات الأحداث في تلك الفترة الفاضة التى وقعت خاصة بين اغتيال غوردون حاكم السودان من قبل مصر وبين اعادة فتح السودان بقيادة كتشنر . كما درس المؤلف الأسلوب الإدارى الذى اتبعته المهدية في حكم البلاد ومدى ما له من علاقة بنظم الادارة المصرية التى سبقتها . ومما هو واضح في النهج الذى اتبعه المؤرخ « هولت » انه نبع من رؤيته للمهدية باعتبارها مرحلة تطور تاريخية ذات اهمية بالغة في تاريخ السودان ذاته اكثر منها باعتبارها فترة من فترات التاريخ المصرى أو البريطانى .

المترجم

د. جميل عبيد

المقدمة

١ - المهدية : مقدماتها واتجاهاتها :

لم تكن الأراضي التي تضمها جمهورية السودان في التاريخ الحديث معروفة لدى الأوربيين قبل أواخر القرن الثامن عشر .

وكان سكان مصر وأفريقيا شمال الصحراء الكبرى لا يعرفون ما يعرفون عن تلك المناطق الشاسعة الا عن طريق القوافل التي تولى وجهتها سنويا شطر الشمال الى صعيد مصر والقاهرة بما تحمل من ذهب وصمغ وعاج وأبنوس بالإضافة الى ما تجلبه من رقيق .

وقد وفرت كتب ثلاثة رحالة للأوربيين صورة مفصلة وأن تكن غير متكاملة عن السودان ففي عام ١٧٩٠ وصف جيمس بروس James Bruce رحلته النيلية من الحبشة الى أسوان التي زار خلالها بلاط سلطان الفونج بسنار . وفي عام ١٨٠٠ نشر وليم جورج براون William George Browne أنباء عن رحلته في دارفور واقامته هناك في الوقت الذي كانت فيه سلطنة الفور في أوج مجدها . وفي عامي ١٨١٣ ، ١٨١٤ قام الرحالة السويسري جون لويس بركهارت John Lewis Burckhardt برحلة اخترق خلالها المجرى الرئيسى للنيل حتى شندى ثم عبر السودان الشرقي حتى وصل الى سواكن .

ولم يكن اسم السودان يطلق في ذلك الحين على جميع المناطق التي مر بها أولئك الرحالة . بل عرفت المنطقة الواقعة بين الشلال الأول للنيل جنوب أسوان والشلال السادس أو شلال السبلوقة شمال نقطة الالتقاء بين النيل الأزرق والأبيض باسم بلاد النوبة التي امتدت على جانبي الحدود الحديثة لمصر والسودان في وادي حلفا . ولم تكن توجد بالنوبة دولة موحدة بل كانت تشمل عددا من الممالك القبلية الصغيرة التي تناثرت على جانبي النهر في نطاق الشريط الأخضر المحاذي

له التى لم تكن تتعداه • والى الجنوب من هذه المنطقة كان يقع الجانب الشرقى من السودان بمعنى الكلمة أى (بلاد السودان) التى عرفها الجغرافيون المسلمون فى القرون الوسطى أو ما أطلق عليه بعض كتاب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الأوربيين لفظ *Nigritia* أى بلاد الزنج • وفى هذه المنطقة قامت سلطنة القونج البائدة وعاصمتها سنار على النيل الأزرق •

وفى الغرب قامت سلطنة دارفور وهى تمثل امتدادا لسلسلة من النقط أو المراكز الاسلامية التى امتدت عبر القارة الافريقية على جانبي الحدود التى تفصل بين الثقافتين العربية والافريقية • ومن ثم فإن السودان بمعناه الواسع يشمل كل ذلك الحزام الكبير من الأراضى التى تمتد بين البحر الأحمر والمحيط الأطلنطى • وفى كتابنا هذا سنستعمل هذه الكلمة بمعناها المحدود للإشارة الى الأراضى السودانية التى وضعت مصر يدها عليها فى القرن التاسع عشر والتى تضمها حاليا جمهورية السودان • ومن ثم فإن عبارة السودان الغربى الواردة فى كتابنا لا يقصد بها سوى كردفان ودارفور • أما تعبير « السودان الجغرافى » فنعنى به المنطقة الأوسع نطاقا التى عرفت فى العصور الوسطى باسم بلاد السودان •

وقد بقيت هذه المناطق لقرون طويلة بمعزل عن العالم الخارجى وإن تأثرت داخليا بالغزوات والحروب التى كانت تقوم بين قبيلة وأخرى أو سلطنة وثانية • ولم يؤثر الاحتلال العثمانى فى القرن السادس عشر لمينائى سواكن ومصوع ، الواقعين على البحر الأحمر ، كثيرا على أحوال السلطنة إذ أن تلال البحر الأحمر وطبيعة سكانها الرحل من قبائل البجة الصلبة كان مما أدى الى عدم امتداد الحكم العثمانى الى الداخل • أما التوغل الأوروبى فى آسيا وافريقيا سواء للاستعمار أو التجارة منذ أواخر القرن الخامس عشر فلم يؤثر على هذه المناطق تأثيرا مباشرا • وليس معنى هذا أن سكان هذه البلاد اتصفوا بالجمود أو عدم التقبل للمؤثرات الثقافية الواردة من الخارج وهى المؤثرات التى

نسريت الى صميم أوطانهم ، فعلى العكس من ذلك - كما سنرى - وجدت تحركات هامة للسكان كان لها تأثير بالغ على مستقبل السودانيين كما وجدت الأفكار الصوفية استجابة لدى مسلمى السودان . وعلى كل فان سكان هذه البلاد لم يتعرضوا قبل القرن التاسع عشر لمواجهة تحديات غزو أجنبي يتفوق عليهم فى التسليح أو فى الطرائق المتقدمة للتنظيم السياسى .

ومن الناحية الجغرافية جاء التحدى من مصر وأن تكن دوافعه ومثيراته قد جاءت من جانب الطبقة العثمانية الحاكمة وبالذات من محمد على باشا وخلفائه فى حكم الولاية . وكانت هناك مرحلتان للتوسع المصرى أحدهما فى عهد محمد على والأخرى فى عهد اسماعيل . ففى عام ١٨٢٠ تقدمت حملة يقودها اسماعيل كامل باشا ابن محمد على نحو دققة بقصد اقتلاع بقايا المماليك من تلك المنطقة التى لجأوا إليها منذ ١٨١١ عندما قضى محمد على على المماليك فى القاهرة ، وللحصول على ذهب السودان ورقيقه . وقد تساقطت الممالك الصغيرة القائمة على النيل واستسلمت الواحدة تلو الأخرى كما تم احتلال سنار فى ١٨٢١ ودالت بذلك سلطنة الفونج . وفى ذات الوقت تقدمت قوة مصرية أخرى يقودها محمد بك خسرو الدفتردار صهر محمد على من دققة عبر صحراء شمالى كردفان واحتلت مدينتى بارة والأبيض الهامتين وهكذا فصلت كردفان عن دارفور التى كانت تسيطر عليها . وفى خلال السنوات القليلة التالية تمت الخرطوم باعتبارها قاعدة للحكم المصرى فى السودان ، الذى استكمل سيطرته على المناطق الشمالية والوسطى من السودان فى عام ١٨٤١ بعد ضم التاكا - أى اقليم خور الجاش والتلال الساحلية للبحر الأحمر .

وقد ورث الخديوى اسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩ عن جده محمد على طموحه الى تحويل مصر الى قوة مستقلة عظيمة كما ورث عنه اعجابه بطرائق أوروبا الغربية ومظاهرها . ولم يكتف الخديوى اسماعيل بالسعى الى توسيع ممتلكات مصر جنوبا وغربا بل عمل على القضاء على تجارة

الرقيق في السودان • فقد سرت الفتوحات التي تمت في عهد جده هذه التجارة وسهلت لها سبل الانتشار • ولكي يتأتى له السيطرة عليها كان لابد لامبراطوريته من مزيد من الاتساع • وفي أواخر عهده امتد الحكم المصري في أعالي النيل حتى البحيرات الاستوائية وبحر الغزال وسلطنة دارفور • ولم يكن اسماعيل أقل نشاطا في السودان الشرقي فقد حصل بتأييد بريطانيا في سنة ١٨٦٥ على مينائي سواكن ومصوع من الحكومة العثمانية بحجة القضاء على تجارة الرقيق عبر البحر الأحمر • وكانا يثلاثن منذ وقت طويل المنفذين الطبيعيين لقسط كبير من تجارة السودان • وأعقب ذلك استيلاء مصر عام ١٨٧٤ على الأراضي المحيطة بمصوع المعروفة الآن باسم أريتريا • كما أن احتلال مصر لهرر في العام التالي قد وفر لها موطئ قدم هام على ساحل المحيط الهندي وذلك لفترة قصيرة •

ولا ندهش اذا ما أدى الضغط المصري المتزايد في اتجاه الشرق الى حرب مع الحبشة وبذلك أسهم فيما أصاب الخديوى من افلاس فيما بعد •

وقد بدأت المهديّة بعد عامين من خلع الخديوى اسماعيل • وهى تمثل حركة ذات أصول دينية ساعد على انتشارها ضغوط سياسية ومساوىء اجتماعية واقتصادية في المجتمع السودانى أدت الى ثورة سياسية أزاحت الحكم المصرى واستبدلت به حكومة ذات طابع وطنى اسلامى • واذا قارنا المهديّة بالحركة الوهابية التى ظهرت ببلاد العرب أو بالحركة السنوسية التى انتشرت فى ليبيا لوجدنا أنها كانت أقصر منهما عمرا كما يتعذر علينا وصفها بالنجاح وخاصة على المدى البعيد • ولكن عهدها الذى لم يستمر عشرين سنة شهد تطورا سياسيا سريعا من اعلان وقيام مجتمع اسلامى مهدوى بالسودان الى قيام أوتوقراطية نستند الى سيطرة قبيلة واحدة وتصطنع جهازا اداريا اقتبست جوانب كثيرة منه من الادارة المصرية •

ويمكن الى حد كبير اسناد انجازات مرحلتى الحركة المهدية الى قائديها محمد أحمد بن عبد الله الدنقلاوى الذى أعلن نفسه مهديا سنة ١٨٨١ ، وعبد الله بن محمد التعايشى الذى تولى الحكم من بعده وأطلق على نفسه اسم خليفة المهدي فى عام ١٨٨٥ - وهو يكنى عادة باسم الخليفة . وتفرق مشاعر السودانيين وأقوالهم المتوارثة بين هذين الرجلين واتجاهاتهما . فالجماعة التى تتبع السيد عبد الرحمن بن المهدي وكذلك بعض السودانيين الآخرين يكونون الاحترام للمهدي وذلك باعتباره سودانيا على قدر كبير من الورع ويعتبرونه رائدا لاستقلال السودان . أما اسم الخليفة فتحوط به سحب قائمة تجمعت من جراء الاحساس بمسئوليته عن تحول المثل الدينية العامة للمهدية الأولى الى مطامع هدفها مجرد السيطرة الديونية على السودان . ومما يعلل تلك النظرة الى الخليفة الفارق بين عهده وعهد المهدي الذى توفى فى أوج مجده قبل أن تتطرق مظاهر الضعف الى حركته بينما عاش الخليفة ليرى اندحار جيوشه والاستيلاء على عاصمته ومات هاربا طريدا فى معركة يائسة . وكان طبيعيا أن يعمل الحزب السياسى الذى نما تحت قيادة السيد / عبد الرحمن على ابراز أهداف المهدي ومظاهر نجاحه بينما أهمل خليفته ان لم يجرحه . أضف الى ذلك أن معظم الطبقة المتعلمة ذات التأثير الفعال فى السودان هى فى الغالب من سلالة سكان وادى النيل الذين مارسوا نفوذا براقا فى عهد المهدي ثم حرموا منه بل وتعرضوا للاضطهاد فى عهد خليفته . ويجب ألا نغفل الكيفية التى نست بها ونضجت الأفكار المتواترة عن المهدية . إذ أنها لم تكن مجرد أفكار محلية أو متوارثة ، بل جاءت نتيجة تأثيرها بالحكم الانجليزى وما نشره من اتجاهات على مدى ٥٠ عاما أو يزيد . وقد هاجم معظم الكتاب الأول من الأوربيين المهدي وعهده ولكن الموقف تغير عقب وفاته اذ دافع عن ذكره حتى من أعدائه وتغيرت النظرة اليه باعتباره رجلا تعالى فى دينه وتفانى من أجل عقيدته وأن السودانيين أضيروا من جراء ثورته . بينما وجه الى الخديفة نقد لاذع اذ صور باعتباره رجلا قاسيا ، جاهلا

ولم تجر محاولة لاعادة تقييم صفاته وأهدافه قبل أن يؤلف ثيوبولد A. B. Theobald كتابه في ١٩٤٩ وهكذا أصبح اهمال الخليفة أو تجريحه شيئا عاديا تأثر به تدريس التاريخ في السودان وتأثرت به فكرة السودانيين الحديثة عن المهدي .

وبرغم ذلك فاذا أغفلنا الأحقاد الموروثة والدعاية الحديثة وتلوث التقاليد المحلية فاننا سنجد فارقا واضحا بين كل من الطورين الأول والآخر للمهدية . ولعل وفاة المهدي كانت من قبيل الصدفة الى حد كبير - نقطة التحول . ومع ذلك فان استئثار الخليفة بالسلطة قد تم تدريجيا لا لمجرد تحقيق مطامعه التي لاشك فيها بل بفعل ضغط الظروف وبالإضافة الى ذلك فهناك جانب بنائي في عهده لم يجد التفاتا كافيا من الكتاب الذين تعلقت أبصارهم بمظاهر الارهاب والقسوة التي اعتقد أجدادنا أنها لا ترتكب الا على أيدي البرابرة . ولم تكن جميع أيام الخليفة مجرد مرحلة سادها الأسف والتحسر على ما سبقها من عهد ذهبي انتقالي وانما كانت أيضا فترة تنظيم وتوازن ماهر بين القوى يكشف عن ارادة قوية وقدرة ادارية تتميز بالكفاءة عملت في حدود الخبرات المحدودة التي كانت في متناول يدها وان فشلت كثيرا في التنفيذ بسبب الأخطاء الكامنة في الأدوات التي تم اللجوء اليها .

٢ - ارض السودان وسكانه :

اشتمل السودان المصرى قبيل المهدي على مساحة كبيرة من المناطق الممتدة بين الجندل الثانى والبحيرات الاستوائية من ناحية وبين البحر الأحمر والسلطنات الواقعة على الأطراف الغربية لدارفور من ناحية أخرى . ويخترق المجرى الرئيسى لنهر النيل مناطق صحراوية أو شبه صحراوية ويميزه شريط ضيق من الأراضى الزراعية التى يتم ريها بالشادوف أو الساقية . وتتناثر على شاطئى هذا المجرى مجموعة من القبائل المستقرة أبرزها من الشمال الى الجنوب المحس والدناقلة والشائقية والجعلين وتقع بلاد المحس الى الشمال من الجندل الثالث بينما يستقر الدناقلة بجوار ذلك الجزء من النهر الواقع بين الجندل

الثالث وكورتى وقد وقعوا لبضع سنوات قبل الفتح المصرى تحت سيطرة المالك الهاريين الى الجنوب الذين تحول معسكرهم العرضى (١) • (دقلة الجديدة الى الآن) الى أهم مدن هذا الاقليم ومركزه الادارى وقد استقر أسلاف الدناقلة فى هذا الاقليم قبل دخول العرب الدين اختلطوا بهم • أما الشائقية فيقطنون المناطق الواقعة الى الجنوب مما سبق وأهم مدنها مروى وقبل مجيء الممالك كانوا هم المسيطرين على الدناقلة ، وذلك بفضل قوتهم العسكرية وبالأخص فرسانهم الممتازين • وكان قتالهم مع الممالك يتسم بالندية ولكنهم لا قوا الهزيمة فى معركتين دمويتين على أيدي المصريين الذين استعملوا الأسلحة النارية والمدفعية وظلوا لستين عاما بعد ذلك يخدمون سادتهم الجدد بإخلاص فى مختلف أنحاء السودان باعتبارهم قوات غير نظامية • وتعرض بأنسوزق (٢) الشائقية للكرامية وكانوا مصدرا للرعب بسبب مظالمهم وما عرف عنهم من قسوة فى جمع الضرائب • وتقيم بعض القبائل الأقل أهمية فيما بين الشائقية والجعليين • وتقع بلاد الجعليين جنوب نقطة التقاء العظيرة بالنيل وقد دمرت عاصمتهم شندى الواقعة على الضفة الشرقية للنيل وكانت لها شهرة خاصة باعتبارها مركزا تجاريا هاما فى عام ١٨٢٨ على يد الدفتردار انتقاما للمذبحة التى غدر فيها الملك الجعلى الملك نمر محمد بإسماعيل باشا ورجاله وحلت محلها المتمة على الشاطيء المقابل •

أما الصحارى الكبرى الواقعة خلف ذلك الشريط الضيق من الأرض الخضراء فهى موطن القبائل الرحل التى تعتمد فى حياتها على اقتناء الابل • وقد سيطر العباددة على صحراء النوبة فى الجانب الشرقى من النيل • وكان محالا على أى رحالة أن يخترق المنطقة الممتدة من كورسكو الى أبو حمد على الثنية الكبيرة للنيل مارا بأبار المرات دون

(١) العرضى نسبة الى الكلمة التركية أورردو بمعنى معسكر الجيش ومنها الكلمة الانجليزية Lorde, Urdu •

(٢) من الكلمة التركية باشى بوزوك واستعملت فى الانجليزية بنفس المعنى وتكتب bashi - baz uk

حماية منهم أو مساعدة • وقد منحهم محمد على حق احتكار نقل المهمات الحكومية عبر الصحراء النوبية مكافأة لهم على مساعدتهم لحملته • ويشبه العباددة في الصحراء الغربية الكباشيش الذين ينتقلون داخل نطاق من الخضرة الموسمية التي تمتد حتى شمال كردفان فيما يقابل خط عرض دقله وكانت لهم السيطرة على الطرق المنتشرة من غرب السودان إلى النيل • وهناك شبه الجزيرة الصحراوية التي تحتويها ثنية النيل الكبيرة وتعرف باسم صحراء بيوضة • أما المنطقة المحصورة بين العظبرة والنيل الأزرق والفرع الرئيسى للنيل فتمتاز بخضرة موسمية وتعرف باسم البطانة والشكرية أهم القبائل الرحل التي تقطن هذه المنطقة وتحكمها عائلة أبوسن • وفي أقصى شرقى السودان تشكل التلال المحاذية للبحر الأحمر امتدادا شماليا لمرتفعات الحبشة وتقطعها قبائل البجة التي تقطن أيضا السهول الساجلية الضيقة الواقعة الى شرقها بالإضافة الى السفوح المتسعة المنحدرة نحو العظبرة والنيل غربا والبجة قبائل رحل تقطن الابل وتعتنق الاسلام وان كانت تتكلم لغتها العامية الخاصة • والى الجنوب من قرب خط عرض الخرطوم تزداد الأمطار وتصبح كافية لقيام زراعة سنوية لا تعتمد على مجرى النيل كما يتغير الطابع العام للبلاد • وهنا توجد أكثر مناطق السودان الأوسط خصوبة في الجزء الشمالى من شبه الجزيرة المحصور بين النيل الأزرق والأبيض فيما يعرف باسم الجزيرة (جزيرة سنار) • وكان طبيعيا أن تكون سنار باعتبارها عاصمة الفونج أهم مدينة في هذه المنطقة قبل الفتح المصرى ولكن مع العهد الجديد نما مركز جديد هام في وادى مدنى على بعد ٦٠ ميلا من مصب النيل الأزرق وان بقيت سنار عاصمة ادارية • واذا صعدنا مع النهر بعد سنار لاحظنا ازدهام المناطق بالغابات واشتداد كثافتها مع اقترابنا من مستنقعات الحبشة •

وقد ربط النيل الأبيض بين الشمال العربى المسلم والجنوب الزنجى الوثنى ، كما أنه كان يمثل احدى بوابات الغرب - فعلى بعد ١٢٠ ميلا الى الجنوب من الخرطوم يقع ميناء الدويم على الضفة الغربية للنهر وكان

يمثل محطة هامة صوب كردفان ودارفور • وتعتبر منطقة الحشائش التى
يخترقها الطريق موطناً للبقارة وهم قبائل رحل ذات أصول عربية اضطرت
الى اقتناء الماشية عندما عجزت الابل عن التأقلم مع طبيعة الاقليم •
ولبسطة معيشتهم كان أهل المدن والأهالى المقيمون بجوار
النيل ينظرون اليهم نفس نظرة سكان السهول الى الجبلين فى
اسكتلندا • وقد لعبت قبيلتان من قبائل البقارة هما الرزيقات
القاطنة فى جنوب شرقى دارفور والتعايشة قبيلة الخليفة القاطنة
فى أقصى الغرب دوراً هاماً فى الحركة المهدية وقد وجد فى كل من
كردفان ودارفور مؤثر أو عنصر هام غير عربى • ففى جنوب الأبيض
توجد مجموعة من التلال التى عرفت باسم جبال النوبا والتى
اتخذ منها السكان الذين كانوا يقطنون كردفان قبل مجيء العرب ملجأ
لهم وملاد • وفى أماكن أخرى خاصة مملكة تغلى الواقعة بين التلال
الشرقية استقر خليط من العرب والنوباويين كما حل الاسلام محل الوثنية
العريقة فى قدمها بين الجبلين • وفى أماكن أخرى مارس النوباويون
حياتهم التقليدية فى حرية غربية رغم تعرضهم لغارات تجار الرقيق • وفى
دارفور نجد أن القبيلة الرئيسية بها وهى الفور لا تمت للعرب بأى صلة
من الناحية الجنسية ولا تتكلم العربية وإن اعتنقت الاسلام ، كما غلب
على الفور طابع الانطواء والعزلة واستمر سائداً بينهم رغم ضم سلطنتهم
الى الامبراطورية المصرية ، وظلت سلسلة جبال مرة فى وسط دارفور
لنحو ٢٠ عاماً ملجأ ومركزاً للمقاومة من جانب المطالبين بحكم الفور
وأنصارهم •

وقد استمر التغلغل العربى عبر النيل الأبيض ذاته ببطء لعدة
أجيال وفى احدى المرات احتل الشيلوك النيليون ضفتى النهر حتى النقطة
التي تقع عندها الدويم الحالية • وبالتدريج تراجعوا أمام العرب • وقد
قوى الفتح المصرى قبضة العرب بنشره استعمال الأسلحة النارية وأصبح
الشيلوك محصورين فى الأراضى الواقعة بين الطرف الشرقى لجبال النوبا

وبين النيل الأبيض ورغم ذلك فقد ظلوا مجموعة لها بعض الأهمية السياسية ، اذ كان لهم تنظيم قبلى قوى يرأسه ملك يحكم بالتفويض الالهى ، وقد أحرزوا سمعة يستحقونها باعتبارهم مقاتلين . أما الدنكا فقد كانوا أقل ترابطا وان كانوا أكثر عددا ، وكانوا يتناثرون فى مجموعات قبلية كثيرة على الشاطئ الشرقى للنيل الأبيض شمال نهر السوبات وبين المجارى المتعددة التى تتحد معا مكونة بحر الغزال الفرع الغربى الرئيسى للنيل . ويحمل المجرى الواقع الى أقصى الشمال الاسم ذى المغزى : « بحر العرب » وهو النهر الذى يمثل الحد الجنوبى لمنطقة البقارة .

ولعل منطقة المستنعات الشائكة التى اعتاد النهر أن يغير فيها مجراه من عام لعام بين الجزر النباتية العائمة كانت أكبر العقبات التى واجهت التغلغل العربى جنوبا على المجرى الرئيسى للنيل الأبيض وادى ادخال المراكب البخارية الى توفير الخطوة الأولى اللازمة للتغلب على هذه العقبة التى عرفت باسم السد . وقد بدأت الادارة المصرية قبل ظهور المهديّة فى ترتيب نظام للمواصلات مع منطقتى بحر الغزال والمديرية الاستوائية اللتين تقعان الى ما بعد السد أو منطقة السدود . ولكن هذا الاتصال لم يكن منتظما وانقطع تماما خلال حكم المهديّة ولم تلعب القبائل الجنوبية باستثناء الشيلوك والدنكا دورا ذا قيمة فى المهديّة التى كانت بالنسبة اليهم شيئا أجنبيا شبيها بالحكم المصرى . وتعكس التقسيمات الادارية للسودان المصرى قبيل ظهور المهديّة مراحل نموه . فقد كان من نتيجة الفتوح الأولى تشكيل النواة الأساسية لمقاطعات ذات ملامح واضحة هى دنقلة وبربر والخرطوم ثم سنار وكردفان .

والى الشرق من هذه المقاطعات تقع المناطق التى تم ضمها فى وقت لاحق : الناكّة وعاصمتها كسلا وسواكن - وقد تم ضم الناكّة عن طريق الغزو ، أما سواكن فقد ضمت نتيجة لهبة من السلطان العثمانى الى حاكم مصر . والى الجنوب والغرب من هذه المقاطعات توجد المساحات الواسعة التى ضمت خلال حكم الخديوى اسماعيل وهى فاشودة والمديرية الاستوائية أو مديرية خط الاستواء وبحر الغزال ودارفور - وقد اتسمت

هذه المناطق الواسعة بعدم التحديد وارتضاء قبضة السلطة التي تتولى حكمها . وجرى العرف على أن يطلق على كل اقليم أو منطقة من المناطق السالفة الذكر اسم مديرية ، هذا اذا استثنينا سواكن التي أطلق عليها الحكم العثماني الذي عرفته لقرون طويلة اسم محافظة . وأطلق عادة على حاكم الاقليم لقب مدير وفي حالة المقاطعات التي تتسع فيها الأعمال الادارية أطلق عليه مدير عموم كما حدث بالنسبة لدارفور . وجزئت هذه المقاطعات بطرق مختلفة فأحيانا الى أقاليم (أو مأموريات) يحكمها موظفون مصريون أو أتراك يطلق عليهم اسم مأمير أو الى أقسام يحكم كل منها ناظر من أبناء القسم وتشعبت عن كل قسم فروع أصغر كل منها يعرف باسم خط يحكمه حاكم محلي . وقد تردد المسئولون في القاهرة بين اتباع النظام المركزي واللامركزي في حكم المقاطعات السودانية التابعة لمصر . وكانت الغلبة خلال الفترة المعاصرة لظهور المهدي وازدياد قوتها لفكرة اللامركزية . وقد قسمت الأقاليم المختلفة الى ثلاث وحدات كبيرة أطلق على كل منها اسم حكمدارية ووضعت تحت ادارة حاكم عام يتبع القاهرة مباشرة ويطلق عليه اسم حكمدار .

ومن ثم شملت حكمدارية وسط السودان - وعاصمتها الخرطوم - كلا من سنار وبربر وفاشودة بالاضافة الى المديرية الاستوائية . كما ضم السودان الشرقي التاكة وسواكن بالاضافة الى محافظة مصوع التي كانت عاصمة للحكمدارية . واتخذ السودان الغربي من الفاشر عاصمة لمنطقة اشتملت على مقاطعات دارفور وكردفان وبحر الغزال ودقنلة .

٣ - حركات السكان :

هناك ثلاث حركات سكانية حدثت في الأراضي السودانية وأثرت على التركيب القبلي بها وتطور تاريخها . وأول هذه الحركات هي هجرة قبائل المحس والدناقلة والشائقية والجعليين من النيل في اتجاه الجنوب والغرب . وقد بدأت هذه الهجرة قبل الفتح المصري بعدة قرون وكان العامل الاقتصادي من بين أسبابها لأن قدرة الشريط الأرضي الصالح للزراعة حول النيل على استيعاب الزيادة البشرية كان قاصرا ومحدودا .

وكان من عواملها أحيانا الاضطرابات السياسية التي تعرض لها وادى النيل - ومن ذلك أن ضغط الشائكية على الدناقلة خلال القرن الثامن عشر تسبب في هجرتهم للغرب في اتجاه كردفان ودارفور ومن هنا كان ما ذكره براون عند زيارته لمنطقة دارفور في سنة ١٧٩٣ - ٩٤ عن الأهمية الاقتصادية والاجتماعية التي كان يتمتع بها الدناقلة في تلك السلطنة . وعندما أغتيل اسماعيل باشا سنة ١٨٢١ على يد الملك نمر هاجر الجعليون انهاربون صوب الشرق الى أن استقروا في النهاية في منطقة القلابات على أطراف الحدود الحبشية . وقد أدى الفتح المصرى وما ترتب عليه من ربط مناطق السودان بعضها ببعض واستقرار الأمن فيه الى تشجيع هجرة الشماليين فأسس بعضهم بيوتا تجارية ناجحة في الخرطوم وشاركوا في تجارة الرقيق ، كما عمل بعضهم الآخر كجنود لحساب تجار النيل الأبيض وبحر الغزال . أما صناع السفن من الدناقلة - كما هو الحال بالنسبة لوالد المهدي - فقد اتجهوا الى الخرطوم وما يليها جنوبا واتخذوا لهم مكانا على شاطئ النيل حيثما أمكن للغابات أن تمدهم بالثروة الخشبية اللازمة لصناعتهم وعمل كثير من الدناقلة على المراكب والزوارق البخارية كبجارة وعمال .

وقد بدأت هجرة الشائكية بعد الفتح المصرى عندما صحبوا القواد وانفرك المصريين حيثما ذهبوا كجنود نظامية . وتقل الجعليون كصغار تجار (جلابة) في جميع أنحاء السودان ووجدوا خير ما أتيج لهم من فرص الكسب في العمل كوسطاء في تجارة الرقيق وذلك في مناطق الاتصال بين القبائل العربية وغير العربية وعلى وجه الخصوص في كردفان ودارفور وبرز من بين رجال هذه القبيلة اثنان دارت حولهما كثير من أحداث غرب السودان في الأيام التي سبقت المهديّة أو عاصرت ظهورها هما الزبير رحمة منصور ملك بحر الغزال غير المتزوج وفتح دارفور والياس أم بريز الذي عمل لفترة كحاكم لكردفان وتولى تدبير المؤامرات ضد الحكم المصرى . وقد استقر كثير من هؤلاء الشماليين نهائيا في المناطق التي نزحوا اليها كما تبعهم من جاء بعدهم من سلالتهم الذين احتفظوا في شتى

ربوع ذلك المحيط الواسع من المتخلفين المقيمين في الغرب والجنوب
بذكرى أصولهم القبلية التي كانت موضعاً لفخرهم •

الا أن العوامل الاقتصادية والسياسية وحدها لا تكفى لتفسير هذه
الهجرات فلقد كان الرجال الذين هجروا بيوتهم أكثر شجاعة ومبادرة من
سواهم ولا بد أن الحياة غير الطليقة في إقليم مستقر تحت حكم مصرى
كانت أضيق من أن تسع شجاعتهم ومواهبهم • وكان هذا هو نوع
الرجال الذين اخترقوا مناطق النيل الأعلى وبحر الغزال وتاجروا أو
قاتلوا في تلك المناطق النائية • وقد لعب المهاجرون من الشمال دوراً هاماً
في الثورة المهدية • ويتضح الدور الإيجابي الذي قاموا به في أوائل المهديّة
ومداه إذا قورن بالدور السلبي الذي وقفه أقاربهم الذين بقوا في مواطنهم
الأصلية •

أما الحركة السكانية الثانية التي بدأت قبل الفتح المصرى بكثير
ووجدت فيه حافزاً لها فهي تجارة الرقيق وقد وصف بركهارت هذه
الحركة من واقع ملاحظاته الشخصية في شندى مركز تلك التجارة قبيل
ذلك الفتح (١) ووفقاً لما ذكره بركهارت كان الرقيق يجلبون بصفة عامة من
منطقتين الأولى المنطقة غير العربية قرب دارفور والثانية الواقعة على
أشرف الحبشة • وكان أربعة أخماس الرقيق الذين يسمون بشندى
يرسلون إما إلى بلاد العرب أو إلى مصر ، وهذا بخلاف تلك الأعداد
الكبيرة من الرقيق الذين كانوا يتغلغلون في النظام الاجتماعى للقبائل
العربية في السودان سواء أكانت هذه القبائل مستقرة أو متنقلة إما عن
طريق الترسى أو للخدمة في البيوت وفى الحقول • واستمرت عملية
الامتصاص لأجيال متتالية الأمر الذى ترتب عليه تعديل المظاهر الجسمانية
لكثير من القبائل التى تدعى الانتماء لأصول عربية ومنهم البقارة •

وقد حدث تطوران هامان في تجارة الرقيق بعد استقرار الحكم

(1) I. L. Burckhardt : Travels in Nubia, London 1819.
pp. 322-345.

(م ٢ - المهدية)

انصرى في السودان فقد طمع محمد على في الحصول على أعداد غير محدودة من الرقيق لتدريبهم وضمهم للجيش الجديد الذى أعده في مصر . ومع أنه أصيب بخيبة أمل في هذا المجال بسبب ارتفاع نسبة الوفيات بينهم بمجرد وصولهم لمصر إلا أن جانباً كبيراً من الجند النظاميين الذين عملوا في عهد خلفائه بالسودان كانوا أصلاً من الرقيق . وحتى عندما حاول الخديوى اسماعيل القضاء على تجارة الرقيق استمر تزويد الجيش بجنود من هذا المصدر - فقد جرت العادة على إدراج أسماء الرقيق الذين يتم الاستيلاء عليهم من التجار في قوائم الخدمة الاجتماعية والعسكرية كما جرى التجنيد بأسلوب لا يختلف كثيراً عن ذلك المتبع في اصطيد الرقيق . وقد استقى جانب كبير من الجنود الذين كانوا في الأصل رقيقاً من جبال النوبا وعرفوا باسم الجهادية وأثبتوا مع الأيام أنهم عون للمهدية ونظمها في الوقت ذاته الذى أثاروا لها فيه المشاكل .

أما التطور الثانى الذى تم في العهد المصرى فهو فتح النيل الأعلى وبحر الغزال أمام تجار الرقيق فقد حالت شجاعة الشيلوك في القتال والمقاومة ، بالإضافة الى السد كحاجز طبيعى بين تجارة الرقيق وتلك المناطق الى ما بعد الفتح المصرى للشمال . وكانت تجارة الرقيق نتيجة طبيعية لتجارة العاج فقد أسس تجار الخرطوم مراكز لوكلائهم وأتباعهم حول النيل الأعلى وبحر الغزال ثم تحالفوا في كثير من الأحيان مع الرؤساء المحليين للاغارة على القبائل المجاورة بغرض الحصول على غلال عند تناقص ما لديهم من مؤن ، أو للحصول على الماشية لاستبدالها بسن الفيل . وأصبح الأسرى الذين يؤخذون خلال هذه الغارات رقيقاً للتجار ولم يمض وقت طويل حتى لاح في الأفق احتمال قيام تجارة ناجحة للرقيق . وساهمت محطات تجار سن الفيل في معاونة تجار الرقيق القادمين من كردفان ودارفور على التوغل في هذه المناطق لتصدير أسراهم . وقد اتخذت هذه المراكز أو الأماكن التى أحيطت عادة بسياج من الأشراك والتي عرفت باسم الزرائب مقراً للتجار أو وكلائهم وكذلك

لجنودهم من الدناقلة والرقيق ثم مخزنا للمؤن ، وأطلق على كل من هذه الزرائب اسم ديم أو معسكر وميزت عن سواها باسم صاحبها أو وكيلها .

أما ثالث الحركات البشرية الهامة فكانت حركة الحجاج من غير العرب القادمين من دارفور وما يليها غربا والمتجهين الى البحر الأحمر ثم مكة عن طريق السودان . وتتصف هذه الحركة بأنها عريقة في القدم كما أنها مستمرة ودائبة ولم تتأثر بنوع الحكم في السودان الى أن توقفت مؤقتا خلال عهد المهديه وبسببها . وقد وصف الرحالة بركهارت (١) الطرق التي اعتاد الحجاج - الذين كانوا يعرفون باسم التكارنة أو التكاربر (ومفردها تكرورى) أن يتخذوها - وصفا جيدا . فبعد أن يجتازوا دارفور يتجهون اما الى مصر أو الى سواكن ومصوع على البحر الأحمر عن طريق شندى أو سنار ومثل هذه الرحلة غالبا ما كانت تأخذ سنوات عديدة أو عمرا بأكمله وكثيرا ما كان الحجاج العائدون يستقرون نهائيا في السودان . ومن ثم وجدت قرى أو مستعمرات خاصة بالتكارنة على طول طريق الحجاج حيثما توفرت امكانيات المعيشة . كما وجد كثير من التكارنة في قرى خاصة بهم على حدود الحبشة ، في منطقة القلابات حيث كونوا جناعة قوية مترابطة . ومع أن الأفراد كانوا يذهبون ويجيئون الا أن التكارنة كانوا عنصرا مستمرا في المجتمع السوداني . وقد دخل أجداد الخليفة عبد الله للسودان باعتبارهم حجاجا من هذا النوع ثم اندمجوا بمرور الزمن في التعايشة البقارة .

٤ - المدن :

ظل المجتمع السوداني الى بدء المهديه قريبا في أساسه ولكن هذا الأساس القبلى تعدل بفعل حركات السكان التي سبق وصفها . ومن انطبيعى أن يكون اختلاط السكان أكثر تطورا في المدن وبخاصة الخرطوم . وفي مدن الأقاليم والقرى الكبيرة كانت العناصر ذات الأصول القبلية المختلفة تميل الى العيش مستقلة عن غيرها ، ولم تبد ميلا الى الاندماج .

في كيانات موحدة • وقد وصف بركهارت شندى في عام ١٨١٤ باعتبارها تحتوى على عدد كبير من القبائل العربية وعلى حى يسكنه تجار دناقلة • وبعد ٧٠ عاما من ذلك التاريخ احتوت الأبيض وهى أكبر مركز عراني في الغرب على مجموعة من المباني الحكومية وعلى سوق يتوسط مجموعة قرى تسكنها مجموعات قبلية تضم التكارنة والدناقلة •

ويرجع الفضل في نمو المدن السودانية الواقعة في الشمال الى أسباب ادارية واقتصادية وان كانت الادارة بوجه عام تفوق التجارة في فعاليتها بالنسبة الى المحافظة على بقاء المدن • وهكذا فان تقدم الخرطوم وتحولها في مدى ستين عاما من قرية مغمورة يقطنها صيادو السمك الى أكبر مدينة عامرة بالسكان في السودان راجع الى اتخاذها مركزا للادارة والحكم • وبرغم ما تمتاز به الخرطوم من موقع يتيح لها الاشراف على الطرق النيلية وتصريف منتجات منطقة الجزيرة الزراعية الا أنها لم تكن على الاطلاق في الماضى مركزا للتجمع السكانى • أما دنقلة القديمة وهى المقر القديم للدناقلة والتي يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام فقد أصابها الاضمحلال التام بعد أن لجأ الممالك الفارون الى أراضيها فممسكرهم الذى أصبح بدوره عاصمة للاقليم في عهدى الحكم المصرى والمهدية ثم في مرحلة الحكم الثنائى قد تجاوز ما كانت عليه دنقلة القديمة اتساعا وأهمية • وكذلك فان بربر التى كانت مدينة تجارية وعاصمة لمملكة صغيرة قبل الحكم المصرى قد احتفظت بأهميتها بل ازدادت مكائتها باعتبارها عاصمة اقليمية في عهده بينما لم تستطع شندى المنافس التجارى لها (أى لبربر) والواقعة الى الجنوب منها استعادة مركزها خلال الحكم المصرى بعد التخريب الذى أصيبت به على يد الدفتردار برغم أنها كانت أكثر المدن تقدما في أيام بركهارت • ومما لا شك فيه أن أهمية الأبيض في الغرب ومكائتها قد ازدادت بعد اتخاذها مركزا للادارة المصرية • كما أن انشاء كسلا في الشرق باعتبارها عاصمة لاقليم التاكة الذى لم توجد فيه في الماضى أية مدينة قد ترتب عليه قيام مركز جديد تتجمع فيه تجارة شرقي السودان •

ولم يكن بالسودان الجنوبي خلال مرحلة الحكم المصرى ما يجدر أن نطلق عليه اسم المدن واقتصر الأمر بالنسبة للنيل الأعلى على سلسلة من النقاط الادارية أقدمها وأفضلها تشكيلا « فاشودة » الواقعة على الضفة الغربية للنيل شمال منطقة السدود • وفى الأقاليم الواقعة حول بحر الغزال تحول كل ديم خاص بأحد تجار الرقيق مع الزمن الى نقطة عسكرية للمصريين وإلى مركز للإدارة والحكم • كما أصبح مقر قيادة الزبير رحمة - أكبر تجار الرقيق - عاصمة اقليمية وعرف أحيانا باسم ديم الزبير كما عرف باسم ديم سليمان نسبة لابنه •

٥ - الحكم المصرى وقبائل السودان :

لم يستطع الحكم المصرى فى السودان اكتساب مشاعر السكان وولائهم يرغم كونه أقوى من النظم القبلية والدينية فى السودان من حيث القوة المادية والتنظيمات الرسمية ... وفى خلال ستين عاما من الحكم المصرى نشأت بالسودان بيروقراطية منظمة • وفى أغلب الحالات كان عنى رأس الادارة حاكم عام واحد ، وأن طبق أحيانا نظام اللامركزية كما حدث فى عام ١٨٨٢ عندما قسم السودان الى عدة أقسام - وكان القصد من ادخال اللامركزية فى الادارة الجبلولة دون تجرع السلطة والنفوذ فى يد الحاكم العام واضعاف نفوذه ، خاصة وان بعد الخرطوم عن القاهرة قد أثار مخاوف ولاية مصر وتشككهم فيما يتيح ذلك البعد من اغراء لكل طامع ولذات السبب لم يسمح الا لقلّة بالبقاء فترة طويلة فى مراكزهم • وفى خلال المدة بين عامى ١٨٢٥ ، ١٨٨٥ تولى ادارة السودان بالخرطوم ٢٥ حاكما عاما ولم يبق منهم فى عمله لمدة تزيد عن خمس سنوات سوى ثلاثة فقط وهكذا لم يقيم الحكم المصرى بالسودان على أسس راسخة وذلك لأنه قام على مفهوم سياسى انتهازى ومتقلب •

وقد مارس الحكام العامون عملهم فى ظروف صعبة اذ كان عليهم أن يكافحوا حقد سادتهم فى القاهرة وحسد أتباعهم فى السودان وكان العمل فى السودان بالنسبة لغالبيتهم نوعا من النفى الذى لا يخفف من غلوائه

أو من الشراكسة أو الأرمن فانهم جميعا كانوا غرباء بالنسبة الى السودانيين لأنهم يتكلمون اللغة التركية التى لا يفهمها السودانيون وكانت هذه بعينها هى النظرة التى ينظر بها الى مديرى الأقاليم والأقسام برغم أن واحدا أو اثنين منهم كانوا من السودانيين خلال عهد اسماعيل وأيضا باستثناء بعض الأوربيين الذين كلفوا بالعمل خلال ذات الفترة • ويطلق السودانيون على هذه الفترة من تاريخهم اسم التركية السابقة أى فترة الحكم التركى الأول • وقد صب المهدي على موظفى هذه الفترة وجندها اللعنات والتهم ونظر اليهم باعتبارهم تركا لا مصريين • ومع ذلك فلفظ الترك الذى ورد فى المصطلح السودانى لا يجدر بنا أن نخلع عليه معنى قوميا أو لغويا شديد التحديد ، فالحكم الشائى الذى سيطر عليه الموظفون البريطانيون قد عرف باسم التركية الثانية •

وترجع قوة الادارة المصرية فى السودان الى عاملين ، نظامها المالى وقواتها المسلحة • فقد استدعى تنظيم الشؤون المالية منذ البداية الاستعانة بخبرة الكتاب والمحاسبين ولهذا الهدف استقدم بعض الأقباط من مصر • ومن ثم وزع أربعون من أولئك الكتاب وعائلاتهم فى الأقاليم أثناء حكم محمد على •

وعلى عكس الأحكام والمديرين فان هذه الفئة قد استقرت بالسودان واندمج أبناؤها فى البلد الجديد باعتباره موطننا لهم وهذا هو ما يفهم من الرواية التى ذكرها يوسف ميخائيل وهو ابن أحد أولئك الأقباط المهاجرين • اذ تحدث عن وصول مدرس قبطى جديد عندما كان بالمدرسة فى الأبيض وقد رفض هذا المدرس السماح للتلاميذ بالانصراف للاشتراك فى الاحتفالات التى أقيمت لاستقبال غوردون سنة ١٨٧٧ فثار الطلبة واعتدوا عليه بالضرب ولكنه أنقذ وهو يصيح « اتنى أجنبى ولا أفهم طبيعة صبية السودان • لعن الله صبية السودان وكردفان » •

وبمرور الزمن تتابعت هجرات أبناء مصر ، من مسلمين وأقباط للسودان للعمل كموظفين مدنيين أو فى القوات المسلحة وعرف أبناؤهم

الذين ولدوا في السودان باسم المولدين أو المواليد (١) وكون مثل هؤلاء الأفراد المصريين أصلا أو جزئيا - (حيث كان هناك كثير من التزاوج المختلط) خلال جيلين طبقة على درجة كبيرة من الأهمية خاصة في المدن • ويبدو أنه لا يوجد دليل على ابدائهم أى ولاء خاص للإدارة المصرية في عهد المهدي (٢) •

أما الجيش فكان أكثر توفيقا في كسب ولاء المجندين السودانيين والاحتفاظ به وكان معظمهم من نوعين : الجنوبيون والنوباييون وهم عادة من سلالة الرقيق الذين اضطرخوا في سلك الجهادية ثم الشائقية غير النظاميين • وقد حل الأخيرون الى حد كبير مكان الجنود غير النظاميين الذين جاءوا من الخارج للسودان خلال فترة الفتح • وعندما تطورت أزمة المهدي أبدى الجنود من كلا الفريقين اخلاصا كبيرا للحكومة الخديوى ، في الوقت الذى كانت فيه قضيتها ميثوسا منها ومن ذلك قيام الجهادية بثورة في الأبيض خلال فترة متأخرة أثناء حكم الخليفة التعايشي •

وقد قضى الفتح المصرى على سلطنة الفونج وعلى الممالك المستقلة القائمة على المجرى الرئيسى للنيل كما أزاح أسرة الجعليين الحاكمة • إلا أنه لم يوجد اتجاه عام للقضاء نهائيا على النظام القبلى أو حتى لتغيير الرابطة القبلية أو اضعافها • وبالنسبة للبدو الرحل على وجه الخصوص اتبع نوع من الحكم غير المباشر أصبح بمقتضاه شيوخ تلك الفئة عمالا للإدارة المصرية ووكلاء عنها في جمع الضرائب • وهكذا وجد بجانب الإدارة الجديدة نظام قديم أكثر اتفاقا مع مشاعر السودانيين وكان الاحساس بالولاء للقبيلة في ذلك الحين أقوى بكثير من الولاء لشيخها •

(١) مواليد جمع مولود (في السودان) وقد أطلق اسم مولد (وجمعها مولدون) المستقى من نفس الأصل - في العصور الوسطى على المسيحيين الأسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام وعرفوا في الأسبانية باسم *Mulaares* •
(٢) إذا صح ذلك فعلى مرجع سلبيتهم هو قلة عددهم وحرمانهم من السلاح مع وجودهم وسط أغلبية ساحقة تتلمس الفرص لإبادتهم الأمر الذى جعل مقاومتهم أو ثورتهم شيئا خاليا من الامكانيات •

أما سلطة شيخ القبيلة فاستندت الى شخصيته كرجل وقائد أكثر منها الى تعزيز الادارة الغريبة التي يعتبر هو وكيلها أو عميلها - هذا اذا استثنينا الشائقية الذين اندمجوا مع الفاتحين في سياستهم واتجاهاتهم بمحس ارادتهم الكاملة - هذا بينما نظرت القبائل الشمالية الأخرى الى عهد الفونج السابق بكثير من الحسرة ورحبت بأى بادرة ضعف تبدو على الادارة المركزية وتبشر بعودتهم الى حريتهم القديمة ولو جزئيا . ومن هذا أن زعيما لقبيلة الغدايات دفع للاشتراك في مؤامرة سياسية ضد حاكم كردفان قبيل ظهور المهديّة على أساس تذكيره بأنه من سلالة الفونج ومن أبناء السلاطين السود ملوك سنار (١) وغلب على موقف السودانين في الشمال الاحساس بخيبة الأمل بالنسبة الى ولاءاتهم السياسية والحسرة على ما فقدوه من حرية قبلية . وكان الحكم المصري مكروها ليس فقط بسبب أخطائه بل أيضا بسبب طبيعته حيث أنه كان حكما أجنبيا مستترا ويتصف بالتنظيم الدقيق الذي لم يؤلف . ويرتبط اندلاع المهديّة بهذا السخط الشديد . هذا برغم أن الشكل الذي اتخذته الثورة أثبت في النهاية أنها أشدّ عداء للقبلية من الحكم المصري الذي سبقها أو الحكم الثنائي الذي تلاها .

٦ - الطرق الدينية :

كان للسودانيين ولاء ثالث أقوى حتى من العاطفة القبلية وأكثر حيوية بكثير من أى تبعية لخدوي مصر . وكان ولاؤهم الثالث للإسلام . وقد يبدو غريبا أن يكون هذا هو الدافع للثورة ضد حكومة اسلامية . ولكن هناك هوة كبيرة تفصل بين الاسلام كما يعرفه الجهاز الرسمي للادارة المصرية وبين الاسلام كما يفهمه السودانيون أنفسهم . يرجع هذا الفارق الى الطابع المحلي الذي اتخذته الاسلام أثناء انتشاره منذ عهد

(١) يوسف ميخائيل (١) - رقم ٧ .

الفونج • فقد انتشرت العقيدة على أيدي رجال أنقياء (١) يتبعون إحدى الطرق الدينية المتعددة التي كانت موجودة في جميع أنحاء العالم الاسلامي وهذه الطرق هي المظهر التقليدي للتصوف أو الروحانية الاسلامية • وهي تمثل اتجاهها دينيا بنى في القرون الثلاثة الأولى للهجرة على الزهد والتأمل العميق (٢) وقد حاول الغزالي (المتوفى في عام ٥٠٥ هـ - ١١١١ م) الربط بين الصوفية والعقيدة الأصلية • ولكن غلب على الصوفية سواء قبل عهد هذا المفكر العظيم أو بعده ، التطرف العاطفي في الطقوس والانحراف (الجانبي) في الفكر • ومن ثم كانت هناك دورات متلاحقة من الصراع بين مشايخ الصوفية وعلماء الدين الذين درسوا أسس الفكر الاسلامي الصحيح •

وقد قامت هذه الطرق بدور اعلامي فعال على أطراف العالم الاسلامي ويرجع انفضل في نشر الاسلام بين الشعوب التي تقيم عبر الصحراء لجهود أتباع هذه الطرق (٣) وتم هذا الانتشار بجهود فردية لهم تعزز بأى تنظيم من قبل الطرق التي يدينون لها بالتبعية • وبرغم ذلك فإن جهود أولئك الأفراد لم تتمخض فقط عن مسلمين جدد وإنما أيضا عن أتباع لطرق معينة • وقد بلغ ما أصابه بعض أولئك الدعاة من نجاح

(١) ورد تاريخ حياة كثير من هؤلاء في « الطبقات » لمحمد النور ود ضيف الله وقد كتب في أوائل القرن التاسع عشر وهناك طبعتان أخريان لهذا الكتاب قام عليهما إبراهيم صديق وسليمان داود منديل (القاهرة ١٩٣٠) وهناك مقتطفات منه في :

Mc Michael, Arabs in Sudan, ii, 217-323; Hilderson, Tabakat waḍ Dayf Allah-Studies in the lives of the Scholars and Saints, SNR, vi/2/1923, 191-230, and Trimingham, Islam (See Index).

(٢) عن معالجة قصيرة للتصوف ، انظر دائرة المعارف الاسلامية (١٩٥١) (E.1)

Arberry, Sufism, An account of Mystics of, Islam London 1930.

(٣) عن انتشار الاسلام في افريقيا انظر :

T. W. Arnold : The Preaching of Islam London 1896.

حيث نجد دراسة تتعلق بالطرق الموجودة في القرن ال ١٩ وخاصة ص ٢٥٨ • أما عن الطرق السودانية فانظر :

Trimingham : Islam, especially pp. 187-241.

في ميدان نشاطهم الحد الذي دفعهم الى انشاء طرق جديدة أو على الأقل فروع من الطرق الأصلية وأن تكن لها ذاتيتها الخاصة • ووجد أولئك الدعاة ميدانا لنشاطهم ودعوتهم لا بين الوثنيين فقط بل أيضا بين بسطاء المسلمين •

وقد اعتبر المعلمون الدينيون الناجحون قديسين أولياء ونسبت لهم المعجزات وقد كانوا موضعاً للتقديس بسبب ما رؤى من كونهم مصدرا للبركة التي كان من الممكن انتقالها بالوراثة أو بالاتصال الروحاني (١) ومن ثم أصبحت مدافنهم مزارات يحج إليها ، واكتسبت ممتلكاتهم صفة المخلفات الدينية كما انتقلت رئاسة الطريقة بعدهم بالوراثة فرييس الطريقة أو رئيسها المحلي عرف بالشيخ واتباع الطريقة في كل محلة أو جهة كانوا تحت اشراف وكيل لها يعرف باسم الخليفة • أما الأعضاء في الطريقة فيعرفون باسم الدراويش (وهي الجمع العربى للكلمة الفارسية درويش ومعناها الأصلي محتاج) ويطلق في السودان على المعلم الدينى من أولئك الذين ساهموا في نشر الاسلام اسم فقى (٢) وهى النطق العلمى للفظ فقيه الذى يعنى الشخص المتفقه فى أصول الدين ومع ذلك فان السودانيين يستعملون فى جمع كلمة فقى كلمة أخرى من أصل آخر مخالف تماما وهى فقرا ومفردها فقير وهو المعنى العربى المساوى لدرويش • وهذا الخلط اللغوى يبين الصلة القوية بين التعليم الدينى والتبعية لاحدى الطرق فى السودان الاسلامى • ومن الاستعمالات السودانية الأخرى ذات الأهمية استعمال كلمة خلوة وهى تعنى فى العادة مكانا منعزلا للتصوف ودراسة القرآن •

ومن أمثلة الوراثة فى الأخذ بطريقة من الطرق ما اتبع فى المجذوبية أو المجاذيب التى تطورت فأصبحت مجموعة شبه قبلية • وكان مؤسسها جعلى اسمه حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣ - ١٧٧٦) الذى التحق

F. Westernmark : Pagan Survivals in Muhammedan (1)
Civilization London 1933 pp 87-144.

(٢) لدراسة المعنى الواسع لكلمة فقى انظر : Trimmingham p. 141

خلال احدى زياراته لمكة بالطريقة الشاذلية (١) وعند عودته نشرها بين أسرته وأصبح مقره في الدامر مركزا دينيا هاما للجعليين وغيرهم من القبائل الممتدة على المجرى الرئيسى للنيل .

وقد تطورت فشكت جماعة صغيرة ذات استقلال ذاتى يحكمها فقهاء (جمع فقى) المجاذيب (٢) . وفى أثناء الحكم المصرى هرب محمد المجذوب ١٧٩٦ - ١٨٣٢ - وهو خفيد مؤسس الطريقة - الى مكة حيث وقع تحت تأثير أحمد بن ادريس أحد الدعاة الذين سناقش أهميتهم فيما بعد . ولما عاد للسودان فى سنة ١٨٣٠ نشر تعاليمه فى شرق السودان . وعندما اندلعت الثورة المهدية كان لهذه الطريقة تأثير كبير بين البجة والجعلين وانضم وكيلها أو شيخها فى سواكن الطاهر الطيب المجذوب (١٨٢٢ - ١٨٩٠) الى القائد المحلى للمهدية عثمان دقنة .

وقد شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر حركة أحياء اسلامية ولكنها لم تكن حركة واحدة تتصف بوحدة الباعث أو الاتجاه يعكس حركة الاصلاح فى أوروبا وتبنى هذه الحركة عدد كبير من الأشخاص الذين أسسوا عددا كبيرا من الحركات المنظمة التى هدفت الى العودة بالاسلام الى نقائه الأول وتطهيره من الشوائب الالحادية والبدع التى لحقت به . وكانت الوهابية (٣) التى تركت أثرا قويا وفعالا فى العالم الخارجى هى مظهر هذا الاحياء كما نشر معلم آخر من أصل مغربى هو أحمد ابن ادريس الفاسى (١١٧٣ - ١٢٥٣ ، ١٧٦٠ - ١٨٣٧) موجة منفصلة

(١) تأسست الشاذلية فى خلال القرن الثالث عشر وتفرعت عنها كثير من الفروع .

(٢) هناك وصف للمجذوبية فى الدامر قبل الفتح المصرى كنوع من الحكم الدينى فى كتاب Burckhardt, Travels pp. 260-270

ويفرق المؤرخ هل : Hill (فى كتابه Biographical Dictionary, 265 بين محمد المجذوب ، المؤسس ، وبين ابنه حمد المجذوب مؤسس الدامر وقد أخذت بالعرض الذى قدمه ترمينجام فى كتابه . Islam, 224 - 6 (٣) عن التاريخ السياسى للوهابية والمملكة العربية السعودية الحديثة التى نشأت عنها انظر H. St. John philly : Sa, audi Arabia Lond 19٦٥

من النشاط (١) وكان أحمد بن إدريس الفاسي تابعا لاحدى الطرق ولكنه اتخذ بظانة خاصة به من التلاميذ في مكة ودخل في نزاع مع علماءها وفي عام ١٨٢٧ / ١٢٤٣ لجأ الى الوهابيين في عسير * ورغم أن طريقته تفككت بموته إلا أن اثنين من تلاميذه هما محمد بن علي السنوسى ومحمد عثمان الميرغنى أسسا طريقتين أصابتا كثيرا من التوفيق في أفريقيا *

وقد اتخذت الطريقة السنوسية نسبة الى محمد بن علي السنوسى مركزا لدعوتها ما يعرف الآن باسم ليبيا واستطاعت القيام بحركة احياء اسلامية بين بدو الصحراء الرحل * ثم امتد أثرها الى شعوب ما وراء الصحراء الكبرى وان لم تتغلغل في السودان المصرى رغم أن وجودها كان معروفا تماما هناك (٢) ومن ناحية أخرى أثر محمد عثمان الميرغنى بشكل بارز على التاريخ السودانى * وقد ولد في الحجاز في عام ١٧٩٣ ، وخلال زيارة له للسودان في ١٨١٧ لأغراض متعلقة بنشر الدعوة تزوج من دنقلة وبعد وفاة أحمد بن إدريس عمد الى نشر دعوته في مناطق مختلفة بواسطة أفراد من أسرته * وكان داعيته في السودان ابنه الحسن الذى أصبح مع وفاة محمد عثمان في سنة ١٨٥٣ رئيسا للطريقة المتمتعة بالاستقلال الذاتى هناك وقد أعلن محمد عثمان أن طريقته تشتمل على مضمون الطرق الأخرى وتكملها ومن ثم أطلق عليها اسم « خاتم الطرق » ورئاسة الطريقة وراثية في الأبناء المباشرين لمؤسسيها * وفي أيام الحسن ثبتت أقدامها في شمال السودان وشرقه وأصبحت منافسا للمجذوبية ومع أنه يطلق عليها أحيانا اسم الميرغنية فان أفضل ما تعرف به هو الختمية (٣)

(١) ويختلف المرجعان التاليان في تحديد تاريخ وفاة أحمد بن إدريس (١٨٣٥ أنولد) والطريقة التى اتبعها في البداية .

Arnold : Preaching of Islam p. 267.

Trimingham Islam p. 229.

(٢) عن السنوسية انظر

E.E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica. Oxford 1949.

(٣) المفروض لغويا كتابتها (خاتمية) اشتقاقا من خاتم الطرق ولكن ختمية هى الكلمة الدارجة التى جرى العرف على استخدامها سواء في التعبير والكلام أو الكتابة في السودان . وهناك شرح عن هذه الطريقة في كتاب .

Trimingham : Islam p. 231-5.

وأطلق اسم الختمية أيضا على مقر رئاسة الطريقة التي أنشئت بجوار
كسلا في عهد الحسن الذي أعقبه ابنه محمد عثمان الثاني بعد وفاته
سنة ١٨٦٩ •

وكان من أوائل أنصار الختمية اسماعيل بن عبد الله (١٧٩٣ -
١٨٦٣) الذي جاء أبوه أصلا من دنقلة واستقر كتاجر في كردفان • وفي
سنة ١٨٤٢ صرح محمد عثمان الأول لاسماعيل هذا بإنشاء طريقة مستقلة
عرفت بالاسماعيلية اقتصر نفوذها دائما على كردفان وعند وفاة اسماعيل
خلفه ابنه محمد المكي الذي أصبح مع الأيام من أنصار المهدي بينما
انضم ابن أصغر اسمه أحمد ولقب بالأزهري - لدراسته بالأزهر -
للحملة التي أرسلتها الحكومة المصرية لمقاتلة المهدي في سنة ١٨٨١
وقتل في آبا •

أما المهدي نفسه فكان في البداية عضوا في الطريقة السمانية (١)
ومؤسس هذه الطريقة هو محمد بن عبد الكريم السمانى (١٧١٨ -
١٧٧٥) كان من أتباع الطريقة الخلوتية ومن تلاميذ مصطفى كمال الدين
البكرى الذى دخلت الخلوتية في عهده خلال القرن ال ١٨ في دور
الانتعاش والانتشار • وقد استقر السمانى نفسه في المدينة المنورة ودخلت
السمانية الى السودان حوالى عام ١٨٠٠ على يد أحمد الطيب البشير
الذى أصبح من أتباعها خلال أدائه لفريضة الحج في الحجاز • وحظي
- الشيخ الطيب - كما يطلق عليه عادة بنجاح كبير في نشر طريقته
بالجزيرة وأصبح حفيده محمد شريف نور الدايم أول المشايخ الصوفيين
الذين تتلمذ محمد أحمد على أيديهم •

وبرغم أن هذه الطرق الجديدة التى نمت خلال القرنين الثامن عشر
والتاسع عشر قد قامت باعتبارها حركات اصلاحية الا أن النمط التقليدى

(1) Trimmingham : Islam pp 226-8.

هناك عرض لاصول السمانية يختلف عما اورده ترمينهام في كتاب.

C. Depont & X Coppolani : Les Confreries religieuses musul-
manes :Algers 1897 pp. 378 - 9.

للولاء سرعان ما استعاد تأثيره وعادت النظرة الى مؤسسى الطرق وسلالتهم على أنهم أولياء وقديسين . وفى السودان أصبحت الختمية جزءا لا يتجزأ من الاسلام المحلى وبدأت نفس الظاهرة فى جهات أخرى كما هو الحال بالنسبة الى السنوسية فى ليبيا والدرقاوية فى بلاد المغرب (١) . وكان من بين أهداف مؤسس المهديّة احلالها مكان الطرق التى انحلت . ولكن المهديّة الجديدة فى الوقت الراهن تتشابه كثيرا مع الطرق الأخرى سواء فى أسلوب الممارسة أو التفكير ، كما أنها قد قبلت بوجود هذه الطرق .

واتصفت سياسة الحكومة المصرية نحو الاسلام فى السودان بأنها ذات طابعين فمن ناحية نجد أن الفتح قد أمعن فى ربط السودانين بالاسلام الأصلي ونظمه . فالشريعة الاسلامية لم تلعب فى السابق دورا كبيرا فى الحياة السودانية ، وذلك رغم اعتناق السكان للمذهب المالكي من الناحية الاسمية (٢) فالعادات القبلية والمحلية كانت فى معظم النواحي هى القانون الفعال . وقد أدخل المصريون نظاما منتظما للمحاكم الدينية التى كانت تطبق الشريعة وفقا للمذهب الحنفى ، وبُنيت المساجد واختير لها علماء مدربون بينما أرسل المبعوثون من السودان الى القاهرة ليدرسوا بالأزهر حيث خصصت لهم اقامة خاصة فى رواق السنارية، ولعب بعض أولئك الأزهرين دورا فى الحركة المهديّة . ولا شك أن ظهور طبقة من العلماء المدربين قد أضعف بمرور الزمن مكانة طبقة الفقهاء (جمع ققى)

Evans-Pritchard : *Sannu* p. 69.

(١)

E. Douties : *Notes sur l'islam maghrébien*, Paris 1900
p. 5 - 6.

Harris : *Tafle* 1859, 299 - 300 S. G. F. Trimingham :
Islam p. 240

(٢) كلمة مذهب فى الاسلام تستخدم للتعبير عن المذاهب السنية الأربعة وتدل تبعية السودانين للمذهب المالكي الى أن علاقتهم بشمال أفريقيا حيث يسود هذا المذهب أكثر من علاقتهم بمصر السفلى التى تدين بالمذهب الشافعى . أما المذهب الحنفى الذى أدخله الفتح المصرى للسودان فكان هو المذهب الرسمى فى شتى ربوع الامبراطورية العثمانية .

القديمة . وذلك رغم أن ضعف جاذبية التعاليم السنية في مقارنتها بالمحرك العاطفى لدى الطرق قد أوضحه فيما بعد نجاح المهديّة ذاتها .

أما الطابع الثانى للسياسة المصرية فهو الافادة من زعماء الدين - مثلهم مثل زعماء القبائل - كأدوات للحكم وقد كانت الأسرة الميرغنية موضع تفضيل خاص وارتبط الختمية بالحكم المصرى فى السودان بروابط وثيقة . ولكن هذا الاعتراف لم يلبث أن أصبح سلاحا ذا حدين عندما ارتبطت المكانة الشخصية للرؤساء الدينيين بمقادير الادارة المصرية . وقد قدر للشورة المهديّة أن تزيج عن السودان الحكم المصرى وسلطان زعماء القبائل ونفوذ شيوخ الطرق . ولكن المهديّة كما سنرى - ورثت عن هذه النظم أو القوى الثلاث صفات تبدو بعض ملامحها الحيوية الكبيرة حتى الوقت الحاضر .

٧ - المهديّة كفكرة :

اتخذت فكرة المهدي فى العالم الاسلامى مظهرين رئيسيين (١) فالشيعة يعتبرون المهدي هو ذاته الامام المختفى الذى يؤمنون بتتزهه عن الخطأ وعودته المرتقبة . ولا يوجد ما يدعوننا للانشغال بهذا الاعتقاد حيث لا يوجد دليل على الارتباط المباشر بين المذهب الشيعى والاسلام فى السودان ، كما أن محمد أحمد لم يحاول أن يدعى أنه الامام المختفى الذى عاد ليحكم المجتمع الاسلامى (٢) . أما جماهير أهل السنة فهم يؤمنون بالمهديّة وخاصة خلال الأزمات ولكنها لم تلتصق بأصول عقيدتهم كجزء أساسى منها ولعل من الأصوب أن تعتبر المهديّة وليدة الجمع بين أفكار وآمال أكثر منها نظاما عقائديا منظما ومترابا . واذا تمعدنا تحليل المهديّة أو تجزيئها الى مكوناتها الأصلية أضربنا بطبيعتها ومضمونها لأنها تمثل أساسا مجموعة مترابطة من العوامل المترتبة بعضها على البعض

(١) انظر مقال عن المهدي بقلم D. B. Macdonald : EI, 111-115

(٢) جاء فى كتاب ونجث عن المهديّة ص ٥ أن محمد أحمد كان مهديا

شيعيا ولكن لا يوجد ما يثبت هذا القول

الآخر وتختلف هذه المجموعة من حيث محتواها وقوتها وفقا لاختلاف الزمان والمكان .

وإذا ما وضعنا ذلك موضع الاعتبار أمكننا تحديد ثلاث نقاط رئيسية تبرز الطابع العام للمهدية السنية . فكلمة المهدي تعنى الفرد الملهم أى الرجل الذى يوجهه الهام الهى معين ويملك أسراراً عميقة . والمهدى هو الامام أى رأس المجتمع الاسلامى ودوره هنا هو إعادة الحكم الصالح أو بالتعبير القديم « أن يملأ الدنيا حقاً وعدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً » . ويربط ظهور المهدي باقتراب نهاية العالم التى ترتبط فى المعتقدات الاسلامية الخفية بالمجئ الثانى للمسيح وقد حددت المهدية فى السودان هذا المجئ الثانى بظهور المهدي وكما سئرى شاهد العصر الذى أعقب وفاة محمد أحمد ظهور أكثر من شخص ، ممن ادعوا أن كلا منهم هو النبى عيسى .

وقد نجحت المهدية السنية فى شمال افريقيا حيث ساهمت العوامل التاريخية فى اضافة بعض الأفكار اليها ومما له مغزاه بوجه خاص الدور البارز الذى قام به المهدي محمد بن تومرت مؤسس حركة الموحدين الذى ادعى فى المغرب أنه المهدي وذلك فى عام ١٢١٢ وهو يشبه محمد أحمد فى السودان فى أنه بدأ باعتباره مصلحاً فى مجتمع اسلامى متواكل ينادى باطراح البدع والعودة الى الفطرة فى الاسلام . وهناك أوجه أخرى للتشابه بين الحركتين ؛ فكلاهما أسس حركته فى الأطراف الاسلامية بافريقية عند نقطة الالتقاء بين العرب والحضارات المحلية ووجه كلاهما جهده ضد حكومة اسلامية ، وكلا القائدين اتخذ لنفسه لقب مهدي كوسيلة لتقوية مركزه فى وجه الحكومة الموجودة وفى كلا الحالتين قام وراء الحكومة الاسلامية المهددة مباشرة بهذه الحركات خطر المسيحية واحتمال تقدمها على حساب الاسلام .

وكانت حركة الاسترجاع المسيحى تحرز نجاحاً تلو الآخر فى اسبانيا فى القرن الثالث عشر ، على حين أن الضغط الأوروبى كان ملموساً فى مصر وفى الامبراطورية العثمانية ككل خلال القرن التاسع عشر .

ومن ثم فإم يكن من الغريب أن يعتبر المهدي السنّي بطلا إسلاميا في مواجهة الكفرة وفي خلال احتلال بونايرت لمصر ظهر مهدي آخر في مصر السفلى لفترة قصيرة • وفي السودان دخل محمد أحمد في نضال مع قوات بتودها أوريون أو يتكون أفرادها من أوريين ومسيحيين ومن ذلك بعثة هكس وغوردون وبعثة الانتقاد • ومع ذلك فيبدو أن المهدي قد اعتبر الأتراك هم الكفرة الرئيسيين وأنه قد وجه جهاده ضد هؤلاء المسلمين المرتدين (١) •

ولا يجب أن يدعونا اتخاذ محمد أحمد للقب المهدي إلى التغاضي عن التشابه الأساسي بين رسالته والنشاط الاصلاحى الذى سبق أن أشرنا إليه اذ داعت شهرته قبل عام ١٨٨١ لتقواه وزهده وهى الصفات التى كان يمكن أن تؤدى به في ظروف أخرى إلى تأسيس طريقة جديدة متفرعة من السنانية • بل ان تطرف دعايته وأعماله كان له سوابق في القرن الثامن عشر • فالحركة الوهابية جمعت بين الحساس لتطهير العقيدة واضطاع القوة المسلحة لمقاومة الخصوم • ولعل شبا أقوى بالمهدية وجد في الحركة التى قامت بين الفولاني تحت رئاسة عثمان دان فوديو (١٧٥٤ - ١٨١٤) في أطراف العالم الاسلامى فيما يعرف باسم السودان الجغرافى • اذ بدأ عثمان كمحمد أحمد فيما بعد كمصلح للعقيدة رباعث لها ، ومثله أيضا اضطر للهجرة هربا من أعدائه وتجميعا لأنصاره • وأعلن مثله الجهاد وأنشأ حكومة اسلامية في افريقيا ما وراء الصحراء (٢) • وهكذا نكون قد عرضنا للخلفية السودانية والاسلامية لمحمد أحمد والمهدية • والآن نتقل إلى مناقشة الأسباب الخاصة التى أدت إلى ظهور هذه الحركة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر باعتبارها ظاهرة خاصة •

(١) ثم يبعث المهدي كما فعل الخليفة فيما بعد دعوة تبشيرية للملكة فيكتوريا ولكنه أرسل عدة كتب لغوردون باعتباره ممثلا لسلطة الخديو ومدافعا عن الخطوط أكثر منه مسيحا • أما كل رسائله الأخرى التى تتضمن تعليمات وانذارات فيبدو أنها قد وجهت إلى مسلمين •

E.W. Bovill : *Caravans of the Old Sahara* London 1933 (٢)

pp. 225 - 230.

(م ٣ - المهدية)

الفصل الأول

« مقدمات المهدية »

١ - عوامل ظهور المهدية :

يمكن لحركة ثورية أن تنجح عادة اذا انتشر السخط بين أفراد المجتمع عامة ولم يقتصر على طبقة واحدة أو منطقة محدودة وبحيث يكون صادرا عن مشاكل رئيسية وليس عن أخطاء سطحية أو فورة مؤقتة • ويجب ثانيا أن يقترن هذا باحساس واضح بما عليه الحكم القائم من ضعف مادي أو معنوي لا يتيح له القدرة على اخمد الثورة فور قيامها • ولا بد ثالثا من وجود جيش ثوري يقوم على أفراد على أتم الاستعداد لاستخدام القوة لتحقيق أغراضهم وقادرين على ذلك • ورابعا يحتاج الأمر الى قيادة ثورية عليا تؤدي وظيفة مزدوجة هي نشر الدعاية التي تذكي السخط وتشره في حين تقترح نظاما اجتماعيا وسياسيا جديدا وتنظم النشاط الثوري الذي تحضره هذه الدعاية • وهدف هذا الفصل تحليل أحوال السودان المصري في الفترة السابقة مباشرة لقيام المهدية وايضاح الصورة التي تحققت بها هذه المتطلبات •

وقد ذكر « شقير » أربعة عوامل رئيسية لقيام الحركة المهدية ترجع جميعا الى أخطاء في الحكم • وأول هذه العوامل العنف الذي اتصف به الفتح المصري الأول وعلى وجه الخصوص ما كان من أعمال التخريب التي قام بها الدفتردار في شندى مما ولد الرغبة في الانتقام •

وثانيا الضرائب غير العادلة التي لم يعتد عليها السودانيون - وكانت هذه الضرائب مما كان يجب بالقوة وبصورة مبالغ فيها بحسب أهواء القائمين بتحصيلها على مختلف المستويات •

وثالثا : محاولة الحكومة القضاء على تجارة الرقيق مما أدى الى

توجيه ضربة الى مورد هام للثروة والى الأساس الذى يقوم عليه الاقتصاد المنزلى والزراعى فى البلاد •

ورابعا : ما اختصت به الحكومة قبيلة الشافقية وجماعة الختمة من امتيازات أثارت عليها حقد الجماعات الدينية والاجتماعية الأخرى (١) •

وهذه العوامل تشتمل على جميع أسباب السخط الذى أدى الى تزايد نفمة السودانيون على حكومة أجنبية • على أن هذه العوامل نم تكن لها نفس الفاعلية من حيث مسئوليتها عن قيام الحركة المهدية • فردود الفعل فى السودان للعاملين الأول والثانى كانا قد ظهرا بالفعل كما أشار اليهما فقد هرب الملك نمر وأسرته من شندى الى حدود الحبشة أمام انتقام الدفتردار وهناك انضم اليه والى سلالته كثير من الناقمين وأسسوا على الحدود مملكة ظلت تناوش المصريين لنحو ٥٠ عاما الى أن صدر عفوا عام عن بقى من عشيرة نمر على قيد الحياة • أما النظام المصرى لجباية الضرائب بما صحبه من عنف واغتصاب فكان اشكالا مستديما من النوع الذى يمكن بلا شك أن يوضع فى مقدمة العوامل المثيرة للثورة ولكن الافلات منه كان فى الغالب ممكنا عن طريق هجر ضحاياه لبيوتهم والهرب الى جهات بعيدة يصعب اللحاق بهم فيها • وأما الرابع من العوامل التى ذكرها شقير فيعتبر من أمثلة السفه الادارى (ولو أنها فى الواقع كانت تطبيقا ناجحا لمبدأ فرق تسد) ولكن يصعب علينا أن نوافق على ادراجه باعتباره من العوامل الرئيسية لنشوب ثورة •

وكانت محاولات الحكومة المصرية للقضاء على تجارة الرقيق يفوق العوامل المباشرة الأخرى فى اثارته للسخط لأن هذه المقاومة أثرت على جميع طبقات المجتمع وفى جميع أنحاء البلاد • ورغم قيام ولاية مصر الأول ببعض الجهود المتفرقة لمقاومة تجارة الرقيق وتجاره سابقا الا أن الجهود

(١) شقير : جغرافية وتاريخ السودان القديم والحديث ، طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ ح ٣ ص ٦٣١ - ٦٣٦ ، ص ١٠٩ - ١١٢ •

المتواصلة والمركزة قد بذلت في عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) وبمبادرة منه فعند توليه الحكم كانت أبرز مناطق تجارة الرقيق تقع في حوض النيل الأعلى وبحر الغزال وفي هاتين المنطقتين كانت الشركات الكبرى التى تأسست فى الخرطوم تبشر نشاطها تحت اشراف العرب » وهى كلمة عامة قصد بها السودانيون (الدناقلة بالذات) والمصريون ومنهم القبط والسوريون والترك » وقد منحت الحكومة لهذه الشركات وضعا تجارية فى أماكن معينة • وكانت تصحب جمع سن الفيل والتجارة المشروعة غارات لجمع الرقيق وأصبح التجار بعد قليل الحكام الفعليين للمناطق التى اشتغلوا فيها بالتجارة •

ويمكن تقسيم محاولات اسماعيل للقضاء على تجارة الرقيق الى ثلاث مراحل تفصل بينها السنوات ١٨٦٩ ، ١٨٧٧ وقد بدأ فى عام ١٨٦٥ محاولات للسيطرة على هذه التجارة بإنشاء نظام للتفتيش على النيل الأعلى وصادر حاكم السودان قوارب تجار الرقيق كما أنشأ مجموعة من النقاط العسكرية على النيل الأعلى تتبع عاصمة إدارية فى فاشودة وفرض ضريبة رأس على كل العاملين مع التجار ، مما أثار كثيرا من الضيق بين تجار الرقيق الذين فرض عليهم عبء هذه الضرائب • ومع أن هذه الإجراءات حدثت الى حد ما نشاط التجار وصائدى الرقيق الا أنها لم تقض عليه نهائيا وسرعان ما تدرب التجار على تحاشي الدوريات الحكومية •

وفى نفس الوقت بذلت محاولة جديدة لتجريد التجار من زراعتهم وذلك عن طريق فرض ضريبة جديدة • وقد أصاب هذا الاجراء بعض النجاح ، ولكن لما كانت الحكومة لجأت الى تحويل ملكية الزريبة التى لا تدفع الضريبة المفروضة عليها الى تجار آخرين فان مدى جدية هذا الاجراء موضع للشك وذلك رغم أن شروط عمليات التأجير كانت تحرم تجارة الرقيق •

وما حل عام ١٨٦٩ حتى كانت سياسة اسماعيل أصابت نجاحا حقيقيا فى منطقة النيل الأعلى القريبة من فاشودة ولكن الى الجنوب من هذه

المنطقة وفي بحر الغزال استمرت الغلبة لتجار الرقيق دون منازع تقريبا .
وكان مفتاح الجنوب يقع في محطة عند كرو الواقعة جنوب السد حيث
كان محمد أبو السعود المصرى يقيم ممثلا لوكالة العقاد - التى كان
حماه قد أسسها هناك . أما بحر الغزال بما فيه من سلسلة المحطات
التجارية فكان تحت سيطرة الزبير رحمه منصور التاجر الجعلى . وأدت
القيود التى وضعت على تجارة الرقيق فى مناطق شمال السودان الواقعة
تحت الادارة المصرية الى اتخاذ التجار لطريق جديد من النيل الأعلى الى
بحر الغزال ودارفور مارا ببلاد بقارة الرزيقات .

وفي هذه المرحلة قرر اسماعيل أن يسيطر نهائيا على منطقتى بحر
الغزال وبحر الجبل أو النيل الأعلى فيما بعد التقائه ببحر الغزال لأن هذا
كان يضيف اليه أملاكا جديدة فى السودان ويسهل عليه عملية القضاء
على تجارة الرقيق . ولكن حملة أرسلت الى بحر الغزال بقيادة محمد
الهلالى (١) أصيبت بهزيمة غير متوقعة . وعهد اسماعيل بقيادة حملة
بحر الجبل الى سير صموئيل بيكر . ولكن هذا الاختيار قوبل من
الضباط المصريين بكثير من التبرم وعدم الرضا لأنه يشكك فى كفاءتهم
واخلاصهم ويؤكد شكوكهم فى أن لبريطانيا أطماعا فى السودان .
وبالإضافة الى ذلك فقد أدرج القضاء على تجارة الرقيق فى التعليقات التى
أعطيت ليكر باعتباره من أهداف الحملة . وبصرف النظر عن الصعوبات
العملية فى تحقيق هذا الهدف فإن الرق كان نظاما مسموحا به فى
الاسلام ولهذا آثار تعيين مسيحي للقضاء على هذه التجارة سخطا دينيا
عاما بين السكان بوجه عام .

ولم تكن طباع بيكر مما تمكنه من توجيه الحملة بصورة مرضية .
فقد كان على قدر عظيم من الجرأة والشجاعة . ولكن كان يفتقر تماما
الى الحنكة والمرونة ، وقد ظن أن باستطاعته محو تجارة الرقيق بسلسلة
من الاجراءات الصارمة - وهى سياسة كان من المحتمل أن تصيب بعض

(١) ورد هذا الاسم فى كتاب شكرى : الخديو اسماعيل ص ١٥٢
محمد البلالى .

النجاح لو أن فترة قيادته قد مددت الى أجل غير مسمى أو لو أتيح لقواته تفوق لا شك فيه . ولكن الذى حدث هو أنه لم ينجح الا فى كسب عداء سلطات الخرطوم ودفع التجار الى التآمر ضده كما أفسد ثقة قبائل الجنوب به . ووضعت الحملة فى وضع مؤسف حين كانت تدير شئونها يوما بعد يوم دون تخطيط بعيد المدى وحين انزلت الى الدخول فى حروب قبلية وأخذت فى الاستيلاء على الغلال . وكانت أهم نتائج ذلك هى اقامة قليل من النقاط العسكرية وقيام تحالف (غير مقدس) بين تجار الرقيق وقبائل الجنوب فى مواجهة التدخل المتعثر من جانب الادارة فى السياسات والمصالح المحلية .

غوردون فى السودان : ١٨٧٤ - ١٨٧٩ :

على أن الخديوى تابع هدفه الخاص باخضاع بحر الجبل لادارة منتظمة والقضاء على تجارة الرقيق . ولما كان لا يزال يعتقد بأن تحقيق هذا الهدف على أحسن وجه لا يتأتى الا على يد رجل أوربى فانه عرض حكم المديرية الاستوائية فى سنة ١٨٧٣ على تشارلز جورج غوردون . وكانت هيئة أركان غوردون تضم أمريكيان وايطاليا وفرنسيا وثلاثة من البريطانيين أصبحوا فيما بعد خمسة . أما الايطالى فكان رومولو جيسى (Remolo - Gessi) الذين تولى فيما بعد ادارة بحر الغزال كما أخذ غوردون معه الى الجنوب أوريبا آخر هو شنيترز (Schnitzer) الذى عرف باسم أمين باشا وأصبح مديرا للاستوائية من ١٨٧٨ - ١٨٨٩ . وهكذا صحت امتداد الحكم المصرى والاجراءات التى اتخذت ضد تجارة الرقيق زيادة عددية فى الموظفين الأوربيين وهذا قلل من مكانة الموظفين المصريين بل والحكومة الخديوية فى نظر السودانيين وأثار فى نفس الوقت غيرة المصريين وكرههم لحكم ثقيل يسنده الرأى العام الأوربى (وبخاصة الانجليزى) .

وفى الواقع لقد عمل غوردون بمفرده فى السودان لا يسنده الا سلطة الخديوى البعيدة وهيبة القوة البريطانية - ولم تكن هذه الأخيرة الا عوناً ثقيلًا حين تدعو الظروف . وكان عليه أن يواجه النفوذ المتشعب

لتجار الرقيق ومخاوف قبائل الجنوب ويروقراطية موظفين كسالى لا يعتزمون التعاون معه • ولم يكن يستطيع مهادنة أعدائه أو مهاجمتهم الا بصعوبة - فقد أثبتت تجربة بيكر عبث الشدة اذا ما جرى اللجوء اليها بقوات غير كافية تفتقر الى التدريب الكافي والذخيرة • أما مهادنة تجار الرقيق فكان لا يسكن الا أن تبدو على أنها ضعف أو اهمال في أداء الواجب •

والخطوة الأولى التي قام بها غوردون هو اصدار منشور رسمي يعلن احتكار الحكومة لتجارة سن الفيل ويحرم ادخال السلاح أو تكوين فرق خاصة وهكذا أصبحت المديرية الاستوائية اقليما مغلقا أصاب الشلل تجارته واضطر كثير من التجار - بما فيهم تجار الرقيق - الى ترك عملهم وتضاعف السخط ضد سياسة الخديوى بسرور الزمن • وأتبع غوردون ذلك باعادة وانشاء سلسلة من المحطات العسكرية على جانبى بحر الجبل وانشاء قاعدة جديدة لاقليمه فى لادو •

وفى تلك الأثناء ساهمت سلسلة من الأحداث المستقلة فى التمهيد للقضاء على تجار الرقيق فى بحر الغزال • فقد ارتفعت مكانة الزير عقب قضائه على الهلالى وأصبح اقليمه ملجأ لجميع التجار الذين طردوا من بحر الجبل • وبعد أن نقض الرزاقات اتفاقهم مع الزير حاربهم وانتصر عليهم فى سنة ١٨٧٣ • ولكن سيدهم ابراهيم سلطان دارفور وفر لهم الحماية واتخذ موقفا لا ينم عن المصالحة وذلك لخشيته من قوة الزير المتزايدة • ومن ثم قرر الزير غزو دارفور ولكنه فضل أولا تأمين ظهره من جهة الحاكم العام اسماعيل باشا أيوب ومن جهة الخديوى وتم تعيينه رسميا حاكما لبحر الغزال وشكا المركز الادارى لمنطقة الرزاقات • وعقب ذلك دخل دارفور من الجنوب بجيش يتكون معظمه من أتباعه الشماليين ومن الرقيق التابع له بينما تقدم اسماعيل أيوب من الشرق على رأس قوات الحكومة • وفى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧٤ هزم الزير

السلطان ابراهيم وقضى عليه في معركة منواشى كما احتلت القوات المهاجمة عاصمته • وسرعان ما بدأ النزاع بين القائدين على السلطة وفي يونيو سنة ١٨٧٥ توجه الزبير الى القاهرة لشرح قضيته ويؤكد ولاءه ، ولكنه احتجز بها • أما دارفور فتم تقسيمها الى اربع مناطق يحكمها جميعا حاكم عام • وفرضت الادارة المصرية ضريبة فادحة على كل رأس واتخذت الخطوات اللازمة للقضاء على السرقة في الاقليم • وأدت هاتان الخطوتان الى اثاره سخط السكان الذين ثاروا في سنة ١٨٧٧ بزعامة مدع للسلطنة • وخلال ذلك بقى بحر الغزال تحت سيطرة سليمان بن الزبير الذى كان معقدا أمل مصالح تجار الرقيق •

وقد كان عام ١٨٧٧ شديدا الصعوبة بالنسبة للادارة المصرية فالى جانب مشاكل دارفور وبحر الغزال دخلت مصر في حرب غير حاسمة ومكلفة مع الحبشة • وكان الخديوى على شفا الافلاس فانتقل يائسا من وسيلة الى أخرى بحثا عن منفذ لتأجيل الكارثة أو النهاية • واتخذت اجراءات غير مناسبة في السودان بقصد توفير مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه لخزينة الخديوى فكان على المديرية الاستوائية أن تقدم عاجا ثمنه • ٣٠ ألف جنيهها وكان على مديرية بحر الغزال أن تقدم ما قيمته ١٥ الى ٢٠ ألف جنيهها ولكن كلا المصدرين للدخل أثبتا أنهما وهيمان اذ ابتاعهما غوردون في بحر الجبل والزبير في حملة دارفور • وهكذا فقد جرى الحكم المصرى وحرب الحبشة في وقت غير مناسب مما أزهق الموارد المالية والادارية للحكومة • ويضاف الى ذلك مشروع آخر ثقيل التكاليف برغم جدواه هو انشاء الخط الحديدى من وادى حلفا الى الشمال وتقرر في ديسمبر ١٨٧٤ أن تتحمل مديرتنا بربر ودقولة تغطية نفقات سكة حديد السودان وفي ذات الوقت كان على كردفان والخرطوم أن تقوما بتغطية اعباء تقل حملة اسماعيل أيوب الى دارفور • وكان السكان على بعض الحق حين شكوا من أن الضرائب التى تؤخذ منهم لا يقابلها عائد ذو فائدة بينما السودان ككل كان مفلسا بدلا من أن يفى بمطالب مصر • وفي سنة ١٨٧٥ أمر الخديوى باتخاذ خطوات لجمع المتأخرات المستحقة للحكومة

وأجل صرف مرتبات الموظفين حتى تتم جباية هذه المستحقات • ورغم أن هذا القرار لم ينفذ كله - وما كان في الامكان تنفيذه كله - الا أنه أثار غضب الطبقة التي كانت الادارة تتوقف عليها •

وفي هذه الظروف التي خيم عليها الافلاس المتوقع وتزايد السخط من موظفي الحكومة وأفراد الشعب ارتبط الخديوى اسماعيل مع بريطانيا العظمى بمعاهدة الغاء تجارة الرقيق سنة ١٨٧٧ • وقد أنهت هذه المعاهدة الاتجار في الأحباش والزنج داخل الحدود المصرية ونصت على انتهاء عمليات بيع وشراء الرقيق داخل السودان في موعد آخره عام ١٨٨٩ وكانت مهلة الاثنى عشر عاما تعنى أن السياسة التي نصت عليها المعاهدة لا يمكن تنفيذها الا على يد ادارة قوية في السودان تستند الى أشخاص يتميزون بالنزاهة والى موارد مادية ضخمة • ولكن العامل الأخير لم يكن في متناول الخديوى الذى نصب معين موارده التى أرهقت بما هو فوق طاقتها • وإذا كان لابد من اللجوء الى القمع فلم يكن في حيز الامكان سوى ابداء مظهر القوة ، أما العاملان الآخران فكانا أكثر يسرا - فقد سبق لغوردون أن أثبت كفاءته وقدرته خلال حكمه للسودان وفي فبراير ١٨٧٧ عرض عليه الخديوى تولي منصب حاكم عام السودان فقبل غوردون تحمل تلك المسؤولية ووفق في عامه الأول بعد أن بذل جهدا كبيرا ، في فرض سلام غير وئيد على الحدود مع الحبشة وفي تهدئة دارفور مع اقامة علاقات ودية معقولة مع سليمان ود الزبير الذى عين مديرا لبحر الغزال • كما أنه نجح في اقناع الخديوى بالعدول عن مشروع خط السودان الحديدي •

وفي يوليو سنة ١٨٧٨ بدأ يلوح تغيير في أساليب غوردون فقد أخذ على عاتقه المسؤولية الكاملة عن فرض سياسة القمع وأصبح أقسى وأقل حذرا في أساليبه • ولما كان يشعر بعجزه عن الاعتماد على الموظفين المصريين مع ما عرف عنه من اندفاع صارم فانه فصل عددا كبيرا منهم وأحل مكانهم أوريين وسودانيين وأصابته اجراءات الفصل هذه استقرار الادارة في فترة حرجة وفاق الضرر الذى أصاب الادارة الخديوية

وحكومتها نتيجة ما أشيع عن خضوعها لعناصر مسيحية كل المكاسب.
الناجمة عن اخلاص الموظفين الأوربيين .

وفي نفس شهر يوليو سنة ١٨٧٨ قامت ثورة جديدة في بحر الغزال.
سببها المباشر المنافسة في ذلك الاقليم بين سليمان ود الزير وادريس أتر
وهو دقلاوى عينه الزير نائبا عنه في ذلك الاقليم عندما توجه لشن الحرب.
في دارفور . وقد استطاع ادريس كسب ثقة غوردون الذى عينه حاكما.
لبحر الغزال وعاد على رأس حملة لاستلام الاقليم من سليمان ولكنه
هزم واندلعت الثورة بتأييد تجار الرقيق الشماليين الذين تعرض مركزهم
للخطر بسبب غوردون وتصرفاته . وقد تقدمت قوة من لادو الى بحر
الغزال بقيادة جسى واستطاعت بحلول شهر مارس سنة ١٨٧٩ احراز عدة
انتصارات على سليمان وفي تلك الأثناء نشبت ثورتان أخريان في كردفان
ودارفور على التوالي وقاد غوردون حملة الى كردفان وقضى على الثورة
المشتعلة فيها ثم تقدم للالتقاء بجسى حتى يعد معه الترتيب اللازم لمواجهة
انثورات الأخرى . وبناء على ما تم في هذه المقابلة تعقب جسى
سليمان في دارفور حيث استسلم الثوار في يوليو سنة ١٨٧٩ . وقتل
سليمان وتسعة من قواده رميا بالرصاص في اليوم التالى وهو الاجراء
الذى اتهم من أجله جسى بالغدر . وتولى جسى ادارة اقليم بحر الغزال
لمدة بضعة أشهر كما تسكن مسيداليا (Messedaglia) الحاكم
الايطالى العام لدارفور من القضاء على الثورة التى انتهى أمرها بسوت.
مدعيها في يوليو سنة ١٨٨٠ .

وقد أنقذ القضاء على هذه الثورات الموقف الى حين ولكن السلام
الدائم لم يتم تحقيقه . وأدى حدث آخر ترتب على حملة دارفور الى زيادة
النشاط العام فقد مارس الجلالة في كردفان ودارفور - ومعظمهم من
النجليين والداقله والشائقية - تجارة واسعة النطاق تبادلوا فيها مع
سليمان السلاح والذخيرة - مقابل الرقيق . وتعذر على الموظفين في
الأبيض ايقاف هذه التجارة لانتشارها في مناطق واسعة صعبة المواصلات
بوجه خاص ولهذا أصدر غوردون أوامره الى الجلالة باخلاء جميع الأقاليم

الواقعة جنوب الطريق المستد بين الأبيض ودارا في جنوبى دارفور •
وحين لم ينفذ هذا الأمر لجأ غوردون الى وسيلة قاسية هى التنبيه على
سيوخ القبائل فى المنطقة باصطياد الجلاية وتسليمهم للمحطات الحكومية
فى دارا والطويشة وأم شنقة والأبيض وحملهم مسئولية العثور على
أى منهم (أى من الجلاية) فى أقاليمهم بعد تاريخ معين • ورحب بهذا
القرار - البدو الرحل - الذين لم يكنوا للقبائل النيلية أى ود وأطلقوا
عليهم اسم « أولاد البلد أو البحارة » وذلك برغم ما كان يربطهم بأولئك
التجار من مصالح اقتصادية • وجرى اصطياد التجار ونهبت جميع
ممتلكاتهم وأثارت أنباء معاملتهم هذه الضيق والاشترار فى الغرب
ولدى أقاربهم فى وادى النيل ولعل مطاردة الجلاية بهذا الشكل قد
ألحقت أكبر الأضرار بالجعليين •

وكانت سيطرة الادارة على المساحات الشاسعة فى غربى السودان
وجنوبيه ضعيفة الى أقصى حد - اذ اعتمدت على جهد قلة من الموظفين
الأوروبيين أكثر من اعتمادها على تفوق ما تحت أيديهم من قوات • واتضح
هذا خلال السنوات الثلاث التالية ففى يونيو سنة ١٨٧٩ تم عزل الخديوى
اسماعيل وبارح غوردون الخرطوم فى الشهر التالى ثم استقال من خدمة
مصر فى سنة ١٨٨٠ • وكان كل من الخديوى الجديد وحاكم السودان
أضعف من سابقيهما - فابن اسماعيل محمد توفيق كان رجلا هشاً نجح
فى الاحتفاظ بعرشه باعتباره العوبة فى يد كل من المراقبة الثنائية
والعرايين ثم الاحتلال البريطانى •

وفى السودان عمل محمد رؤوف تحت رئاسة بيكر وغوردون ثم
تولى ادارة الاستوائية وهرر • وعندما اصطدم بغوردون (وهو أمر
لم يكن متعذراً) عزله من منصبه الواحد تلو الآخر • وكان الوضع
فى السودان أكبر من قدرته على السيطرة عليه وقد اتبع سياسة سلبية
مما أتاح الفرصة لاتعاش تجارة الرقيق وأن يكن ذلك قد تم بصورة
أضعف من ذى قبل - وذلك نتيجة لموت كبار التجار فى العهد السابق
وعجز من بقى منهم • بالاضافة الى ذلك فانه عزل جيسى وميسيداليا وهما

ساعدوا غوردون الأيسن في محاولة لتهدئة المناطق الغربية وبذلك أمعن في اضعاف ادارة بحر الغزال ودارفور التي كانت في وضع صعب . وكان خطؤه الأخير هو استهانته بجدية الثورة المهدية في بداية نشوبها .

٣ - الموقف في عامي ١٨٨٠ و ١٨٨١ :

لم تعد الادارة في موقف يسمح لها بالاحتفاظ عنوة بما لا تستطيع الاحتفاظ به عن طريق الحكم الصالح . وفي عام ١٨٨١ كانت تسيطر على ممتلكات مصر (التي تشمل بالإضافة الى السودان نفسه مقاطعتي أرتريا والصومال) قوة قوامها ٤٠ ألفا منهم ٧٤٧٠ بالخرطوم ، ٥٨٣٠ بكرديان ٤٨٦٣ بدارفور ، ٢٣٥٠ بسنار - وكان هناك بالاستوائية وبحر الغزال ما يزيد قليلا عن ٣٠٠٠ وفي دنقلة وبربر نحو ٤٠٠٠ - وفي محطات حراسة الحدود الحبشية نحو ٥٥٠٠ (١) وعند قيام الثورة لم تكن حاميات المدن محصنة فقد اشتملت الفرق على عدد كبير من الجند غير النظاميين الذين لم يتدربوا على القتال بما فيه الكفاية . ولعل قلة الجند كان من الممكن أن يكون أقل خطرا فيما لو كان من الممكن حشدتهم بسرعة في المناطق المعرضة للخطر أو لو أمكن تعزيزهم من مصر . ولكن كان من الصعب تحقيق كل من هذين الشرطين فالانتقال برا كان بطيئا وقاسيا سواء عبر الصحراء أو عبر منطقة الأدغال في الجنوب . فعدو خفيف السلاح يستعين بأساليب الهروب التي تتضمنها حرب العصابات مما كان يتقنه من اعتادوا على الترحال الذين كان بإمكانهم باستمرار ارهاق فرق الحكومة البطيئة الحركة واضعاف قوتها الضاربة بدم الآبار . وكانت السيطرة على المناطق الواقعة على النيل أكثر سهولة بفضل أسطول الحكومة من المراكب البخارية ولكن حركتها أيضا كانت بطيئة وكانت فعاليتها على طول المدى تضعف منها السدود في الجنوب والجنادل على المجرى الرئيسى للنيل في الاتصال بمصر والأقاليم النائية على نظام شبكة البرق التي كانت

(١) نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ج ٢ ص ١١٣ وطبعة بيروت ص ٦٣٥ وقد أورد ونجت هذه الأرقام أيضا في كتابه . ص ٥٥٠ وأشار ونجت الى استحالة التوصل الى تقدير للأعداد يتصف بالدقة الكاملة .

فعالة في الأوقات التي يخيم فيها الهدوء ولكنها كانت مكشوفة الى حد كبير ، فتعرض للخطر ويصعب الإبقاء عليها اذا ما نشبت ثورة (١) ومن ثم فليس من الغريب أن انتقلت المبادأة في القتال بسرعة الى أتباع المهدي وأن العمليات الحربية كانت وقتية وغير مجددة الى حد كبير خارج مناطق مراكزهم المحصنة وارسال تعزيزات من مصر تعترضه صعوبات طبيعية فمنذ فتح السودان لم ترسل أعداد من الجند من مصر عن طريق وادي النيل - فقد كان من الأيسر نقلهم عن طريق البحر من السويس الى سواكن ثم يلى ذلك السير مسيرة عبر الصحراء الى بربر ومنها برا أو عن طريق النيل الى الخرطوم . وكان ذلك في أحسن الظروف يتم ببطء .

كما أن اندلاع المهدي قد تم في فترة أصاب الشلل العمل السياسي في مصر وذلك بسبب الحركة العرابية والنتائج المترتبة عليها ، مما أفضى الى الاحتلال البريطاني في سبتمبر سنة ١٨٨٢ . وخلال الفترة الممتدة بين عزل اسماعيل ونهاية سنة ١٨٨٢ انعكس جميع المسؤولين عن حكومة مصر في مشاكل الدبلوماسية الدولية والادارة الداخلية . ولم يكن لديهم من الرغبة أو الوقت ما يسمح لهم بالالتفات للأحداث الجارية في المستلكات السودانية وعندما تنبّهت حكومة مصر في النهاية الى خطورة أحداث السودان كان المهدي قد كسب فعلا الجولة الأولى ووصل الى مركز قوى يجعل من الصعب على أى دولة مستقلة تساما لديها الموارد الكافية أن تهاجمه .

(١) نشرت جريدة التيمس Times البريطانية (عدد ٦ فبراير ١٨٨٥ ص ٦) خريطة للشبكة البرقية بالسودان المصري . فقد امتد الخط المتصل بمصر العليا على الشاطئ الأيسر للنيل مارا بدقنة الجديدة ، الدبة ، وكورتى حتى نوري . ثم كان يخترق صحراء بيوضة ويمر النيل الى بربر على الشاطئ الأيمن ومن كانور جنوب بربر كان يتجه فرع الى كسلا على حين كان الخط الرئيسى يمتد الى شندي والحلفاية ثم الخرطوم التي كانت تتصل بأم درمان واتجهت فروع أخرى الى القضارف وسنار في الشرق وإلى الأبيض ودافور في الغرب ويتضح من القوائم التي راجع الى فترة المهدي أن معظم العاملين في هذه الخطوط كانوا من المولدين .

وقد أدت طبيعة الثورة في السودان الى مواجهة كل من الادارة المحلية في السودان وحكومة القاهرة فبخلاف الزبير وسليمان وغيرهما من الطامعين في حكم دارفور كان المهدي في الأصل زعيما دينيا ظهر لكي يطهر العالم الاسلامي من أخطائه ويقضى على سطوة الكفرة - فلم تكن الثورة مجرد تمرد مدني بل كانت جهادا ومن ثم مطالبتها كل المسلمين بتعضيدها .

ولعل اعلان المهدي أو نداؤه للمسلمين جميعا من أجل العون المؤرخ ١٢٩٩ هـ (من نوفمبر ١٨٨١ - نوفمبر ١٨٨٢) يكشف عن مدى ارتباط الباعث الديني بشكاوى السكان المحليين فيما يتعلق بالنواحي السياسية والاجتماعية ومن أهم ما جاء فيه اتهام الادارة بالاستبداد والكفر (١) والحكم بغير القرآن وتحريف شريعة محمد رسول الله وتعيديها على الله والايمان به بوضع الجزية على رقاب السودانيين وبقية المسلمين وارسال الرجال مكبلين بالأغلال الى السجون وأسر النسوة والأطفال وتعذيب أرواح المؤمنين ظلما وعدم معاملة الفقير بالرحمة ولا الكبير بالاحترام (٢) .

وكان على جند الحكومة المصرية أن يحاربوا المهدي بقلوب لا تؤمن بعدالة هذا القتال ونفوس قلقة خاصة وأن انتصارات المهدي كانت دليلا في نظرهم على أن ما ينادى به هو فعلا ما يرضى الله . وهكذا

(١) قال في بعض كتبه « وقد أمرني سيد الوجود (ص) بمكاتبة المسلمين ودعوتهم الى الهجرة معنا الى محل يكون فيه قوام الدين واصلاح امر الدارين ، نعوم شقير طبعة بيروت ١٩٦٧ ص ٦٤٥ » ومن كتاب المهدي الى يوسف باشا الثسلاني ردا على انذاره الذي أرسله في ١٨٨٢/٥/٢٩ قال « وقولكم ان الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ويتبعون ما جاء به الرسول (ص) ونسأل عن دمائهم بين يدي الله تعالى باطل لأن القطب الدرديري قد نص في باب المحاربة على أن أمراء مصر وجميع عساكرهم واتباعهم محاربون لاخذ أحوال المسلمين منهم كرها فيجوز قتلهم ... على ان النبي (ص) أمرنا صريحا بقتال الترك وأخبرنا بأنهم كفارا ... » نعوم شقير : السابق الذكر ص ٦٦١ - ٦٦٢ .

لم يكن موقف الحكومة من الناحية المادية والمعنوية يمكنها من التصدي للشورة • ولم تقدر السلطات الانجليزية في القاهرة أو لندن في البداية تأثير الحافز الروحي الكامن في هذه الحركة ونظرت اليها باعتبارها مظهرا من مظاهر التعصب الديني - وهو أمر لا يمت بصلة الى الظروف السياسية والعسكرية السائدة في القرن التاسع عشر • وأدى عجز غوردون عن فهم مغزاها في بداية بعثته الأخيرة الى خلع صفة الخطأ التراجيدي على بعض الأعمال التي قام بها •

ويمكن استخلاص العوامل التي ساهمت في تجميع القوة التي تكون منها جيش الثورة المهدية فيما سبق أن عرضنا له من تدمير السودانين - اذ انضمت الى جيش المهدية أولا جميع العناصر المرتبطة بتجارة الرقيق التي طوردت من قبل الحكومة منذ عام ١٨٦٥ دون أن يتم التخلص من خطرهما اما بالقضاء عليها نهائيا ومن ثم لا تعود توفر مشكلة أو تهدتها بحيث تستطيع استعادة رخاءها وسلطانها ومكائنها القديمة بأساليب أكثر شرعية • وكان الجلالة الشماليون الذين انتشروا في جميع أنحاء السودان وكانت لهم أهمية خاصة في المناطق التي لم يتم اخضاعها في الأقاليم الجنوبية أو الغربية هم الحلفاء الطبيعيون لأي حركة تهدد الحكومة الأجنبية التي تسيطر على بلادهم ومع أن هؤلاء الرجال قد يكونون قليلي العدد الا أنهم كانوا القادة المحتملين للشورة في مناطقهم وقد اتخذوا من جنودهم الأرقاء (الذين عرفوا باسم البازينخر) نواة قوة مدربة على الاغارات وحرب العصابات • وقد ارتبطت مصالح البازنجر مع مصالح ساداتهم ولا شك في وحشية الغارات التي كانت تؤدي الى اصطياد الرقيق وصعوبة رحلات من كان يتم اصطيادهم الا أن من وجدوا أنفسهم وقد انخرطوا في جيوش تجار الرقيق أمكنهم الحصول على مكانة معقولة ، بل وعلى مركز ممتاز فقد كانوا في نظر تاجر الرقيق ملكا ثمينا وشاركوا في اجراءات غزواته وسرعان ما تزايد لديهم الحماس بالولاء للتاجر الذي يعمل معه في الوقت الذي تتزايد فيه عاطفة ذلك التاجر الأبوية نحوه • ولما كان تحرير العبد يستتبع انهاء رابطة المصلحة هذه وفي حالات كثيرة

تجنيد المحررين في سلك الجيش المصرى المفلس ، فان العبيد كانوا يتبعون سادتهم في عدم توفر كثير من الأسباب لديهم للترحيب بالتغيير .

ورحب القور هم الآخرون بالفوضى التى نشبت . فقد استتبع دارفور سلسلة من الاضطرابات والقتال التى ساعدت الطاعن الى الحكم المصرى العداء وكان آخر أولئك الطاعنين عبد الله دودينجا لا يزال يقاوم عندما دخلت المهديّة دارفور ومع أن القور لم تجتذبهم المهديّة كثيرا الا أنه كان مما يناسبهم الافادة من فترة عدم الاستقرار فى الادارة .

كما أثر سقوط سلطنة دارفور على موقف قبائل البقارة فى الجنوب فى الواقع يتستعون بالاستقلال الذاتى حتى ذلك الوقت العاشر . وينبعون اسما لسلطان دارفور فى الفاشر أما الآن فأصبحوا يواجهون الادارة المصرية الأكثر تنظيما التى كانت تطالبهم بالضرائب وتتدخل فى شئون تجار الرقيق والبقارة كانوا حلفاء محتسبين صالحين لأى متمرّد وذلك لقدرتهم على احتسالم المشقات ولخبرتهم بالغزوات والحرب الصحراوية بالاضافة الى ما يكونه من حقد ومرارة نحو موظفى الادارة الجديدة . وغير هؤلاء كانت هناك قبائل أخرى تستطيع أن تقدم نفس القدر من المساعدة لكنها تباطأت فى الانضمام للثورة بسبب طول ما ألفت من سلطة الحكم المصرى - ومن هؤلاء بقارة كردفان والكبابيش وقبائل الشمال التى ترعى الابل ، والهدندوة وغيرهم من قبائل البجة التى فى منطقة التلال المحاذية للبحر الأحمر .

ولم يكن هناك من شك ، فى حالة قيام ثورة تعززها عناصر المجتمع السودانى التى لم يتم اخضاعها ، من أن ينضم لها عاجلا أو آجلا كل السكان الأكثر هدوءا والمستقرين بوادى النيل وذلك بدافع الحنين لذكريات حريتهم المفقودة وضيقهم بأن يكتموا أو بدافع ميلهم للعودة الى حياة الفوضى والنهب والسلب . ولكن لم تكن لدى هؤلاء صلاحية قيادة الحركة وهى الصلاحية التى توجد لدى رجال اعتادوا المفامرة والمجازفة ، ولم يفقدوا سلطتهم واستقلالهم الا منذ عهد قريب كما أنهم كانوا أكثر مناعة ازاء قوات الحكومة .

وهكذا كان جيش الثورة المحتمل يحتوى على مكوناته الايجابية والسلبية . ومع ذلك فان مكوناته الايجابية لم تتجمع حتى بداية سنة ١٨٨١ . فالذكريات القبلية كانت قديمة وعريقة وفكرة القيام بعملية موحدة ضد الحكم المصرى بدت بعيدة الاحتمال . فالجعلى لا يجب الدنقلاوى وكلاهما لا يستسيغان الشائقى . كما أن الصدام العنيف بين سليمان ود الزبير وبين ادريس أبتى قد زاد من حدته كون سليمان من الجعلين وادريس دنقلاويا . كانت العلاقة بين الشماليين بصفة عامة وبين البقارة شديدة التوتر منذ أباح غوردون مطاردة الجلاية بينما نظرت القبائل المستقرة الى الرحل نظرتها الى الجهلاء والهمج . وكان البجاء يتميزون عن القبائل الشمالية الأخرى بجهلهم للغة العربية مما أدى الى احتقارهم وكانت محاولة كسبهم لصالح أى ثورة يمثل مشكلة قائمة بذاتها . وقد استغلت السياسة المصرية هذه الخلافات والمنافسات عميقة الجذور لتقوية ادارتها الضعيفة نسبيا وذلك بضرب تجار الرقيق بعضهم ببعض وكذلك الحال بالنسبة الى القبائل بل أنها حاولت ضرب زعيم بآخر من أهل القبيلة الواحدة ولكن كيف أمكن أخيرا لهذه العوامل التى تتصف بالاختلاف والتضارب أن تتآلف لتواجه الادارة المصرية وتقضى عليها ؟

كان هذا هو ما قام به المهدي والرجال الذين اشتركوا معه فى قيادة الثورة ممن يجب أن تتحول الآن لدراسة شخصياتهم ودعايتهم .

الفصل الثاني

ظهور المهدي

١ - نشأة محمد أحمد :

لم يكن محمد أحمد قد بلغ الأربعين من عمره عندما نادى في سنة ١٨٨١ بأنه المهدي المنتظر . وقد ولد في ٢٧ رجب ١٢٦٠ هـ الموافق ١٢ أغسطس ١٨٤٤ في جزيرة لبب باقليم دنقلة (١) وتدعى أسرته أنها من الأشراف أى من نسل النبي كما اشتهر أحد أجداده بتقواه وورعه . أما عبد الله والد محمد أحمد فكان ممن يعملون في صناعة المراكب وعندما كان المهدي طفلاً نزحت أسرته للجنوب واستقرت في كررى على بعد ١٢ ميلاً شمال الخرطوم حيث توفر وجود الأخشاب المناسبة لعمله . وهناك توفي عبد الله ودفن تاركاً أسرة تتكون من أربعة أولاد (ولد أحدهم بعد وفاته) وبنت .

وبينما اشتغل اخوة محمد أحمد بحرفة أبيهم أبدى هو ميلاً إلى الدراسات الدينية . ومن ثم أصبح أحد مريدي الشيخ الأمين الصويلح في الجزيرة ثم الشيخ محمد الضكير عبد الله خوجلي (٢) بالقرب من بربر . وكان هذا الشيخ يتلقى معونة من الحكومة - وتذكر الروايات أن محمد أحمد أبى أن يتناول طعامه لأن مصدره الطغيان وفي هذه المرحلة حصل محمد على أحسن أسس الدراسات الدينية التي كانت مدارس السودان تقدمها ولنا أن تتساءل عن مصير دعوته فيما لو فعل مثل كثيرين غيره من الدارسين السودانيين والتحق بالأزهر لاستكمال دراسته الدينية . ولكن محمد أحمد أحس وهو في مفترق الطرق هذا ببدء الروحيات كما

(١) الرافعي : مصر والسودان ص ٩٢ - نقلاً عن سيد عبد الرحمن المهدي .

(٢) غير المهدي اسمه فيما بعد ودعاه بمحمد الخير .

فهمت في السودان بمعنى الزهد والتسك والتعبد العميق وفقا للصوفية
وتعاليمها .

ومن ثم توجه في عام ١٢٧٧ هـ - ١٨٦١ م الى الشيخ محمد شريف
نور الدائم حفيد الشيخ أحمد الطيب البشير الذي أسس الطريقة
السمانية في السودان . وبقي معه نحو سبع سنوات اشتهر خلالها
بمنتهى الورع والزهد ومارس كل واجبات الخدمة وفروض الطاعة
لأستاذه اثباتا لولائه له . وفي نهاية هذه المدة اعتبره محمد شريف واحدا
من شيوخ الطريقة وسمح له «بتسليك الطريقة» أى بنشر الدعوة للطريقة
خلال رحلاته . وفي خلال هذا الوقت أقام مع اخوته بالخرطوم وتزوج
من بنت خال أبيه أحمد شرفي^(١) وصاحب أخوته في تنقلاتهم بحثا عن الأخشاب
الى جزيرة آبا على نهر النيل بجوار الكوه . وابتداء من عام ١٢٨٦/١٨٧٠
أصبحت هذه الجزيرة مركزا لدعوته . وهناك اكتسب بفضل ما اشتهر
به من تقوى وتسك - كثيرا من الأتباع من قبائل كنانه ودغيم من بينهم
على بن محمد حلو أحد الخلفاء الثلاثة فيما بعد وعندما مر كازاني في
سنة ١٨٨٠ بجزيرة آبا في طريقه للجنوب هدا المركب البخارى من سرعته
تحية لرجل آبا الورع . وكان الى ذلك الحين يعامل بكل احترام من قبل
الحكومة التي كانت تعترم اتخاذ هذه الجزيرة مركزا لتموين مراكبها
بالأخشاب^(٢) .

وفي تلك الأثناء تأزمت العلاقات بين محمد أحمد وأستاذه الشيخ
محمد شريف . وكانت الصلة بينهما قوية فيما سبق ، وفي عام

(١) ذكر سلاطين في كتابه F. S. S ص ١٢٣ أن هذا الزواج تم بعد
وصول محمد أحمد لآبا .

(٢) G. Casati : 10 years in Equatoria and the return with Emin pasha, 2 d edn. lond P 1 pp 33,- 34.

يذكر كازاني أن باشكاتب الاستوائية ذكر له أنه وزملاءه قدموا
احترامهم احمد احمد عند مرورهم بآبا مرافقين لحملة بيكر . وكان ذلك
في فبراير سنة ١٨٧٠ . ومعنى هذا أن شهرة محمد أحمد قد بدأت قبل
استقراره في آبا .

١٢٨٨/١٨٧٢ انتقل الشيخ محمد شريف الى العريـب على نهر النيل بجوار جزيرة آبا (١) بناء على اقتراح من محمد أحمد . وبعد ذلك بضع سنوات ، ربما في عام ١٢٩٥/١٨٧٨ تنازع الزعيمان الدينيان ، ويعطى شقير عن هذا الحادث روايتين ، الأولى منهما تقلا عن حديث لمحمد شريف نفسه ، يفهم منها أن النزاع بدأ بينهما عندما اشتد كبرياء محمد أحمد في عام ١٨٧٨ فنـادى بأنه المهدي المنتظر وعرض على محمد شريف تعيينه وزيرا له أو مستشارا . وبناء عليه عقد مجلس في آبا ضم انقضاة والشخصيات البارزة حاول فيه محمد شريف إعادة محمد أحمد الى رشده بأن عرض عليه مقاسمته فيما يصيبه من خيرات . ولكن محمد أحمد انسحب من المجلس دون أن يعطى جوابا .

وبناء عليه قرر محمد شريف طرده من الطريقة السمانية وسعى (دون جدوى) للقبض عليه (٢) .

ونحن نجد أن هذه الرواية موضع للشك لعدة أسباب فمن ناحية نجدها مستقاة ، عن الشيخ محمد شريف نفسه وذكر شقير أنه أكدها له شفاها عقب الاستيلاء على أم درمان سنة ١٨٩٨ . ومحمد شريف أحد الذين بقوا في السودان طول فترة المهديّة ، كما عمل في الواقع تحت أمره المهدي ولعلنا نجد في هذه الرواية محاولة منه لكسب ثقة الحكم المصري الانجليزى ولكى يصور نفسه كمن تنبأ بالثورة في أوائل قيامها . والاعتبار الثانى أنه لا يوجد دليل مستقل يثبت تأكيدا لصفة المهدي في مثل هذا التاريخ المبكر ، فالمصادر الأخرى تعين عام ١٢٩٨ / ١٨٨١ على وجه التحديد كتاريخ لاعلان المهديّة . والثالث أنه من غير المحتمل ألا يصل الى السلطات الادارية علم باجتماع هام ضم كبار الشخصيات بالصورة التى أوضح بها محمد شريف المجلس الذى

(١) جاء في كتاب شبكة British Policy ص ٢١ أن محمد شريف لم يتخذ هذا المكان مركزا دائما له بل أنه كان يزوره من حين لآخر .
(٢) شقير : تاريخ السودان طبعة مصر ج ٣ ص ١١٦ - ١١٨ .
وطبعة بيروت سنة ١٩٦٧ ص ٦٣٧ - ٦٤٠ .

انمقد في آيا • وأخيرا فان شقير ، رغم أنه لم يرجح احدى الروايتين فانه تجاهلها بلباقة في سياقه •

وقد غطى شقير بكثير من التفصيل الرواية المهدية عن هذه الأزمة ، تلك الرواية التي تبدو أكثر احتمالا (١) • وبناء عليها فان الجذور الأولى للخلاف بدأت مع تزايد شعبية الشيخ الشاب الامر الذي أصبح واضحا في نظر سيده بعد استقراره في العريـب • ولعل الشيخ محمد شريف خشي أن يفقد دخله وربما أيضا مكائته • وأدت مؤامرات محمد شريف عن طريق الشيخ رضوان مثله المحلي الى معركة بين الفريقين هزم فيها أتباع محمد أحمد ، ولكن ناظر الكوه قبض على أعدائه وعقب ذلك زار شيخ محمد شريف وشيخ رضوان محمد أحمد في جزيرة آبا وأمكن لهما التفاهم معه وديا كما ضمن محمد أحمد اطلاق سراح المعتقلين • ولكن هذا الحادث فتح أعين محمد أحمد على أخطاء أستاذه الذي خدمه سابقا بكل اخلاص • ووصل استيائوه قمته عندما شارك في حفل أقامه الشيخ محمد شريف بمناسبة ختان أولاده حيث سحج بالرقص والطنبل اذ كانت شيئا لم تستسغه نفس محمد أحمد الميالة الى التطهر ولهذا رأى - في هذه التصرفات خرقا للشريعة لا يمكن تبريره • واذا ضاق الشيخ بمحمد أحمد واعتراضاته طرده بكل ازدراء من الطريقة قائلا له « ابعد لأنك أثبت صدق القول المأثور الدتقلاوى شيطان في ثياب انسان » ولما كان محمد أحمد قد استاء لقرار الطرد فقد سعى كثيرا للحصول على العفو في خضوع شديد ولكن دون طائل •

وتتفق هذه الرواية لما حدث بما عرف عن طباع محمد أحمد - المتدين القائم على الطهارة ، العواطف الجياشة التي تفصح عن نفسها في

(١) شقير : تاريخ السودان طبعة مصر ج ٣ ص ١١٨ - ١١٩
وطبعة بيروت ص ٦٤١ - ٦٤٣ •
وهذه الرواية مطابقة لما ذكره سلاطين ص ١٢٤ - ١٢٥
والكتاب المحدثون من امثال شبكة British Policy ص ٢١ - ٣٢
Iheubald : Mahdiya. P. ٢8

ولم يشر أى من هذين المرجعين الى رواية محمد شريف •

دلة درامية واستكانة مصحوبة بكثير من المبالغة ، النفور من الخصام وعدم قطع العلاقات الا بعد استنفاد أقصى وسائل الابقاء عليها . وبالإضافة الى ذلك فعمل ذلك النزاع الصغير الذى تتج عن مؤامرات الشيخ رضوان يفسر لنا تغافل الحكومة غير العادى فى سنة ١٨٨١ عن الاحساس بجدية الموقف فى آبا . ففى نظر رجال الادارة المصريين لم يكن ادعاء محمد أحمد الا وسيلة اخرى اتبعها لمواجهة المنافسين له من زعماء الدين ، الأمر الذى قد يؤدى الى اضطرابات محلية تنتهى بسقوط بعض الرؤوس دون أن يكون لها من الأهمية ما هو أكثر من ذلك .

على أن النزاع مع الشيخ محمد شريف قد أدى الى بعض النتائج البوقية . فلم يكن من السهل على محمد أحمد بعد ابعاده من الطريقة السمانية أن يتقبل ذلك كما لم يكن هناك من سبب يدعو له لذلك . فقد أصبح شيخا له شهرة ذائعة كما أن له أتباعا عديدين بين قبائل النيل الأبيض . ومن ثم أصبح انضمامه لأى زعيم دينى أو تبعيته له كسبا عظيما لذلك الزعيم . وكان يعيش فى ذلك الحين بجوار المسلمية على النيل الأزرق شيخ آخر للسمانية اسمه (الشيخ) القرشى ود الزين . ولم يكن مثل الشيخ محمد شريف من أسرة مؤسس الطريقة ولكن أهميته ترجع الى أنه ضم للطريقة بواسطة الشيخ أحمد الطيب البشير نفسه - ومن هنا أصبحت صلتة بأصول الطريقة أقوى من صلة محمد شريف وهكذا أعلن محمد أحمد انضمامه اليه . ولقى التابع الجديد ترحيبا من الشيخ القرشى ولعل محمد أحمد وضع فى اعتباره ما بلغه سيده الجديد من كبر فى السن وما ينبى على ذلك من توقعات لخلافته اياه خلال أمد غير بعيد تمشيا مع سنة الطبيعة وعامل الزمن .

وفى تلك الأثناء تابع محمد أحمد حياة الزهد والتسك فى آبا ولم تتأثر مكاتته أو تضار بسبب نزاعه مع الشيخ محمد شريف الذى اعتبره - أى محمد أحمد - خارجا على الشريعة . وفى خلال هذا قام برحلة الى كردفان سيصبح لها بالنسبة للأحداث التالية أهمية بالغة . فقد كان هناك انقسام فادح فى السياسة المحلية بكردفان تحول الى صالح

محمد أحمد (١) اذ أن المهاجرين من الجعليين كانوا يمثلون عاملا هاما في حياة المدن وخاصة في الأبيض حيث انقسموا الى جماعتين يتزعم احدهما الياس باشا أم برير والثانية يتزعمها أحمد بك دفع الله العوضى . وفي خلال ادارة غوردون للسودان كحاكم عام عين الياس باشا مديرا لكردفان سنة ١٨٧٨ ومعه جعلى آخر كوكيل له هو عبد الرحمن بك يانقا (٢) ومن ثم تأمر أحمد بك دفع الله مع الشيخ على كانونة . زعيم قبيلة الغديات (٣) ضد الياس باشا . وقد قام على كانونة بثورة صادفها التوفيق في البداية ولكنه هزم بعد حين وقتل بواسطة القوة التي أرسلها الياس والتي عززت بامدادات قبلية ولكن هذه الأحداث أدت الى عزل الياس باشا واعادة الحاكم التركي السابق - وهو محمد سعيد باشا وهبى وذلك في عام ١٨٧٩ ، فأعاد تنصيب الابن الأكبر لعلى كانونة شيخا للغديات . وهكذا انقسمت كردفان الى جماعتين كل منها تتكون من مجموعة قبلية مرتبطة بأحد الزعيمين الجعليين المتنافسين وكان الجانب السئ من الموقف هو أن أحد هذين الفريقين - وهو الذى يتزعمه أحمد بك دفع الله - ارتبط مع محمد سعيد باشا في تأييد الادارة المصرية بينما بدا الفريق الثانى بزعامة الياس باشا مغلوبا على أمره ومن ثم تلمس الفرص للاشتراك في أى مؤامرة تؤدي الى استرجاع مكانته . ولما كان الياس أكثر ثراء كئاجر من أحمد دفع الله فان عزله جعل منه عدوا خطيرا للحكومة .

ويقال أن محمد أحمد اتصل في خلال زيارته الأولى هذه لكردفان بجميع زعماء الأبيض ومن الواضح أن بين من زارهم وورد ذكرهم بالاسم

(١) نجد وصفا موجزا لاحداث كردفان قبيل ظهور المهدي مباشرة بكتاب F & S لسلاطين ص ١٣٣ - ١٣٤ وآخر تفصيليا كتبه يوسف ميخائيل ، تاريخ ج ١ ص ٦ - ٢٦ . ومصدرنا في زيارة محمد أحمد لكردفان هو المرجع الاخير وهناك اشارة مختصرة عنها في كتاب سلاطين F & S ص ١٢٦ .

(٢) القاف في بانقا تنطق جيم قاهرة .

MacMichael : Arabs in Sudan

(٣) انظر

: Tribes of kordofan p. 65-69.

زعماء الجماعة المعارضة الياس باشا نفسه وعبد الرحمن بانقبا ومعهم أيضا أسرة أبو صافية الذين أيدوا الياس باشا ضد الشيخ على كانونة . وهناك أيضا آخرون من الرجال البارزين الذين اتصل بهم هما الحاج خالد أحمد العمراني وهو تاجر جعلى تقى ، والشيخ المنه اسماعيل شيخ قبيلة الجوامعة . واستطاع محمد أحمد كذلك أن يحيط نفسه بهالة كبيرة من التقوى انتشر أمرها بين عامة الشعب في كردفان فالتفوا حوله طلبا لبركاته . وكان أساس تعاليمه هو الزهد فى شهوات هذه الدنيا والتضرع الى الله . وبعد انتهاء زيارته عاد الى آبا بعد أن وعد أهالى كردفان بأنه سيعود مرة أخرى .

٢ - محمد أحمد مهديا :

فى هذه الآونة توفى الشيخ القرشى (١) وتوجه محمد أحمد مع مريديه ليقيموا له قبة فوق مدفنه بالمسلمية . وقبل أتباع الشيخ القرشى الاعتراف به ونصبوه شيخا جديدا لهم . وهكذا تأكد مركزه كزعيم للطريقة السمائية . على أنه لم يمض وقت طويل حتى اكتسب مكانة تفوق مكانة مجرد شيخ صوفى . وكان عليه (أى على المهدي) أن يفيد من الاتجاه العام الذى وجد فى السودان عن المهدي وتوقعات ظهوره . ولكنه لم يساهم فى ايجاد هذا الاتجاه الذى نشأ بفعل حالة السخط واليأس التى أشرنا اليها سابقا باعتباره فعل دينى لما حدث من انهيار فى المثل بين رجال الادارة المصرية اذا اعتبرنا مبادئ الاسلام فى بساطته مقياسا لتلك المثل .

وكان طبيعيا أن تنتشر هذه التوقعات بين الطبقات الفقيرة من السودانيين التى غلب عليها الجهل ، ولكن الأحداث أثبتت أيضا أن

(١) يحدد Hill فى كتابه Biog. dict. ص ٣١٢ تاريخا لوفاته عام ١٨٧٨ وبينما يرى شقير ، تاريخ السودان طبعة مصر ج ٣ ص ١١٩ وطبعة بيروت ص ٦٤٢ ، Dietrich ، ص ٢١٤ أنه توفى فى أواخر عام ١٢٩٧/١٨٨٠ . وحيث أن عام ١٢٩٧ هـ تقابل نهايته يوم ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠ والتحديد الأخير يتفق مع ترتيب الأحداث كما ورد فى كتاب سلاطين F & S ص ١٢٦ الذى ذكر أن الوفاة حدثت بعد شهور قليلة من زيارة محمد أحمد الأولى لكردفان التى جرت بعد عزل الياس باشا فى سنة ١٨٧٩ .

كثيرين من ذوى المكانة والخبرة كانوا على أتم استعداد لمناصرة حركة مهديه او الاشتراك فيها حتى قبل أن يتأكد نجاحها (١) .

ويذكر نعوم شقير أن تلاميذ محمد أحمد بدأوا يؤكدون بعد خلافته للشيخ القرشى وجود نص فى كتبهم يثبت مجيء المهدي من بينهم وكيف أن الشيخ القرشى أسر لمحمد أحمد بذلك الأمر .

وفى المسلمية تمت مع محمد أحمد مقابلة على درجة كبيرة من الأهمية . اذ قدم شخص اسمه عبد الله بن محمد وطلب الانضمام للطريقة السماوية . وقد أحاط بهذه المقابلة الأولى بين المهدي المنتظر وخليفته فى السودان جو أسطورى ، اذ قيل أن عبد الله سقط مغشيا عليه مرتين لمراى محمد أحمد قبل أن يقدم له التحية بصفته المهدي المنتظر . أما ما ذكره سلاطين استنادا الى رواية الخليفة فاقرب الى التصديق اذ غلب عليه عند المقابلة الرهبة فلم ينطق الا بعد بضع ساعات ورجاه عندئذ السماح له بأن يكون أحد تلاميذه (٢) وسرعان ما اكتسب مكانة كبيرة لدى شيخه قابليها بالولاء التام وتقديم المشورة الطيبة له فقرة جديدة عن أول السطر هذا التابع الجديد ، عبد الله بن محمد ، من أسرة ترجع اقامتها أصلا الى المنطقة الواقعة غرب دارفور ما بين وادى وبورتو وجده الأكبر على

(١) هناك ثلاثة أدلة واضحة عن ايمان الناس وتوقعهم ظهور المهدي المنتظر :

(أ) ما عرضه عبد الله التعايشى على الزبير بعد احتلال دارفور فى عام ١٨٧٤ (انظر الصفحات التالية من هذا الكتاب) .
(ب) وثيقة يوسف ميخائيل (١) مخطوطة ٢٣ وجاء بها اثناء وصف الاحوال فى كردفان خلال زيارة محمد أحمد لها . ان تساءل اكثر الناس عن عدم ظهور المهدي وقالوا ان هذا هو موعد مجيئه باذن الله . ثم انه وصف تمثيلية عن المهدي جرى اطفال الابيض على تمثيلها وعجب لها الكبار .
(ج) ما ذكره المهدي نفسه فى كتاب له للشيخ دفع الله البكاوى Baqqawi وثيقة النجومى مخطوطة ١٢٦ (توقعت ظهور المهدي حتى أكون معينه وخادمه) . وطبعة بيروت ص ٦٤٣ .

(٢) شقير : تاريخ ج ٣ ص ١٢٠ G X دبترش ، ص ٢١٦ - راجع : Slaton : Fire & Sword pp. 127-9.

الكرار (١) يمثل نموذجا لذلك السيل المستند من الحجاج الذين يتحركون من وسط السودان وغربه نحو وادي النيل في الطريق الى الحجاز . وصادف أن تزوج هذا من فتاة من قبيلة التعايشة التي تسكن جنوب دارفور بعد أن استقر بينها . واشتهر محمد آدم (٢) والد عبد الله بين التعايشة بتقواه وما لديه من موهبة كرجل عليم بالغيب ومن ثم كانت القبيلة تعتمد على تنبؤاته عند القيام بالغزوات وكان لعبد الله ثلاثة أخوة : يعقوب أخوه الأكبر من أبيه ، والسنوسى أحمد أخوه الثانى من أمه ، وهرون أخوه الثالث من جارية لأبيه كما كانت له أخت واحدة (٣) ولما تقدمت بوالده السن خلفه عبد الله في احتلال وظيفة منجم للقبيلة وعندما وقعت الحرب بين الزبير والرزيقات في سنة ١٨٧٣ ذهب للرزيقات ليشير عليهم بما يتنبأ به الا أنه أسر وقرر الزبير قتله ولكن هذا القرار عورض فيه من قبل الشيوخ الاثنى عشر الذين يمثلون بطانة الزبير باعتباره اجراء لا يتفق مع الأصول المتبعة أو الذوق المرعى . وبعد فتح دارفور حدد الزبير اقامة عبد الله في أرض مجاورة للكلك شمال بحر العرب . ولم يبض على قراره هذا كثير حتى تلقى خطابا من عبد الله في منفاه جاء فيه «لقد رأيت في المنام أنك المهدي المنتظر واني أحد أتباعك، ولهذا فعليك أن نخبرني بما اذا كنت مهدي الزمان حتى أتبعك » . ولكن الزبير رفض أن يقوم بدور المهدي ومن ثم انقطعت المراسلات بينهما .

وفي خلال الاضطرابات التي تلت فتح دارفور ترك عبد الله المكان الذي أقام فيه واتجه الى الحجاز ومعه أبوه وبعض الاتباع . ثم انصرفوا

(١) شقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص ٧٠ - ٧٢ وطبعة بيروت ص ٥٨١ نقلًا عن قريب للزبير ،

Slatin : Fire & Sword pp. 127-9

(٢) اشتهر باسم تورشين أى الثور القبيح نظرا لقبح شكله كما ذكر شقير

Slatin : Fire & Sword. p. 127.

(٣) ويطلق على هرون اسم يوسف خطأ كما يطلق على السنوسى اسم السمانى خطأ . كما ذكر أن اسم تلك الأخت فاطمة .

عن حجهم بعد دخولهم أرض قبيلة الجمع (١) على النيل الأبيض شمال
شرقى جبال النوبا حيث أحسن استقبالهم رئيسها عساكر أبو كلام . وهنا
توفى محمد آدم ودفن . وبعد بعض الوقت غادر عبد الله الجمع وذهب
الى المسلمية للانضمام الى محمد أحمد . وقد وصف فيما بعد لسلطين
قسوة هذه الرحلة وكيف أن فقره قد جرده من كل ما يملك باستثناء أتان
مئخن بالجروح والقروح وقد ازدراه أهل الجزيرة بظهوره الكريه ولهجته
الغريبة وهزأوا به خلال مسيرته . ولعل الكراهية التى كان عبد الله يكتنها
لقبائل النيل فى أيام قوته قد نبئت بدورها خلال هذه المرحلة .

وكانت الأحداث فى تلك الآونة تدفع بمحمد أحمد سريعا نحو
اعلان نفسه مهديا ومن المنطقى أن نعتبر انضمام عبدالله اليه عاملا فاصلا فى
هذا الاتجاه . وأن ما كان من أمر عبد الله الزبير ليكشف عن سعيه
الدائب بحثا عن مهدي من السودانيين . وقد ذكر سلاطين ما رواه له من
أنه تعرف على المهدي فى شخص محمد أحمد منذ مقابلتهما الأولى (٢)
ولكن محمد أحمد ما كان ليقبل أن يكون أداة سلبية فى يد تلميذه أو
تابعه فاتخاذ صفة المهدي يجب أن ينبع عن يقين داخلى ولو أن ظهور
عبد الله وادراك محمد أحمد لانتشار فكرة المهدي (المنتظر) وتوقع
ظهوره مما أدى الى تحويل فكره صوب هذا الاتجاه وجاء فيما
ذكره شقير أن محمد أحمد بدأ أثناء عودته من المسلمية الى آبا فى دراسة
التنبؤات القديمة عن المهدي محاولا الكشف عن أوجه المطابقة بينها وبين
نفسه . وقد أسند اعلان المهدي الى رؤية أو مجموعة من الرؤى . ونقل
محمد أحمد سر الاختيار الالهى أولا لعبد الله ثم لبقية تلاميذه وأتباعه فى

(١) أخطأ سلاطين وأطلق على هذه القبيلة اسم Gimir.

Slatin : F & S. p. 123

وهؤلاء يسكنون فى شمال دارفور ويعرفون باسم Qimir

Ibid : F & S. p. 131.

(٢)

ربيع الثاني ١٢٩٨ هـ (مارس ١٨٨١) (١) •

ويعتبر ابلاغ المهدي سرا لعدد صغير من الأتباع المخلصين الخطوة الأولى لإعلان المهدي التي تليت بزيارة ثانية لكردفان تست في الغالب وفقا لنصيحة من عبد الله لتحقيق غرض مزدوج هو التعرف على اتجاهات الرأي العام في السودان الغربي ثم اكتشاف مكان يصلح لالتجاء جماعة المهدي الناشئة (٢) • وفي كردفان زار محمد أحمد الشخصيات البارزة متخذاً مقامه لدى محمد المكي بن اسماعيل شيخ طريقة الاسماعيلية ولدى عائلة صالح سوار الذهب وهو أحد رجال الدين المعروفين بين الجعليين وهو الذي صاحب محمد عثمان الميرغني الأول الى الأبيض حيث وافته المنية في عام ١٨٧٥ • وهنا أعلن محمد أحمد للشقيفين من رجال الدين أنه للمهدي معززا ذلك بما تراءى له في الرؤى والأحلام بالإضافة الى ما جاء بالأحاديث القديمة عن المهدي - وعندما التف حوله عامة الناس خاطبهم بعاطفة متقدة محرضا اياهم على الزهد في هذا العالم والاهتمام بالعالم الآخر • كما أسر لهم أيضا بما كان من منح النبي له صفة المهدي وحصل سرا من أتباعه الجدد على يمين يؤدونه بالولاء أو « بيعة » يبايعونه بها وأعطاهم صوراً مكتوبة منها للاحتفاظ بها لحين اعلان أمره • وفي طريق عودته لأبا قدم له العهد كثير من رجال الطرق الدينية وشيوخ القبائل المتنقلة • واخترق في ذلك الطريق أيضا مملكة تقلى (تنطق القاف جيما قاهرية) في جبال النوبا وهي مملكة اسلامية صغيرة على أطراف بلاد النوبا الوثنية وراسل ملكها مك آدم أم دبلو طالبا منه تأييده • ولما كان

(١) يبدو أن هذا التاريخ كما ورد في (شقير : تاريخ ج ٣ ص ١٢٠ ، ديتريش ص ٢١٧) أصوب من التاريخ الذي أعطاه الرافعي : مصر والسودان ص ٩٤ وهو شعبان سنة ١٢٩٧ الموافق يوليو ١٨٨٠ ، وخاصة وأن هناك خطا من محمد أحمد تاريخه ذو القعدة سنة ١٢٩٧ (يوسف ميخائيل مجموعة ٢ محفظة ١) لا توجد به إشارة للمهدي .

(٢) لمزيد من المعلومات عن زيارته الثانية لكردفان يمكن الرجوع الى :

شقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص ١٢١ وطبعة بيروت ص ٦٤٤ .

ديتريش : ص ٢١٧ - ٢١٨ .

سلاطين : F. O. S. ص ١٣٢ - ١٣٣ .

وهناك عرضا أشمل في مذكرات يوسف ميخائيل (١) - ص ٢٥ .

ملك آدم يتمتع بجانب كبير من الحرية الادارية والاستقلال عن الحكومة المصرية فانه لم يشأ الارتباط به مؤثرا الابقاء على حياده الودى .
- ولكنه كسواه من الأشخاص العالمين بسر المهديّة الذي تم اعلانه -
لم يحاول ابلاغ أمرها الى الحكومة ورجالها .

وقد جاءت الخطوة الثالثة فى المهديّة عقب الثانية مباشرة - فقد تم اعلان ظهور المهدي فى جزيرة آبا . حدث هذا فى أول شعبان سنة ١٢٩٨ هـ الموافق ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ عندما أرسل محمد أحمد مكاتبات للرجال المعروفين متخذاً لنفسه لقب محمد المهدي ومناديا الأتباع بالانضمام اليه . ورغم أنه كان من المحتّم أن يؤدى مثل هذا الاجراء الى صدام مع الحكومة الا أن النداءات التى بعث بها فى سنة ١٢٩٨ هـ لم تركز كثيرا على فكرة « الجهاد » ضد أعداء المهديّة بل دعت أتباعها الى واجب آخر هو « الهجرة » أى الهرب للافلات بعقيدتهم بعيدا عن الكفرة وفى حمى المهدي (١) ونداء الهجرة هو أول مثل على تأثر المهدي باتجاهات الرسول وسنجد لذلك أمثلة أخرى ولكن محاولة المهدي الافادة من التشبه بسلوك النبى لم يكن عن تقليد أعمى فقد كان هو وأتباعه يمارسون فى حياتهم وعلى أنفسهم المشقات التى عاناها فى أيامه الأولى ، وكذلك الانتصارات التى حصل عليها ، وكان احساسهم بأنهم يلعبون دورا فى هذه الدراما الكبيرة مصدر الهام لهم وبالإضافة الى ذلك فقد أفاد المهدي بذلك من السوابق النبوية مسترشدا بها خلال الصعاب التى

(١) (١) جاء فى كتاب المهدي الى الشيخ محمد الطيب البصير (أول شعبان ١٢٩٨ هـ شقير ص ٦٤٨ ومذكرات النجومى ص ٤٣) . « ولازم تشجع الأهل الى الهجرة البنا ولازم تزهد المحبين عن الأوطان والأحوال فان الدنيا غرور ... »

(ب) وجاء فى كتابه للحاكم العام ١٢٩٨ هـ (الوثيقة السابقة محفوظة ١٣) وشقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨ وطبعة بيروت ص ٦٥١ - ٦٥٢ ، ديتريش ص ٢٢٩ « ان دعائى الخلق على تقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية ... » .

(ج) وجاء فى كتابه للشيخ دفع الله البكاوى سنة ١٢٩٨ هـ (مذكرات النجومى مخطوطة ١٢٦) ما مفهومه ان تغيرات الزمن واهمال السنة من الأمور غير المجهولة لديهم .

واجهته في حركته • وأخيرا فمن الممكن أن نلاحظ أن هذه الهجرة في سبيل العقيدة لم تكن الا نوعا من التسامى برد الفعل التقليدى للظلم والاستبداد كما جرى في السودان ، أى الهجرة الجماعية لقبيلة من موطنها الأصلي الى الأطراف بعدا عن النفوذ المصرى كما حدث عندما هرب مك نمر والجعلين من انتقام الدفتردار الى حدود الحبشة •

ويقتطف لنا شقير بعضا مما جاء بكتاب المهدي الى أتباعه ، داعيا اياهم للهجرة معه عند حلول شهر رمضان (١) • وهذا يكشف لنا عن مدى التخطيط الدقيق للظهور في آبا • وشهر واحد كان كافيا لاعداد أتباعه المبعثرين ، فقد كانوا خفافا في رحيلهم ••• ليس لديهم من حطام الدنيا الا القليل وحتى اذا ما نقل أمر هذا التحرك للإدارة فانه سيتعذر على البيروقراطية السائدة في الخرطوم اتخاذ اجراء مضاد على وجه السرعة وبالإضافة الى ذلك فان صوم شهر رمضان كفيل بتأخير المواجهة الادارية والعسكرية • ووافق حلول شهر رمضان من ذلك العام قمة موسم الأمطار عندما يصبح الانتقال برا أو الابحار في النيل أمرا شاقا ، ويؤدى الصوم في جو غير ملائم الى المرض والخمول ، وفي هذه الظروف يتفوق الرجل القبلى ذو الحمل الخفيف الذى اعتاد من الحياة وجهها القاسى - وهو النوع الغالب بين أنصار المهدي - قدرة وحركة على جنود الادارة المصرية •

٣ - الهجرة الى جبل قدير :

على فرض فيما لو كان المهدي في هذه المرحلة قد صمم على الهرب لا المقاومة ، فان الاجراءات التى اتخذتها الادارة قد أدت الى ما يقرب

(١) شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٣ ص ١٢١ وطبعة بيروت ص ٦٤٥ أيضا ديتريش ، ص ٢١٩ •
وقد جاء في كتابه هذا « وقد أمرنى سيد الوجود (ص) بمكانة المسلمين ودعوتهم الى الهجرة معنا الى محل يكون فيه قوام الدين واصلاح أمر الدارين •

ملحوظة : معظم كتاب ديتريش عبارة عن ترجمة للألمانية لجزء من كتاب نعم شقير الخاص بالمهدية وأحداثها . P. M. Holt p 250.

من قلب هذه الخطة . فقد سبق للشيخ محمد شريف أن جذر محمد رءوف باشا حاكم السودان من خطورة الأحداث الجارية في آبا ولكن هذا لم يبال كثيرا بالتحذير ظنا منه بأن الدافع اليه هو العداوة القائمة بين الزعيمين الدينيين . ولكن تأكدت هذه القصة عندما وقعت بعض مراسلات المهدي ومنشوراتها في يدي رؤوف باشا . وعندما أرسل لآبا من يبحث الموقف على الطبيعة أكد لهم محمد أحمد إيمانه برسالته المقدسة باعتباره المهدي المنتظر وهدد بمحاربة كل من لا يؤمن بها (١) . وعندئذ جمع رؤوف مجلسا من العلماء الذين اتفقوا معه على أهمية اعتقال محمد أحمد للحيلولة دون انتشار هذه العقيدة الضالة . وبناء عليه أرسل مساعده محمد بك أبو السعود لاستدعاء المهدي الى الخرطوم . فوصل أبو السعود الى آبا في ١١ رمضان ١٢٩٨ هـ (١٨٨١/٨/٧) ولكن المهدي أبى نهائيا الاستجابة لنداءاته فعاد بخفى حين .

وعندئذ فقط بدأ رؤوف يتصرف بحزم فأرسل آبا السعود مرة أخرى في مركب بخاري مع فرقتين من الجند للقبض على المهدي بالقوة . فوصلت الحملة آبا في ١٦ رمضان (١٢ أغسطس) ولكن غلب على تلك العملية سوء التخطيط . فقد استغل المهدي الفترة الماضية في استدعاء أتباعه المحليين حتى تجمع له منهم فريق يقرب من ٣٥٠ رجلا مسلحين بالعصى والسيوف والحراب وتصرف ضباط كل من الفرقتين بمعزل عن الآخرين فضل الفريقان السبيل خلال مسيرتهم ليلا . ومن ثم باغت المهديون الحملة وأجهزوا عليها برغم تفوقها في السلاح . وأفلت من استطاع عائدا الى المركب حيث كان في انتظارهم أبو السعود واتخذوا طريقهم للخرطوم . أما المهديون فواروا قتلهم الاثنى عشر الثرى وعبروا في مساء اليوم التالي النهر الى ضفته الغربية مهاجرين الى كردفان .

وقد ارتبكت الادارة نتيجة انتصار المهدي في هذه المناوشة على حين

(١) رسالة للحاكم العام : شقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨ وطبعة بيروت ص ٦٥١ - ٦٥٢ ديتريش ص ٢٠٩ ، يوسف ميخائيل مجموعة (٢) ص ٤ ، ص ١٣

فسر المهدي وأتباعه النصر بأنه معجزة • وحينئذ أرسل رؤوف ٥٠٠ جندي الى الكوة وأصدر أمرا لمحمد سعيد باشا في كردفان بتعزيزهم بقوات أخرى بعد أن رفض الاستجابة لندائه ببطاردة المهدي برجاله فقط وعندما توجه جند الحكومة الى آبا وجدوها خاوية فاتبعوا الطريق الذي اتخذته المهدي ولكن الأمطار الثقيلة وقفت حائلا دون اللحاق به • وعاد محمد سعيد الى الأبيض دون طائل في أوائل ذي القعدة (٢٥ سبتمبر) •

أما المهديون (أو الأنصار كما أطلق عليهم تشبها بالأنصار الذين عاصروا النبي) فكانوا يشقون طريقهم الآن نحو جبال النوبا • وفي طريقهم اليها وقع صدام بينهم وبين شيخ جبل الجراده (في ٣٠ ذي القعدة الموافق ٢٤ أكتوبر) انتهى بانتصارهم • وفي ٧ من ذي الحجة (٣١ أكتوبر) بلغوا هدفهم ، جبل قدير ، حيث استقبلهم حاكمه بالترحاب • وتمثلا بعهد الرسول واقتداء به أطلق المهدي على ذلك الجبل اسم جبل معزة • ولما كانت جبال النوبا تقع على أطراف كردفان وفاشودة فسرعان ما وصلت أنباء وصول المهدي لجبل قدير الى راشد بك أيمن حاكم فاشودة • واذا علم بسوء حال الأنصار وما أصابهم من مرض وأعياء قرر أن يباغتهم فورا رغم امتناع رؤوف عن الاذن له بذلك • وتقدم بقوة تتكون من ٤٠٠ جندي نظامي (١) ، ١٠٠ من الشيلوك تحت قيادة زعيمهم - وقد جعل مسيرته سرية على أمل مباغته المهدي ، ولكن امرأة من كنانة نقلت أنباء تقدمه الى الأنصار ومن ثم أعدوا لهم كميناً وفي ١٦ محرم ١٢٩٩ (٩ ديسمبر ١٨٨١) بوغت قوة راشد بك وأييدت كما قتل راشد بك نفسه ووقع جانب كبير من السلاح وغيره من الغنائم في أيدي الأنصار • واعتبر هذا النصر لثاني مرة على قوة الحكومة بمثابة معجزة ثانية ، مما كان له شأن كبير في تزايد مكانة المهدي •

ولعل رؤوف كان مبالغاً في الحيلة خاصة عندما منع محمد سعيد

(١) شقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص ١٣٢ وطبعة بيروت ص ٦٥٧ .

شبيكة : British Policy ص ٣١ يقول انهم ٣٥٠ جنديا نظاميا + ٧٠ غير نظاميين •

من اتمام غرضه الأساسى وهو ملاحقة المهدي في أول هجرته ولعله كبقية رجال الادارة استهان بجدية الثورة . ومع ذلك فانه قبض على زمام الأمور بحزم ولا يمكن توجيه اللوم له بسبب فشل بعثة راشد التى سارت رغم أوامره وعقب هذه الكارثة استنجد بمصر طالبا الامداد ولكن استنجاده لم يجد من يصغى اليه بسبب انشغال مصر بالثورة العرابية وأحداثها ، وفي مارس ١٨٨٢ قررت الحكومة المصرية اتخاذ أيسر الحلول باستدعائه وتمت مواجهة أزمة السودان على الورق بتعيين عبد القادر حلى (١) وزيرا لشئون السودان . وبعد شهرين توجه (عبد القادر حلى) الى الخرطوم باعتباره حاكما عاما .

وآلت الأمور في هذه الفترة (بين استدعاء رؤوف ووصول عبد القادر حلى) الى جيجار باشا وهو فى الأصل ضابط ألمانى التحق بخدمة الحكومة المصرية . وقرر جيجار القضاء على المهدي بحشد القوات الموجودة فى السودان . وسحت له حكومة القاهرة بحرية التصرف فجمع قوات الخرطوم وسنار والأبيض على النيل الأبيض . وكان بين ضباط قوة كردفان عبد الله دفع الله شقيق العدو القديم لآلياس باشا . وقد صاحب سوء الطالع فرقه منذ سقطت طيلة عبد الله دفع الله الى الأرض من الجمل الذى كان يحملها خلال الاستعراض الذى قامت به قبل مسيرتها . ورغم أن أحمد بك دفع الله سارع بنحر ثور فداء عن الفرقة وردا لسوء الطالع الذى صاحبها الا أن رجال الأبيض بدأوا مسيرتهم بنفوس كسيرة (٢) . واذ اقترب موسم الجفاف أصبح فى امكان الحملة التقدم ولو ببطء تحت قيادة يوسف باشا حسن الشلالى . ولم يحسن القائد بصفة عامة تقدير قوة أعدائه ومداهما وما هم عليه من فطنة وتقان . وفى الطريق الى قدير قبض على اثنين من جواسيس المهدي . واذ عذبوا حتى الموت أمام

(١) عبد القادر حلى سورى الأصل له خبرة سابقة طيبة بالشئون العسكرية بالسودان .

(٢) يوسف ميخائيل مجموعة (١) ص ٣٤ ، ٣٥ .

جبنوده استقبلوا الموت بشجاعة فادرة أثارت عطف الحاضرين • وأرسل الشلالى خطابا للمهدى يطلب منه التسليم والخضوع • ومع أن هذه الرسالة فقدت فإن رد المهدى الذى كتب فى ٤ رجب سنة ١٢٩٩ هـ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٢) يرينا الفارق بين فكر كل من القائدين وقدرته • وقد جاء به «وقولكم ما اتبعنا الا البقارة والجهلاء والمجوس ، فاعلموا أن أتباع الرسل من قبلنا وأتباع نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) الضعفاء والجهلاء والأعراب الذين كانوا يعبدون الحجر والشجر وأما العلماء والأغنياء وأهل القوة والترف فلم يتبعوهم الا بعد أن يخبروا ديارهم ويقتلوا أشرفهم ••• فانه ليس بيننا وبينكم الا السيف ولسنا محتاجين الى مراجعتكم حتى نرسل لكم العلماء ليدذكروكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر والحذر الحذر من المجاورة ثانية فاننا لا نرد لكم جوابا وما دمت منكرين ولو حاربتمونا طول السنين فليس لكم عندنا الا الرماح والطعان ••• » (١) •

وتقدم الشلالى غربا ، ومع تقدمه هذا تزايد أعباء رجاله الى أن عسكروا بجوار قدير ولم يتخذ الجند الاحتياطات العادية من اقامة « زريبة » أو حاجز من الأشواك حول معسكرهم ليقبضهم شر المباغنة • وعندما هجم الأنصار فجر يوم ١٢ رجب (٣٠ مايو) (٢) حصلوا على نصر حاسم لثالث مرة اذ قتل الشلالى وعبد الله دفع الله وأبيد فى الواقع جميع رجال القوة • وترتب على هذا اضافة مزيد كبير من الغنائم الى موارد المهدى القليلة وتوجيه ضربة قاضية الى مكانة الحكومة المصرية وجيشها • كما اكتسب الأنصار ، الذين بلغ عددهم (وفقا لتقدير شقير) بعد معركة آبا نحو ٨ آلاف ، أتباعا جدد معظمهم من قبائل الغرب على

(١) نجومى محفظة ٢٣ ، يوسف ميخائيل مجموعة ٢ ص ٧ •
شقير : تاريخ . طبعة مصر ج ٣ ص ١٣٣ - ١٣٧ وطبعة بيروت ص ٦٦٢ - ٦٦٤ - ديتريش ص ٢٣١ - ٢٣٧

Slatin : F.&S. P. 143
& Shihelika : British Policy 39

(٢) يعطى كلاهما يوم ٧ يونيو تاريخا للمعركة • بينما يحدد شقير يوم ١١ رجب (٢٩ مايو) تاريخا لها • وتأكد تاريخ المعركة باعلان المهدى فى ١٢ رجب عام ١٢٩٩ • (مذكرات النجومى ص ٢٣) •

وجه الخصوص • وأعيد « مادييو على » شيخ الرزيقات الى قبيلته حاملا معه لقب أمين الذى أضفته عليه المهدية ليثير دارفور ضد الحكومة وسرعان ما بدأ بتوجيه ضرباته الى سلاطين النسساوى الذى كان حاكما عاما للاقليم •

٤ - الجهاد حتى سقوط الأبيض :

رأى المهدي فى ذلك الحين أن الوقت أصبح مناسباً للتقدم نحو كردفان عاصمة الاقليم - والهجوم على الأبيض • وكان الطريق ممهدا أمامه فى الواقع - فقد كان على اتصال دائم بالياس باشا كما أن القبائل الرئيسية فى الاقليم كانت قد ثارت على الادارة المصرية • وأرسل المهدي مبعوثا خاصا من طرفه هو عبد الله ود النور لتنسيق ثورات القبائل وتحويلها الى حركة شعبية ضد مراكز الادارة • وأهم القبائل التى اشتركت فى الثورة اذ ذاك هى الحمير (١) بقيادة مكى ود ابراهيم والبديرية تحت زعامة عبد الصمد أبو صفية ، والحوازمة (٢) بزعامة نواى ، والغدايات بزعامة اسماعيل الأمين الدلدوك والجوامعة (٣) بزعامة رحمة محمد منوفل والمئة اسماعيل • ومن هؤلاء الرؤساء أو الزعماء كان اثنان هما عبد الصمد أبو صفية واسماعيل الأمين الدلدوك حليفين لالياس باشا فى حربه ضد على كاثونة وبماكاننا أن نستنتج أن مصلحته كانت حاسمة فى جعلهما يخوضان القتال الى جانب المهدي •

وقد بدأت الاضطرابات فى كردفان فى صورة انتفاضات منفصلة قام بها البدو ضد المراكز الحكومية • وينسب يوسف ميخائيل الى المهدي الكثير من الاشارات التى تكشف برغم غموضها واستتارها أحيانا

(١) Macmichael : Arabs in Sudan, 111. 4, xvii-xxi; Tribes of kordofan, 156-64.

(٢) Macmichael : Arabs in Sudan, 111. 1, vi-vix; Tribes of kordofan, 68-75.

(٣) Macmichael : Arabs in Sudan, 111. 3, ix-x; Tribes of kordofan 149.54,

(٤) Macmichael : Arabs in sudan, 111. 1, xxx-xxxv; Tribes of kordofan, 76-84,

عن أهدافه منها قوله للقبائل ورجالها « أنا المهدي خليفة نبي الله • امتنعوا
عن دفع الضرائب للترك الكفرة • وكل من يجد تركيا فليقتله فالترك
كفرة » (١) واشتدت حدة الثورات القبلية وازداد خطرها بمجيء عبد الله
ود النور • وفي أول جمادى الثانية ١٢٩٩ هـ الموافق ٢٠ أبريل
١٨٨٢ (٢) هاجمت جماعات من الحمر والبديرية مدينة أبو حراز
فسقطت في أيديهم بعد أن قتلوا الكثيرين وأسرفوا في السلب والنهب
وكن فريقا من الجند الذين كانوا يجتمعون الضرائب من الحمر استطاعوا
شق طريقهم بصعوبة عائدين الى الأبيض • وازاء احتشاد الحمر والبديرية
مع الحوازمة والغدايات في البركة تحت قيادة عبد الله ود النور ، أرسلته
حملة من الأبيض لتفريقهم ، فاشتبكوا معها في ثلاث معارك في نهاية
جمادى الثانية وأول رجب (منتصف مايو) ولكن في ١٢ رجب (٣٠ مايو)
عادت القوات الى الأبيض (٣) وهذه الحادثة تكشف لنا عن
الضعف الدفين في التنظيم العسكري للإدارة • ففي جميع العمليات
العسكرية تفوقت القوات الحكومية على الحشود الكبيرة من القبليين
بفضل مدفعيتها وأسلحتها النارية فضلا عن نظامها ولكن أعداءها كانوا
ينفوقون عليها في الصلابة والتفاني وعدد الرجال ، ولهذا - فكما حدث
في هذه العملية - عجزوا عن تعزيز انتصارهم وتحتم عليها في النهاية
الانسحاب الى قاعدتها الحصينة بينما تجمعت القبائل استعدادا لجمولة
جديدة •

وبالإضافة الى ذلك فقد كان على القوات الحكومية أن تواجه
هجمات متلاحقة في نقاط متفرقة ففي ٧ رجب (٢٥ مايو) استطاع رجال

(١) يوسف ميخائيل (١) - رقم ٢٦ •

(٢) نقلا عن تقرير كردفان - ويحدد شقير لهذا الحادث ١٠ أبريل

١٨٨٢ •

Slatin : F. & S. p. 146.

(٣)

ذكر أن الفرق العسكرية فقدت الكثير للدرجة التي قربتها من الهزيمة
كما ذكر أن هؤلاء العرب عاودوا التجمع وهاجموا بركت حيث ذبحت كل
الحامية المكونة من ٢٠٠٠ - أما تقرير كردفان فيذكر أن الضحايا لم تبلغ
الـ ٢٠٠ • ورغم ذلك فإن النصر المصري لم يكن حاسما على المدى البعيد •

من قبائل أخرى الاستيلاء على بلدة أصحف في شمال كردفان • وهوجوم المدد الذي أرسل من بارا - المدينة الثانية بعد العاصمة في الاقليم - وقضى عليه ، كما انسحب قائده النور بك عنقرة بعد أن سقطت طبوله الحربية في أيدي الأعداء ، وبذلك أحرق الخطر بارا نفسها • وبزعم نجاح حملة أرسلت في شهر رجب في تغريق حشد للجوامعة تحت رحمة محمد منوفل إلا أن جميعا متحدا من عدة قبائل تحت قيادة عبد الله ود النور استطاع مهاجمة المدينة في ٧ شعبان (٢٤ يونيو) ونجحت الحامية التي وصلتها امدادات من الأبيض والخرطوم في رد العدو مهزوما ولكن أعقب هذا الانتصار سحب معظم الامداد وأرسالها الى الأبيض على أن الادارة أمسكت ببادرة الهجوم لبعض الوقت • وأمكن لحملة من بارا معززة بنجذات من الأبيض القيام بثلاث هجمات على القبائل المحتشدة حتى استطاعت ازاحتهم بعيدا عن المدينة • وبينما تجرى هذه العملية احتشد جمع آخر من القبائل بقيادة المنة اسماعيل وهاجم حامية الطيارة في شرق كردفان • واذا عجزت هذه القبائل عن الاستيلاء على الموقع عن طريق الهجوم المباشر في ٥ ، ١٥ شعبان (٢٢ يونيو ، ٢٥ يوليو) فرضت عليها حصارا أدى الى سقوطها في ٢١ رمضان (٦ أغسطس) بعد هجوم ثالث عليها كما قضى بعد يومين آخرين على قوة مسلحة أرسلت من الأبيض لانقاذ هذه المدينة •

وازاء هذه التطورات استدعى محمد سعيد باشا القوة التي كانت تعمل ضد القبائل المحتشدة قريبا من بارا • وفي نهاية رمضان (منتصف شهر أغسطس) عادت قوة الأبيض الى قاعدتها (كما ذكرنا) • وفي هذه الأثناء أخذت القبائل تتجمع استعدادا لهجوم جديد على بارا التي بدىء حصارها على يد رحمة محمد منوفل • أما جيش المهدي الرئيسى فكان يتقدم آنذاك نحو الأبيض بعد أن ترك قدير في ١٢ رمضان (٢٨ يوليو) وهكذا تعرضت الحاميتان الأساسيتان بكردفان للخطر ولم يبق بالاقليم من الحاميات الأخرى سوى خورسى في الشرق ودلنج في جبال النوبا واستطاعت الأولى الانسحاب الى بارا في ١٦ أغسطس بينما سقطت الحامية الثانية في أيدي قوة مهدية في ١٤ سبتمبر •

وكان الموقف داخل الأبيض لا يدعو الى الأمل — فلم يكد الخطر يقرب منها حتى بدأ الانتهازيون من أمثال اخوة يوسف ميخائيل في جمع الغلال من المناطق المجاورة وتخزينها • ولم يحتط محمد سعيد باشا ضد هذا الاحتمال بل أنه رفض الشراء بالأسعار العالية التي سرت في ذلك الحين وقرر تقوية حصون المدينة وتكليف الأهالي بحفر خندق • أما الحالة المعنوية فكانت ضعيفة فمعظم التجار المسيحيين هاجروا الى الخرطوم عقب هزيمة الشلالى وتسرب السودانيون القادمون من النيل للخارج • وسمع الضابط المسئول عن حفر الخندق الأهالي وهم يتبادلون الحديث قائلين « انا نحفر قبورنا بأيدينا » بينما أفسد النزاع بين فريقى الياس باشا وأحمد بك دفع الله الحياة داخل المدينة • وبناء على رأى الأخير قرر محمد سعيد باشا — وكثيرا ما كان يأخذ برأيه — تحصين المنطقة التى تشتمل على الادارات الحكومية وحدها واخلاء باقى المدينة • وأكد أحمد بك للمدير اعتزامه وأسرته قيادة النازحين الى هذا القطاع كما نصحه باستدراج الياس باشا الى هذا الجانب من المدينة بحيث يصبح كل منهما (أى هو والياس باشا) رهينة عن الجعليين وناقش محمد سعيد هذا الرأى مع رجاله الذين كان جوابهم • « اذا وافق فلا بأس ، أما اذا لم يكن راغبا فى الدخول فدعه ينصرف معنا للشقاق حيث لا قدرة لنا عليه فى هذه الأيام » وبناء عليه استدعى المدير الياس وأمره بالاقامة فى المنطقة الداخلية مع أسرته • وعندئذ ضحك الياس فى حبور وقال : يا باشا هذا مكان خاص بالادارة وليس أسرة كبيرة ولا أستطيع الاقامة مع أولادى فى الأماكن الخاصة بالحكومة • « فصمت المدير وأكمل الياس أم برير قائلا « سأعود اليك بعد استشارة أبنائى » ثم حيا منصرفا ولكنه لم يعد (١) •

وفى طريق المهدي للأبيض انضم اليه عبد الله ود النور • وفى ١٧ شوال (أول سبتمبر) عسكر المهدي فى كبا على بعد ستة أميال الى

(١) مذكرات يوسف ميخائيل (١) — رقم ٤٣ •

انجنوب الغربى من الأبيض واستدعى المنة اسماعيل الذى حضر على رأس رجال قبيلته من الطيارة الى خورتكت فى شمال شرق المدينة وادى علم سكان الأبيض بضياح الطيارة الى انهيار روحهم المعنوية بحيث أصبحوا فريسة سهلة لدعايات المهدي . وكما هى عادة المهدي فى كل قتال أرسل فى ٢١ شوال رسولين بكتب^(١) لمحمد سعيد باشا وسكان الأبيض لدعوتهم الى التسليم ونصح الضباط محمد سعيد بشق الرسولين فوافق فوراً على تنفيذ هذه الفكرة الغادرة رغم انعدام جدواها . وفى مساء ذات اليوم انضم الجعليون الساخطون من أهالى الأبيض الى المهدي وعلى رأسهم من أتباعه القدامى الياس أم بربر ، وعبد الله بانقا ، ومحمد المكى بن اسماعيل ، وخالد أحمد العرابى ومحمد العريك^(٢) وواحد من أبناء صالح سوار الذهب . وهكذا ترك محمد سعيد فى المنطقة الداخلية مع حاميته وعائلة أحمد دفع الله وأتباعه بالإضافة الى بعض اللاجئين .

وفى ٢٤ شوال (٨ سبتمبر) قام جيش المهدي بهجوم عام على الأبيض . وأدى هجومه الأول الى فتح ثغرة فى الاستحكامات ولكن مثابرة المدافعين على المقاومة أكسبتهم النصر بعد ساعات من القتال وقد أدى الاحتماء بالاستحكامات واستخدام السلاح النارى فى القتال الى تفوق القوات المصرية وتغلبها على الهجمات العشوائية العنيفة التى قام بها رجال لا يملكون سوى السيوف والحراب والعصى وقيل أن الأنصار فقدوا عشرة آلاف رجل من بينهم اثنان من اخوة المهدي وأخ لعبد الله بالإضافة الى قاضى المهديّة « قاضى الاسلام » أحمد جبارة . وبينما هرب الأنصار الى كابا حرض أحمد دفع الله وآخرون محمد سعيد باشا على

(١) توجد صورة من خطاب المهدي لأهل الأبيض فى يوسف ميخائيل مجموعة (٢) ص ٢٣ وتاريخ هذا الخطاب (انظر نفس المرجع مخطوطة ٢٨) .
٢٦ شوال وهذا تاريخ متأخر وغير معقول وبمقارنته بما جاء فى كتاب يوسف ميخائيل (١) ص ٤٥ عن بقاء المهدي ٣ أيام مع اللاجئين الجعليين من الأبيض قبل معركة الجمعة يتضح خطأه .
(٢) هو رأس تجار الأبيض .

• مطاردة الجيش المهزوم • ولكن المدير رفض هذه النصيحة خشية أن يهاجم
المنة المنطقة الداخلية بالأبيض أثناء خروجهم •

وتعتبر معركة الجمعة كما أطلق عليها أول هزيمة أصيبت بها المهديّة
بعد انتصاراتها المتتالية وتأرجح الى حين مستقبل الثورة المهديّة • وقيل أن
عبد الله نصح بالارتداد الى قدير ، ولكن الياس الذى ارتبط بالمهديّة نهائيا
وتوقف مستقبله على نجاحها فى الاستيلاء على الأبيض أعطى نصيحة
كشفت عن تفهم أفضل للموقف اذ أشار على المهديّ بسحابة المدينة وبناء
عليه نقل المهديّ معسكره الى الجزيرة على أطراف الأبيض • وأصبح واضحا
اتجاه القيادة المهديّة العليا الى الأخذ بفن الحرب الحديثة فى قتالهم مع
المصريين وأصبحت الهجمات العشوائية لا تشمل الا نوعا واحدا من
وسائل النصر • ويبدو أن الحصار من حول بارا تم أحكامه فى تلك الآونة
وذلك بعد ارساله المنه اليها لمساعدة رحمة محمد منوف •

ولا يقل أهمية عن ذلك ما جرى من تجديد فى الأساليب الحربية • فقد
سبق للمهديّ - اصرارا منه على التشبه بعهد النبى - أن منع استخدام
الأسلحة النارية التى غنمها فى المعارك السابقة ، ومن ثم تم تخزينها
بقدير • والآن بحث عن هذه الأسلحة وأرسل جانبا منها الى القائمين
بحصار بارا أما بقيتها فاستخدمت فى تسليح قوة جديدة من غير العرب ،
عرفت هذه باسم الجهادية نسبة الى واقع تكوينها من جند الحكومة الذين
يحملون نفس الاسم (ومعظمهم جند من النوبا والقبائل الجنوبية) الذين
أسروهم الأنصار خلال القتال • ووضع الجهادية المهديون تحت قيادة
حمدان أبو عنجة من رجال قبيلة منداك الدين كانوا تابعين للتعايشة وسبق
لهم العمل مع الزبير باشا • وهكذا شملت قوة المهديّ الآن بالإضافة
الى الحشود القبلية الصغيرة التى ليس لها تنظيم والتى اعتسدت على
سلاحها البدائى ، نواة لفرق مدربة ومزودة بالأسلحة النارية تمارس تحت
أمره المهديّ حرفة الجندية التى تعلموها من المصريين • ومن المهم أيضا
أن قيادة هذه القوة قد عهدت الى رجل يدين بالولاء لعبد الله التعايشى •

وفي الخرطوم أدرك عبد القادر باشا حلى تماما خطورة الموقف في الغرب فأرسل قوة للانتقاذ تتكون من فرقتين نظاميتين ، ٧٢٥ من غير النظاميين . ولكن المهدي عرف بأمر هذه القوة وتقدمها وأمر بردم الآبار الواقعة على الطريق الى بارا والأبيض . وهكذا عانت الفرق الخارجة من الخرطوم الكثير أثناء تقدمها وعند اقترابها من بارا في أكتوبر ١٨٨٣ اعترضها المنة ورحمه مما أدى الى مقتل قائدها ونحو نصف الرجال بينما وفق الباقون في شق طريقهم الى بارا . ولكن المؤن المختزنة في بارا تناقص رصيدها اذ ذاك بصورة سريعة نتيجة اندلاع النار فيها بفعل أحد أنصار المهدي الذي أفلت ملتجئاً للأعداء بعد احراق مسكنه . وقرر مجلس من الضباط التسليم وتولى أمر المفاوضات النور عنقرة الذي الذي أرسل للمهدي رسالة يطلب فيها التسليم على ألا ينفذه المنة الذي كان أهل بارا يخشون سوء معاملته . وفي ١٧ صفر ١٣٠٠ (٢٨ ديسمبر ١٨٨٢) وصل عبد الرحمن النجومي الى ظاهر بلدة بارا وبدأ بمفاوضات مع النور . ولكن القائد رفض التسليم حتى ٢٦ صفر (٦ يناير ١٨٨٣) عندما فقد كل أمل في المدد أو الانتقاذ . وأعطيت عهود كافية للحامية التي حلفت بدورها يمين الولاء للمهدي في الجزيرة وارتفعت بذلك مكانة النور عنقرة في الدولة المهدي (١) .

وأضعف سقوط بارا الروح المعنوية لدى حامية الأبيض ، بينما كان للمعاملة الطيبة التي عومل بها الجند هناك تأثيرها على المترددين أما أهل المنطقة المحاصرة في الأبيض فأصبحوا في ضيق شديد وتعذر عليهم القيام بأي هجوم . وأدى تناقص المؤن الى تفكك كل تنظيم ممكن . ولكن محمد سعيد وكبار ضباطه ورجال الحامية ثبتوا باصرار يدعوا للاعجاب على المقاومة مع أن الموقف كان ميئوسا منه . وفي ٦ ربيع الأول ١٣٠٠

(١) جاء في شقير : تاريخ السودان ص ٦٩٧ ان المهدي ارسل اليهم عبد الرحمن النجومي بجيش كبير فسلموا له في ٥ يناير ١٨٨٣ فجاء بهم النجومي وبالمحاصرين الى ديم الجزيرة فقابلهم المهدي بجيش كثيف واطلق ٢٤ مدفعا اعلانا للنصر .

(١٥ يناير ١٨٨٣) أرسل المهدي ثانية داعيا للتسليم (١) ولكن رسوله اعتقل ولم يقدم للمهدي عن هذه الدعوة رد • وبعد ثلاثة أيام غير الضباط رأيهم وقرروا عقد اجتماع — للمجلس وافقوا فيه على التسليم للمهدي رغم أن محمد سعيد وأحمد دفع الله كان من رأيهم الاستمرار في المقاومة حتى النهاية •

وفي يوم الجمعة ١٠ ربيع الأول (١٩ يناير) توقف إطلاق النار ودخل المهدي على رأس أنصاره الى المدينة • وأم المهدي صلاة النصر في الجامع وأعقب ذلك البحث عن الكنوز المدفونة فبحسب المستويات المتواضعة لدى أهل السودان كانت الأيضم مستودعا لثروات خيالية • فبخلاف أموال الضرائب المكسدة في خزينة الاقليم اشتهرت منازل المدير ورجاله بما يمكن أن تخفيه من أموال حرام • وهناك أيضا أموال التجار الأجانب ومخازنهم بالاضافة الى الحلوى والأشياء الثمينة التي أخفيت كأمانة لحساب أولئك الذين لجأوا الى المنطقة الداخلية • ويصف أورفالدر الطريقة الوحشية التي اتبعت في البحث عن تلك الأموال بخلاف الطرق غير الشرعية التي استخدمها رجال القبائل • وقد اهتم المهدي بتنظيم الغنيمة وجمعها لكي يسلأ مخازن (بيت مال) جيش المهدي • وعهد بالإشراف على هذه العملية الى أحد أتباعه الأول واسمه أحمد سليمان وهو محسب كان يعاونه بعض الدناقلة • ومن ثم سيق الرجال والنساء والأطفال من المنطقة الداخلية بالأبيض الى مكان مكشوف حيث جرى عليهم وهم جياع عطاش تحت لفح الشمس تفتيش قاس قام به خالد أحمد العرابي ورجاله • أما المدير وكبار ضباطه فقد منحوا العفو من المهدي وحلفوا له بيمين الولاء • وعندما سئل محمد سعيد عما يخفيه من مال أنكر وجود شيء من هذا القبيل ولكن أحد الأتباع كشف عن

(١) يوسف ميخائيل مجموعة (٢) ص ٢٥ وقد نقل شقير هذا الخطاب خطأ في كتابه على أنه رد لطلب التسليم •
انظر شقير : تاريخ السودان وجغرافيته طبعة مصر (الجزء الثالث ص ١٦٦ وطبعة بيروت ص ٧٠١ - ٧٠٢) •

مخبأ أمواله وهكذا كشف عن ثروة تتراوح بين ستة آلاف جنيه أو سبعة ، صودرت فوراً لحساب بيت مال المهديه وخزintها .

وأدت محاولة محمد سعيد اخفاء أمواله الى زعزعة ثقة المهدي فيه ولكن المهدي عفا عنه ويقال أنه حاول بعد قليل ارسال تقرير عن التسليم الى الخرطوم موقع عليه منه ومن ضباطه ولكن أحد الضباط واسمه يوسف منصور أفشى السر فاحتجز التقرير . وبناء عليه أبعء الضباط وهرقوا بين زعماء القبائل فأرسل محمد سعيد الى الشيخ اسماعيل الأمين الدلندوك من الغديات حيث عذب بعد قليل حتى الموت بينما حكم بالموت في شكاً على أحمد دفع الله الذي كان من نصيب مادييو على زعيم ارزقات . وهكذا أخذ جماعة الياس أم برير بثأرهم من أعدائهم . وفيما عدا أولئك الأشخاص الذين شاركوا في محاولة الاتصال بالخرطوم عومل أهل الأييض معاملة طيبة . فجميع الأغراب (ويتصد بهم أولئك الذين من أصول غير سودانية أو مصرية بما فيهم المبشرون الذين كانوا في دلنج مثل أورفالدر) وضعوا مجتمعين تحت اشراف جورجى استامبولى وهو تاجر سورى اتخذ اسم محمد سعيد المسلمانى . وأدرج الذين كانوا في الفرق الحكومية وعرفوا بالجهادية تحت قيادة حمدان أبو عنجة وزودوا بالأسلحة النارية . أما جنود الحكومة السود فقد وضعوا تحت قيادة حسن حسين أحد المواليد ولكن لم يسمح لهم باستعمال الأسلحة النارية . ونقل المهدي مقر قيادته الى الادارات الحكومية القديمة بالأبيض وبدأ يعالج من هناك المشاكل التى تربت على هذا الاتساع الكبير فى أراضيه وقوته وثروته .

الفصل الثالث

معركة شيكان

١. المهدي ونشاطها في أرض الجزيرة :

ساد السكون أرض الجزيرة لأشهر قليلة بعد هجرة المهدي الى قدير وأن ظل عدم الرضا عن الادارة المصرية والعداء لها غير بادين . وعندما وصلت أنباء الى القوى والقبائل الواقعة بين النيلين عن انتصار المهدي على راشد أين والشلالي وجد مندوبو المهدي استجابة متزايدة للدعوة الى الجهاد وتنجت عن ذلك حركتا تمرد اتصفتا بضيق نطاقهما وشابهتا ما قام في كردفان من اضطرابات طارئة ولم تكن هذه الاندفاعات الثورية خطيرة في حد ذاتها لولا أنها عاصرت تهديدا أشد خطرا ، ألا وهو هجوم المهدي على سنار المركز الرئيسى للادارة المدنية العسكرية على النيل الأزرق . ولم تكن بسنار قوة مناسبة بعد أن نضب معين القوة التى كانت بها بعد سحب معظم رجالها حيث استخدموا في تعزيز حملة الشلالي ولم يبق بها الا ٧٥ نظاميا ، ٣٣ غير نظامى وقاد الثوار عامر المكاشف^(١) الذى اعتقل بأمر حاكم سنار وفرضت عليه غرامة باهظة لالتجاء شقيقه أحمد المكاشف وهو فقى معروف - الى المهدي . ووجد استجابة مباشرة وتأييدا لتمرده لدى بدو رفاة الهوى الذين امتنعوا عن دفع الضرائب التى فرضت عليهم . وهاجم سنار بنحو ثلاثة آلاف من العرب واستطاع الاستيلاء على جانب من المدينة ولكنه أصيب بجرح خلال القتال ومن ثم استطاعت قوات الحكومة استعادة المدينة في ٦ ابريل . ولم يمض على ذلك يومان حتى جدد عامر المكاشف الهجوم ونجح في قطع الخط البرقى المؤدى اليها . ولما كان حاكم سنار قد أحاط الخروطوم بالموقف فان جيكر - القائم بعمل حاكم السودان - أمر قوة مؤلفة من الجند غير

(١) يسميه شبكة يكاشفى ، ويسميه هل تكاشفى .

النظاميين - يقودها صالح أغا الملك الشائقي - بالتحرك من الكوة للنجدة والانقاذ ، ووصلتها القوة في ١٣ ابريل واستطاعت رفع الحصار عنها .

وتقدم جيجلر أيضا مع امدادات أخرى وفي طريقه واجه حركات التمرد والعصيان السابقة الذكر ولكنه لم يكت كثيرا بالاقليم بل عاد للخرطوم بينما واصل صالح الملك عملياته ضد أنصار المهديّة ونجح في تفريقهم في ٣ يونيو .

وفي هذه الآونة انتقلت القيادة العليا في السودان للحاكم العام الجديد عبد القادر باشا حلسي الذي وصل الخرطوم في ١١ مايو . وخصص كل جهده في سبيل اخفاء الثورة الآخذة في الانساع . واستطاع جمع ثلاث فرق نظامية من السودان الشرقي ووضع أكثر من ثمانية آلاف رجل من غير النظاميين في العاصمة كما أتم تكوين ثلاث فرق من السود اثنتان منهما تكوتا من رقيق أعتقه سادتهم والفرقة الثالثة من المجندين الذين جلبوا من اقليم بحر الغزال . ووضعت المراكز الأساسية للإدارة في حالة تأهب للدفاع كما عززت حامياتها ببعض الرجال من الفرق التي جمعت بالخرطوم وجرت حملة دعائية ووزعت منشورات لطائفة السودانيين وألح عبد القادر على الحكومة المصرية خلال شهري يونيو وسبتمبر لارسال الامدادات ولكن تعذر على عرابي وحكومته اذ ذاك نلبية النداء الأول أما الثاني فلم يصل في الواقع الى القاهرة الا بعد معركة التل الكبير . وفيما يتعلق بالموقف في سنار فان عبد القادر باشا وجد في سلوك بعض العاملين بها سواء من رجال الادارة أو من الكتبة ما يثير الشك في ولائهم فاستدعوا للخرطوم حيث ألقى بهم في النيل الأبيض جزاء خيانتهم ، كما استدعى حاكم سنار ووكيله بسبب ما أدى اليه الخلاف بينهما من آثار سيئة . وقد أراح جيجلر وعبد القادر بجهودهما التي تتم عن التصميم الخطر الذي تعرض له النيل الأزرق ولو الى حين وحينئذ انتقل مركز الثورة الى النيل الأبيض حيث أرسل المهدي مبعوثيه ومن بينهم الشيخ المضوى عبد الرحمن بعد هزيمة الشلالى .

وهذا الرجل من المحسن وقد درس في الأزهر واتخذ له مقرا في كركوج في أعالي النيل الأزرق وقد أوقع ظهور محمد أحمد وانتصاراته الأولى هذا الشيخ في صراع نفسى ، اذ كيف يحدد موقفه - باعتباره رجل دين متفقه بالإضافة الى كونه سودانيا - نحو هذا المواطن الذى يعمل مثله معلما دينيا والذى يدعو الى أفكار خارجة عن العقيدة ويحارب في نفس الوقت دفاعا عن العقيدة محرزا نصرا تلو آخر • وأخيرا قرر المصوى الهجرة الى قدير حتى يحكم على الأمر بنفسه • وقرر هناك كما ذكر لشقير في عام ١٨٩٠ أن ادعاءات المهدي غير صحيحة ولكنه أخفى عدم تصديقه اياه بذلك فخدع به المهدي وكلفه بقيادة البعثة الى الجزيرة واتجهت البعثة الى الجبلين على النيل الأبيض حيث قابلهم جمع من المتحمسين من قبيلة رفاعه الهوى • واذ وجد المصوى فرصة مناسبة هرب الى الخرطوم حيث غير موقفه ثانية فيما بعد •

وعندما علم عبد القادر حلسى بهذا الخطر الذى ترتب على تجمع الأنصار على النيل الأبيض أمر بجمع قوة من غير النظاميين ومن رجال القبائل فى الكوه • وأدى الاشتباك الذى حدث فى الجبلين فى أواخر شعبان ١٢٩٩ هـ - منتصف يوليو ١٨٨٢^(١) الى هزيمة القوات الحكومية، بينما عاد القائد الى الدويم التى تمثل مركزا حكوميا على النهر على بعد ٨٠ ميلا من الخرطوم ونجح مبعوثو المهدي خلال هذه الفترة فى إثارة المنطقة المحيطة بالدويم وسقط المركز الحكومى فى الشط فى أيديهم فى ٨ أغسطس على حين أمكن بنجاح صد هجومين مهديين على الدويم وقع آخرهما فى ١١ نوفمبر وذلك بفضل مساعدة قوة وصلت من الخرطوم تحت قيادة جيلجر باشا •

وهكذا فما وافت نهاية عام ١٨٨٢ حتى أمكن وقف زحف الأنصار على النيل الأبيض ولو بصورة مؤقتة ولكن لم تكد الادارة تستعيد

(١) يتبع هذا الكتاب التاريخ الوارد فى شقير طبعة مصر ج ٣ ص ١٤٨ • وطبعة بيروت ص ٦٧٨ - ٦٧٩ أما شبيكة فيحدد تاريخ للمعركة على أنه حوالى ٥ أكتوبر •

مكائنتها في احدى الجهات حتى تعرضت للخطر في جبهة أخرى -
اذ حدثت ثورة محلية آتئذ في غرب الجزيرة ترعها فقى اسمه فضل الله
ود كريف الذى قطع الخط البرقى بين الكوة والمسلية كما هزم قوة
ارسلت من الكوة في منتصف شهر ديسمبر • وفي تلك الأثناء أرسل
المهدى أحمد المكاشف لمهاجمة سنار وبعد دخوله الشط وفشله في
الاستيلاء على الدويم - كما سبق أن أشرنا - اتخذ لنفسه مركزا على النيل
الأزرق شمال سنار وقطع الخط البرقى بين هذه المدينة والخرطوم •

وقد قرر عبد القادر باشا - الذى كانت قد وصلتته امدادات من
مصر - اتخاذ خطة الهجوم وقاد بنفسه قوة للانتفاذ الى سنار • فغادر
الخرطوم في ٢ يناير سنة ١٨٨٣ وتقدم مخترقا غرب الجزيرة • وفي طريقه
اتصل بالزعماء المحليين ونصحهم بالابقاء على ولائهم لمصر وقد اختار
عبود قاعدة له وركز فيها قواته • ومن هناك تحرك الى معتوق في شرقى
الجزيرة حيث هزم الثوار الذين كان يقودهم فضل الله ود كريف في ٢٧
يناير • ثم توجه الى الكوة حيث أرسل منها قوة عبر الجزيرة الى واد مدنى
ومع أن عبد القادر عاد بالمركب البخارى الى الخرطوم الا أنه لحق في فبراير
بقواته في واد مدنى لانتفاذ سنار • وعززت القوة الموجودة هناك بفرسان
الثكرية تحت قيادة الشيخ عوض الكريم أبو سن • وعند مشرع الداعى
على بعد ٢٠ ميلا شمال سنار حدث الاشتباك في ١٦ ربيع الثانى سنة
١٣٠٠ هـ (٢٤ فبراير ١٨٨٣) وهزم الأنصار فيه هزيمة ساحقة • ودخل
الحاكم العام سنار في اليوم التالى بعد أن أرسل صالح أغا الملك لمطاردة
الثوار فلحق بقوتهم الرئيسية في قلب الجزيرة حيث حصل على نصر حاسم
عليهم ومر عبد القادر باشا عقب انتصاره بالمناطق الموجودة على الضفة
الغربية للنيل الأزرق حتى كركوج ثم عاد سالكا جانب الضفة الشرقية له
حتى الخرطوم مقرا للسلام والسكينة في البلاد حيثما مر • وعند عودته
للخرطوم استدعى الى مصر وخلفه علاء الدين باشا صديق وهو مصرى
من أصل شركسى وقد وصل للخرطوم في ٢٠ فبراير •

٢ - حملة هكس :

أدى الاحتلال البريطاني لمصر عقب معركة التل الكبير في سبتمبر ١٨٨٢ الى مزيد من الارباك للسلطات الموجودة في السودان . وكانت الحكومة البريطانية في ذلك الحين مخلصه في عزمها على تحديد مسؤولياتها ازاء أملاك الخديوى وانهاء الاحتلال في أقرب فرصة ممكنة . ورغم أن الموظفين البريطانيين في القاهرة أدركوا خطورة الحركة الثورية في السودان ونقلوا وجهة نظرهم هذه الى وزارة الخارجية الا أن الحكومة البريطانية رفضت التدخل بشدة كما رفضت الاقتراحات الخاصة باستخدام فرق بريطانية أو هندية في السودان . ومع ذلك أرسل مسئول بريطاني هو ليفتانت كولونيل ستيوارت الى الخرطوم في شهر نوفمبر ليدرس الموقف عن كثب ويكتب عنه تقريرا وان حصرت مهمته بحيث « لا يجوز له بأى حال التدخل في الشؤون العسكرية » وقد نجح ستيوارت في توليد صلاته الودية مع عبد القادر باشا حاسى واعترض بشدة على استدعائه واذا كانت بريطانيا رفضت اقحام نفسها في مسئوليات السودان الا أن ذلك لم يمنع حكومة مصر من بذل جهد جاد لتصحيح الموقف هناك . فعمل الصود في وجه المهدي وحركته ينقذ مكانة محمد توفيق ووزرائه الذين لم يكونوا سوى أدوات تتحكم في تحريكها سلطات الاحتلال بمصر . وسرعان ما أعدت حملة وما حل ديسمبر حتى وصلت التعزيزات الأولى الى الخرطوم ووضعت خطط عدة لقيادة القوات السودانية .

واستقر الرأى في النهاية بعد استدعاء عبد القادر باشا الى اسناد القيادة المدنية الى علاء الدين باشا صديق بينما تركت القيادة العسكرية العليا لشركسى يكبره سنا هو سليمان باشا نيازى على أن يعاونه انجليزى هو الكولونيل وليم هكس باعتباره رئيسا لأركانه .

ولم تبد حكومة بريطانيا اعتراضا على تعيين هكس وهو ضابط بريطانى متقاعد سبق له العمل في الجيش الهندى وكانت التزاماته الجديدة متصلة بالحكومة المصرية والعلاقة الوحيدة التى نشأت بينه وبين الحكومة البريطانية جاءت نتيجة ما كلف به من استلام الشفرة

التي كان يحتفظ بها ستيوارت واستخدامها في الإبلاغ عن شحنومات
انتهى تصل الى علمه ، ولم تكن الحكومة البريطانية مسئولة بأى شكل
عن ارسال حملة كردفان لقتال المهدي وكان أسوأ ما في الموقف
استدعاء عبد القادر باشا الذي خبر العدو وأثبت جدارة في الميدان .
واستطاع تخفيف الخطر المباشر على الخرطوم مما كان يمكن أن يتيح
فرصة لمشروع التقدم غربا . أما الآن فان سلطاته وزعت بين ضابطين
اقتصرت خبرتهما على شرق السودان بسا له من ظروف مغايرة . ولم يوضع
هكس في المكان المناسب له فلم تكن له بشئون السودان خبرة سابقة
وتزايد احساسه بالمضايقات التي ترتبت على وضعه الوظيفي كمرؤوس
لقائد تركي كبير السن بالاضافة الى ما كان له من اتصالات بسلطات
الاحتلال البريطانية - وفي أول رسالة كتبها الى سير ادوارد مالت
المتنصل العام والوكيل البريطاني - عبر عن شكواه من أنه
لا يمكنه احراز « تعاون فعال أو معلومات كاملة » وتزايدت
العلاقة توترا فيما بينه وبين سليمان باشا الى أن أبعد سليمان في يونيو
١٨٨٣ . وفي الشهر التالي تسلم هكس سلطاته كاملة باعتباره
قائدا عاما .

وسرعان ما وجد هكس نفسه وقد ورث المشاكل التي واجهت
عبد القادر . فهناك اخباريات وصلت في شهر ابريل عن تجمع الأنصار في
الجبليين . وبناء عليه قاد هكس حملة موفقة ضدهم انتهت بهزيمتهم عند
المرايع جنوب آبا في ٢٩ ابريل وخلال المعركة قتل أحمد المكاشف وتلقى
هكس فروض الولاء من كثير من الزعماء المحليين مما جعله ينظر للموقف
بشيء من التفاؤل ، ومن ثم عاد للخرطوم ليعود لتقدم أكبر نحو كردفان ،
حيث تكشف له المشروع عن صعاب كثيرة منها أن تقدمه سيبعده عن
قاعدته الأصلية ويزج به في بلاد معادية في نهاية موسم الأمطار وهو فصل
غير مناسب للصحة عموما وكان لابد من نقل المؤن وانشاء نقاط حربية
لحراسة خطوط المواصلات وهكذا فلم يسكنه تشكيل قوة ضاربة تريد
(م ٦ - المهدي)

على ٣٠٠٠ من واقع المشاة الذين تحت تصرفه وعددهم خمسة آلاف وفي يونيو أبلغ القاهرة أن العملية لا يمكن القيام بها بأقل من عشرة آلاف جندي - وقد قدرت تكاليف هذه العملية بحوالى ١٢٠.٠٠٠ جنيهًا . وقد أرسل مائت هذا التقرير المتشائم الى لورد جرانفيل وزير الخارجية مع اقتراح بالتنبيه على هكس بحصر عملياته في اقليم الجزيرة فالحكومة البريطانية كانت لا تزال مصرة على عدم التدخل وتجنب المسؤوليات وقد أصدرت تعليماتها لمالت « لاخطارها فوراً بقرار الحكومة المصرية مع الحرص على عدم ابداء أى نصيحة » ولكن حكومة مصر كانت لا تزال مصرة على اتباع سياسة ايجابية فيما يتعلق بكردفان - فجمعت تعزيزات أخرى وواصل هكس استعداداته بقدر استطاعته . وعندما استعرضت الحملة رجالها في أم درمان في ٨ سبتمبر كان بها ٧٠٠٠ مشاة ، ٥٠٠ فرسان ، ٤٠٠ فارساً من غير النظاميين ، وصحبها ٢٠٠٠ من الأتباع ، كما ألحق بها ٥٥٠٠ من الابل للنقل والحمل . واتخذت الدويم كقاعدة للحملة حيث انضم هكس الى علاء الدين باشا الذى كان عليه أن يشغل وظيفة أكبر الضباط السياسيين والاداريين .

وقبل مغادرة الدويم ناقش هكس مع علاء الدين الطريق الذى يجب عليهما أن يسلكاه وقرر هكس الزحف مباشرة الى بارا الواقعة على بعد ١٣٥ ميلاً وبذلك يهاجم المهدي في الأبيض من الشمال ويمتاز هذا الطريق بأنه قصير نسبياً وأنه يخترق أرض الكباشيش الذين لم ينضموا بعد علنا للمهدي (١) . وقد تخوف علاء الدين من قلة الماء على هذا الطريق وأقنع هكس بسلوك طريق آخر نحو الجنوب يتجه الى الرهد جنوب شرق الأبيض ظناً منه فى سهولة العثور على الماء فى هذا الطريق من الآبار ومن خور أبو حبل وهو مجرى مائى موسمى يجرى من الغرب

(١) بعد سقوط الأبيض توجه وفد من الكباشيش على رأسه الشيخان صالح بك والتوم فضل الله سالم وأخذ معهما هدية من الابل للمهدي ويبدو أن هذا لم يؤد الى تحسين العلاقات معه اذ أفلت صالح هارباً بعد فترة بينما صفد التوم بالاغلال .

الى الشرق نحو النيل الأبيض • ويؤدى هذا الطريق الى أرض غير مكشوفة وامتداده نحو ٢٥٠ ميلا وهو أكثر طولاً من الطريق الأول كما أنه يجتاز مناطق الجوامعة والغديات الذين كانوا قد قاموا بالفعل بدور كبير في الثورة • ومنذ البداية لم يكن التفاهم بين القائدين الرئيسيين على ما يرام - فقد حدثت خلافات حادة بين هكس وعلاء الدين وكذلك بين هكس وحسين باشا مظهر القائد المصرى العام •

وفى ٢٧ سبتمبر غادرت القوة الدويم وسارت الفرق على هيئة مربع يضم فى مركزه ابل الحملة • وحدث التوقف الأول للحملة فى بلدة شط بصورة غير نظامية مما أدى الى تبادل الاتهامات بين كل من هكس وحسين باشا مظهر • وفى التوقف التالى تجدد الخلاف - فقد أعد هكس خطته على أساس تأمين خط مواصلاته بإنشاء اثنى عشر مركزاً حصيناً وضع فى كل منها احتياطياً كافياً من المؤن وعارض علاء الدين هذا التخطيط على أساس أن هذه المراكز والقوات الموجودة بها ستعجز عن مقاومة هجوم العدو وانها فى أحسن الأحوال ستصبح شبه محاصرة فيتعذر عليها الحصول على الامدادات اللازمة •

ونوقش الموضوع أمام مجلس من الضباط واضطر هكس للتنازل عن خطته ومن ثم تقدم الجيش فى أرض صعبة مهجورة • وأدى نقص الماء الى ضعف نظام الفرق وانحطاط الروح المعنوية وبالإضافة الى ذلك فقد كان العدو يتحرك بالقرب منهم •

ولم يكد المهدي يعلم نبأ تحرك حملة هكس من الخرطوم حتى أرسل يستدعى رجال القبائل التى تفرقت بعد سقوط الأبيض • وغادر مقره فى المدينة ثم أقام خيمته فى ظل شجرة على مشارفها حيث قام بسرعة بمسكر كبير وعمد الى استعراض جيوشه يومياً وإطلاق النيران باستمرار حتى تألف الخيول جو المعركة • وأرسلت قوة استطلاعية تحت قيادة محمد عثمان أبو قرجه وعبد الحليم مساعد وعمر بن الياس أم برير • وكلف الأنصار بمراقبة تقدم هكس وقطع مواصلاته وتعطيل سيره على أن يتجنبوا الدخول معه فى معركة مباشرة وقد وصلوا الى الجيش المصرى

للمرة الأولى في ١١ أكتوبر ثم لاحقوه عن كثب وردموا الآبار وتصيدوا المتخلفين مما جعل تناول الابل للمرعى أمرا مستحيلا كما علقت نسخ من منشور المهدي بتاريخ ١٩ ذو الحجة ١٣٠٠ (٢١ أكتوبر ١٨٨١) (١) على فروع الأشجار حتى يقرأه الجنود وقد جاء فيه « ... أنه لا يخفى على ذى عقل أن الأمر بيد الله لا يشاركه في ذلك بندق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لأحد الا من عصمه الله تعالى فاذا فهمت ذلك فاعلموا أن الله واحد فلا تغتروا بأساحتكم ولا بجنودكم التي تريدون أن تقتلوا بها جنود الله (٢) فإن لا قوة لشيء دون الله وإن قتلتم أن مهديتنا مكذوبة فاعلموا أن الكذب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف المخاوف ويستعجز قوة الله فاذا فهمت ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم ... » .

وفي ٢٤ أكتوبر وصلت الحملة الى الرهد حيث توقع هكس وصول امدادات قبلية من آدم مك ثقلى ولكن مددا من هذا القبيل لم يصل رغم انتظار الجيش هناك ستة أيام استهلك فيها كثيرا من المؤن التي تناقصت وتعرض فيها لهجمات العدو ، واستقر الرأي بعد مشاورات عديدة بشأن الطريق الواجب اتخاذه للتقدم أخيرا صوب الأبيض على سلوك طريق علوية في قلب بلاد الغديات - ومن ثم استؤنفت في ٣٠ أكتوبر (٣) المسيرة الشاقة للحملة . وكان المهدي يتلقى يوميا في تلك الآونة تقارير عن انهيار معنويات رجال هكس وما انتابهم من يأس . وفي أول نوفمبر تحرك جيشه الرئيسى من الأبيض تاركا مجرد حامية صغيرة للمحافظة على المدينة .

وحدث الاشتباك الأول بين القوتين في ٣ نوفمبر عندما صب جهادية.

(١) توجد صورة مؤرخة من المنشور في وثائق يوسف ميخائيل (٢) ص ٣٨ .

(٢) استند المهدي هنا الى أن الجيش المصرى باعتماده على البنادق انما يستعين بقوة أخرى بالاضافة الى قوة الله وبذلك يقترب الجنود المصابون خطية الشرك بالله .

(٣) لقد اتبعت تاريخ ثيوبولد لاقامة هكس في الرهد (انظر ما سبق) . لأنه انبنى على مذكرات عباس أفندي الذي رافق البعثة . ويحدد شقير وأورفالدر وصول الحملة وقيامها من الرهد بيومى ٢٠ ، ٢٦ أكتوبر على التوالي .

تَبَوَّعَ عُنْجَه نيرانهم الحامية على المصريين بينما كانوا يشقون طريقتهم بصعوبة في أرض متشابكة الأشجار وتكرر الهجوم في اليوم التالي • وفي ٥ نوفمبر انقسمت الحملة المصرية - التي كانت تعاني بشدة من قلة الماء وعدم النوم - الى ثلاثة مربعات تحف بأجنحتها الخيالة وسارت بهذا الشكل • محاطة بالأمن من كل جانب • وعند شيكان أعطى المهدي أمره للقيام بهجوم شامل وسرعان ما تحولت المعركة الى مذبحة كانت فيها نهاية هكس وعلاء الدين مع جميع رجال القوة عدا ٢٥٠ رجلا • كما ذبح كثير من الضباط الأوربيين منهم أودونوفان مراسل جريدة الديلي نيوز ، وفيزتلي رسام جريدة لندن نيوز المصورة • والأوربي الوحيد الذي نجا من رجال الحملة ألماني مغامر يدعى جوستاف كلوتز انضم الى الأنصار في الرهد • وهكذا تم القضاء على الحملة المصرية ، وبعد سبعة أيام من المعركة دخل المهدي الأبيض في موكب النصر مسبقا بالألوف من الأنصار المنتصرين وبينهم عدد قليل من الأسرى الذين نجوا من الإبادة في المعركة •

٣ - نتائج معركة شيكان :

وسرعان ما أدرك الناس داخل السودان وخارجه ، مغزى هذا النصر المؤزر ، اذ أنه أرغم الحكومة البريطانية على التزام سياسة عدم التدخل مما سيؤدي لنتائج ستنينها فيما بعد • كما رفع قدر المهدي لا في داخل السودان فقط بل أيضا خارجه في العالم الاسلامي وذكر شقير أن بعثات وصلت من الحجاز والهند وتونس ومراكش لزيارة المهدي والاستماع لتعاليمه • أما سلطات الخرطوم فبدأت في سحب الحاميات الخارجية من فاشودة والكوة وشط والدويم بينما أخذ المهدي في الاعداد للخطوة التالية وهي حصار الخرطوم والاستيلاء عليها •

ولعل أهم الآثار المباشرة لمعركة شيكان هي انهيار الادارة المصرية في دارفور وبحر الغزال • وبرغم أن السيطرة على دارفور منذ ضمها لم تكن تامة الا أن الاضطرابات التي حدثت هناك لم تأخذ طابعا مهدويا حتى أواسط عام ١٨٨٢ • وقد أفادت قضية المهدي من عاملين : تمرد قبيلة الرزيقات ، والمركز الذي كان يحتله في ادارة الاقليم محمد بك خالد

المشهور باسم زقل • وقد سبق أن عرضنا لأهمية الرزيقات وكان العداء مستحكما في ذلك الوقت بين زعيمها مادييو بك على وعجيل ود الجنقاوى •

وفي عام ١٨٨١ عزل مادييو من زعامة القبيلة وهاجر في أوائل عام ١٨٨١ الى المهدي في جبل قدير ثم طلب منه العودة بعد هزيمة الشلالى الى قبيلته لدعوتهم الى الجهاد وبرغم سلبية عجيل الا أن الرزيقات ما لبثوا أن أصبحوا نواة للثورة في جنوبي دارفور وهددوا قاعدة الحكومة في شكا تهديدا مباشرا • أما محمد خالد فكان وكيلا لحاكم دارا • وقد سبق له العمل في مناصب ادارية متعددة بدارفور واكتسب كثيرا من الثراء والنفوذ فضلا عن ذلك فقد كان من أقارب المهدي • وقد نظر لليه سلاطين الذى أصبح حاكما عاما لدارفور في سنة ١٨٨١ - بعين الشك ولكنه دافع عن ولائه لحكومة مصر • ومع تقدم المهدي وانتشارها ازدادت بالتبعية خطورته • ولكن موقف سلاطين الحرج ألزمه بمداراته في شيء من الحرص •

وعندما عرف ما أعترمه مادييو من الهجوم على حامية شكا أعد سلاطين قوة لانتقاها فاتخذ مادييو موقفا عدائيا صريحا نحو سلاطين وبرغم هزيمة الرزيقات في هجوم ليلى الا أن سلاطين اضطر للعودة الى دارا • وهنا أخليت شكا من حاميتها وبذلك أحرز الانتصار السيطرة على دارفور • وفي أكتوبر ١٨٨٢ قاد سلاطين حملة أخرى الى بلاد الرزيقات على أمل استرجاع شكا • ولكن هزيمته كانت فادحة في معركة أم ورقات وأرغم على العودة الى دارا ثانية • وفي تلك الآونة هددت حركة أخرى من القبائل أم شنقه وهى نقطة على الطريق بين الأبيض والفاشر •

وبناء على تعليمات سلاطين استدعى القائد الشائقى عمر محمد خير ترحو الشائقى (لاشتباهه في وجود اتصالات بينه وبين محمد خالد لخيانة مصر) مع الفرق الرئيسية التابعة له للفاشر • وتركت قوة صغيرة من الخيالة تحت قيادة شائقى آخر هو العطا ود أصول للدفاع عن الموقع •

وفي طريق عودة سلاطين الى دارا تزايد شعوره بعداء ضباطه الذين حركتهم نجاحات العرايين في مصر كما ازداد مركزه حرجا في يناير ١٨٨٣ عندما ذاع خبر سقوط الأبيض وكانت القبائل العربية بصفة عامة قد انضمت الى الثورة . ورفض العطا تنفيذ الأوامر الصادرة اليه لاخلاء أم شنقه وفي تلك الأثناء تلقى سلاطين أخبارا عن اعتزام الفرق الثورافية الموجودة في دارا الانضمام الى عبد الله دود بنقه المطالب بعرش دارفور وكان مرابطا في المنحدرات الغربية من جبل مره وأصدر سلاطين حكما بإعدام ستة من المتآمرين ضربا بالرصاص بعد محاكمة عسكرية ولكن انتشار السخط بين ضباطه وقواته أصابه بالارتباك . وفي محاولة أخيرة منه لكسب ولائهم أعلن اعتناق الاسلام واتخذ له اسم عبد انقادر سلاطين وهو الاسم الذي عرف به في السودان خلال عهد المهدي وأصبح الآن في عزلة تامة عن كل من الخرطوم ومصر ، وانتهى ما كان له من نفوذ في جنوب دارفور كما أصبح جمع الضرائب في الشمال أمرا مستحيلا منذ زمن بعيد برغم أن قبائله لم تعلن الى ذلك الحين عن عدائها الصريح .

وقد تزايد نفوذ محمد خالد مع تناقص مكانة سلاطين ، ومن ثم قرر الأخير كسبا للوقت ، وإزاحة له من الطريق إرساله في بعثة الى المهدي وطمع سلاطين في الصعود بعد أن وصلت دارفور أنباء عن حملة هكس حتى يتم القضاء على المهدي . وفي غيبة محمد خالد استطاع سلاطين تقوية تحصينات دارا كما قاد حملة موفقة ضد بني هلبه حلفاء الرزيقات . وهزم مادييو ولكن هذا النصر فقد كثيرا من أهميته بسبب فشل عمر ترحو في القضاء على الثورة العربية التي نشبت في الشمال — تلك الثورة التي أدت الى قطع الطريق بين دارا والفاشر . وهنا جمع مادييو قواته وبدأ حصاره لدارا ذاتها ونقصت مؤونة الحامية من الذخيرة بصورة خطيرة حتى أن سلاطين لم يجرؤ على البدء بالهجوم . ومحاولة منه لكسب مزيد من الوقت شرع في مفاوضة المحاصرين وكتب للمهدي عارضا التسليم لأحد أقربائه على أن يرسل هيئة كاملة لاستلام ادارة دارفور . وعارض

مادييو في هذه الفكرة ، ولكن قبلها حلفاؤه ورفع الحصار في انتظار وصول مندوب المهدي .

وفي أواخر عام ١٨٨٣ وصلت دارفور أخبار هزيمة شيكان وأدرك سلاطين عبث الاستمرار في خدعته الأخيرة . ووصل محمد خالد الى الأبيض في أوائل شهر سبتمبر وقلده المهدي حكومة دارفور بعد هزيمة هكس وأطلق عليه لقب مدير عموم دارفور^(١) ، وفي ١٦ نوفمبر اتخذ محمد خالد طريقه الى الاقليم الذي اختير له . واستسلمت له أم شنقه وكتب لسلاطين في دارا داعيا اياه للتسليم وتؤكد سلاطين من استحالة المقاومة فقرر في ٢٣ ديسمبر التسليم لمحمد خالد . أما العاصمة المحلية الفاشر فكانت تحت قيادة ضابط مصري هو السيد بك جمعة خلال غيبة سلاطين في الجنوب . وقد قرر الاستمرار في المقاومة واستطاعت حامية الفاشر الثبات أمام الحصار الذي قاده عمر ترحو لسبعة أيام أخرى ولكنها استسلمت في ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ واحتل السيد جمعة وعمر ترحو والعطا ود أصول مراكز بجيش المهدي .

وقد سبق لسلاطين عندما كان في أم ورقات في ١٨٨٣ أن أرسل كتابا للبتون بك حاكم بحر الغزال أطلعه فيه على الموقف في دارفور وطلب منه القيام بهجمة على الرزيقات والهباتية حتى يضطروا الى تخفيف ضغطهم عن قوات دارفور . ولكن لبتون الذي عين خلفا لجسي في بحر الغزال كان لديه ما يكفيه من المتاعب وبرغم أن القوة الموجودة بهذا الاقليم لم تكن من المسلمين أو العرب الا أن المهدية استطاعت أن تكسب تأييدهم سريعا . وهذا الموقف الغريب جاء نتيجة أحداث متصلة بتجارة الرقيق ، والخطوات الحاسمة ، المتميزة بالحماقة التي اتخذها غوردون وجسي للقضاء عليها .

(١) أمير عموم دارفور وغير اللقب في رجب ١٣٠١ (مايو ١٨٨٤) الى عامل المهدية في دارفور وواضح أن الاسم الاصلى كان مقتبسا من المصطلح المصري ... مدير عموم دارفور .

وكان اقليم بحر الغزال على شفا الفوضى منذ رفعت عنه يد الزبير القوية وأدى التنفس بين أدريس أبر وسليمان ود الزبير الى تفجير الخلاف بين جماعات الدناقلة والجعليين المهاجرين من الشمال ، ذلك أن جسى خلال قبعه لثورة سليمان فعل ما فعله غوردون في الشمال حين سمح للقبائل المحلية بتعقب الجلاية • وبذل جسى عقب هزيمة سليمان وقتله محاولة طيبة لتنظيم الادارة والقضاء على تجارة الرقيق انعاشا للتجارة في الاقليم • ولكن هذه المحاولة كان ميثوسا منها •

وقد تساءل جسى كيف أستطيع اعادة الثقة والأمن بسعونة أربعة آلاف عربي فقط يعملون على حفظ النظام بينما هم أنفسهم لا يقلون قسوة ووحشية عن رجال سليمان ؟ (١) وفي سبتمبر ١٨٨٠ توجه الى الخرطوم حيث قدمت لمحمد رؤوف باشا شكاوى ضده • وكان بإمكان النساليين بعد مغادرته للاقليم استعادة سيطرتهم عليه الا أن القبائل الرنجية كانت قد أصبحت قوة يحسب لها حساب فقد حصلوا على أسلحة نارية وأفادوا من الجهود التي بذلها غوردون وجسى لرفع قدرهم في الوقت الذي تعرض فيه أبناء الشمال للضغط • ولكن عدم استقرار الادارة الاقليمية التي كانت تعتمد كثيرا على الهيئة الموروثة عن الاتجار بالرقيق في الماضي جعلها لا تصل الى نتائج طيبة أو ثابتة ومن ثم لم يتقبل المواطنون رجال الادارة بأفضل مما تقبلوا به تجار الرقيق وتلمسوا القرض لازاحة هذه السلطة الجديدة • ولم يكن ليتون ، خليفة جسى بالرجل الذي يستطيع التغلب على هذه الصعاب الكبيرة التي واجهته فهو ضابط سابق في الأسطول التجارى البريطانى ولم يكن له من العمر عند تعيينه أكثر من ٢٦ عاما • واتصف بحب المغامرة وبكثير من الشجاعة والصلابة ولكن ما كان يتقصه هو الموهبة اللغوية وغيرها من المواهب اللازمة لادارة شؤون بحر الغزال المعقدة • وقد وصفه أمين حاكم المديرية الاستوائية بأنه مجرد رئيس اسى لا حول له ولا قوة •

وعندما شبت الثورة المهدية كان المقر الادارى لبحر الغزال في البلدة التى عرفت باسم ديم سليمان أو ديم الزبير القاعدة القديمة للزبير • وهناك استقر لبتون كحاكم عام وساتى بك كمدير • وقسم الاقليم الى ثمانية أقسام يدار كل منها بواسطة ناظر وكان سبعة منهم من الدناقلة والثامن جعلى • واشتمل الاقليم على قبائل زنجية متنوعة أكبرها الدنكا (وتحتوى على فروع أصغر) احتلت المساحات الشمالية بجوار بحرى العرب والغزال وتوقف أمن الاقليم من الناحية الاستراتيجية على السيطرة على اقليمين يمر بهما خط الاتصال بالسودان الشمالى أولهما هو المخرج النهري من محطة مشرع الرق عن طريق « السد » الى النيل الأبيض ، وثانيهما المنطقة الشمالية الغربية جنوب بحر العرب الأعلى • وفى هذه المنطقة كانت تختلط القبائل العربية والزنجية التى استقرت الى الجنوب من منطقة البقارة الأصلية •

وقد بدأت الحركة المهدية فى بحر الغزال فى أواخر عام ١٨٨١ عندما زار جماعة من شيوخ الزنج المهدى فى جبل قدير وحلفوا له يمين الولاء • وقد أعيدوا لأقاليمهم لطرد الأتراك ووعدوا بممارسة حرية كاملة فى أراضيهم • وكان أول من بدأ الثورة هم رجال قبيلة لفى بجوار بحر العرب وقد هزموا قوة أرسلها لبتون بقيادة رجل دنقلاوى هو محمد النصرى • وفى حركة أخرى نشبت فى فبراير ١٨٨٢ نجح النصرى فى تفريق الثوار • وقد ساد الاقليم بعد ذلك الهدوء لمدة بضعة أشهر الى أن وصلت أنباء عن هزيمة الشلالى وثورة الرزيقات بزعامة ماديبو على وحيثذ قام زعيم بالمنطقة الشمالية الغربية من الاقليم وهو الشيخ يانكو شيخ مركز تل قونة (١) بذبح الحامية المحلية من غير النظاميين وهرب الى ماديبو فى

(١) حدد سانتندريا مكان تل قونه عند التقاء نهري يورو وسوبو حيث يكونان نهر لول . S. N. R. xxxvI/2., 1955, 189

٢ شوال ١٢٩٩ (١٧ أغسطس ١٨٨٢) ومنذ ذلك الحين عمل يانكو وماديو متعاونين في سبيل اطلاق لبتون وسلاطين وعزل كل منهما في اقليمه (٢) .

وبعد معركة أم ورقات في أكتوبر عاد يانكو مع بعض الرزيقات ليشير الاضطراب في اقليمه هو فوجئت ضده قوة تحت قيادة محمد عبد الله المحلاوى مفتش مقاومة تجارة الرقيق بالاقليم ولكنه سقط مريضا وتولى رفاعى أغا الزبير وهو ناظر قسم دنقلاوى قيادة هذه العملية بعده وحصل على نتائج باهرة في فبراير ١٨٨٣ ، ومرة ثانية هرب يانكو لاندا بماديو .

وفي تلك الآونة امتدت الثورة الى الدنكا المقيمين حول مخرج النهر في الاقليم (بجوار مشرع الرق) واستطاعوا في منتصف شهر فبراير هزيمة قوة أرسلت لتكون في انتظار باخرة الحكومة عند وصولها لمشرع الرق . وفي ٢٣ فبراير انتصر ساتى بك على الدنكا وتوقفت بذلك ولو مؤقتا حركات التمرد المتفرقة وفي يونية ظهر خطر جديد على الأمن في الاقليم وما كان دناقلة بحر الغزال بما لهم من كثرة عديدة ونفوذ ليقبلوا الولاء للادارة المصرية فضلا عن أن انتصارات المهدي - وهو دنقلاوى مثلهم في كردفان كانت بمثابة حافز لهم على عدم الولاء لها . وقد دبرت مؤامرة بزعامة شقيق محمد التصري يتجمع بمقتضاها دناقلة الأقسام الغربية في ١٢ شعبان ١٣٠٠ هـ (١٨ يونية ١٨٨٣) في جاندا قرب ديم الزبير حيث كان هناك ٨٠٠ فرد جمعوا من القبائل المختلفة ووضعوا تحت حراسة حربية في انتظار نقلهم بالباخرة للخرطوم ليساهموا بدون شك في قوة هكس . ودبر المتآمرون خطتهم على أساس القبض عليهم وسوقهم للمهدي . ولكن لسوء حظهم وصل المحلاوى الى جاندا قبل

(٢) لعله مما يفسر هذا التعاون الغريب انه سبق لكليهما العمل ضد قوات الزبير . ويصف جى الدور الذى قام به يانكو ضد سليمان الزبير والجلابة .

موعد تنفيذ المؤامرة بيومين • وبلغته أخبار المؤامرة وان تعذر عليه التقبض على مديريها فهرب الاخوة مع دناقلة آخرين بينهم تاجر اسمه كرم الله شيخ محمد كرساوى للانضمام الى المهدي وقد قتل الاخوة انصرى فيما بعد في معركة شيكان •

ومع أن هذه المؤامرة انتهت بالفشل والخيبة إلا أنها هزت قوة الادارة ومكانتها ، وفي سبتمبر أرسل لبتون ساتى بك الى الخرطوم لاحضار الذخيرة • وتعذر على ساتى العودة وقتل فيما بعد في العمليات المتصلة بحصارها (١) • وفي هذا الحين داهمت رفاعى أغا ثورة قبلية • وعقب موسم الأمطار تقدم لبتون والمحلاوى لتأديب الثوار ولكنهما اضطرا للانسحاب في ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٠١ (١٣ يناير ١٨٨٤) وعندما عاد لبتون الى ديم الزبير عرضت عليه كتابات صادرة عن المهدي يدعو فيها الدناقلة للانضمام الى حركته • وبناء عليه بدأ يعد لاحتصالات الحصار وأرسل رجائه لجسع الغلال • وبمجرد انتصار المهدي على هكس توافرت لديه امكانيات التركيز على غزو شامل لاقليم بحر الغزال وعين كرم الله أميرا ووضع على رأس قوة تتكون من ٨٠٠٠ من العرب وانجلاية وخمس فرق من الجهادية المزودين بالأسلحة النارية ، وأعطى لبتون أوامره للنظار للتجمع في ديم الزبير مع رجالهم ، ولكن اثنين منهم انضموا الى كرم الله بينما تخلف الباقون • ونجد وصفا للأيام الأخيرة من ادارة لبتون في ثلاثة خطابات أرسلها لأمين باشا (٢) وذكر في ١٢ ابريل ١٨٨٤ أن الأنصار عسكروا على مسيرة ست ساعات من ديم الزبير وأن مبعوثين وصلوا اليه لدعوته للتسليم ، وكان مصمما على القتال حتى النهاية رغم أن عددا كبيرا من رجاله تخلوا عنه • ووضح أنه كسلاطين كان قد اعتنق الاسلام بدليل ما جاء في كتابه « وأنا أعرف حاليا باسم عبد الله » • وفي رسالته الثانية المؤرخة ٢٠ ابريل يشير الى مغادرة ناظرى القسم له والى

(١) أخطأ ماكرو عندما ذكر أن ساتى انضم فيما بعد للمهدي انظر :

E. Macro : Frank Inpton. S. N. R. 1947

(٢) توجد صورة من هذه الخطابات في كتاب : Wingate p. 136

أنه قد أرسل مبعوثا للأنصار • ولم يشر الى بذل أى مقاومة أخرى •
وفى خطابه الأخير يذكر « لقد انضم الجميع الى المهدي وسيتسلم جيشه-
المديرية بعد باكر (١) » • وقد تسلم كرم الله عاصمة الاقليم في ٢٨
ابريل (٢) وأرسل لبتون الى المهدي حيث توفى في أم درمان في مايو
١٨٨٨ تاركا ابنتين من زوجة حبشية •

-
- (١) يؤرخ ونجت هذا الخطاب ٢٨ ابريل وماكرو يؤرخه ٢٦ ابريل •
(٢) نقل هذا التاريخ عن أورفالدر ص ١٧٦ وسلاطين النار والسيوف
ص ٢٧٥ وأيضا ماكرو ص ٥٦ ولعل الأخير استقى التاريخ الأخير من
تاريخه غير الدقيق لخطاب لبتون الأخير ويؤرخ شقير تاريخ • طبعة مصر
ج ٣ ص ١٩٧ وطبعة بيروت ص ٧٤١ (ديتريتش ص ٢٤٦) التسليم في ٢٥
جمادى الثانية ١٣٠١ هـ (٢٢ ابريل ١٨٨٤) وهو التاريخ الذى أخذ به
ونجت (١٤١ Mahdism) ويبدو انه بنى على تقرير للمحلاوى (١٣٧ -
١٣٨ Ibid) وعلى خطاب من محمد شيخ محمد كرساوى (١٢٨ - ١٢٩)
Ibid ويبدو انه لا يمكن الاستناد اليه في ضوء خطابات لبتون
ويحدد تقرير المحلاوى تاريخا للتسليم في ١٢ جمادى الأول (١٠ مارس)
وهو سابق للتاريخ الفعلى •

الفصل الرابع

عزل الخرطوم وسقوطها

١ - عثمان دقنة :

وجد المهدي في سقوط الأبيض احتمال تحقيقه لسلسلة من الانتصارات المدوية في شتى ربوع المناطق الواقعة في قلب انعام الاسلامي . وقد عبر المهدي عن تصميمه على السيطرة على جميع أنحاء السودان ثم البلاد المجاورة له (١) عن طريق الرؤى أو الحضرات التي اعتاد أن يخلعها على قراراته فذكر - المهدي - « وبشرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي تفتح الأبيض على يدك كرامة في زمننا هذا وبعد فتحه أذبح ثلاث بقرات سمان لوجه الله تعالى حتى أكلنا منها بتركا ان شاء الله تعالى وقال الامام عليه السلام بشرني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحضرة النبوية وقال لي كما صليت في الأبيض تصلي في الخرطوم ثم تصلي في مسجد بربر ثم تصلي بيت الله الحرام ثم تصلي في مسجد يثرب ثم تصلي في مسجد مصر ثم تصلي لبيت المقدس ثم تصلي في مسجد العراق ثم تصلي في مسجد الكوفة اللهم اجعلنا من المصلين في هذه المساجد واجعلنا بعد ذلك من الشهداء المقتولين بين يدي الكفرة اللهم آمين ... » .

وقد بدأ المهدي بالخرطوم موجها اليها تهديده المباشر . ولكن الموقف هناك لم يكن في أول الأمر ميثوسا منه فبالإضافة الى مركزها الاستراتيجي القوي كانت الخرطوم على اتصال بصبر سواء عن طريق

(١) كتب المهدي في هذا المعنى الى فرج الله بك أحد القواد المدافعين عن الخرطوم « واني موعود بملك جميع الأرض » نعوم شقير طبعة ١٩٦٧
س ٨٤٨ (المترجم) .

وادی النيل أو عن طريق سواكن والبحر الأحمر • وهذه الطرق تتلاقى
وتركز في نقطة بربر • وقد بقيت القبائل المقيمة في اقليمى بربر ودقنة
في حالة سكون تام بعكس موقف المهاجرين من وادی النيل الى كردفان
وبحر الغزال • ويصدق هذا على قبائل البجة المنتشرين على تلال البحر
الأحمر الذين لم يكن يتوقع منهم أن يسندوا ثورة يحركها سودانيون
ينطقون العربية • ورغم ذلك فهم الذين وجهوا الضربة الثانية التي
تلقتها الادارة المصرية • فقد كان من بين الأنصار الذين رافقوا المهدي
بعد سقوط الأبيض رجل من عائلة لها نشاط تجارى كبير في سواكن تزعم
أنها من أصل كردى اسمه عثمان بن أبى بكر دقنة • وقد ولد عثمان
حوالى سنة ١٨٤٠ وعمل في الحرفة التي توارثها أفراد عائلته متاجرا بين
سواكن وسواحل بلاد العرب ، وشمل نشاطه تجارة الرقيق • وبينما
كان يمارس نشاطه قبض عليه وسجن مع اثنين من اخوته في جدة ،
وهكذا قضى على ثروة العائلة مما أدى الى حقد عثمان على الحكومة ومن
ثم حاول عبثا اثارة القلاقل في سواكن أثناء الثورة العرابية •

وقد وجد في المهديّة قضية يرضيه اعتناقها — وبرغم أن انتسابه
للبجة لم يكن كاملا وأنه لم يتمتع في منطقة سواكن بنفوذ كبير فقد احتل
لدى المهدي وخليفته مكانة كبيرة لم يفقدها على الإطلاق • وفى أول رجب
١٣٠٠ (٨ مايو ١٨٨٣) زود بكتاب جعل منه أميرا وجاء به :

« فانى موجه اليكم الشيخ عثمان أبا بكر دقنة السواكنى لكى
تستعينوا به على اقامة الدين وجهاد الكافرين وجعلته أميرا مباركا لكم
لدلائكم وارشادكم فاسمعوا له وأطيعوا أمره ونهيه وبمجرد وصوله
اليكم ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ومصدقين أنى المهدي المنتظر
فتحزبوا اليه واثتوه أفواجا أفواجا من كل سهل وجبل لبيعة الرضوان

ورضاء الواحد الديان رُجل اقامه الدين والسنن وشسروا فى ذلك بغاية
الجهد وعلو الهمة واجتمعوا على كلمه واحدة بانفاق الجميع - والكلمه
الواحدة هى التصميم والعزم على قتال الترك اهل المديريه التى اتهم
فيها ... » (١) •

كما أعدت خطابات أخرى لتوزيعها بين مختلف المجموعات القبلية
فى منطقة سواكن •

وقد عاد عثمان دقنة من الأبيض الى تلال البحر الأحمر ، فاشرا
دعاية المهدي أيضا ذهب • وفى ذلك الوقت كان أهالى تلك المنطقة موزعين
فى تحالفات دينية مختلفة • فهناك مجاذيب الدامر ولهم أتباع كثيرون
وعثمان دقنة نفسه كان أحد أتباع تلك الطريقة • وكان الشيخ الطاهر
الطيب المجذوب - أحد أفراد الأمرة - يتزعم الطريقة فى شرقى
السودان حيث حصل على نفوذ كبير • ولكن المجاذيب تعرضوا لمنافسة
قوية من طريقة أحدث هى الطريقة الختمية التى تزعمتها عائلة الميرغنى التى
كانت قاعدتها بالقرب من كسلا • ونظرا لأن الادارة المصرية احتضنت
الميرغنية فقد كان طبيعيا أن تميل المجدوية الى التحالف مع المهدي فى
الوقت الذى ظهرت فيه بوادر نجاحه ومن ثم لم يكن غريبا أن يرحب
الشيخ الطاهر كثيرا بتابعة السابق الذى كان مغمورا وذلك بعد أن أصبح
مبعوثا للمهدي • وقد ذكر شقير « أن عثمان حمل هذه الكتب وسار
حتى وصل محلا يدعى قباب فى ضواحي سواكن فلقى فيه الطاهر المجذوب
وهو كبير المجاذيب فى تلك الجهات ومعظم أهلها على طريقته فسلمه كتابا
من المهدي قبله وقبله وبأيع عثمان وكان له أكبر نصير • ثم تقدم الى
أركويت حيث كان أهله فوصلها فى أول أغسطس سنة ١٨٨٣ فتلقاه أهله
بالقبول وبإيعوه وبأيعه أيضا بعض مشايخ الهدندوة فرفع راية المهدي
واستعد للجهاد » (١) •

(١) مخطوطة دقنة : (١) - ص ٢ • تبدأ هذه الرسالة بتأكيد
الطبيعة الالهية لصفة المهدي •

وهكذا وجدت القضية المهدية في شرق السودان جيشا ثوريا على قدم الاستعداد يقوم على أتباع المجاديب وبخاصة قبيلة الهدندوة المنتمية الى البجة (٢) . ولكن لم تنجح محاولاته لكسب الميرغنية وأتباعهم ، اذ سلمت خطابات المهدي للختمية - بناء على رأى محمد عثمان الميرغنى الثانى - للادارة في سنكات ، القاعدة الرئيسية على تلال البحر الأحمر . وعندما وصلت أخبار وصول عثمان دقنة الى سواكن ، خرج محمد توديق بك حاكمها فوراً بقوة صغيرة من رجال الأمن لايقاف التمرد . واستدعى الشيخ الطاهر وأخا عثمان الى سنكات في محاولة منه لترتيب القبض على عثمان نفسه . ولكنهما مزقا خطاباته واحتجزا الرسول . واقترح عثمان عندئذ ترتيب مقابلة مع الطاهر قرب سنكات ، والتقى انقائدان مع أتباعهما في أول شوال (٥ أغسطس) ثم توجهوا الى سنكات حيث قابلهما ممثلو الختمية المحليون الذين حاولوا التوسط بين الفريقين . ونقل الختمية خطابات المهدي الى الموظفين في سنكات وعادوا بعد ساعة ليطلبوا هدنة مداها ثلاثة أيام ولا شك أن الحاكم كان يأمل في تفرق البدو غير المستقرين في ذلك الوقت الذى كان يجرى فيه تحصين المدينة . وقد رفض عثمان هذا الطلب وان قبل بعد مساومات هدنة تستمر حتى الظهيرة . وقبل أن يعود الختمية الى المدينة أصر عثمان دقنة على أن يقسموا يمين الولاء كدليل على سلامة مقصدهم . وبعد قليل مددت

(١) شقير طبعة بيروت ص ٧٤٧ . مخطوطة دقنة (٢) ص ١ .

(٢) يذكر بول في كتابه : Paul : Beja Tribes

سببا آخر لانضمامهم للثورة على الوجه التالى : « أعطى الهدندوة اتفاقا ينقلون بمقتضاه المؤن والتعزيزات المرسله لكسب باشا ... بواقع ٧ دولارات عن الجمل . ودفعت الحكومة المبلغ بأكمله ولكن ما وصل للهدندوة نقص عما تم الاتفاق عليه بمقدار ٦ دولارات » عن الجمل الواحد . وهذا هو التفسير الذى قدمه غوردون وستيورات في طريقهما للسودان في ٢٩ يناير ١٨٨٤ . وهذا التفسير يعبر تماما عن طبيعة غوردون في ذلك الحين من حيث تجاهله للعامل الدينى في الثورة بوجه عام .

(م ٧ - المهدية)

الهدنة الى المساء . وخلال ذلك كانت القوات الحكومية تجاهد في سبيل جعل ثكناتها قادرة على مواجهة أى هجوم . واذ رأى عثمان في ذلك نقضا للعهد قرر البدء بالهجوم وعندئذ انسحب الخشية مكثفين بمتابعة الأحداث بينما قام الأنصار بهجوم على المدينة أوصلهم الى الثكنات وقد جرح عثمان دقنة نفسه أثناء القتال وأدى انسحابه من المعركة الى تخاذل أتباعه ففرقوا في التلال ، بينما نقل عثمان الى بيته وعائلته على أيدي أتباعه المقربين . ونجت سنكات مؤقتا (١) .

وبقى محمد توفيق بك في سنكات لتعزيز التحصينات والاعداد لهجوم مضاد . وفي سبتمبر قاد قوة الى التلال ولكن عثمان أرسل في الثاني عشر من ذي القعدة (١٤ سبتمبر) قوة لمناهضته بقيادة ابن أخيه . وقد عسكرت القوات الحكومية في قباب حيث أحاط بهم الأنصار أثناء الليل . وقد دافعوا عن أنفسهم مستعينين بمدفعين بالإضافة الى بنادقهم وهكذا تعذر على الأنصار اختراق زريبتهم ونجحوا في الانسحاب الى سنكات . وتكرر هنا ما كان يحدث في كثير من المعارك عندما كانت قوات الحكومة تعجز - برغم انتصارها - عن الثبات في مواقعها اذا ما كانت بعيدة عن مراكزها الحصينة . وسرعان ما تنبه رجال عثمان الى أهمية حرب العصابات فقطعوا الخط البرقي بين سواكن وكسلا وقضوا في الثالث والعشرين من ذي الحجة (٢٦ أكتوبر) على قوة تتألف من ١٥٠ جنديا كانوا في طريقهم من سواكن الى سنكات لتعزيز حاميتها (٢) .

(١) بلغت خسائر هذه المعركة بناء على تقدير عثمان دقنة نفسه في (مخطوطات دقنة (٢)) (٦٠ من الأنصار ، ٧٥ من الأعداء . بينما ذكر شبكية في British Policy, p. 183 استنادا الى مصادر مصر الرسمية أن خسائر الأنصار بلغت حوالي ٦٥ رجلا على حين فقد المصريون ما لا يزيد على ٧ جنود و ٦ من المدنيين .

(٢) المرجع السابق - British Policy ص ١٨٤ ، يورخ شبكية هذه الحادثة في ١٨ أكتوبر . أما جاكسون : عثمان ديغا Jackson : Osman Digma p. 36. فيورخها في ١٦ أكتوبر . وقد أخذت بما جاء في مخطوطات عثمان دقنة نفسه . M. S. Digma (2)

وانتقل القتال الى مرحلة جديدة حين حاصر عثمان دقنة ، الذي حصل على مساعدة متزايدة من جانب القبائل ، كلا من سنكات وطوكر . وتعتبر المدينة الثانية الواقعة على بعد ٢٠ ميلا من الشاطيء والموجودة في دلتا خور بركة من أهم مراكز الحبوب في شرق السودان . وقد وضع الأنصار المتجهون لسنكات تحت قيادة علي بن حامد بينما أرسل عثمان قوة الى طوكر تحت قيادة الخضر بن علي وذلك في أواخر ذى القعدة (أواخر سبتمبر) . وقد قسم الخضر قواته الى قسمين بقى أحدهما خارج تحصينات طوكر بينما اتجه الثاني - تحت قيادة عبد الله ابن حامد - ليحول دون وصول التعزيزات القادمة بحرا .

وفي هذه الظروف وقعت أول معركة على الشاطيء وذلك في ٤ محرم ١٣٠١ هـ (٥ نوفمبر ١٨٨٣) (١) فقد كلف سليمان باشا نيازى ، الذى تقل من قيادة حملة هكس الى ادارة عموم شرق السودان بإرسال قوة قوامها ٥٠٠ رجل لرفع الحصار عن طوكر . وصحب مونكريف Moncrieff - القنصل البريطانى فى سواكن - تلك الحملة انتى كانت تحت قيادة محمود باشا طاهر . ونقلت الحملة بواسطة البحر الى ترنكتات ، وفى طريق تقدمها نحو طوكر هاجمها الأنصار فهرب رجالها مذعورين . وقتل مونكريف بينما عاد محمود ومعظم رجال الحملة الى الباخرة التى رحلت بهم الى سواكن . وجاءت هذه المعركة التى تعد الأولى على الشاطيء معاصرة للقضاء على حملة هكس فى شيكان . وفى تلك الأثناء استمر حصار طوكر وفشلت محاولة بذلتها قوات الحكومة المخرج منها وذلك بعد أن تكبدت خسائر فادحة . بينما مزقت قوة أرسلها سليمان باشا لمحاولة الوصول الى سنكات أثناء الطريق فى أول صفر سنة ١٣٠١ هـ (٢ ديسمبر ١٨٨٣ م) .

(١) عرفت هذه المعركة ومعركتان أخريتان جرتا على الشاطيء فى المصادر الانجليزية بمعارك التيب El - Teh . وقد جاء الاسم نتيجة سوء فهم للكلمة البيجاوية A de' te'h (مربوط الابل) وتبدو هذه الكلمة للمتكلمين بالعربية وكأنها and al - tayb « عند التيب » وقد فضلت استخدام الاسم الذى أطلقه عثمان دقنة نفسه على هذه المعارك .

وحينئذ كانت السلطات المصرية المحلية قد استنفدت كل جهودها وساد الموقف نوع من السكوت استمر شهرين وكان من الطبيعي أن يفيد عثمان دقنة من ذلك . وبالإضافة الى محاصرة سنكات وطوكر هدد الأنصار سواكن ذاتها كما أرسل عثمان مبعوثا - هو مصطفى على هدى - لجمع الأنصار المحليين وحصار كسلا . واستطاع عثمان دقنة قطع الطريق بين سواكن وبربر وهو أيسر الطرق لارسال الامدادات الى الخرطوم وأدركت السلطات في مصر خطورة الموقف ولكن منعتها الحكومة البريطانية من ارسال القوات المصرية التي أعيد تنظيمها للقضاء على الحركة . وأخيرا تقرر ارسال قوة من «الجندرمة» بقيادة فالتين بيكر باشا (شقيق سير صمويل بيكر) على أن تعاونها قوة من الزنوج ينظمها الزير باشا ويتولى قيادتها . ولكن الفكرة لم تنفذ وفقا لما أراده لها وأضعوها . فقد استاءت الجندرمة لاستخدامها في أغراض حربية بحثة خارج مصر وصاحب مغادرتهم للبلاد نشوب التمرد والهرب . وأما تعيين الزير فلم يجد ترحيبا في بريطانيا بسبب تاريخه الحافل في تجارة الرقيق ومن ثم رأت الحكومة البريطانية منع هذا التعيين وبدون الزير فقدت القوة الزنجية كثيرا من قيمتها .

وبرغم أن الموقف في سنكات في أوائل عام ١٨٨٤ كان أكثر تدهورا منه في طوكر ، الا أن سليمان باشا رمى بثقله في محاولة لتخليص المدينة الأخيرة . وفي ٤ فبراير تقدمت قوة بيكر المكونة من ٣٦٥٦ من رجال ترينكتات متجهة الى طوكر . ونشبت معركة ثانية على الشاطئ استطاع فيها عبد الله بن حامد هزيمة القوات المصرية بسهولة بعد أن قتل أكثر من ٢٠٠٠ من رجالها . وعاد بيكر مع بقية قوته الى سواكن .

أما سنكات فأصبحت الآن في ضيق مريع وفقدت الأمل في انتقاذها ومع ذلك فإن القائد البطل محمد توفيق أصر على عدم التسليم ، فدمر المدافع وخرج بالحامية مع النساء والأطفال . وعلى بعد ميل واحد من

المدينة غلبوا جميعا على أمرهم أمام العدو . وكان هذا في ١٠ ربيع الثاني ١٣٠١ (٨ فبراير ١٨٨٤) وبعد ١٥ يوما آخر سلمت طوكر للأنصار .

وقد أثارت هزيمة بيكر الرعب في سواكن ، واضطرت الحكومة البريطانية التي أخذت على عاتقها حماية موانئ البحر الأحمر ، الى التدخل . وانقسم الرأي في مجلس الوزراء حول ارسال حملة الى سواكن الأمر الذي عارضه جلادستون ووزير الخارجية جرانفيل . ولكن الملكة فكتوريا اشتدت في مساندة استخدام القوة . وفي ١١ فبراير صدرت الأوامر الى الجنرال ستيفنسون قائد القوات البريطانية في مصر لارسال ثلاث فرق الى سواكن تحت قيادة ماجور جنرال جراهام .

وما كاد جراهام يصل الى سواكن حتى ووجه نبأ سقوط طوكر . وأدى هذا الى انتهاء الهدف الرئيسى للحملة ولكن جراهام قرر ألا يعود قبل أن يوجه ضربة الى قوة عثمان دقنة ومكاته . وقوبل تصرفه هذا بالرضا من قبل الحكومة البريطانية رغم أنه كان يتعارض مع السياسة الدفاعية البحتة التي اتبعت حتى ذلك الوقت وخاصة اذا قورنت بالاتجاه السلمى ازاء المهدي وهو الاتجاه الذى كان غوردون يعتمد عليه في ذلك الحين ومن ثم فان الاجراء الذى قام به جراهام جاء نتيجة التسليم الخاطيء لضغط الرأي العام البريطانى الذى أخطيء توجيهه وقد نجحت العمليات التى قام بها جراهام اذا ما وضعنا في الاعتبار الأهداف المتوخاة منها . فقد تجمعت قواته في ترنكنات في الأسبوع الأخير من فبراير ثم بدأت تتقدم نحو الداخل . ووقعت المعركة الشاطئية الثالثة التى هزم فيها الأنصار هزيمة ساحقة في أول جنادى الأولى ١٣٠١ هـ (٢٩ فبراير ١٨٨٤) وتقدمت القوة البريطانية بعدها الى طوكر ولكنها عادت الى ترنكنات وبصحبتها ٧٠٠ ممن كانوا باقين بها (أى بطوكر) حيث لم يكن لديها نية الدفاع عن الموقع .

وبرغم هذه الهزيمة الكبيرة ظل عثمان دقنة على نشاطه وقوته فقرر جراهام بعد عودته لسواكن كسر التهديد الموجه لهذه المدينة بمهاجمة

تجمع للأنصار في تساي وهذا الموقع العام على طريق سنكات كان مسرحا لانتصار بريطاني ثان في ١٤ جمادى الأولى (١٣ مارس) وبعد المعركة انسحب جراهام ثانية الى سواكن بينما ظل عثمان دقنة على قوته مع أتباعه . وعندئذ أخذ جراهام اذنا بالقيام بهجوم ثالث على المركز الرئيسي لعثمان دقنة في التنيب وتم احتلال هذه القرية في ٢٧ مارس بعد مقاومة خفيفة جدا حيث انسحبت قوات عثمان وبعد احراق القرية عاد جراهام ثانية الى سواكن . وأثبت التدخل البريطاني عدم فاعليته من الناحية العملية فقد احتفظ عثمان دقنة بكل من سنكات وطوكر وسيطر الأنصار على طريق سواكن بربر . وبقيت سواكن وحدها بأيدي المصريين وأن خف الضغط عليها بعض الشيء .

(٢) بعثة غوردون :

وفي تلك الأثناء وصل غوردون الى السودان للمرة الأخيرة . وقد درست بكل عناية في السنوات الأخيرة كما وصفت بدقة الأحداث التي أدت الى بعثته وما صاحبها من اضطراب . ولذلك فإن المقصود هنا هو تلخيص المراحل الرئيسية لاشتراكه في هذه المغامرة المنكودة . ففي ٢٠ نوفمبر ١٨٨٣ ارسل سيرافلين بيرنج ، ممثل بريطانيا الجديد وقتئذها العام في القاهرة الى اللورد جرانفيل يسأله بعد وصول أنباء شيكان عن الجواب الذي يحسن تقديمه اذا ما طلبت الحكومة المصرية مساعدتها بقوات بريطانية أو هندية أو تركية لاستعادة سيطرتها على السودان . وقد أجيب على سؤاله بأن عليه أن يزكى اخلاء السودان بشروط معينة . وفي هذه الآونة عرض على جرانفيل اقتراح بشأن تكلية غوردون بالتوجه الى السودان ولما أخذ رأى بيرنج اعترض بشدة على الاقتراح . وكان بيرنج يشك في صلاحية غوردون للعمل - ولكن رده الرسمي استند الى رأى الحكومة المصرية بشأن عدم صلاحية تعيين مسيحي حاكما للسودان التي اتخذت ثورته طابعا دينيا .

وقد قدمت توصية الحكومة البريطانية لاخلاء السودان بصورة رسمية حاسمة في ٤ يناير ١٨٨٤ . وازاء تعرض الوزراء المصريين للضغط

حتى يوافقوا على تنفيذ سياسة هم راغبون عنها قدموا استقالاتهم •
وقد تشكلت وزارة جديدة تولى رئاستها أرمنى مسيحي هو نوبار باشا
بوغوص أخذت على عاتقها وضع النصيحة التي قدمها بيرنج موضع
التنفيذ •

وفي هذه الآونة تعرضت الحكومة البريطانية للضغط نتيجة لتطور
جديد في بريطانيا • فقد حرضت الصحافة تحت زعامة Pall Mall
في ٩ يناير الرأى العام البريطانى على المطالبة بعودة غوردون الى
السودان لمواجهة الموقف هناك • وكان مجلس الوزراء في ذلك الحين
يبحث اقتراحا تقدم به بيرنج بشأن ارسال ضابط بريطانى الى السودان
لسحب القوات وترتيب حكومة السودان بعد الاخلاء • وكان تقديم
غوردون لشغل هذا المنصب شيئا طبيعيا وأن يكن هذا التعيين سيء
الطالع الى أقصى حد فهو بالنسبة الى الصحفيين الانجليز والرأى
انبريطانى العام الذى يذكر انتصاراته الحاسمة في الصين وخدمته الأولى
في السودان كان يمثل شخصية بطولية استطاعت بمفردها تقريبا أن
تحارب المساوىء المزمنة لتجارة الرقيق بالسودان وتقضى عليها • وقد
بالغ الجميع في تقدير أهمية اسمه وأن يكونوا بصفة عامة قد أغفلوا
الايمان الدينى لدى المهدي وقوته العسكرية ومهارته السياسية •
وتصوروا أن غوردون يستطيع بما لديه من خبرة بالبلاد وبما كان يعتقد
من امكانه استعادة اخلاص المكان أن يثبت أنه «أفيد من جيش كامل» •
ولا شك أن هذا الاعتقاد كان خاطئا سواء في تقديره لقدرات غوردون
أو في نظرته لاتجاه السودانين •

وقد عانى غوردون من قصور كبير بسبب جهله التام باللغة العربية (١)
ومرجع أحد أخطائه الكبرى ، عملية بربر متصل جزئيا على الأقل بهذا
العامل • وخلال الشهور العصيبة التي أمضاها بالخرطوم كان يجهل
معظم ما يجرى من حوله • وثانيا - كما عرف بيرنج عنه تماما نجده قد

(١) اكد سير رونالد ونجت أهمية هذا العامل - انظر :
Wingate of the Sudan, ٥٨.

اتصف تفكيره بخيال خصب فغمر رؤسائه ومروسيه بخطط مفصلة غير مترابطة وثالثا - كان رجلا مسرفا في ميوله ومن ميوله ما كان ثابتا مثل كرهه للارتباط بالرسميات والتقاليد ومنها ما كان طارئا وهوائيا مما أدى الى ضياع الثقة واثارة الحفاظ ، ومن ذلك أزمته العاطفية المرتبطة بانزير باشا وقد بالغ البريطانيون كثيرا في تصورهم مدى قدرة غوردون على كسب ولاء السودانيين ولعل صيته ذلك راجع الى تصديق الأسلوب الشرقي المذهب في الكلام والعطف على حب غوردون للعدل وكرهه للظلم . وعلى كل فان ما اكتسبه من نفوذ لدى السودانيين حتى في الوقت الذي وصل هذا النفوذ الى أوجه كان أقل جدا مما تصوره هو أو تصوره الرأي العام البريطاني . وفوق هذا فان اتجاهات السودانيين كانت تغيرت ، فبينما كان بإمكان حاكم عام أجنبى مسيحي في عام ١٨٧٩ أن يضمن لهم أحوالا أحسن من تلك التي كان يوفرها لهم الحكام السابقون من الأتراك أصبح ذلك متعذرا في عام ١٨٨٤ بعد أن ظهر بينهم حاكم مرسل من قبل الله للقضاء على طغاتهم وانشاء مجتمع دينى فمن جميع الزوايا كان بإمكان المهدي أن ييز غوردون . وبينما كان ازراى العام البريطانى في غوردون محررا للريق وجد فيه السودانيون انشماليون الرجل الذى هدم أسس رخائهم ، وطارد بقسوة الجلاية وتواطأ في مقتل سليمان ود الزير وهكذا توقفت شعبية غوردون ومكاته في السودان ١٨٨٤ اعتمادا مباشرا ، وهو ما أدركه هو شخصا ، على احتمال مجيء القوات البريطانية لشد أزره .

ولكن ذلك كان لا يزال رهن المستقبل . ففى ١٠ يناير عرض جرانفيل ثانية على بيرنج الافادة من خدمات غوردون فرفض بيرنج العرض بعد مناقشة الأمر مع نوبار . ولكن اعترضه (بشأن غوردون) كان أقل جدية في هذه المرة كما رفض عبد القادر باشا حلمى اقتراحا بإرساله للإشراف على الاخلاء عندما علم بأن ذلك سيتم بصورة علنية .

ولم يكن غوردون في الصورة تماما الى أن قابل لورد ولزلى انجنرال المساعد في وزارة الحرب بتاريخ ١٥ يناير وقبل اقتراحا بالتوجه الى سواكن لاعداد تقرير عن الموقف العسكرى في السودان . وقد جاء

إبلاغ القاهرة بهذا القرار في ذات الوقت الذي طلب فيه بيرنج ، بناء على رفض عبد القادر أن يرسل الى الخرطوم في الحال قائد كفاء يتمتع بسلطات مدنية وعسكرية واسعة للإشراف على الانسحاب • واقتрحت الحكومة البريطانية اختيار غوردون لهذه المهمة • وفي هذه المرة وافق بيرنج على غوردون معتبرا آياه أصلح الموجودين بشرط أن يكون ثمة فهما واضحا تماما لأبعاد مهمته والخط السياسي الذي يجب عليه اتباعه •

أما الفهم الواضح فهو بالذات الأمر الذي تعذر تحقيقه • فقد رأت الحكومة البريطانية أن ترسل غوردون ليكتب تقريراً عن الموقف وفاق هذا الفهم لمهمته لدى الوزراء أى اعتبار آخر ومن ناحية أخرى طلب بيرنج ضابطاً له سلطات واسعة • وفي ١٨ يناير جرت مقابلة بين غوردون وولزلى ثم قابل غوردون أربعة وزراء بعد ذلك من بينهم لورد جرانفيل وقبل دعوتهم أباه للتوجه الى السودان ووضع جرانفيل مسودة تعليماته التى فصلت المهام التى كان عليه أن يقوم بها فى سواكن - كتابة تقرير عن الموقف الحربى ودراسة أفضل السبل لاخلاء مناطق السودان الداخلية وتقديم النصح بشأن ما يتبع من خطوات لمقاومة أى نمو جديد لتجارة الرقيق ، على أنه وردت فى نهاية التعليمات عبارة بدت حينئذ قليلة الأهمية ولكن فهم منها كل من بيرنج وغوردون فى الواقع أنها تخلع على غوردون المهام التنفيذية التى اضطلع بها فوراً « وعلى الكولونيل غوردون القيام بأى واجبات أخرى يعهد بها اليه من قبل الحكومة المصرية عن طريق سير افلين بيرنج » •

وفى ذات الأمسية غادر غوردون لندن • وفى الحال بدأ فكره يتجه الى اخلاء السودان وهو ما فهم أنه مخول لتنفيذه واتبع فهمه هذا بكتابة مذكرة أعدها فى ٢٢ يناير خلال رحلته بالبحر مقترحاً تعيينه حاكماً عاماً للسودان • وأوضح غوردون فى مذكرته تصميم الحكومة البريطانية الذى لا يقبل المناقشة على توفير حكومة عادلة لشعوب السودان وبذلك تكون قد أعادت اليها حريتها المفقودة - هذا بينما كان قد أرسل فى الواقع لترتيب عملية سحب الموظفين والقوات المصرية بسلام • وقد وضع

الخطط لاعادة الأسرات الحاكمة التى أبعدت أثناء الفتح المصرى على أن يتسلموا ما يبلادهم من أسلحة واستحكامات • وأدرك أن هناك أشكالا تتعلق بهذه الفكرة بشأن بعض المدن مثل الخرطوم وكسلا ودنقلة حيث لم تكن هناك أسرات حاكمة قديمة • لذلك فكر فى اعادة الزير الى السودان ثم ما لبث أن استبعد هذه الفكرة • وهكذا وضع غوردون ، حتى قبل أن يصل لمصر ودون أى أساس أولى من المعلومات عن المشاكل التى ستواجهه ، خطة مستفيضة للعمل بمقتضاها • فلقد فسر التعليمات التى زود بها تفسيرا يخالف ما توخاه مجلس الوزراء البريطانى منها ، فتقديم التقارير والمهام الاستشارية غابت كلها عن مخيلته ، أما المهمة التنفيذية التى اقتصرت التعليمات على تضمينها لها فقد أصبحت لها الصدارة • وحين اقترح غوردون تعيينه حاكما عاما ألزم نفسه والحكومة المصرية ومجلس وزراء بريطانيا بتغيير خطير فى السياسة الواجب اتباعها على أن الحكومة البريطانية لم تثر أى اعتراض •

وقد اعتزم غوردون التوجه مباشرة الى سواكن ولكنه تحول الى القاهرة بناء على طلب بيرنج - وهناك تسلم فى ٢٦ يناير تعليمات جديدة من بيرنج مبنية على الفقرة الأخيرة من تعليمات ١٨ يناير • وكانت هذه التعليمات ذات طبيعة تنفيذية خالصة • فقد أكدت أهمية تأمين إخلاء المعسكرات والسكان المدنيين دون خسائر فى الأرواح وتركت لغوردون اختيار الوقت المناسب للإخلاء وطريقة تنفيذه • كما أن هذه التعليمات أيدت فكرة غوردون الخاصة باعادة صغار السلاطين وزود غوردون فى ذات الوقت بأربع وثائق عربية بنيت على مسودة بيان من بنات خياله (١) أحدها عبارة عن قرار من الخديوى محمد توفيق بتعيين غوردون حاكما

Cromer . Modern Egypt. i, p. 446.

(١)

وقد أشار الى ثلاث وثائق : خطاب الخديوى لغوردون بتعيينه حاكما عاما وبيانات • وتوجد ترجمة انجليزية لأربع وثائق كملحقات فى خطاب بيرنج لجرانفيل بتاريخ فبراير ١٨٨٤ كما توجد ترجمة أخرى مستقلة لوثيقتين فى كتاب :
Hake . Gordon's Journals pp. 550-52
F. O. 78/3666
انظر :

عاما « لاعادة الحكم الصالح » وبصحبه بيان موجه الى الموظفين المصريين وكبار السودانيين وعامة سكان السودان يعلمهم بتعيينه ويطلب منهم اطاعة أوامره واتباع نصحه وعدم الاعتراض بأى حال على توجيهاته . أما الوثيقتان الأخريان فقد اعتبرتا فى نظر برنج كبديلتين لهذه . فهناك خطاب ثان من الخديوى جاء فيه « أن الغرض من وصولكم هنا ومن بعثكم هو تنفيذ اخلاء هذه المناطق وسحب قواتنا وموظفينا المدنيين والسكان الذين يرغبون فى التوجه الى مصر على أن يسمح لهم بنقل ممتلكاتهم . ولم يوجه البيان المرفق بالخطاب الا الى أعيان السودان وأهاليه - وقد جاء فى هذا البيان أن الخديوى قد « قرر أن يعيد لأسرات ملوك السودان استقلالها السابق » (١) وأنه قد جرى تعيين غوردون مثالا للخديوى بحيث يتمتع بسلطات مطلقة ليرتب معكم وديا وسائل اخلاء هذه المناطق « ويبدو أن غوردون لم يدرك تماما مغزى ما تحتويه هذه الوثائق - اذ لم يفهم من صيغتها أنه لم يقصد منها أن تشكل بدائل ، بل أن تعطى تخويلا لمرحلتين متتاليتين من مراحل بعثة غوردون وخلال زيارة غوردون للقاهرة تقابل مع الزبير ورغم المناقشة الحادة التى جرت بينهما بشأن مقتل سليمان أبدي غوردون احدى الثوبات الهوائية التى تنتابه وأعلن أن لديه احساسا غامضا أو الهاما بإمكان الثقة فى الزبير وقد أكد غوردون ، وهو تأكيد يتم عن عدم ادراكه مغزى المهدي وقوتها أن الوسيلة الوحيدة لتجنب الحرب الأهلية فى السودان هى اعادة الزبير الذى يمكنه وفق اعتقاده أن يحوز قبولا عاما « أنه يقضى على المهدي فى شهرين اثنين » على أن يرنج رأى أنه ليس من الحكمة السماح للزبير بمرافقة غوردون ولكنه وعد بتأييد غوردون اذا أصر على اعادة الزبير على أن يكون ذلك بعد وصوله للخرطوم (٢) .

وغادر غوردون القاهرة فى ٢٦ يناير مصحوبا بليفتنانت كولونيل

(١) انظر نعوم شقير طبعة ٦٧ ص ٧٦١ - ٧٦٢ .

(٢) وقد أشار سير رونالد ونجت الى الظروف التى احاطت بهذا

الوعد . . انظر . Wingate of the Sudan, ٤٠

ستيوارت الذى خبرته بالسودان أقرب زمنيا من خبرة غوردون وأن كان بيرنج يرى أنه أكثر قدرة على النجاح فى تلك البعثة حتى من غوردون ذاته . وتؤكد مذكرات ستيوارت صحة هذا رأى فقد استطاع برغم صعوبة موقعه بين الاتجاهات المتضاربة الإبقاء على إخلاصه لغوردون مع الاحتفاظ لنفسه بالاستقلال فى تفكيره . أما العضو الثالث فى هذه الجماعة فلم يكن ألا أميرا فوراويا هو عبد الشكور بن عبد الرحمن الذى جاء به من منفاه ونودى به سلطانا على دارفور تحقيقا لسياسة غوردون الخاصة بإعادة الأسر الحاكمة القديمة وأصبح عبد الشكور بردائة الموشى بالمزينات والمداليات البراقة أشبه بصورة كاريكاتورية حيث فشل فى تقمص صفة الوقار اللازمة لوضعه الجديد اذ كان يدمن الشراب ويكثر من العراك مع غوردون ومن ثم ترك فى أسوان . ولعل هذا الموطن ذى المظهر العادى والمتصف بقلّة الذكاء كان حكيما فى زمانه . فلو قدر له أن يصل الى دارفور لما وجد هناك فقط ادارة مهدوية تحت اشراف محمد خالد بل لوجد أيضا مطالبا قويا بالسلطنة فى شخص عبد الله دود بنجا . وهكذا كان اختياره لشغل منصبه مثلا بارزا على عدم فهم حقيقة الأوضاع فى السودان .

وكلما تقدم غوردون نحو الجنوب ، نجده يتكر خططا وينفذ اجراءات لم تبين الا على حكم منقلب ومتسرع وسطحى على حقيقة الوضع القائم فى السودان . فمثلا كان يحكم المحافظتان دنقلة وبربر الشماليتان مجتمعتين أحد أعيان العابدة واسمه حسين باشا خليفة الذى نشط فى الإبقاء على الحكم المصرى فى الأراضى التى يحكمها ودرب العابدة وقوات عربية أخرى غير نظامية وضعت فى الصعيد لتكون على استعداد للعمل فى بربر اذا ما طلب منها ذلك . وما كاد غوردون يصل الى كورسكو حتى أمر بتسريح هذه القوات بعد أن أغرق حسين باشا بسيل من البرقيات التى أعلن فيها عزمه على تسريح الفرق المصرية والموظفين والغاء بعض الضرائب وتخفيض بعضها الآخر ثم طالب الحاكم (أى حاكم دنقلة وبربر) المكدود بتهدة شعب المحافظتين (١) . كما أربك غوردون

رؤسائه فعندما وصل الى أبو حمد في ٨ فبراير نظر الى الموقف بكثير من التفاؤل فقد طال سفره في صحراء يسكنها العباددة البعيدين عن المهدية وحافظوا الى حد كبير على ولائهم للحكم المصري . ومن ثم أرسل من أبو حمد مذكرة ليرنج أشار فيها الى رضاه « بأن مكانة حكومة القاهرة فيما عدا ما يتعلق بسلوك جنودها في الميدان لم يصبها اهتزاز خطير » .

ومن هنا جاء اقتراحه الخاص باحتفاظ مصر بسيادتها على السودان بعد سحب القوات واحلال سودانيين الموظفين المصريين - ومن ثم فهي التي تعين الحاكم العام وحكام المديرية وتقوم بدور المحكمة العليا للاستئناف . وجاء تعليق ستيوارت على هذه المذكرة مخالفا لغوردون بشأن مكانة مصر في السودان وأشار الى أن استمرار السيادة المصرية تتوقف على الابقاء على النفوذ البريطاني في مصر .

وفي هذه المرحلة من بعثته كان غوردون مقتنعا بأن بإمكانه اخلاء السودان سلميا واقامة علاقات طيبة مع المهدي . وأعلن في أبو حمد « أنه لا يعتزم محاربة المهدي » وبعد يومين من ذلك كتب الى حسين خليفة يطلب منه ترجمة وارسال خطاب الى المهدي يعرض عليه السلام ويقترح تعيينه سلطانا على كردفان ويطلب منه - فيما طلبه الافراج عن الأوروبيين المعتقلين لديه ، وبعث مع هذا الكتاب هدية عبارة عن رداء رسمي أحمر وطربوش . وهكذا عاد غوردون الى سياسة تقديم الأردية المزرکشة ولكن الذي قدم اليه الرداء هذه المرة لم يكن أميرا سوريا في المنفى بل زعيما دينيا وحاكما سياسيا لنحو نصف السودان . واتصف رد المهدي بالشموخ الصلف مما ينبئ عن سوء حكم غوردون على خصمه اذ جاء فيه « ... واعلم أنني المهدي المنتظر خليفة رسول الله (صلعم) فلا حاجة الى بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا في مال الدنيا ولا زخرفها وانما أنا عبد الله دال الى الله والى ما عنده فمن كان سعيدا أجنبي واتبعني ومن كان شقيا أعرض عن دالتي فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذبه عذاب الأبد ، وقد أيدنى الله تعالى بالأنبياء والمرسلين

والملائكة المقربين وجميع الأولياء والصالحين لآحياء دينه ... أما الهدية التي أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله الخير وهذاك الى الصواب واعلم أنه كما كتبنا لك انا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها وانما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فيها هي رسالة اليك مع ما نرغبه من اللبس لأنفسنا ولأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون ما عند الله من الخير الباقي الأبدى ليستحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام (١) •

وقد وصل غوردون الى بربر في ١١ فبراير حيث وقع حادث لعله كان بمثابة نقطة التحول في بعثته • ولم يفهم حسين خليفة - الذي أخطر فقط بتعيين غوردون كحاكم عام والذي عمل جاهدا في سبيل الإبقاء على النظام العام ومنع الاتصال بالمهدى - قرار غوردون الخاص بتسريح القوات المصرية والاستغناء عن الموظفين المصريين واعلانه أن حكم السودان سينتقل في المستقبل الى السودانيين وكذلك الحال بالنسبة الى الغائه التام للضرائب • ورأى غوردون ضرورة تبرير تصرفاته وذلك بالكشف عن « الفرمان السرى » الذي أعلن فيه الخديوى اخلاء السودان • ففي ١٢ فبراير قدمه الى كل من حسين خليفة وقاضى بربر وفي اليوم التالى عرضه في اجتماع سرى على أعيان الاقليم ووزعت بيانات في بربر أعلنت حرية الاتصال بين بربر وكردفان ، وانشاء مجلس للاقليم ، وعلان استقلال الاقليم وتخفيف الضرائب • وأخيرا أعلن غوردون وقف العمل باتفاقية ١٨٧٧ الانجليزية المصرية الخاصة بتحرير الرقيق في السودان •

وقد أدى الكشف عن الوثيقة الخاصة باخلاء السودان الى اثارة قلق كل من ستيوارت وحسين باشا بل وغوردون نفسه • وصحب حسين غوردون الى نهاية حدود الاقليم وبين له بالتالى كيف أدى هذا الحدث الى اهتزاز مكانة كل منهما وسلطته • وعندئذ أبرز غوردون وثيقة أخرى وصفها

(١) مخطوطات النجومى ، رقم ٢٤ يوسف ميخائيل (٢) ص ٨٤ •
واللبس الذى أشار اليه المهدى عبارة عن جبة ممزقة وعمامة وسبحة وبعض الملحقات التى تستخدم كزى للأنصارى •

حسين « بأنها مخالفة لتلك التي عرضت في الاجتماع السابق » ومن الواضح أنها كانت إحدى الوثيقتين الأوليين اللتين خلتا من أى إشارة إلى ترك السودان . وهنا بين حسين له « ما كان يجب عليه من عرض الدكرينو السابق الذكر والسماح بقراءته لسكان الاقليم وشيوخه أولاً ، مع تأجيل الوثيقة الأخرى التي عرضت فعلاً حيث أنها تسببت في إثارة كثير من القلق وتؤكد بها الشعب من تنازل الخديوى عن السودان لأهله » . وقد أعطى حسين - بناء على طلبه - نسخة من تلك الوثيقة لنشرها . وعند عودته إلى بربر « عقد اجتماعاً قرأ فيه نسخة الوثيقة التي جاء بها تعيين غوردون باشا حاكماً عاماً للسودان . ويبدو أن ذلك اعتبر مناقضاً لعمل غوردون إذ لا ترد به إشارة جديدة إلى مجلس الاقليم على أن استجابة الناس لذلك لم تكن مرضية » . واعتقد العامة والشيوخ أن هذه الوثيقة وضعت بمعرفة حيث أنها لم تقرأ بواسطة غوردون نفسه الذى وجهت له أصلاً (١) ، ولم يشر استيوارت إلى النتيجة المترتبة على هذه الحادثة وإن ذكر أن غوردون اقترح في ١٤ فبراير على أحد الزعماء المحليين بالدمار التجاء السودانيين إلى الحكومة البريطانية طلباً للحماية . ووصف هذا « على أنه محاولة للتخفيف إلى حد ما من الآثار السيئة التي قد تترتب على الكشف عن فرمان السرى لشيوخ بربر (٢) ووضح أن غوردون لم يكن راضياً عن حادثة بربر ومن ثم كانت أقواله بشأن « فرمان السرى » متضاربة ولم يقرأ فرمان فى الخرطوم لدى وصوله . وفى ١٥ شوال سنة ١٣٠١ هـ (٨ أغسطس ١٨٨٤) وضع مسودة برقية جاء فيها أنه لم يستطع تعريف أحد بفرمان الخديوى الذى جاء به القرار الخاص بالاخلاء وترك البلاد للسودانيين (٣) وفى مذكراته بتاريخ

(١) تقرير حسين خليفة .

(٢) P. R. O., F. O. 78/3668, Stewart

(٣) لم ترسل مسودة هذه البرقية من الخرطوم بسبب انقطاع الاتصالات البرقية بها وأخذها استيوارت معه عند مغادرته للخرطوم فى ٦ سبتمبر ومن ثم سقطت فى يد المهدي بعد ذبح استيوارت ومن معه من زملاء وملخص النص يوجد فى خطاب المهدي لغوردون بتاريخ أول محرم ١٣٠٢ - (٢١ أكتوبر ١٨٨٤) أنظر مذكرات يوسف ميخائيل (٢) رقم ١٧٥ والنص مترجم فى المرجع التالى :

٥. نوفمبر ١٨٨٤ كتب غوردون ما يفيد عدم اعلانه لها حتى ذلك الحين (١) على أنه بعد أربعة أيام اعترف بأنه عرضها على حسين باشا خليفة دون أن يعرف حقيقة ما تضمنته (٢) .

ومهما حاول غوردون التقليل من شأن هذه الحادثة فانها أوضحت ما استقر عليه الرأي من اخلاء السودان كما أوضحت ضعف الحاكم العام الجديد من الناحية المادية . وقد ذكر سلاطين « أن اذاعة هذا البيان الخطير قد أسرع بخطى الأحداث الى درجة مخيفة » (٣) .

ولعل هذا هو التقييم الصحيح لخطأ غوردون - فقد كان أمله الوحيد هو أن يحقق مهمته الخاصة بالاخلاء قبل أن يتنبه العدو الى ضعفه ولكن غوردون أزال منذ البداية كل شك لدى المترددين وأوضح لهم أن مصلحتهم تقتضى التفاهم مع المهدي وعندما حوصر في الخرطوم لم يكف عن محاولة خداع المهدي وسكان المدينة - ولكن فشلت هذه المحاولات نتيجة وضوح أعماله بصورة مكشوفة خلال رحلته فيما بين كورسكو والخرطوم .

٣ - غوردون في الخرطوم :

تحول موقف غوردون وأهداف بعثته فيما بين مغادرته لانجلترا ووصوله للخرطوم في ١٨ فبراير من ناحيتين ، فقد ابتلعت مهامه التنفيذية مهامه الاستشارية الأصلية وتحول تفكيره عن مجرد تنظيم الاخلاء الى الاعداد لحكومة تخلفه وقد سيطر عليه هذا التحول في اهتماماته .

فان ما شاهده في السودان فيما بين أبو حمد والخرطوم دفعه الى التخلي عن فكرة الابقاء على السيادة المصرية وبمجرد وصوله للخرطوم أوعز ليرنج بأن تقوم الحكومة البريطانية بتعيين خلفه وامداده بالصلاحيات ووعدته بالمساندة الأدمية من جانب حكومة جلالة الملكة ،

Ibid p. 285

(١)

Ibid p. 369

(٢)

(٣) كتب سلاطين أن حسين باشا خليفة أخبره بأنه منع غوردون من قراءة البيان في بربر الا أن غوردون قرأه في المنمة . وهذه الواقعة لم ترد في تقريرى ستيوارت وحسين باشا المكتوبين . Slatin , op. p. 298

ولا شيء أكثر من ذلك ، ومضى غوردون يحبذ اختيار الزبير باشا . وينبىء تعليق ستيوارت على المشروع الأخير عن حسن تقديره المعتاد للأمور ففى رأيه أن هذه السياسة المقترحة من شأنها أن تسهل انسحابهم من السودان الى حد كبير ولكنه أبدى شكه فيما اذا كانت لديه المعرفة الكافية بالبلاد بحيث يستطيع اتخاذ قرار فيما يتعلق بتعيين الزبير .

وبينما تجرى هذه الاتصالات تنبه غوردون أخيرا الى حقائق الموقف - فقد استقبل بحفاوة فى الخرطوم وأحرق دفاتر محصلى الضرائب وأسواطهم فى الميدان العام حتى يتوفر الاتصال بين سكان المدينة ومن هم فى خارجها . ولكن هذه الاجراءات الدرامية لا يمكن لها أن تكتسب ولاء رجال وضعت مصائرهم وأرواحهم على كف القدر . فأحد كبار الزعماء الدينين المحليين وهو شيخ العبيد ود بدر من أم ضبان تخلى عن حيادة عندما علم أن غوردون لم ترافقه قوات وأنه يهدف الى اخلاء البلاد . كما أن شيخ المضوى عبد الرحمن غير موقفه من جديد وانضم الى عائلة الشيخ العبيد . وأرسل غوردون الى نائب المهدي فى الجزيرة الشيخ محمد الطيب البصير معلنا سياسته بشأن تخفيض الضرائب والابقاء على الرقيق والحكم الذاتى ودعا الشيخ الى الخرطوم فأجاب الشيخ البصير بدوره طالبا من غوردون التسليم . وفى تلك الأثناء أدت استعدادات الاخلاء الى افزع السكان وحث اثنان من الضباط غوردون على التوقف ولو مؤقتا عن تنفيذ سياسته الخاصة بترحيل القوات المصرية .

كان لهذه التطورات تأثير مزدوج على غوردون . فقد أدرك أن خطته الأصلية التى قامت على اخلاء السودان سلميا مع الابقاء على علاقات الود مع المهدي قد منيت بالفشل . وشعر بأنه ملزم باقامة حكومة قوية تخلفه وتيسر اتمام عملية الاخلاء وتوفير الحماية اللازمة للراغبين فى البقاء . ولذلك فانه عندما حول بيرنج الى غوردون برقية الحكومة البريطانية المؤرخة ٢٢ فبراير التى نصت على رفض اختيار من يخلف غوردون وأشارت الى رفض الرأى العام البريطانى تعيين الزبير ، أجاب غوردون بأنه لا يجد بديلا عن الزبير بآخر وأرسل نداء جديدا الى الحاكم الشرعى (م ٨ - المهدية)

لمصر جاء فيه ... اذا كان لمصر أن تتمتع بالسلام فلا بد لها من القضاء على المهدي ... واذا استقر رأيكم على ذلك فلا بد لكم من أن ترسلوا مائة ألف جنيه أخرى ، ٢٠٠ جندي هندي الى وادي حلفا ، وأرسلوا أيضا ضابطا الى دنقلة بحجة البحث عن مستقر للجنود والاخلاء ممكن ولكنكم ستشعرون بآثاره على مصر وستواجهون مسألة أخطر لحمايتها ومن السهل نسبيا في الوقت الحالي القضاء على المهدي » (١) .

وهكذا كان غوردون يقترح تأجيل الاخلاء وتدخل بريطانيا عسكريا في السودان وتدمير المهدي . كما يبدو تبدل أفكاره في بيان أعلنه لسكان السودان بتاريخ ٢٦ فبراير - اذ تخلى غوردون عن سياسته السلمية وأعلن أن قوات الحكومة البريطانية في طريقها اليه وأنها ستصل الى الخرطوم خلال أيام قليلة . وقد يكون هذا التأكيد ناتجا عن سوء فهم أو لعله كان نوعا من الخداع . وقد أثبتت الأيام التالية زيف ما جاء في البيان وبالتالي تأثرت مكانة غوردون الشخصية - تلك المكانة التي كانت سلاحه الأخير وربما الوحيد وحين اكتب وزراء بريطانيا كثير من القلق ولم تكن لديهم فكرة واضحة عن الموقف في السودان وبدا لهم أن المبادرة قد انتقلت الى شخص بعيد لا يمكن التنبؤ بما سيفعل وأنه يلزمهم صراحة بالتدخل المسلح وفي تلك الأثناء واصل غوردون الضغط في سبيل ارسال الزبير يساعده بيرنج في ذلك باخلاص . رفض مجلس الوزراء البريطاني هذا الطلب من جديد في جلسته التي عقدت في ٥ مارس . وكان غوردون لا يزال يواصل الضغط من أجل تحقيق طلبه في الوقت الذي كان فيه الرأي العام لا يزال متحاملا على الزبير .

أما جلادستون فكان مريضا ولم يكن يستطيع تنفيذ ميله الى الاستجابة لطلب غوردون . وقرر مجلس الوزراء في اجتماع عقد في غيبة جلادستون ١١ مارس رفض طلبه نهائيا . وفي ١٣ مارس أخطر بيرنج بتعذر الاستجابة لكل من اقترح غوردون الخاص بالاستعانة بالزبير أو ارسال قوات بريطانية الى بربر .

وقد اتخذ هذا القرار في الوقت الذي انتهت فيه المرحلة الأولى من إقامة غوردون بالخرطوم . ففي ١٢ مارس قطع الخط البرقي بين الخرطوم وبربر . ومنذ ذلك الوقت كانت الاتصالات التي تجرى بين غوردون وبيرنج بليئة ومنقطعة وصعبة وفي ذات الوقت أخذ الثوار المحليون يجمعون قواتهم تحت قيادة الشيخ العبيد وأولاده والشيخ المضوى وطردوا حامية الشائكية غير النظاميين الصغيرة من الحلفاية المواجهة للخرطوم واحتلوا المدينة (الحلفاية) في ١٣ مارس . أرسل غوردون حمولة مركبين من الجند لاستعادة هذه النقطة ولكنهم اضطروا للكف عن اتمام العملية عندما حل المساء . وبعد ثلاثة أيام أرسلت قوة قوامها أربعة آلاف جندي الى الحلفاية ولكنها هزمت وأحيط غوردون علما بأن الضابطين الرئيسيين في تلك الحملة تواطأ مع الثوار فحوكما عسكريا وأعدما . وأعقب هذه العمليات الأولية فترة سكون يمكن تفسيرها بأن الأنصار كانوا في انتظار تعليمات من المهدي . وفي ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ (٥ مارس ١٨٨٤) أرسل المهدي رده على خطاب غوردون الذي عرض عليه فيه سلطنة كردفان (١) وقد جاء بالرد في ٢٢ مارس ثلاثة رسل قدموا لغوردون أيضا الجبة ذات الرقع باعتبارها الرداء التقليدي للمهديين ورفض غوردون بازدراء دعوة المهدي اياه لقبول الاسلام دينا له وعاد الرسل الى الأبيض ليبلغوا المهدي بفشلهم . وبناء عليه أرسل المهدي ، وقد أرضى ضميره بعد انذار عدوه محمد عثمان أبو قرجة ومعه المدافع والأسلحة النارية وقوة من الأنصار لتنظيم حصار الخرطوم (٢) .

وفي نفس الوقت عين المهدي أستاذه السابق محمد الخير أميرا لبربر وأرسله ليشرف على الجهاد في ذلك الاقليم (٣) فوصله في ٢٧ أبريل

(١) تاريخ هذا الخطاب موجود في مذكرات يوسف ميخائيل (٢) رقم ٩٠ . وأيضا في شقير : تاريخ السودان وجغرافيته ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٢) جاء ذكر تعيين أبو قرجة كأمير لجهات البحر ، وتكليفه بقتال العدو في خطاب من المهدي الى محمد خالد بتاريخ ٤ جمادى الثاني ١٣٠١ هـ (أول أبريل ١٨٨٤) أنظر Mahdia, 1/1, R. 6-7

(٣) حين فارق المهدي كان قد حصل على لقب أمير وذلك في ٣ جمادى الثانية ١٣٠١ هـ (٣١ مارس ١٨٨٤) . Ibid, 1/10, 8, 22

حيث وجد أن أحد الزعماء الثائرين تمكن من حشد الأعراب على حدود اقليمى بربر والخرطوم وطرد الحاميات الحكومية من معسكرها الواقع على خائق سبلوقة . وحين وصل محمد الخير تقدم مع مجرى النيل حيث انضم اليه سكان القرى التى مر بها . وأبدت شندى بعض المقاومة ولكن القوات العسكرية انسحبت فى النهاية فى مركب بخارى لاحقة الأنصار عن كتب . وعندما وصل محمد الخير الى الدامر انضم اليه الأمين أحمد المجذوب شيخ المجاديب هناك . وأرسلت رسالة موقع عليها من شيوخ الاقليم الى حسين خليفة تدعوه للتسليم . ولكنه رفض الدعوة فقام الأنصار بقطع اتصالاته بالشمال والجنوب . وأعد حسين باشا ما استطاع من استعدادات للمقاومة . وفى ١٦ رجب ١٣٠١ (١٢ مايو ١٨٨٤) أحضر محمد الخير قواته الرئيسية وبدأ الحصار . وأدى الهجوم العام الذى قام به بعد سبعة أيام من بدء الحصار الى اختراق الدفاع وتعرض العبادة للمذبحة التى أعقبت ذلك . وقدم حسين باشا خضوعه لمحمد الخير وبعد شهرين من ذلك التاريخ تم ارساله الى المهدي . وعثر فى خزانة الاقليم على أكثر من ٦٠ ألف جنيه يمثل معظمها الاعانة التى أرسلت لغوردون . وقد أرسل المهدي فور اخطاره بها الأمين ابراهيم محمد عدلان - أحد موظفيه الماليين - ليحضرها له .

وحيث أصبح موقف غوردون عصيا للغاية - فقوات المهدي تحيط به ومحمد الخير وعثمان دقنة يسدان عليه الطرق المؤدية الى الشمال والى سواكن ولهذا كان لا يستطيع حتى اخلاء الخرطوم دون مساعدة عسكرية قوية من الخارج . وهذا ما لم تتعهد به الحكومة البريطانية . ومن ثم اعتقد غوردون أن واجبه هو البقاء بالخرطوم لمقاومة العدو بكل ما يستطيع آملا مع توالى الأيام أن يتخذ مجلس وزراء بريطانيا قرارا لانقاذه فى النهاية . ومما شجعه على هذا الاعتقاد البرقية التى وصلتته فى أول مارس والتى تضمنت أن الحكومة البريطانية تثق بقدرته على البقاء مزيدا من الوقت بالخرطوم وقد تعدل هذا الاتجاه بعد ذلك حين وصلتته تعليمات تقضى بسحب الحامية والانسحاب الى بربر اذا

ما لاح ازدياد الصعوبات بشأن اقامة حكومة تخلفه. ولكن هذه التعليمات الأخيرة التي وصلت للقاهرة فعلا في ١٧ مارس لم تصل الى غوردون على الاطلاق. ولهدا بقي بالخرطوم وليس لديه مايساعده أكثر من عقيدته الدينية العميقة ذات النزعات الصوفية وقرر مقاومة قوات المهدي حتى النهاية .

ولم يترتب على وصول أبو قرجة لقيادة الأنصار لمحاصرين للخرطوم انتصارات جديدة . وقد أقام معسكره على النيل الأزرق جنوب شرق الخرطوم . وفي البداية بدا أن غوردون قد صمد في وجه المحاصرين - فقد أمكن صد الأنصار - المعسكرين على النيل الأبيض قرب الخرطوم - حتى شهر يوليو . وطرد أبو قرجة من مواقعه على النيل الأزرق فانسحب الى النيل الأبيض حوالى منتصف شهر أغسطس ومن هناك أرسل الى المهدي تقريرا عن الموقف وعندئذ بعث غوردون برجاله ليقوموا بهجوم كبير على الأنصار في الحلفاية وكانوا تحت قيادة الشيخ العبيد - فسقط معسكر المهدي وانسحب الأنصار الى أم ضبان وفتحت هذه العمليات طريق المؤن للخرطوم التي بدأت تعاني من آثار الحصار ، كما أعطت المدافعين فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم . ولعل هزيمة أبو قرجة الظاهرية كانت خدعة حربية - ومع أن تعليمات المهدي له لم تعرف لنا الا أنه يمكن القول بأنه رأى أن من غير المناسب القيام بعمل حاسم حتى وصول الجيش الرئيسى والمهدي شخصيا . ولا شك أنه باستمراره في عزل الخرطوم وارهاق المدافعين عنها كان يعد العدة - بفعالية - للصراع الأخير .

ولم تكن انتصارات غوردون حاسمة وعندما حاول في أوائل يوليو تقوية مركزه على النيل الأبيض بإرسال حملة بقيادة ساتى بك (الذى عمل سابقا في بحر الغزال) للقضاء على ثورة نشبت في القبطاينة هزم ساتى بك وقتل . وعقب الانتصار الذى تحقق في الحلفاية أرسلت حملة على النيل الأزرق ضد تجمع للأنصار . وقضى على الثوار في ٣١ أغسطس وتقدمت الحملة نحو أم ضبان ولكنها ضلت طريقها ووقعت في كمين وقتل

قائدها مع ألف من رجاله • وعندما عاد الناجون للخرطوم انهارت الروح المعنوية في المدينة •

وعزم غوردون أيضا على ارسال حملة بقيادة ستيوارت للاستيلاء على بربر • ولكن مذبحه أم ضبان جعلت تنفيذ هذه العملية أمرا مستحيلا - فقرر غوردون ارسال ستيوارت لاجتياز الحصار في باخرة حتى يستطيع نقل آخر تطورات الموقف بالخرطوم للعالم الخارجى • وقد غادر ستيوارت الخرطوم في سبتمبر مصحوبا بقنصلى انجلترا وفرنسا ووقفوا في الوصول الى منطقة المناصير قرب حمد حيث هوجموا في ١٨ سبتمبر على يد سليمان نعمان ودعمر الزعيم المحلى الذى غدر بهم وحيث ذبح جميع الأوروبيين • وحينئذ أصبح غوردون معزولا في الخرطوم بصورة لا يمكن احتمالها • وأخيرا أجبر ضغط الرأى العام في بريطانيا خلال ذلك الصيف حكومته على الموافقة على ارسال بعثة للانتقاذ • وفي ٥ أغسطس وافق البرلمان على اعتماد مبلغ ٣٠٠.٠٠٠ جنيه لهذا الغرض ولكن ضاع وقت طويل قبل تحديد مسار الحملة وتنظيمها • ولم تصل أنباء عن الحملة لغوردون قبل ٢٠ سبتمبر وحينئذ لم يكن قد بدأ اعدادها - بل لم تبدأ الاجراءات التمهيدية الخاصة بها ، ولم يبدأ الطابور الصحراوى تحركه من كورتى في اقليم دنقلة عبر صحراء بيوضة نحو الخرطوم قبل يوم ٧ يناير ١٨٨٥ •

وفي خلال ذلك تدهور موقف غوردون تماما • أما المهدي فقد غادر هو وأتباعه الأبيض في أوائل ابريل ١٨٨٤ (١) وأقام معسكرا في الرهد حيث تتوفر المياه اللازمة لكل هذه الجموع خلال موسم الجفاف ، وظل في هذه البقعة حتى نهاية شهر رمضان الذى اعتكف فيه وتولى خاله

(١) يعطى اورفالدر ص ١٠١ يوم ٧ ابريل تاريخا لهذا الحدث بينما يعطى الخليفة في خطاب منه لمحمد خالد تاريخا متقدما لهذا الحدث (انظر Madsia, 1/10, 8, 22) هو ٣ جمادى الثاني ١٣٠١ هـ الموافق ٣١ مارس ١٨٨٤ ويذكر أن المهدي تقدم صوب النهر ، وهناك خطاب آخر من المهدي لمحمد خالد (Loub. 1. 1, 8, 6-7) بتاريخ ٤ جمادى الثانية يذكر فيه انه سيتحرك الى الخرطوم بعد أبو قرقه •

محمود عبد القادر منصب الحاكم العسكري في الأبيض ، وأرسلت حملة بقيادة حمدان أبو عنجة ضد النوباويين في جبل الدوير في الوقت الذي كان فيه مركز قيادة المهدي في الرهد . وأرسلت طليعة جيش المهدي إلى الخرطوم تحت القيادة العليا للجعلى عبد الرحمن النجومى . وغادر النجومى الرهد في أوائل شهر رمضان (٢٥ يونيو) وشق طريقه ببطء ، ووصل الخرطوم في أوائل سبتمبر حيث استدعى جميع القبائل لمعاوته وأخذ في تضيق الخناق على المدينة . أما المهدي فغادر مع بقية رجاله وأتباعه وأسراه الرهد في ٢٢ أغسطس (١) . ووصلت القافلة الكبيرة إلى النهر عند الدويم ثم تحركت شمالا على شاطئه الأيسر وفي ٢٣ أكتوبر اتخذ المهدي معسكرا رئيسيا له يتابع منه الحصار في أبو سعد جنوب أم درمان . وهكذا طوقت القوات المهدية المدينة تماما في الوقت الذي كرر المهدي كتاباته لغوردون داعيا إياه للتسليم . وفي تلك الأثناء تزايدت الصعوبات التي كان يعاني منها سكان المدينة .

وأقام الأنصار استحكاماتهم في الحلقاية وخور شامبات على المجرى الرئيسى للنهر لمنع مرور المراكب البخارية ، كما أرسل المهدي حمدان أبو عنجة للاستيلاء على قلعة أم درمان التي كانت بها قوة تحت قيادة المقاتل السوداني فرج الله باشا راغب تواصل القتال ببسالة بعد تناقص المؤن والذخيرة وبعد أن فشل غوردون في انقاذها . وفي ٥ يناير ١٨٨٥ استسلم فرج الله باشا للمهدي بمواقفة غوردون . وأدى سقوط أم درمان إلى انهيار معنويات سكان الخرطوم إلى حد كبير وإلى تزايد المغادرين للمدينة من أجل الانضمام للمهدي .

وحينئذ توقف كل شيء على إمكان وصول النجدة في الوقت المناسب . وقد غادر الطابور الصحراوي آبار الجكدول في طريقه إلى المثة عبر صحراء بيوضة ، بينما احتلت قوة مشتركة من الأنصار على رأسها محمد الخير وعلى سعد فرج وكيل المهدي في المثة آبار أبو طليح (٢) على

(١) يحدد أورفالدير يوم ٨ أغسطس تاريخا لمغادرة المهدي .

Chrwalder p. 186.

Abu Kea

(٢) الاسم المعروف به في الانجليزية هو

طريق الطابور الصحراوي • وهناك انضمت اليهم قوة أرسلها المهدي وفي ١٧ يناير حدث الاشتباك الذي تم فيه اختراق المربع البريطاني ولكن الدائرة دارت على الأنصار فانسحبوا الى المتمة • واستأنف الطابور الصحراوي تقدمه ولكن المهدي كان قد أمد رجاله بتعزيزات أخرى تحت قيادة النور محمد عنقرة • ووقع اشتباك آخر في القبة (١) خارج المتمة في ١٩ يناير حيث تشتت شمل الأنصار سريعا ، ولكن القائد البريطاني أصيب بجرح مميت • وانتقلت القيادة الى سير تشارلز ولسون الذي قرر الاستيلاء على المتمة قبل أن يستأنف تقدمه • وتم هذا فعلا في ٢١ يناير وفي أثناء القتال وصلت ثلاث مراكب بخارية بعث بها غوردون للاتصال بطابور الانتقاذ • ولم يتعجل ولسون تقدمه للخرطوم فورا بعد ذلك وكان يعتقد أن واجبه الأول هو تأمين سلامة رجاله وخاصة لأنه خشى تعرض قوته لهجوم يشنه ضده المدد الذي أرسله المهدي • ومن ثم صرف اليومين التاليين في الاستطلاع وفي ٢٤ يناير اتجه ولسون مع ٢٠ جنديا بريطانيا ، وأكثر من مائتي جندي أسود في مركبين بخاريين الى الخرطوم • وعندما أصبحت المدينة على مرمى البصر من المركبين في ٢٨ يناير لم تشاهد الراية المصرية • وأصبح من الواضح أن الحصار الطويل من حولها استطاع أخيرا أن يحقق غايته • وبناء على أوامر ولسون توقفت المراكب وتحت وابل من رصاص رجال المهدي استدارت عائدة • ولا حاجة بنا الى ذكر ما كان للفشل في انتقاذ حياة غوردون من ردود فعل على السياسة البريطانية - فهي معروفة بما فيه الكفاية •

ويبدو أن الرأي العام البريطاني ابتداء من الملكة فيكتوريا بانع في تجسيم هذا الفشل فلو قدر لحملة الانتقاذ أن تصل الخرطوم قبل سقوطها فما كان ولسون بقادر بمركبيه البخاريين وحفنة الرجال التي صاحبتة على القيام بأكثر من محاولة لانتقاذ غوردون نفسه • وما كان غوردون ليقبل بمثل هذا فقد كتب في مذكراته « انى أعلنها

بصراحة وبصورة قاطعة أتى لن أترك السودان الا بعد أن تتاح لكل راغب في النجاة فرصته والا بعد قيام حكومة تأخذ عنى المسؤولية (١) .

ورغم ذلك فلو تصرف ولسون بسرعة أكثر لأوقف المهدي مؤقتا - فالأنصار المحاصرون للخرطوم قد أثرت فيهم كثيرا أنباء هزيمة أبو طليح ، وعقد المهدي مجلسا من خلفائه وكبار أنصاره وأقاربه حيث أيدت الغالبية في البداية الانسحاب الى كردفان - الا أن محمد عبد الكريم خال المهدي عارض بشدة هذا الرأي الذى أثاره الرعب وقال : « اذا كانت كل هذه المتاعب قد تسبب فيها انجليزى واحد هو غوردون فكيف يكون الحال اذا انضم الى غوردون جيش كامل من أهل بلاده ؟ » . وبناء عليه قرر المجلس القيام بهجوم خاطف على الخرطوم قبل وصول قوات الانتقاذ . وعزز هذه الخطة الجريئة ما جاء به بعض الهاربين من الخرطوم من أنباء عن نقص كبير فى المؤن وعجز جنود الخرطوم عن القتال . كما كنف أحد القارين عن أضعف نقط الاستحكامات وهو موضع على النيل الأبيض تراجعت عنه مياه الفيضان تاركة شريطا من الأرض الطينية لا يحميها خندق أو سور . وفى منتصف ليلة ٢٥ يناير عبر المهدي النيل الأبيض وصرح للنجومى بالهجوم . وقبل بزوغ الفجر بنحو ساعة نفذ الهجوم . واخترقت الاستحكامات من النقطة التى حددها الهاربون . وفى خلال ساعتين تقريبا توقفت كل مقاومة وقضى على غوردون نفسه خلال هذا الاشتباك حيث قتل على درج السراى الخاصة به (٢) ، وقطعت رأسه وأرسلت الى سلاطين فى أم درمان للتثبيت منه . ولما شاهدها سلاطين نطق بالنص التالى « يا لسعادة الجندى الشجاع الذى سقط أثناء تأدية واجبه فقد توقفت آلامه » .

Hake : Gordon's Journals, 307.

(١)

(٢) تعددت الروايات فى هذا الشأن ولكن مما يؤيد روايتنا هذه الشهادة المحايدة التى سجلها يوسف ميخائيل . وحول هذه الرواية توجد تفاصيل متنوعة عن الزى الذى كان يلبسه غوردون واسم من قام بذبحه وهكذا . ولا يوجد ما يدعو للشك فيما يؤكد السودانىون بصفة عامة من أن غوردون قتل برغم أوامر المهدي .

(٤) الموقف بالخرطوم عقب سقوطها :

تكررت في الخرطوم وعلى نطاق أوسع صور من المآسى التي أعقبت سقوط الأبيض . فقد جال الأنصار وصالوا في الطرقات قتلا ونهباً لساعات عديدة ولكن ما كان المهدي يرضى عن بعثرة ما بالعاصمة من ثروات . ومن ثم صدرت الأوامر بتجميع الأسرى والغنائم في معسكر النجومى خارج الأسوار وسلم كل هذا مع الممتلكات ذات القيمة لأحمد سليمان مسئول بيت المال ، ووزع المنتصرون فيما بينهم النسوة صغيرات السن باعتبارهم زوجات أو محظيات ، وقضت المذبحة على كثير من الرجال البارزين . أما الناجون فحددت لهم اعانات قليلة من الخزينة ولكن صرفها كان صعباً وخلال الأشهر القليلة التالية أدرجوا في سياق العمال المؤقتين أو اليدويين بأمر درمان .

وفي ٣٠ يناير وهو اليوم الرابع لسقوط الخرطوم والثانى بعد انسحاب ولسون دخل المهدي العاصمة دخول الظافرين وأم صلاة الجمعة في المسجد . ويبدو أنه قرر في بداية الأمر اتخاذ الخرطوم عاصمة له وأعد له منزل خاص كبير كما أعدت منازل أخرى لكبار أنصاره . واتخذ « عبد الله » من سراى الحاكم مقراً له . ولكن سرعان ما تغيرت خطط المهدي وتقرر انشاء عاصمة جديدة في السهل الواقع شمال قلعة أم درمان . وبناء عليه نقلت قوات المهدي من أبو سعد وأقيم مسجد ومنازل بسيطة للمهدي وضباطه . وقد مارس المهدي لبضعة أشهر مراسيم سلطته من أم درمان حيث توفي في ٩ رمضان ١٣٠٢ هـ (الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٥) ولم يطل مرضه ومن ثم سرت الشائعات بأن إحدى محظياته التي تم أسرها في الخرطوم قد دست له السم . والاحتمال الأقوى أن وفاته كانت طبيعية وينسبها سلاطين لاصابته بحمى التيفوس .

وعند وفاة المهدي كان عدد كبير من الناس بمن فيهم كثير من أقارب المهدي والأشراف يقيمون في الخرطوم . وقد توترت العلاقات في الشهور الأولى لحكم عبد الله - كما سئرى - بينه وبين الأشراف . وكان من الواضح أنه لم يرتح للخرطوم فقد زار العاصمة القديمة مع قوة

كبيرة من البقارة وأخرج سكانها من بيوتهم ثم جمع كل ما بها من سلاح وبعد ثلاثة أيام أصدر أمرا للأهالي بمغادرة الخرطوم والاقامة في أم درمان ومع أنه لم تتخذ اجراءات فورية لتنفيذ هذا القرار الا أنه تأكد في ذى الحجة ١٣٠٣ الموافق أغسطس ١٨٨٦ أى بعد أربعة أشهر من قضاء « عبد الله » على محاولة قام بها الأشراف لعزله^(١) وفي هذه المرة نفذ القرار بعنف وبقيت الخرطوم لمدة اثني عشر عاما - أى الى حين وصول كتشنر اليها - تنعى من بناها • فقد هدمت مبانيها لانشاء العاصمة الجديدة • ولم يبق منها سوى ميناؤها ، وذلك رغم الابقاء على الحدائق باعتبارها مصدرا للدخل •

(١) تقرير بردينى (Burdusni) أنظر ما يلى :

الفصل الخامس

دعاية المهدي وادارته

(١) دعاية المهدي :

يبدو أن محمد أحمد ذاته هو الذي أنشأ الدعاية المهدية فقد وضع أسسها قبل أن يعلن نفسه مهديا سواء في آبا نفسها أو خلال رحلته الى كردفان . وواضح أنه لم يكلف خلال هذه المرحلة المبكرة أحدا من أتباعه بالتعليم أو التنظيم باسمه . وعندما أعلن أنه المهدي قرن ذلك الاعلان بتطور كبير في الدعاية المكتوبة في صورة رسائل انذار أو انذارات أرسلها للمارقين . وقد بقيت إحدى رسائله الأولى - وقد كتبت في أول شعبان ١٢٩٨ (٢٩ يونيو ١٨٨١) - وكانت موجهة الى الشيخ محمد الطيب البصير من الحلويين بالجزيرة . وتكشف تلك الرسالة الملامح الرئيسية للدعاية المهدية : قصة الرؤيا التي يعلن فيها الرسول أن محمد أحمد هو المهدي . والتصوير بسيط لا تعقيد فيه اذ يظهر في الرؤية اثنان من أتباع محمد أحمد (وأحدهما عبد الله) وبعض الأولياء من المتصوفة . وكل هؤلاء - باستثناء عبد القادر الجيلاني - كانوا من سوداني القرن التاسع عشر المتصلين بالطريقة السمانية في الجزيرة (١) .

وحتى يمكن مخاطبة دائرة أوسع كان لابد من شكل للدعاية أكثر تطورا - ومن الواضح أن هذه قد ظهرت دون تأخير - فهناك رسالة بتاريخ ١٢٩٨ هـ (أى خلال الشهور القليلة الواقعة بين يونيو ونوفمبر من عام ١٨٨١) تحوى جميع العناصر الأساسية لدعاية المستقبل - وقد تم التعبير عن معظمها في صياغة ما لبثت أن أصبحت متشابهة (٢) .

(١) مخطوطات النجوى ، رقم ٥٣ .

(٢) نفس المصدر ، رقم ١٢٦ .

وتبدأ الرسالة بالحسرة على ما كان من ترك السنة وتنبه الى أن نداءات محمد أحمد الأولى من أجل الإصلاح قيل اعلانه لمهديته لم يعرها أحد التفاتاً سوى الفقراء وأهل الصلاح الذين تدافعوا لأداء عهد الولاء . ويصف محمد أحمد بعد ذلك أحداث الرؤية التي رآها والتي تم فيها تنصيبه مهدياً عندما أجلسه النبي محمد صلى الله عليه وسلم على المقعد في حضور النبي الخضر وأولياء الاسلام وأتباع محمد أحمد نفسه . وهكذا صار محمد أحمد « خليفة لرسول الله » . وجعل المهدي تكليفه بقيادة الجهاد ضد الكفرة واضحا في ذات الرؤية . فقد جاء في الرؤية أن النبي سلمه سيفه وأيده بعشرة من الملائكة . وتقرر أن يصحبه دائماً ملاك الموت عزرائيل على أن يتقدم جيشه في القتال وأيضاً الخضر وقد جاء ذكره في القرآن ونسب له الصوفيون السمرمية والعلم بالغيب والتواجد في كل مكان . وقد أخبر النبي المهدي فيما بعد بسر العلامتين الإلهيتين اللتين تدلان على صدق تكليفه بالرسالة وهما الندبة التي على خده الأيمن وراية النور التي تسير أمامه . واستندت العلامة الثانية الى المذيل وما كان من ظهوره في ذلك الحين بالسودان .

وقد أدى ذكر هذه الرؤية وما جاء بها الى اقناع جماهير السودانيين بالمهدي - وجاء تأثرهم العميق بسبب ما تناقلوه منذ طفولتهم عن معجزات أوليائهم . ولم يكن من السهل اقناع العلماء الذين درسوا أصول الدين بالأزهر (غالباً) بمثل هذا الدليل . ولذا دافع محمد أحمد أمامهم عن صدق مهديته بما أكده من أن علم الله وقوته لا يمكن قياسهما بمقاييس البشر . فعلى فرض عدم توفر صفات المهدي المتوارث ذكرها فيه فإن الله قادر على اختياره برغم ذلك وبرغم رأى شيوخ الدين . واقتبس من الآيات القرآنية ما يؤيد قوله هذا ومن ذلك الآية : « والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » . ثم أنه هاجم المنكرين لمهديته وادعى أن الرسول قال ان عدم الايمان بالمهدي كفر بالله ورسوله .

وتتميز هذه الرسالة بظاهرتين مثيرتين للاهتمام - فبعد تعريف المهدي بعلامتيه نسب للنبي مخاطبته اياه بالقول • أنت خلقت نور مهجة قلبي • ويعكس هذا المبدأ الصوفي - القائل بأن الله خلق حفنة من النور قبل كل العالمين • وقد تجسد هذا النور في آدم والأنبياء الذين جاءوا بعده الى زمن محمد ، ثم انتقل الى سلالة محمد من ابنته فاطمة وابن عمه علي بن أبي طالب • وهكذا أكد المهدي وضعه باعتباره خليفة للنبي وذلك حين أشار الى نور محمد • وقد يفسر هذا الملح الثاني البارز في الرسالة • فرغم أن محمد أحمد اعترف بعدم اهتمامه بالصفات التقليدية للمهدي المنتظر حيث أن الله غير مقيد بتخمينات البشر حول هذا الموضوع فانه كان عظيم الاهتمام باثبات انطباق واحدة من تلك الصفات عليه وهي بالذات ضرورة انتساب المهدي لأسرة النبي وقد أعلن أن كلا من جديه لوالده ينتسبان للحسين بن فاطمة وعلى وكذلك الحال بالنسبة الى جدته لوالدته • أما جده لوالدته فكان أيضا من أقارب النبي لأنه من سلالة اعباس عم النبي •

وقد ضمن المهدي ما جاء برسالته هذه من دفاع عن صدق مهديته في منشورات تالية • وتنوعت وسائل التأكيد والاقناع وفقا لنوعية المعنيين برسائله • فعندما كتب الى عالم أصدر منشورا معاديا له ، أكد بطلان ما ذهب اليه هذا العالم من ضرورة تحرك الله طبقا لمعتقدات رجال الدين وبين أهمية الخلاص بالايمان المجرد • وفي منشوراته التي وزعها على رجال حملة هكس وعلى السكان المحاصرين في المدن استند - كدليل على صحة رسالته الالهية - الى انتصاراته السابقة •

وفي رسالته الى شيخ السنوسية محمد المهدي بن السنوسي تم توسيع قصة الرؤية بحيث تخلع موافقة الله على تعيين كبار أتباعه والمخاطب (السنوسي) باعتبارهم خلفاء للخلفاء السنيين الأربعة •

ولما كانت الدعاية المهدية متشابهة في معالمها الرئيسية ، فقد كان من الممكن تطويرها بحيث ترضى مختلف الناس الذين توجه اليهم •

ورغم ما يبدو من أن قلة من رجال الدين المحترفين هم الذين آمنوا بها عن اقتناع ، فانها - بالإضافة الى انتصارات المهدي المدوية - شكلت سلاحا نفسيا كان له أثر ضخم على جماهير السودانيين .

(٢) ادارة المهدي :

تحولت المهديّة خلال السنوات الأربع التي مضت فيما بين اعلان المهدي لنفسه في آبا ووفاته في أم درمان من حركة احتجاج ديني الى حكومة اسلامية عسكرية قوية . ويمكن توزيع نظم هذه الحكومة بين ثلاثة عناصر : قيادة المهديّة العليا - النظام المالي - النظام القضائي . وقد ضمت القيادة العليا المهدي ذاته والخلفاء الثلاثة عبد الله بن محمد ، علي بن محمد حلو ومحمد شريف بن حامد والقواد العظام كعبد الرحمن النجومى وعثمان دقنه ، ومحمد الخير عبد الله خوجلى وحمدان أبو عنجة . وفي خلال هذه الفترة كان الإشراف ، أقارب المهدي ، على علاقة وثيقة بوجه خاص مع القيادة العليا .

(١) المهدي :

شغل المهدي في نظام القيادة مكانة عليا وفريدة في نوعها بسبب تنصيب الله له . وقبل اعلانه أنه المهدي كان مركزه يقوم على كونه رئيسا لطريقة دينية ويمارس سلطة روحية على مرّديه فالصلة بين مثل هذا الشيخ وأتباعه تقوم على عهد يتخذ شكل قسم بالولاء (بيعة) تمكن العضو الجديد بالانخراط في سلك الطريقة (١) . وقد واصل المهدي هذا الأسلوب التقليدي بعد اعلانه لمهديته . وكانت البيعة تتم وفقا للعبارات التالية : « بايعنا الله ورسوله ومهديه وبايعناك على توحيد الله وألا نشرك به أحدا ولا نسرق ولا نزنّي ولا نأتى بيهتان ولا نعصيك في معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما يريد الله رغبة في ما عند الله والدار الآخرة وأن لا نفر من الجهاد » (٢) .

ويُلخص هذا العهد أنبل ملامح المهديّة والاحتجاج الذي أدى الى

Trimingham . Islam, 205-6, 221

(١)

(٢) شقير : تاريخ ح ٣ (طبعة بيروت) ص ٩٧٥ .

ظهور الحركة فالتداء بوحدانية الله ، أهم مبادئ الاسلام كان دائما عبر الأجيال صيحة التجميع للمسلمين الراغبين في الإصلاح ، والتطهير . ولعل هذا يذكرنا بحركة محمد بن تومارت الذى عرف أتباعه في القرن الثانى عشر « بالموحدين » . أما الالتزام بعدم السرقة أو الزنا أو شهادة الزور فقد وجهت ضد ثلاث خطايا شائعة أدت الى افساد المجتمع وبث الانقسام بين المؤمنين . وأمنت العبارة التى تلت ذلك فى البيعة سلطة الحاكم . أما التقشف والزهد فى الدنيا مما ورد فى الجزء الثانى من البيعة فيصوران الروح الحقيقية للمهدية ورغبتها فى احياء الزهد الاسلامى البدائى والمقدس وأكدت العبارة الأخيرة واجب « الجهاد » الذى كان جزءا لا يتجزأ من المهدية وهو ما أثبتته أحداث آبا .

وقد بقى المهدي الى وفاته مسيطرا على زمام الحركة التى أسسها . وبرغم ما كان يكلف به أتباعه - وخاصة الخليفة عبد الله - من أعمال كثيرة روتينية الا أنه لم يكن بتاتا مجرد شخصية شرفية . ومما يؤكد هذا اتساع مدى خطابه و منشوراته سواء من حيث التاريخ أو المحتوى . وتوجد فى كتاب خاص جمعت فيه رسائل المهدي و منشوراته وهو محفوظ حاليا فى المتحف الذى أقيم بمنزل الخليفة بأمر درمان (١) أربع صفحات خاصة برسائل المهدي و منشوراته خلال سنة ١٢٩٨ هـ ، ٣١ صفحة عن سنة ١٢٩٩ هـ ، ٢٥ عن سنة ١٣٠٠ ، ٧٤ عن سنة ١٣٠١ هـ ، ١٠٣ عن جزء من سنة ١٣٠٢ هـ ، حيث توفى فى رمضان من نفس العام . وكلها رسائل ذات طابع واحد لا يصدر الا عنه هو وحده - نداءات للانضمام للمهدية موجهة لحكام اجانب أو لقبائل السودان وأعيانها . واختص المهدي أيضا بالنظر فى حالات العفو عن المتمردين التائبين وكذلك تعيين كبار قادة النظام على الأقل . واذا استثنينا هذه الشئون المتصلة بسلطته فانه لا يمكن الفصل تماما بين الاختصاصات الادارية لكل من المهدي والخليفة عبد الله . وبصفة عامة كان الخليفة يبت فى المسائل الروتينية المتصلة بالشئون العسكرية والادارة القبلية بينما اختص المهدي بوضع المبادئ العامة وعزز بسلطته تصرفات مرءوسه .

ويبدو أنه لم يكن لدى المهدي مجلس رسمي وإنما جرى على أخذ رأى الخلفاء والأشراف وغيرهم من الأعيان البارزين كلما تراءى له هذا . ويذكر شقير أن المهدي أقام بعد سقوط الخرطوم مجلسا إداريا يضم سبعة أمناء يرأسهم أحد الأشراف ، وقد خول هؤلاء الأمناء سلطة التصرف في جميع الشؤون الإدارية بحيث توضع قراراتهم موضع التنفيذ في جميع الشؤون الإدارية بعد موافقة الخليفة وختمها بخاتم المهدي (١) . ولم يبق لنا من أرشيف أعمال هذا المجلس سوى أربع وثائق (٢) ، إلا أن هذه الوثائق تعطينا صورة مخالفة لوظيفة المجلس فهي عبارة عن مجموعة من الالتماسات التي قدمت فيما بين فبراير - ومايو ١٨٨٥ من أشخاص أضر بهم سقوط الخرطوم . وعلى هذه الالتماسات وضع أعضاء المجلس تعليماتهم للتخفيف عن الملتسين . ومن هذا يبدو أنهم كانوا يشكلون محكمة تقوم بالنظر في التظلمات أكثر من كونهم مجلسا إداريا وأنهم كانوا يتصرفون دون الرجوع للخليفة . ويذكر شقير أن الخليفة حل هذا المجلس بعد وفاة المهدي . ولعل هذا لم يكن له أثر سئ حيث سبق البت في معظم التظلمات التي قدمت نتيجة الأحداث التي أعقبت سقوط الخرطوم قبل مضي ستة أشهر عليها .

(ب) الخلفاء والجيش :

إن لقب الخليفة الذي أضفاه المهدي على معاونيه الثلاثة الرئيسيين غنى بالمعاني والمدلولات والمقصود أساسيا من هذه الكلمة هو « الخلف » وقد استخدم أبو بكر الصديق هذا اللقب بهذا المعنى بعد وفاة الرسول فعرف باسم خليفة رسول الله وهكذا أصبحت هذه الكلمة أحد الألقاب التي تطلق على رأس الجماعة الإسلامية . كما أن هذه الكلمة تتضمن بالإضافة إلى ذلك معنى وكيل أو بديل وبهذا المفهوم جرى استخدامها في المصطلحات الخاصة بالطرق الدينية لتعني المندوب أو الممثل المحلي لشيخ الطريقة . وهذا المفهوم لكلمة « خليفة » كان معروفا في السودان ولمصدره

(١) شقير : تاريخ ج ٣ طبعة بيروت ص ٩٣٣ .

(٢) وثائق مهدي ١/٤٧ ، ١٣ ، ١٤ - ٤ .

وهو « خلافة » مثل هذا المدى الواسع من المعاني فيمكن أن يعني أن يخلف شخص شخصا آخر أو منصب الخليفة ذاته في طريقة دينية •

ولو بقي محمد أحمد كمجرد عالم ديني لكان عليه بدون شك أن يعين عددا من الخلفاء من بين أتباعه الأساسيين ولأرسلهم ليمثلوه في جهات السودان المختلفة • على أن الشواهد تبين أن الخلفاء الثلاثة لم يعينوا الا بعد اعلان المهدي وأن استخدام هذا اللفظ لم يرد في الرسالة المرسلة الى الشيخ محمد الطيب البصير المؤرخة أول شعبان ١٢٩٨ هـ (الموافق ٢٩ يونيه ١٨٨١) • ويذكر سلاطين أن الاختيار تم قبل ترك المهدي لآبأ مباشرة بعد القتال الذي جرى مع المصريين^(١) بينما يحدد أورفالدر لهذا الاختيار تاريخا متأخرا - أي ما بعد الهجرة الى جبل قدير (٢) •

ترجع أهمية التعيين الأصلي الى أن عبد الله وعلى ومحمد شريف لم يكونوا خلفاء بالمعنى التقليدي المرتبط بالطرق الدينية فهم لم يكونوا في الأساس ممثلين للمهدي بل خلفاء لقادة المجتمع الاسلامي الأول • وكما كان المهدي ذاته خليفة لرسول الله كذلك فإن عبد الله بن محمد كان خليفة الصديق وعلى بن محمد حلو خليفة الفاروق (عمر ابن الخطاب) ، وقريب المهدي محمد شريف بن حامد خليفة على ابن أبي طالب صهر النبي (خليفة الكرار) •

وقد تمت هذه التعيينات بناء على التعليمات التي جاءت في رؤية نبوية وترك منصب واحد شاغرا وهو الخاص بخليفة عثمان ثالث الخلفاء وفي ٥ رجب ١٣٠٠ هـ (١٢ مايو ١٨٨٣) كتب المهدي بعد استيلائه على الأبيض داعيا محمد المهدي بن السنوسي شيخ الطريقة السنوسية العظيمة في جفوب الى قبول هذا المنصب • وبقيت هذه الرسالة بدون رد ولم يشغل المنصب بتاتا وان ادعى أحدهم الحق فيه كما سنرى بعد وفاة المهدي • وجاء وصف ما رآه المهدي في رؤياه فيما يلي : «... ثم حصلت

حضرة عظيمة عين النبي صلى الله عليه وسلم فيما خلفه من أصحابه من أصحابي (١) فاذ اجلس أحد أصحابي على كرسى أبى بكر الصديق وأحدهم على كرسى عمر وأوقف كرسى عثمان فقال هذا الكرسى لابن السنوسى الى أن يأتىكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابي على كرسى على رضوان الله عليهم ولا زالت روحانيتك تحضر معنا فى بعض الحضرات مع أصحابي الذين هم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم *** » •

وهكذا لم يكن بين الألقاب التى أطلقت على الخلفاء الثلاثة لقب « خلفاء المهدي » وهو اللقب الذى اختص به عبد الله وحده وسرعان ما أصبح عبد الله الأول بين قرنائه وزادت مكانته بفضل الهجرة الى قدير وما لعبه البقارة من دور فى الانتصارات الأولى وحصل على لقب اضافى باعتباره « أمير الجيوش المهدية » ومن الواضح أنه كان له الاشراف العام على القوات المحاربة ككل وبالإضافة الى ذلك تولى القيادة المباشرة لاجدى فرق الجيش أسوة بالخليفين الآخرين • وقد عرفت كل من الأقسام الثلاثة انكبرى بالراية التى اعتاد اتباعها التجمع حولها فى العروض أو فى القتال • وتولى عبد الله قيادة الراية السوداء (الراية الزرقاء) (٢) التى تكونت أساسا من مجندى البقارة الغريين والتى كانت منذ الهجرة تمثل أكبر الأقسام عددا • وقاد الخليفة على « الراية الخضراء » وفيها قبيلتا كنانة ودغيم وبقارة جنوب الجزيرة وكردفان • وكان على نفسه ، من القبيلة الأخيرة وهو رجل تقى على علم بالفقه الذى أخذه خلال دراسته بالأزهر وفقا لما ذهب اليه أورفالدر • أما الخليفة محمد شريف فكان أصغر سنا من زميله ويعتقد أورفالدر أنه ولد حوالى سنة ١٨٧٠ • وتولى قيادة « الراية الحمراء » التى كانت تضم الأشراف والأنصار الذين يرجعون الى أصول أو سلالات نيلية (٣) ولولا الهجرة لكان هذا القسم الذى شمل

(١) شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ١٧١ ، مذكرات يوسف ميخائيل (٢) ص ٤٨ .

(٢) أزرق ومؤنثها زرقاء أى زرقعة لها معنى الاسود فى العامية السودانية ومن ذلك فان الاسم العامى لسلطنة الفونج هو السلطنة الزرقعة .

(٣) هناك خلاف حول لون الخليفة محمد شريف . انظر :

كثيرا من أوائل المؤيدين للمهدى وأكفهم أكبر الأقسام الثلاثة عددا .
ولكن الأحداث جاءت لصالح عبد الله والراية السوداء ، وعندما جرى
تنظيم الجهادية خلال حصار الأبيض وزعوا بحيث وضعوا جانب منهم
تحت قيادة كل من الخلفاء . وكان لكل منهم طبول حرب خاصة به ترمز الى
سلطته ومكاته (هذه الطبول استخدمت في السودان كعلامة مميزة
لشيوخ القبائل) وكان لعبد الله بالإضافة لذلك الامباية وهى ناب فيل
استخدم كبوق .

وخلع على الضباط التاليين في المكانة للخلفاء لقب أمير . وتفاوت
عدد القوات التابعة لكل من الأمراء بشكل كبير وذلك لأن أول من حمل
هذا اللقب كان عادة من وكلاء المهدى في الأقاليم لتعبئة الرجال للجهاد .
وحمل عبد الرحمن النجوى الى حين لقب أمير الأمراء . ولعل هذا
اللقب يكشف عن مرحلة مبكرة في التنظيمات المهدية عندما كانت كفة
الأنصار النيليين تحت قيادة النجوى أرجح عن كفة أصحاب الراية
السوداء تحت قيادة عبد الله . وعندما انتصرت المهدية وتم لها اسقاط الادارة
المصرية أصبح الأمراء الموجودون على رأس حملات بعيدة عن مركز
المهدية الرئيسى هم فعلا الحكام العسكريون للأقاليم الواقعة تحت
سيطرتهم . ويأتى بعد الأمراء في المرتبة المتقدمون (جمع مقدم)
أو المقدمون (جمع مقدم) وللقبهم هذا أهمية حيث أن لفظ مقدم
استخدم في شمال افريقيا للدلالة على العاملين في الطرق الدينية من
أصحاب المرتبة التالية لمرتبة الخليفة بينما استخدم لفظ مقدم في دارفور
للدلالة على من يحكم أحد أقسام السلطنة . وفي رجب ١٣٠١ هـ (مايو
١٨٨٤) أمر المهدى باستبدال لفظ أمير بعامل (١) ، ومقدم بنقيب ومن

(١) المعنى العادى « للعامل » في المصطلح الادارى الاسلامى هو
« الموظف المالى » وكان لها هذا المعنى في المهدية ولكنها استخدمت
بدلالة أوسع لتعنى وكيل المهدى وفيما بعد وكيل الخليفة في الشؤون
الادارية . ومن ثم استخدمت لتعنى حاكما عسكريا أو قائدا عاما . كما
استخدمت أيضا بمعنى محصل أو جابى ضرائب عامة ، ويمكن الرجوع
فيما يتعلق بلفظى عامل وأمير واستخداماتهما في الولايات الاسلامية الاولى
الى مصطلحي Amil, Amir في دائرة المعارف الاسلامية من تأليف
عبد العزيز الدورى .

ثم عرف كل قسم بلفظ عماله بدلا من اماره وان بقى استعمال لفظ أمير من جانب الجباهير . وقد استخدمه الكتاب الانجليز باستمرار وبالتالى زحف الى حد كبير الى أصول الوثائق المهدية أما البدائل للفظ مقدم فلم تحز القبول بتاتا ووجهت المنشورات فى عهد الخليفة الى العملاء والمقاديم . وقد لقب أتباع المهدي فى الأصل بالدراويش ولصق بهم هذا الاسم فى الكتابات الأوربية . وقد عمد المهدي تمثلا منه بعهد الرسول وهو الاتجاه الذى غلب على أفعاله الى الغاء هذا الاستخدام بين أتباعه مطلقا عليهم اسم الأنصار (١) وهو الاسم الذى أطلق على من انضم الى الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة . وقد استخدم أيضا لفظ المهاجرين وقصد بهم أولا أولئك الذين هاجروا مع المهدي الى جبل قدير وثانيا أولئك الذين انضموا للمهدي هناك أو فى مرحلة تالية مثل البقارة ومن الألفاظ الأخرى التى أطلقت على أتباع المهدي واندثر استعمالها على وجه السرعة لفظ « فقراء » .

وقد برزت مظاهر التثقف ، الذى كان من المعالم البارزة للمهدية الأولى والذى مثل أحد البنود الهامة فى يمين الولاء لها ، فى الرداء الذى اتخذته الأنصار زيا لهم أى فى الحجة ذات الرقع التى ترمز للفقر بالإضافة الى عمامة بيضاء ينزل أحد طرفيها الى الكتف ومنطقة (أى حزام) وصندل . وقد كتب المهدي ممتدحا هذا الزي الذى ظل استعماله ساريا حتى نهاية المهدية ، وفى أواخر عهد نجاح المهدية ورخائها حور زعماء الأنصار وضع الرقع التى اتخذوها على جلايبهم بحيث أصبحت ترمز الى مراكز أصحابها أو مكاتتهم .

(ح) تفوق الخليفة عبد الله :

أدى التزايد فى مكانة عبد الله فيما بين الهجرة والاستيلاء على

(١) استخدم هذا اللفظ فى بيان مبكر صدر فى عام ١٢٩٩ هـ .
(مخطوطات النجومى ص ٧) . أما الغاء لفظ درويش (جمعها دراويش) فقد ورد فى أحد المنشورات (النجومى ص ٩٤) والسبب فى ذلك أن لقب درويش يعنى فى السودانية العامة « الرجل المجنون » .

الأبيض الى سخط كثير من الأنصار وحسدهم . وفي ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٠١ (٢٠ يناير ١٨٨٣) . أى بعد أسبوع واحد من سقوط الأبيض أصدر المهدي منشورا مطولا أكد فيه بأقوى العبارات بروز عبد الله ومنحه سلطات واسعة وهذه بعض الفقرات الهامة كما وردت في الوثيقة الأصلية : « ... أما بعد اعلّموا أيها الأحباب أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصديق والتصديق فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهديّة المشار اليه في الحضرة النبوية ... فحيث علمتم ذلك يا أحبّائي أن الخليفة عبد الله هو مني وأنا منه وقد أشار اليه سيد الوجود (صلى الله عليه وسلم) فتأدّبوا معه كتأدّبكم معي فجميع ما يفعله بأمر أنبيى صلى الله عليه وسلم أو بأذن منا لا بمجرد اجتهد منه (١) ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره صلى الله عليه وسلم ، واعلموا يقينا أن قضاء فيكم هو قضاء رسول الله (صاعم) كما قال الله تعالى : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا ... واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم فلا تتعرضوا عليه فقد حكمه الله فيكم بذلك ليظهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لنصفى قلوبكم وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسى جزما فقد خسر الدنيا والآخرة ... ومن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدقا بمهديتى فليسلم للخليفة عبد الله ظاهرا وباطنا واذا رأيتم منه أمرا مخالفا في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن ... وأن الخليفة هو قائد المسلمين وخليفتنا النائب عنا في جميع أمور الدين واياكم والوسوسة في حقه وظنّ السوء وعدم الامتثال في قوله والمشاجرة له ولأحكامه والخلاف والحسد فتوبوا الى الله ... فمن تاب تاب الله عليه ومن عاد فينتقم الله منه وسلطه عليه وهذا أمر الله ورسوله

(١) أغلق اهل السنة باب الاجتهاد منذ القرن الثالث الهجرى ورغم ان المهدي ، قد مارس الاجتهاد بالفعل في تشريعاته فانه انكر انه يقسم بذلك وخلق على بياناته سلطة عليا حين ادعى انها من الهام النبى وقد خلعت نفس هذه السلطة هنا على قرارات عبد الله .

فيحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ويصيبهم عذاب اليم
ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (١) .

وأهمية هذه الوثيقة تكمن في وصفها عبد الله بأنه خليفة المهدي -
وقد فهم هذا من مدلول العبارة التي جاء فيها وهو فائنا في جميع شئون
الدين (١) والواقع أن العلاقة الآن بينه (أي بين الخليفة) وبين المهدي
أصبحت أقرب ما تكون الى علاقة الخليفة في طريقة دينية لشيخها مع
فارق واحد وهو اتساع مدى واجباته مع تزايد انتصارات المهدي .
وأصبح مركزه أشبه ما يكون « بالوزير » الاسلامي التقليدي . وقد
عبر المهدي عن هذا في العام التالي فقد تضمنت رسالة أرسلت الى من
يدعى فخر الدين حسن الذي ادعى أن الاختيار الالهي قد وقع عليه ليكون
خليفة وصف الرؤية أو الحضرة التالية : « وقد آتانا خبر من
الخضر عليه السلام أن الأولياء اجتمعوا في بيت المقدس يقولون الحمد
لله الذي أظهر المهدي وجعل عبد الله وزيره ، وثم وجد اجتماع الشياطين
وهم مجتمعون يقولون كان عيشنا بالغش والمكر والخداع والكذب فأتى
المهدي وقطع علينا عيشنا ولولا أن عبد الله وزير له وكان الخليفة غيره لكننا
نجد في المهدي دخولا فالآن أعرض عليه قبل وصولك اليه فان كان صدق
يتضح وتصبح وترضى فيما يحكم عليك ثم بعد ذلك تلاقينى بالعفو
والرضى وتكون من أصحابنا المقربين والسلام » (٢) .

ولم يستخدم الخليفة لقب وزير البتة ولم يستعمل لقب خليفة
المهدي الى أن تولى الأمر بعد موت المهدي . ولعل تحاشي استخدام
اللقب الثاني مرجعه الى ما يعينه من خلافة حاكم متوف بينما لم تتعرض
المهدي الأولى في فلسفتها الفكرية لموت المهدي .

(١) توجد صورة قريبة للأصل في كتاب نعوم شقير ح ٣ ص ١٧٢ -
١٧٣ وطبعة بيروت ص ٧٠٩ - ٧١١ .

(٢) ... يشمل مفهوم « شئون العقيدة » وفي الشيوعية المهدية
جميع شئون الدولة .

(٣) ادارة المحفوظات المركزية - وزارة الداخلية الخرطوم - الطبعة
انثالثة يوليو ١٩٦٤ « منشورات الامام المهدي الجزء الثاني المعترف
باسم الانذارات » ص ١٧٧ - ١٧٨ ، ص ٦٧ .

وقد توقع الأنصار سلسلة متتالية من الانتصارات تضع المهدي على رأس العالم الاسلامي ومن ثم أدى نبأ وفاته لاصابتهم بصدمة قاسية . على أنه أمكن لعبد الله بعد وفاة المهدي استخدام هذا المنشور بالذات كدليل لا نقاش فيه لاثبات ما له من حق في السيادة . ولم يحدث عندئذ تأكيد لفكرة حلوله محل المهدي فقط فيما ورد من تعبيرات خليفة وخلافة بل أكد على التعيين الالهي لعبد الله كخليفة الصديق لاستخدامه في الدلالة على أنه قصر به أن يتبع ما جرى سلفا أو في الماضي ويخلف المهدي كما خلف أبو بكر الرسول . وهذه الفكرة لها ميزة أخرى لأنها أجلت بلا ريب استيلاء الخليفة محمد شريف على السلطة بما له من حق الادعاء استنادا الى قرابته للمهدي ومساندة الأشراف والقبائل النيلية له بوجه عام .

وهكذا تفوق مركز عبد الله على الخليفين الأصغر منه ولم ينته الجدل نهائيا بعد اصدار هذا المنشور ففي ربيع الثاني ١٣٠١ هـ (فبراير ١٨٨٤) كتب المهدي لآدم عمر (آدم ام دبالو) ملك تغلي في الماضي وحاكمها حينئذ تحت سيادة المهدية مؤكدا المكانة الخاصة لعبد الله مشددا على ضرورة اطاعته وصدر خطابان بعد ذلك في نفس العام للطامع فخر الدين حسن يشتمل أولهما على النبوءة النبوية التي سبقت الإشارة اليها . وأخيرا كتب المهدي قبل وفاته ببضعة أسابيع لخالد محمود عبد القادر حاكم كردفان معلنا ما جاء على لسان الخضر من « أن ذلك الذي لا يحب الخليفة عبد الله لن يكافأ ولن يقام حيا مع المهدي كما أن المطر لا يقيم العشب الجاف » (١) . وقد طبعت هذه النصوص على شكل كتيب في مطبعة أم درمان الحجرية خلال حكم الخليفة .

(د) تطور النظام المالي :

كون الأنصار الذين هاجروا مع المهدي الى جبل قدير - بحكم طبيعة وضعهم - مجتمعا بدائيا يعتمد في استمرار بقائه على ما يستطيع اقتناصه من عدوه وقد أتاح لهم انتصارهم على راشد أيمن ويوسف

(١) وثائق المهدية ١٤/٥٦/١ .

الشلالي في سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ - ١٨٨٢) واستيلاءهم على كردفان ثم سقوط الأبيض في أيديهم في سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣) قدرا كبيرا من الثراء بفضل ما غنموه من سلاح ورقيق ودواب وبضائع وأموال . ولم يكن غريبا على الأنصار أن يستولوا بغريزتهم البدائية على كل ما يقع في أيديهم لمنفعتهم الخاصة . وكانت هذه الغريزة بنفس القوة لدى قبائل البقارة الذين قدموا عونا متزايدا للمهدي عندما زادت انتصاراته وضوحا . وقد سعى المهدي الى مقاومة هذه الغريزة البدائية وحاول تثبيت قواعد الشريعة التي تنص على أن الغنيمة ملك للمجتمع المهدي ككل توزع وفقا للحاجة ولا يستولى عليها الأفراد . ومنذ عام ١٢٩٩ أصدر منشورا يؤنب فيه أتباعه لمخالفتهم . ومن الواضح أن اهتمامه انصب على سلوكهم ازاء الغنيمة . وقد جاء فيه « لقد آثرتم الحياة الدنيا على الحياة الآخرة وفضلتم جمع الغنائم والأموال والخروج بها . . . واني أحذركم في كتابي هذا بدافع الشفقة عليكم . . . حتى تعيدوا كل ما أخذتموه من غنائم (١) » .

وقد أتاح سقوط الأبيض للمهدي السيادة الاقليمية على مساحة كبيرة من السودان الغربي ومنذ ذلك الوقت يمكننا ملاحظة تطور نظام مالي . ومن المحتمل أنه أنشأ بيتا للمال في قدير . والآن وضع بيت المال هذا تحت اشراف أحمد سليمان وهو محصى من أصدقاء المهدي المقربين . ولعله تولى ادارة بيت المال لبعض الوقت قبل تعيين المهدي له رسميا في جمادى الثانية سنة ١٣٠٠ هـ (ابريل - مايو ١٨٨٣) حيث جاء بأحد المنشورات :

« . . . وبعد ضمن العبد المقتدر الى الله محمد المهدي أبى عبد الله الى كافة أصحابه وأتباعه ووزرايه على دين الله حيث أن المعين اقامة الدين واتفاق القلوب وتعلقها بالله المحبوب وقيامها سويه على ما عند الله مرغوب كان علينا أن نترقب ما عند الله فقط ونأخذ سيوفنا لنصرة الدين ولا نترقب شيئا آخر ولما لزمنا لنا ضرورة القيام بهذا الأمر

والزماضيق يومن القوة بالتوكل على اللطيف، لزمنا أن نجتمع للمسلمين ما يقي
الضرورة ولم أجد من يقوم لى مساعدنا بالعفة والزهد والأمانة مع صدق
النية في الخدمة والهمة العالية كمثّل أحمد سليمان وقد أوقفته أمينا
على لوازم المسلمين وبيت المال فهو أمين عليه من طرفى ومومن على
ما يفعله فيه بلا تهمة ولا في التقصير عن بذل الهمة فيه وحيث أنه كذلك
فهو يولى فيه من يريحه عليه ويعزل منه من لا يقوم بجواب أمره ويحكم
فيه من لزم له الحكم حيث انه على الصدق والأمانة فمن خونه فقد
خوننى ومن تءاذاه (آذاه) فقد ءاذانى (آاذانى) ومع ذلك (ذلك) يجرى عليه
الحكم اللازم من طعن الأمانة ولا سيما هو بالخصوص كما هو مأذون
من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فاذا حكم على أحد لزوم ما يلزم
بيت المال وما تعلق به فلا يحكم الا بالعدل والصدقة • ومن اتهمنى
في ذلك والله مختار في أمره يفعل فيه وهو حسيبى ونعم المتولى لمن كان
بلا علة وهذه نصيحة تحذروا من الوقوع في سخط الله ورسوله وسخطى
من جهة من أمنتهم وصار براحتهم لى وجميع من وليته أمرا من لم يتبع
له فقد خالفنى ومن خالفنى فقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقع
سخط الله والسلام ••» (١) •

وقد أدى الانتصار في معركة شيكان الى تدفق غنائم كثيرة على
المهديين وفي ٥ محرم سنة ١٣٠١ (٦ نوفمبر ١٨٨٣) أصدر المهدي
منشورا (٢) ، لتنظيم هذه الشؤون جاء فيه :

« ••• وقال صلى الله عليه وسلم من كنتم غالا (مالا) فانه (مثله)
واذا كان الأمر كذلك فيا أحبائى اتبهاوا واحذروا الدنيا واتعظوا بما
شاهدتموه من هلاك أربابها واحرصوا على حفظ دينكم ولا تبدلوا
الخيث منها بالطيب الأخرى وسينقض عهدكم مع الله ورسوله ومعنى
فانكم قد أعطيتمونى عهدكم ومواثيقكم على السمع والطاعة لأمرى

(١) مخطوطات النجومى ص ٩٤ •

شقيير طبعة بيروت ص ٦٦٩ •

(٢) النجومى ص ١٠ •

وعدم عصياني فيما هو معروف واني لا أرضى لواحد أن يقبل في شيء من الغنائم (وينصح) فيها لله ورسوله ولنا ويحضرها لنا بسجل لزومها لأجل اخراج الخمس منها وتقسيم الباقي عليكم حكم الله ورسوله ولا يكتف أحد منكم غالاً (ملاً) ، سوا كان من جداعته أو لا يكون احضار الغنائم المذكورة على وجه الفور بجهة البركة كوننا الآن في محل عطش ولا يمكننا الاقامة فيه أكثر مما مضى فمن سمع وأطاع الأمر فهو الفائز من الله بالأجر ومن لا فعلية الوزر ولن يعجز الله هارباً في الدنيا واءلاخرة (والآخرة) ونحن نعلم أن هذه الجردة فيها أموال جسيمة وأمتعة ليست لها عدد وكلها وقعت في أيديكم فلازم من الاهتمام بجمعها وحضورها لأجل تقسيمها وعودها لكم بالوجه الحلال وانما نحن فليس لنا رغبة فيها فلا يخطر ببالكم أننا نحرّمكم اياها وتقضيها لنفسنا بغير ما أحل الله . معاذ الله من ذلك هذا ما عرفنا لكم به والسلام . . . » (١) .

وهكذا توافرت سابقة لتقسيم الغنائم طبقاً للشريعة فالخمس يعطى للمهدي بصفته اماماً للجماعة ويوزع الباقي بين المحاربين . وواضح انه في مثل هذه الحالات يرسل الباقي (أو أكثر ما يمكن جمعه من المحاربين) الى بيت المال .

وقد فرضت المهديّة ضريبة على قبائل الغرب طبقاً للشريعة وذلك عقب تمتعها بالسيادة عليها وفرضت الزكاة على ماشية القبائل وجوبها . وهكذا فرض العشر على المحاصيل من أجل الزكاة ويرد العشر أحياناً على أنه ضريبة قائمة بذاتها . ويذكر يوسف ميخائيل كيف أن أخاه الذي كان يعمل محصلاً لحساب الحكومة المصرية بين قبائل الغديات أرسل بعد سقوط الأيضا بقليل الى نفس القبيلة لذات الغرض وان يكن لحساب المهدي . ولم ترسل حصيلة الايراد الذي جمعه في هذه الحالة لبيت المال بل خصصت لحملة حمدان أبو عنجه التي تقرر ارسالها الى جبل الدائر (٢) ، وشاهد العام التالي (١٣٠١) مزيداً من تنظيم للشئون

(١) مذكرات يوسف ميخائيل محفظة (١) ص ٥٥ .

(٢) مخطوطات يوسف ميخائيل (١) رقم ٥٥ .

المالية فقد صدر أمر المهدي موجها الى الخلفاء والوكلاء والأنصار والمأمير^(١) محددًا مهام بيت المال وإدارة الضرائب على الوجه التالي :

« ... على كافة الأصحاب خصوصًا الخلفاء أن يعاونوا الخليفة عبد الله في جمع الغنائم والزكوات لبيت المال وهو يفرق بمعرفة العمال فيها وهم يكونون معاونين بأنفسهم وأتباعهم وقد عزمت على كل أحد من الاخوان أن من كان يؤمن بالله ورسوله ومهديه ألا يؤخر عن بيت المال درهما ولا دينارًا وتكون راحة جميع الاخوان والأصحاب كبيرًا وصغيرًا من بيت المال ولتفرح الاخوان لخدمة الدين وراحة المسلمين لا يخدم أحد لنفسه ولا لجماعته فكل مؤمن بالله ورسوله ومهديه ومعاون الى على هذا الدين يكون على راحة المسلمين ولا يستبد أحد ببطاقة لجماعته ولا بقبيلة لرايته ولا بجهة ومعلومية لامره لأن هذا فيه خدمة النفوس والاتكال على غير الله القدوس مع أن البيعة على زهد الدنيا والاتكال على الله وبذل النفس لأقامة الدين وحيث كان الواجب القيام بالبيعة فالاخوان جميعًا فليخدموا » الاعشار والزكوات والغنائم » لبيت المال ولا يأخذ أحد لنفسه ولا لجماعته شيئًا . وتكن الراحة من بيت المال لجميع الأنصار ولبيين من كان له عيال وأهل من كثير وقليل ومن ليس له الا قليل فالكل يقنن له من بيت المال ما يكفيه والجميع خدمتهم لله وان فرغ بيت المال يكون الصبر حتى يعطى الله بيت المال الكفاية له والسلام » .^(٢)

ومن هذا يتضح أن مهام أحمد سليمان اقتضت على استلام الضرائب وتوزيع الهبات بينما تولى عبد الله تحديد الضرائب وفرضها (خدمة حقوق الله) ويلقى المنشور الذي أصدره عبد الله سنة ١٣٠١ هـ الى المحصلين المحليين مزيدًا من الضوء على هذا التنظيم - وقد أشار فيه بعد مقدمة تستند الى آيات من القرآن الى جمع الزكاة من بيوتهم جمالا

(١) يبدو أن هذا هو استعمال المهدي الوحيد لهذا المصطلح . وفي عهد الحكم المصري كان المأمور أدنى رتبة من حاكم الاقليم .

(٢) مخطوطات النجومى ، رقم ١١ . هذه الرسالة غير مؤرخة ، ولكن استعمال لفظ عامل يجعلنا نعتقد بأنها صدرت بعد رجب ١٣٠١ . (انظر أيضا نعيم شقير - طبعة بيروت ، ص ٩٣٢ ، (المترجم) .

وماشية خرافا ومعيذا حسب أمر الله بشأن زكاة الدواب والى جمع زكاة المحصول من مالكي الأرض الصالحة على أن يدرج كل ما يدخل من زكاة أو من غنيمة في قوائم ترسل اليه حتى يمكن اضافتها الى بيت مال المسلمين ومن ثم توزع بين الضعاف والفقراء وجماعة الله والمطارين وطلب منهم ألا يتهاونوا بأى حال في جمع حقوق الله وألا يغفلوا ارسالها على وجه السرعة . كما طلب منهم في حالة امتناع أحدهم عن تسليمها بأخذها منه غنوة مع افادته (١) .

وكان معظم الضرائب يحصل عينا ، أما التعامل بالنقود فكان نادرا الا فيما بين سكان الحضر والتجار . وعند قيام الحركة المهدية كان يتداول بالسودان خليط كبير من العملات معظمها مصرى وعثمانى ومن بينها أيضا دولارات أسبانية ونمساوية من الفضة . وبعد سقوط الخرطوم وردت الى بيت المال كمية كبيرة من الحلوى الذهبية والفضية ، ومن ثم مارس المهدي أحد مظاهر السلطة الاسلامية بضربه للنقود . وكانت العملة الرئيسية هي الجنيه الذهبى (وكان أكثر نقاوة من الجنيه المصرى واختفى سريعا من الأسواق) والدولار أو الريال الفضى المقدّر بعشرين قرشا ويتكون من سبعة أجزاء من الفضة الى جزء واحد من النحاس وأصبحت دار سك النقود بأم درمان قسما تابعا لبيت المال فى الخرطوم .

(هـ) التشريع والقضاء المهديان :

أعلن المهدي مرارا وتكرارا فى منشوراته أن الغرض من رسالته هو احياء العقيدة وسنة الرسول وهكذا بنى القضاء فى عهده على كل من القرآن والسنة . على أن الظروف استدعت أن يقدم المهدي من الفتاوى ما يحل بعض المشاكل الخاصة وهكذا ظهرت مجموعة من التشريعات الاستثنائية التى حولت السودان ، من الناحية القانونية من مصر الى دولة مهدية . وأكد المهدي لنفسه حق سلطة متميزة فى الشؤون القانونية وادعى أنه يتكلم باعتباره شخصا يوحى اليه بطريق مباشر ويتضح هذا فى فقرة وردت فى أحد منشوراته .

(١) وثائق المهدية ١/١٣ ، ١/١٤ ، ١/١٥ .

« ... ولولا على نور من الله وتأييد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعوت أحد ولا ساغ لى أن أحكى شيئا ولا اشتغلت بهذا الأمر الذى أنا لضده ساعة ما وهذا انذار لكم - فاسمعوا وأنبؤوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتىكم العذاب ... » (١) .

واعتبر المهدي يوم ١٢ رجب ١٢٩٩ هـ وهو اليوم الذى هزم فيه الشلالى بداية للنظام القانونى الجديد وقد أعلن منشور موجه الى الخلفاء والقادة والمندوبين القضائيين والأشخاص التابعين ما يلى : « يوقف النظر فى المشاكل التى حدثت قبل يوم ١٢ رجب سنة ١٢٩٩ الموافق لمعركة ماسة باستثناء (ما يتعلق منها) بالأمانة والتدين ومال الأيتام والحرية ويستمر النظر فى الدعاوى التالية لـ ١٢ رجب وللفتح » (٢) . وقد طبق هذا النمط التحديدى على جهات أخرى من السودان ، بعد سقوطها فى يد المهدي . وعندما تولى الخليفة شئون الدولة أمر

(١) مخطوطات النجومى ص ٢٨ : وقد جاء فى منشور آخر مثل هذا المعنى : « ... أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ عبد القادر الجيلانى فقال الله تعالى للنبي هذا خليفتم كررها ثلاثا وقال الامام عليه السلام قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم من انكر مهادتك كفر بالله ورسوله كررها ثلاثا وقال الامام عليه السلام أبى الله تعالى بعشرة من الملائكة الموكلين بحجودهم والانباء والمرسلين وسبعين ألفا من الاولياء من أول نزول المهدي قال رضى الله عنه نزول المهدي أجازنى (أو لعلها أجاز لى) رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله عز وجل وأمرنى الله ورسوله بقتال الترك من أولهم الى آخرهم لأن الترك سعوا فى اطفاء نور الله عز وجل وسماهم الله بأنهم كفار بل هم اشد الناس كفرا وفسادا فى الأرض ورفع الله عنهم ثوب الملك وتركهم مضلين ابنا وجدوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم باركناك فى عالم زمانك هذا والاولياء كلهم جلوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للاولياء باركوا هذا الابن فنحن باركناه وقال الاولياء كلهم نحن كذلك باركناه وفى ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أفضلكم يا اولياء الله من المتقدمين والمتأخرين . قال الامام المهدي عليه السلام قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاهدوا أعداء الله من مشارق الأرض ، الى مغاربها . اجزناك باجازه من الله ومنا بعد فتوح الأبيض ويتأيد وعده من السر منا اليكم وقال الامام السمع والطاعة لله ورسوله ... » (١) .

(١) وثيقة النجومى بدون رقم ووضع لها رقم مؤقت (١) ص ٢٨ .

(٢) مخطوطات النجومى رقم ١٣٤ ، المخطوطات القضائية رقم ١٠ -

١١ - والمخطوطة الأخيرة (الحرية) من الأنواع المستثناة .

بايقاف التقاضي في الحالات التي جرت قبل أول محرم سنة ١٣٠٢ بين الشعوب النيلية ثم عم هذا الخطر على كل أنحاء البلاد متخذاً من ٨ رمضان ١٣٠٢ هـ (١) وهو تاريخ وفاة المهدي حداً فاصلاً كما أبقى على استبعاد الحالات الأربع من إجراءات الحظر هذه (٢) .

وقد انصبت معظم التشريعات الطارئة التي أصدرها المهدي على وضع الحريم وامتلاك الأرض . وقد أدى حصار بارا والأبيض والخرطوم ثم الاستيلاء عليها الى قسم كثير من الصلات الزوجية وأيضاً الى زيجات غير منتظمة وأصبحت الأحكام التي أصدرها المهدي أحياناً في مناسبات خاصة سوابق يؤخذ بها فيما يماثلها من حالات . وكانت القاعدة الأساسية التي اتخذت أولاً ازاء النسوة في بارا والأبيض في ٣ ذو القعدة ١٣٠٤ هـ (٥ سبتمبر ١٨٨٣) هي قسم الزواج في حالة انضمام أحد الزوجين الى الأنصار على أن يسمح بإعادة زواجهما - وكانت هذه القاعدة تلقى تشجيعاً (٣) . وظهرت مشاكل أخرى في حالة غياب الزوج لفترات طويلة وهنا ميز المهدي بين ثلاث حالات فإذا كان الزوج متغيباً مع « الترك » اعتبر الزواج باطلاً وإذا كان مع الأنصار استمرت الرابطة . أما اذا كان التغيب لمدة طويلة (وفي الحالة التي اتخذت أساساً كان التغيب لمدة ست أو سبع سنوات) لم ينفق الزوج خلالها على زوجته كان بإمكانها أن تطلب الطلاق وتزوج غيره (٤) والهدف العام من هذه القرارات هو تأكيد شرعية الزواج بين المهدي وغير المهدي ولكن في نفس الوقت كان الهدف هو تسهيل زواج النسوة اللاتي لا عائل لهن أو زواجهن من جديد وكان كل ذلك بمثابة محاولة لإعادة الاستقرار الى مجتمع أصابه التفكك .

ولم تظهر المشاكل المتعلقة بملكية الأرض الا بعد امتداد الحكم المهدي الى الأراضي النيلية التي تعتمد على الري وقد حدد المهدي موقفه

(١) ٩ رمضان وفقاً للتقويم في مصر .

(٢) أعلن اسماعيل كامل باشا حظراً مماثلاً عند القضاء على سلطنة

الفونج - انظر ماكمايكل : *Arabs in the Sudan* ii 386

(٣) مخطوطة النجومى ص ١١٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١١٥ .

من الأرض ، وملكيتهما في منشورين وجه أحدهما الى محمد الخير
عبد الله خوجلي عامله في بربر في وقت تال ل ١٦ ذو القعدة سنة ١٣٠١ هـ
(٧ سبتمبر ١٨٨٤) (١) ، والثاني منشور عام تاريخه ١٤ شعبان سنة ١٣٠٢
(الموافق ٢٩ مايو ١٨٨٥) (٢) ، وقد كثرت الادعاءات عقب سقوط الحكم
المصرى بشأن طرد الترك للملاك من أراضيهم ظلما . وقرر المهدي
اعادة الأرض لمن حرم منها باطلا ولكن هذا القرار الذي كان يمكن
أن يفتح الباب لادعاءات قديمة قد ترجع الى ٦٠ عاما تلاه بتفسير يحدد
مفعوله لا يسمح بالنظر في الادعاء الذي مضى على موضوعه أكثر من سبع
سنوات وتعرض المهدي في منشوره الثاني لموضوع الأرض التي بيعت
قسرا بأمر الحكومة المصرية عندما هرب صاحبها تجنباً لدفع الضرائب .
وهنا حكم المهدي بأن يستعيد المالك الأصلي الأرض بشرط سداد
القيمة التي دفعت ثمنها لها والا بقي فيها المالك الفعلي . وبهذه
الأحكام كان من الواضح أن المهدي يحاول علاج صريح للمشاكل
الواضحة مع المحافظة على استقرار ملكية الأرض . وانصبت معظم
تشريعات المهدي على تعديل أو إلغاء العادات ، السودانية التي
تتعارض مع الشريعة أو التي كانت غير مرغوب فيها من الناحية
الاجتماعية . وتعلقت مجموعة كبيرة من الأحكام التي أصدرها في أوقات
مختلفة بالنسوة فعلى المرأة أن تلبس الحجاب وكل من تسير عارية الرأس
تعاقد بالضرب (٣) ، وامتدت نفس العقوبة لتشمل آباء الفتيات غير
المحجبات التي يزيد عمرهن على ٥ سنوات (٤) ، وصدر منشور قبل رجب
سنة ١٣٠١ (مايو ١٨٨٤) بمنع الحريم من الذهاب الى الأسواق أو الطرق
العامة والا عوقبن بمائة جلدة (٥) ، وأمر منشور آخر الأنصار بمنع
نساءهم وبناتهم من رعى الأغنام أو الاتصال بالرجال الأغراب (٦) ، وكل

(١) النجومى ص ١٣٥ .

(٢) النجومى ص ١٣٦ .

(٣) النجومى ص ٢١ .

(٤) MS. Legal F. 2

(٥) مخطوطة النجومى ص ٣ .

(٦) النجومى ص ٢١ .

من يتكلم مع امرأة غريبة حتى ولو ليقربها التحية أو يردّها كان عليه أن يصوم لمدة شهرين ويجلد مائة جلدة (١) ولا يجب علينا أن نعتبر هذه القسوة في التشريع مجرد محافظة عمياء ذلك أن الثورة والحرب ضد المصريين قد هزت أسس النظام الاجتماعي من أساسه فاضطر المهدي إلى الالتجاء إلى هذه الإجراءات في محاولة منه للحفاظ على النظام بين القوى القبلية الكبيرة التي اعتمد عليها والتي اتصفت بدوام التقلب هذا فضلا عن أنه قد أحرز انتصاراته الأولى في الغرب حيث عاشت نسوة البقارة حياة أكثر تحررا من المرأة النيلية . ومن واجبا أن نعتبر المحاولات التي جرت لارغام المرأة على لبس الحجاب ومنع الاتصال بين الجنسين على أنها محاولة لاعطاء مزيد من الأمن للنساء .

وقد حارب المهدي عبثا عادتين متصلتين بالخرافات ، هما استخدام التماائم والأحجبة (٢) ونواح النسوة في الجنائز (٣) وكانت هناك عادة اجتماعية أكثر سوءا هي النفقات الباهظة التي جرت في حفلات الزفاف خاصة في وقت اعتبر فيه الزواج أهم وسائل حماية المرأة . وقد حدد المهر الذي يدفعه العريس بحيث لا يتجاوز حده الأقصى عشرة ريالات للعذراء وخمسة لمن سبق لها الزواج (٤) ، وفي عام ١٣٠٠ وضع المهدي قيودا على ما يصاحب الزفاف من ولائم (٥) ، وشابهت المهديّة الحركة الوهابية والحركات الإصلاحية الأخرى في الإسلام من حيث شدتها فيما يتعلق بتناول المشروبات الروحية والتدخين . وكانت الأحكام الهادفة إلى منع عادة التدخين أشد قسوة وشدة من تلك التي هدفت منع شرب المسكرات وقيل أن المهدي تحدث عن حضرة قال له النبي فيها :

» ... أن معصية من يدخن تفوق معصية من يشرب الخمر - فمن

(١) مخطوط النجومى ص ٤٧ .

(٢) مخطوط النجومى ص ٤٠ .

(٣) مخطوط النجومى ص ٢١ .

(٤) السابق .

(٥) مخطوط النجومى ص ٨ .

يشرب الخمر يجلد ثمانين جلدة ، ومن يدخن يجلد مائة جلدة » (١) •

وقد تولى المهدي بنفسه المهام العليا للقضاء ولكنه توسع في تفويض أتباعه بسلطة الاستماع الى القضايا والبت فيها • وكان بإمكان الخلفاء والحكام العسكريين والوكلاء في الأقاليم القيام بأعمال القضاء ، وقد ذكر اورفالدر (١) أن الأشراف كانوا يقومون بنفس العمل ولعل ذلك كان اغتصاباً منهم لاختصاصات غيرهم • وكان هناك موظف واحد له اختصاصات قضائية محددة وهو الذي عرف في الوثائق التي ترجع الى أوائل الحركة باسم قاضى الاسلام أو قاضى المسلمين ، وقد عين المهدي أولاً لهذه الوظيفة من يدعى أحمد جباره وهو رجل تركى الأصل سبق له أن درس بالأزهر وعند وفاته في معركة يوم الجمعة بالأبيض (٨ سبتمبر ١٨٨٢) حل محله أحمد على الذي كان قاضياً بشكا في عهد سلاطين • وقد شغل منصبه اثني عشر عاماً •

ولم يكن المقصود أن يمارس قاضى الاسلام سلطات مستقلة ولكنه كان بمثابة المفوض الخاص بالصلاحيات القضائية الكامنة في المهدي بصفته اماماً • وكانت وظيفته تتمشى مع المفاهيم الاسلامية الأولى (٢) وتلقى رسالة كتبها أحمد على لمحمد خالد في العشرين من صفر ١٣٠٢ هـ (٩٠ ديسمبر ١٨٨٤) بعض الضوء على النظام القضائى • اذ أرسل حاكم دارفور بعض الأحكام التى أصدرها لاعتمادها من المهدي الذي أمر أحمد على بإرسال موافقته على الأحكام حتى يمكن تنفيذها

Ohrwalder P. 214

(١)

Coulson : Doctrine and practice in Islamic Law (٢)

Law. BSOAS, XViii/2 1956. P 214 - 15.

ووبخ محمد خالد لتأثره ببعض العلماء في تكييف الوجهة القانونية
لأحكامه مع توفر الأدلة المسلم بها ومن ثم أبلغه بتوقف العمل بالفقه حين
تولى خليفة النبي (١) . فالأحكام لا تبني الا على القرآن والسنة ،
وما جاء بمنشورات المهدي . وأمر محمد خالد بتعيين ثلاثة أو أربعة
وكلاء قضائيين على أن يعملوا كمجلس يصدر قرارات بالاجماع وكان
نواب مماثلون يمارسون اختصاصاتهم في جميع أنحاء الدولة المهدية .

(١) وثائق المهدية ١/٤٢ ، ٥ ، ١٠ .

ويمكن أن نطلق على هذا الفريق ككل اسم أولاد البلد - وهو تعبيري يفهم منه أول ما يفهم السكان المستقرون على ضفاف النيل •

وتكونت المجموعة الثالثة من أتباع المهدي حشود القبائل وبخاصة البقارة الرحل في الغرب ممن تصوروا أن المهديّة تعني الغناء الضرائب وبهجة التوجه الى القتال والحصول على الغنائم • وباستثناء بعض الأفراد مثل عبد الله نفسه وقلة من أتباع المهدي المخلصين فانهم لم يبالوا كثيرا بالجانب الديني للحركة ، وغلب عليهم التقلب وعدم الثبات حتى أنهم كانوا يتركون الجهاد حينما يستوفون رغباتهم المادية المباشرة • وعند وفاة المهدي كان الشخص الوحيد من هذه الجماعة الذي تبوأ مركزا ذا نفوذ عظيم هو عبد الله وحينئذ بدأ أن البقارة لن يبدلوا الكثير في سبيل مستقبل المهديّة •

وهذه الفئات الثلاث لم تشترك في شيء الا في رغبتها في انهاء حكم الترك وانها قبلت زعامة المهدي لتحقيق هذا الهدف • وطالما استمر الجهاد كان من الممكن التنسيق بين طموحاتهم عن طريق قيادة المهدي العليا وذلك رغم أن دلالات التوتر الكائن كانت تطفو على السطح من وقت الى آخر • والمنشورات التي صدرت بشأن اخفاء الغنائم والاعراض التي اتخذت لاستيفاء الزكاة وتحصيلها اوضحت استهتار الرحل بواجباتهم بصفتهم أعضاء في مجتمع المهديّة • كما اوضحت المنشورات التي أصدرها المهدي تأييدا لسلطة الخليفة عبد الله ما يكتنه الأشراف وزعماء الأنصار من غيرة من عبد الله • وكان دافع المهدي الى توبيخ أهله انصرافهم الى الحياة الدنيا ورغبتهم في التمتع بالرفاهية والنفوذ اللذين أسبغا عليهم بفضل ما نالوه فجأة من مكانة وقوة • وقد تحدث يوسف ميخائيل مرارا وتكرارا عن مادية الأشراف والدناقلة •

وقد تأجلت الأزمة التي طرأت على علاقات هذه الفئات الثلاث الى ما بعد وفاة المهدي • فان نجاح الثورة المهديّة لم يتأكد ألا بعد سقوط الخرطوم - بل ان الموقف لم يخل حينئذ من عوامل القلق • فحمايات سنار وكسلا كانت لا تزال تقاوم ولم تكن سواكن قد سقطت بعد كما أن

حملة الانقاذ كانت قوة قائمة في الشمال • وبالإضافة الى ذلك فان
أيدولوجية المهدي كانت تتطلب استمرار الجهاد ومن ثم أعد المهدي خطة
لغزو مصر • ولكن في أواسط ١٨٨٥ حدث تغير فجائي في الموقف - اذ أن
إخلاء القوات والادارة المصرية - الانجليزية لدنقلة قد بدأ في مايو وتم
في يونية • وفي ذات الوقت سحبت القوة الانجليزية من سواكن مما عزز
مكانه عثمان دقنة وأنهى الى حين الخطر الذي تعرضت له المهدي في
الشرق • وفي ٢٢ يونيو توفي المهدي وتعرضت جميع الخطط التي وضعها
من أجل تطوير حركته مستقبلا للتعديل والمراجعة • وقد سقطت كسلا
وسنار في الشهرين التاليين وبزوال الخطر الخارجى على المهدي ووفاة
زعيمها ذى التفويض الالهى تهدد السبيل لتطور أزمة داخلية ناتجة عن
الصراع على السلطة بين القوى المتفرقة التى سبق أن ساهمت في نجاحها •
وشكلت الجهادية عاملا هاما في الموقف - وكانت قد نظمت للمرة الأولى
أثناء حصار الأبيض ثم اشتركت تحت قيادة حمدان أبو عنجة في القتال
الذى نشب حول الخرطوم • وكانوا عندئذ موضوعين في الكارا قلعة
أم درمان القديمة • وبقيت قوات أخرى في كردفان ودارفور - وهم
قوة نظامية مدربة وذات خبرة ومطبعة في العادة • وعند وفاة المهدي كان حمدان
نفسه بعيدا على رأس قوة مختلطة يقود حملة بجبال النوبا ، ولكن قوة
كبيرة من الجهادية بقيت في أم درمان تحت قيادة أخيه فضل المولى
صابون • كما كانت قوات قبلية تنتمى الى راية عبد الله السوداء متركزة
أيضا في العاصمة • وعلى العكس من ذلك كانت قوات الراية الحمراء التى
يتولى قيادتها الاسمية الخليفة محمد شريف مبشرة في أنحاء السودان
فجيش منها كان مع عبد الرحمن النجومي والثاني مع محمود عبد القادر
في الأبيض والثالث مع محمد خالد في دارفور والرابع مع كرم الله
كرغساوى في بحر الغزال • أما فرقة الراية الخضراء تحت قيادة الخليفة
على بن محمد حلو فلم تتعد كونها قوة اسمية حشدت من قبائل كنانة
ودغيم •

٢ - تولية عبد الله :

كان الوضع العسكرى فى أم درمان عند وفاة المهدي لصالح عبد الله وكانت هناك أيضا عوامل أخرى تجعل من عبد الله أقوى المطالبين بوراثة سيادة المهدي . فتسميته خليفة الصديق قد تتضمن ضرورة خلافة عبد الله المهدي بالصورة التي خلف بها أبو بكر الصديق الرسول . وهناك بعض الدلائل على أن المهدي - وهو على فراش الموت - قد اختار عبد الله خليفة له . ومن ناحية أخرى فإن الروايات المتصلة بالمجلس الذي انعقد فور وفاة المهدي تنبئ عن قدر من التردد قبل تأكيد الاختيار :

ولعل أشمل وأدق وصف لما حدث هو ما نقله الينا يوسف ميخائيل وجاء فيه « ولما انتقل المهدي من دار الفناء الى دار البقاء وصار دفنه فى ذات المربعة كانوا حاضرين وفاته جملة من الأكابر والحلفاء والسيد المكي وجد الأشراف أحمد شرف والفكي الداداري عالم من قبيلة الفلانة وعدد من الأكابر بعد دفن المهدي اجتمعت الأشراف لأجل الخلافة الى السيد محمد شريف خليفة الكرار وباقي الجموع عارضهم فبذلك قالوا لهم الخلافة الى خليفة الصديق عبد الله بن السيد محمد على حسب ترتيب الخلفاء وكما قال المهدي (أن الخليفة عبد الله هو خليفتي هو مني وأنا منه اتبعوه فى كل أمر وحاربوا القوم فى القيل والقال) والخليفة عبد الله ساكت ليس يتكلم شيء بل يسمع بأذانه وينظر بعينه ثم قام الفكي الداداري وأخذ الخليفة عبد الله التعايشي بيده وقال له بايعنا يا خليفة المهدي أيضا قام جد الأشراف أحمد شرفى أخذ سيف المهدي والعمامة سلمهما الى الخليفة عبد الله وقال له اعطينا البيعة . وبعدها تقدم خليفة الفاروق والسيد المكي وأخذوا البيعة كمثل السيد عبد القادر ساتى على والسيد عبد الكريم حتى تقدم خليفة الكرار وأخذ البيعة وعند المغرب نصبوه منبر له ثلاثة سالم وحضر الخليفة وعلا على الكرسي واجتمع كافة الأنصار أمام الكرسي وأعطاهم البيعة ووافق الفكي الداداري أمامه مع الخليفة على ود حلو وأخيه الأمير يعقوب بعد أخذ البيعة مستعد بالسلاح

والرجال ... » (١) .

وتوضح لنا هذه الحادثة أن اختيار عبد الله خلفا للمهدي قد لقي تأييد الأتقياء ومشايخ الصوفية من على بن محمد حلو ، ومحمد المكي وأحمد شرفي وذلك ضد رغبة الأشراف برغم أن أحمد شرفي كان هو ذاته من الأشراف ويرى شقير (١) أن الخليفة على أيد عبد الله في هذه الآونة لأنه كان التالي له في الترتيب بين الخلفاء ومن ثم يكون له حق تولي الخلافة بعد عبد الله بينما لو تم انتخاب الخليفة محمد الشريف لاصبحت السيادة وراثية في الأشراف . وعلى كل فإن الشواهد لا تؤيد وجهة النظر هذه - ففي الأزمة العظمى التي نشبت في عام ١٨٩١ عاون الخليفة ، على حلو وأحمد شرفي مرة ثانية عبد الله ضد الخليفة محمد شريف والأشراف . ورافق الخليفة على حلو الخليفة عبد الله حتى النهاية ومات الى يمينه في ساحة أم دويكرات ويبدو من المحتمل ان ما قام به الخليفة على والسيد المكي وأحمد شرفي كان بمثابة تحقيق مخلص لرغبة المهدي المتوفى واتجاهه الواضح واختيار أقدر أتباعه وأكثرهم ثقة لديه خليفة له . وبدت الحركة التي قام بها الأشراف لاختيار أحدهم كمحاولة مفهومة للاحتفاظ بما اكتسبوه من مكانة وامتياز . ولم تكن فرص نجاح محاولتهم كبيرة . وذلك لأن المهدي هاجمهم علنا عندما أم المسلمين في المسجد لآخر مرة قبل وفاته بعشرة أيام (٢) .

(١) مخطوطة يوسف ميخائيل (١) رقم ٦٨ - ٦٩ .

(٢) شقير : تاريخ السودان وجغرافيته ج ٣ ص ٣٩٣ .

(٣) شقير ح ٣ ص ٣٥٤ وطبعة بيروت ص ٩٣٠ .

« فلما كان يوم آخر جمعة في شبان سنة ١٣٠٢ هـ (١٢ يونيو ١٨٨٥ م) بعد أن فرغ من الخطبة في الجامع وهم الناس بالوقوف للصلاة أشار اليهم بيده وقال اجلسوا ثم نادى بأعلى صوته وقال (أيها الناس اني ملئت من النصيح والمذاكرة لأقاربي الأشراف الذين تمادوا في الطيش والفؤامة وظنوا ان المهديّة لهم وحدهم » ثم مسك ثوبه ونفضه ثلاث مرات وقال « أنا برئ منهم فكونوا انتم شهودا على بين يدي الله تعالى » فنكس الأشراف رؤوسهم ولم يجبه أحد بكلمة » .

وأعقب انتحاب عبد الله كخليفة للمهدى فى هذا الاجتماع مباشرة
ياخذ اليمين له فى المسجد خارج منزل المهدي • وأعد منبر دو ثلاث
درجات على عجل وجلس عبد الله عليه ووقف أمامه القفى الذى كان أول
من حياه كخليفة للمهدى مع الخليفة على • والى منتصف الليل ظل عبد الله
يتلقى يمين الولاء وعهده من أتباعه • وفى تلك الاثناء أرسلت المنشورات
على عجل الى الأنصار فى الأقاليم لاعلامهم ب وفاة المهدي وخلافة عبد الله
- وفى احد هذه المنشورات اقتبس الخليفة ، علما منه بالهلع الذى
سيظفى على الأنصار المخلصين بسبب وفاة المهدي قبل أن يتم رسالته ،
من السابقة الواضحة فى خطبة أبو بكر الصديق للمسلمين عند وفاة
الرسول • وكان الهدف الأول من هذا المنشور الحد من الفرع وحث
الناس على الاحتفاظ باخلاصهم للمهدية : « أبقوا بخير لأن الايمان بالله
سينتصر بقدرة الله وقوته ، وصحب هذا المنشور منشور آخر باسم
الخلفاء التالين له والأشراف لطمأنة الناس على خلافة عبد الله وقد استقيت
سلطة عبد الله فى المنشور من حضرة نبوية شاهدها المهدي قبل وفاته جاء
فيها ما يلى : « ان المهدي ليلة وفاته حصلت له « حضرة » ظهر له فيها
الشيخ القرشى ومعه جمع من الأولياء فقال له أن النبى (صلعم) قد
استعجل انتقالك الى الدار الآخرة فاجعل لك وكىلا من خلفائك يقوم
بالأمر فقال المهدي أوكلت الخليفة عبد الله فاتفقت كلمتنا عليه » (١) •

وكلف القادة المحليون بتلقى اليمين الجديد بالولاء من رجالهم •
ودعى أكبر عدد ممكن من القواد وشيوخ القبائل ليشاركوا فى احتفال
أقيم عند قبر المهدي فى عيد الأضحى الذى وافق يوم ٢٠ سبتمبر ١٨٨٥
(١٣٠٢ هـ) وهناك أدوا اليمين التى أضيفت لها عبارة خاصة بالولاء
للخليفة • وقد تشبه عبد الله فى منشوره الأول بعد وفاة المهدي بأبو بكر
انصديق ليين صدق خلافته وترك لرجاله أن ينشروا ما يؤكد حقه من
براهين خفية • وعلى كل فقبل مضى كثير من الزمن انصرف عبد الله الى
نشر مجموعة من الحضرات (رؤى) النبوية والأحاديث الخاصة لتأكيد

(١) وثيقة النجومى ص ٧٠ - نعم شقى طبعة بيروت ص ٩٧٦ •

حقوقه . وفي خلال ذي القعدة ١٣٠٢ هـ (أغسطس - سبتمبر ١٨٨٥) كتب لمحمد خالد بدارفور مكلفا إياه بأخذ اليمين وجاء في كتابه ما يلي : وفي أحد الأيام من أواخر شهر رجب جاءني المهدي ومعه خلفاؤه ومعه الأعوان المخلصين ثم بدأ المهدي حديثه قائلا :

« ان جميع الأسرار الالهية تجمعت في حرف الباء ونقطته (١) » وكتبها المهدي على الأرض بأصبعه الكريم ثم قال : « وحيث أن الله وضع هذا الحرف في أحد الرجال فقد أصبح بذلك موضع سره الالهي » وعندئذ سأل أحد الاخوة المقرئين ممن حضروا الاجتماع عن الرجل الذي وضع فيه الله سره الالهي فأشار الى العبد المسكين (يقصد عبد الله) وقال « ان هذا الرجل خليفة الصديق » فنظر الأخوان الى « ووجدوا الباء بنقطتها على خدى الأيمن وهي هناك الآن وستراها عند حضورك » . وهناك منشور كتب في أوائل عهد عبد الله وعرف باسم منشور الشعرة اشتمل على سلسلة من الرؤى والخبرات الصوفية لدى الخليفة ثلاث منها لها اتصال بشرعية خلافته قدمت في صورة أحاديث مع الخضر وقد جاء فيها « أبلغني (الخضر) أن المهدي قال أن الله أخبر جبريل وجبريل أخبر النبي والنبي أخبر المهدي والمهدي طلب مني شخصا أن أبلغك أن الله جعلك هداية للأرض (٢) كلها من شرقها الى غربها ثم يقول « وأن من يجبك ويتبع أقوالك قد قبل الهداية منا ومن قبل الهداية قبل منا وأصبح آمنا من عقاب الله . وذلك الذي لا يجبك ولا يسمع قولك فهو من المارقين ومقر المارقين نار جهنم » . ثم سألت الخضر عن سبب انقطاعه عني منذ

(١) هذه الوثيقة تكشف عن مدى التأثير بالفلسفة الصوفية لدى الحروفيين وهم طريقة صوفية فارسية ترجع الى القرن ١٤ وكان لها تأثير على الطريقة البكتاشية وقد تميزت هذه الطريقة بتخميناتها المرتبطة بالحروف الهجائية .

جاءت الترجمة في كتاب ونجت ص ٢٣١ Wingate Op. cit. p. 23 قدم الله لك الأرض كلها هدية » ومن المحتمل أن الأمر التيسر على ونجت فقرأها هدية بدلا من هداية . وكلمة « هدية » لا تتفق مع المعنى المقصود في الوثيقة ولعل « هداية » كتبت سهوا في الوثيقة « هدية » فالوثيقة عرضة لاختفاء لغوية أحيانا .

انتقل المهدي فقال اني كنت خافرا شعره من شعر المهدي أمن أحمد سليمان عليها فحفظها ولكنه كان يكشفها أحيانا ويكي عند رؤيتها وقد كشفها مرة في الخرطوم فخشيت أن يخطفها ربح أو تقع في محل وسخ تضيع فيه فبعد أن بلغت أنت أمس استرحت وسرى عني • وكانت هذه الشعرة أمانة لك عند أحمد سليمان فالآن ان رضى بيلعك اياها فله ثواب حفظ الأمانة وان لم يرض فلا ثواب له ثم قال الخضر (عم) أن القلب الذي تدخله هذه الشعرة يأمن النفاق وتدخل بالنور اليه • وقد كانت هذه الشعرة أياها الاخوان عند الحبيب أحمد سليمان في ورقة حرصا عليها وفي يوم الاثنين في ٢٧ ذى القعدة وهو اليوم الذي بنى فيه هذا الحبيب التابوت أراد أن يكشف لنا الشعرة للتبرك بها فقبل أن يكشفها شمت رائحة عجيبة وأول ما بدا لي رأس الشعرة حصل لي انشراح لا يعلم مقداره الا الله فتناولتها بقصد شمها فأراد الله ادخالها في فمي وابتلعتها فطلبها الحبيب أحمد سليمان مني ففتحت له فمي فلم يجدها والحمد لله على ذلك (١) « كل هذه الرؤية ظهرت بسبب هذه الشعرة والسر في هذه الشعرة التي ابتلعتها في قبر المهدي ... (عبارة غير كاملة) وكل العالم لا يعد لها • وبعد ذلك قال لي المهدي ابق هنا حتى آتيك وغاب لحظة ثم جاء ومعه شعاع من نور أشبه بالحبل وقال « هذا الشعاع مبارك لأنه حق وأعطاه لجبريل وجبريل أعطاه للنبي والنبي أعطاه للمهدي والمهدي أعطاه لي حتى أسلمه لك أنت • وأمر المهدي بتقسيمه الى أربعة أقسام تبتلع أنت واحدا منها وعليك أن تمسح وجهك بجزء وتضع قسما واحدا منها في الراية السوداء وجزء واحد تبعره في مكان الصلاة وكل من تقوده لهذا المكان سيحتاطه النور » •

وواضح لنا الغرض الذي ترمى اليه هذه الرؤى - فقد رغب عبد الله في أن يربط نفسه بالمهدي بأوثق الروابط دون أن يقع في خطأ النيل من مكانة سيده المتوفى • فلم يدع - كما فعل المهدي - وجود اتصال مباشر بينه وبين النبي محمد وانما اتخذ من المهدي والخضر وسطاء ينقلون له

الأوامر الالهية ، وذكر سلسلة الوسطاء يخلع على الرؤى نعمة آلية وغير أصيلة . ولما كان الخليفة لا يستطيع ادعاء المهديّة فلم يكن أمامه الا السعى للارتباط بها بأقصى ما يستطيع وذلك بادعاء أنه الهادي مستخدما بذلك أحد اشتقاقات الكلمة الأصلية . أما الرؤية الثانية فترمز الى انتقال بركة المهدي ومكائنه في صورة شعرة الى الخليفة مؤكدة بذلك ما كان من تسليم قيادة الجباعة لعبد الله . ولعل في هذه الرؤية كناية عن معنيين . فابتلاع الخليفة للشعرة التي عهد بها المهدي من قبل لأحمد سليمان يرمز الى انتقال السلطة من الأشراف وأولاد البلد الى عبد الله كما أن عبارات الخضر بشأن ما ينتويه من مواصلة رعايته للشعرة حتى ولو سقطت في الغبار وبين الأوساخ قد تعنى اهتمام الخليفة بكسب تأييد سماوى بعد أن وقع عليه الاختيار برغم أنه عبد ذميم ووضع في نظر الأشراف . والرؤية الثالثة تعبر عن تطور غريب لرمزية شعاع النور وهى الرمزية التى سبق أن أشرنا الى لجوء المهدي اليها ، وأنها تتصل بالمبدأ الصوفى الخاص بنور محمد . وبهذا الشكل الأخير يبدو انور الالهى وقد وزع على الشكل الآتى : قدر مضاعف للخليفة ، وقدر لقواته الخاصة المنضوية تحت الراية السوداء ، وقدر لكل الأنصار المخلصين .

والدعاية المستندة الى الرؤى تمثل سمة بارزة من سمات هذه المرحلة التى كانت تمر بها المهديّة - اذ نشرت أنباء عن رؤى حية في ذلك الحين ومن توارد الأسماء يبدو أن طائفة معينة من صحبة عبد الله ويعقوب كانوا فى الواقع متخصصين فى شهودها .

والرؤى التى كان الهدف الواضح منها تعظيم الأخوين ، كانت أحيانا شديدة الاتقان وتتميز بخصوبة الخيال . ويبدو أن اللجوء الى الرؤى قد قل بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على حكم عبد الله وذلك عندما أصبح الخليفة قادرا على استخدام وسائل أخرى لتأمين سلطته وعندما أرغمته الظروف على التأكد من أن خصومه من الأشراف وأولاد البلد لا يسكن مصالحهم .

٣ - أول اصطدام بالأشراف :

لم يكن الاعتراف بعبد الله خليفة للمهدى وتأدية يمين الولاء له كافيا لتأكيد استمرار سيادته الجديدة ، فقد بوغت الأشراف بالأحداث وغلبهم عبد الله على أمرهم في رمضان ١٣٠٢ • ولكنهم لم يسلموا بضياح نفوذهم وانما تحينوا فرصة موالية لاستعادة مركزهم وكان يبدو أن البوادر موالية لهم - فالقيادات الرئيسية في الأقاليم كانت معظمها في أيديهم أو في أيدي عملائهم فكانت بربر ودنقلة تحت قيادة محمد الخير عبد الله خوجلى وكان محمود عبد القادر يحكم كردفان ، وكان محمد خالد يتنعم بسلطة ملكية في عاصمة دارفور البعيدة وكان كرم الله كرجساوى يتولى القيادة في بحر الغزال وفي الرئاسة وضع الأشراف على الخزينة في يد أحمد سليمان • ومن المسلم به أن ميزان القوة العسكرية في أم درمان كان لصالح الراية السوداء الخاصة بالخليفة والتي كان يأتزر عليها أخوة يعقوب • ولكن كلا من الخليفين الأدنى منه رتبة كانت له قوته المسلحة الخاصة به بما في ذلك الجهادية بينما علل جهادية آخرون تحت أمره أحمد سليمان وأحمد شرفي وشخص آخر من الأشراف •

وكان محمود عبد القادر أول المنافسين المحتملين لعبد الله ، بحيث كان من الواجب تنحيته وقد غادر محمود الأبيض في أغسطس ١٨٨٥ الى أم درمان لتجديد البيعة له وأضمر الخليفة إبعاده الى دنقلة تحقيقا لسياسته التي أصبحت شبه واضحة في ذلك الحين وخلصتها نقل الأشراف وأولاد البلد تدريجيا من الغرب وتركيزهم في الشمال تحقيقا لهدفين أولهما تأمين الخليفة لخطر تراجع نحو موطنه الأصلي في حالة حدوث طارئ ما وذلك باخلاء هذا الطريق من العناصر المعادية وثانيهما وضع الجماهير المشكوك في إخلاصها أو حماسها في أكثر المواقع خطورة اذا ما جاء الغزو من مصر • ولكن الأحداث جرت بغير هذا فيما يتعلق بمحمود عبد القادر وان جاء ذلك لصالح عبد الله • فبينما محمود في أم درمان قام الجهادية في الأبيض وعددهم ٢٠٠ رجل تقريبا معظمهم من قدامى الجنود بالجيش المصرى ، قاموا بشورة قتلوا فيها نائب الحاكم ثم ساروا الى جبال النوبا •

ومن ثم سمح لمحمود بالعودة الى الأبيض لاحضار أسرته • فتحدى
أوامر الخليفة وجمع شمل قواته وتقدم نحو جبال النوبا مطاردا
الثوار • ولكن حلت الهزيمة برجاله من الأنصار وقتل هو في ٢٠ ديسمبر
١٨٨٥ •

ارتبط موقف الخليفة من بقية الأشراف ومن يؤيدهم بمجرى
الأحداث في دنقلة فقد التزم الخليفة اسما بالجهاد ضد مصر تحقيقا
للسياسة المهدية • ولكن الذى حدث هو أن السودانيين توقعوا في ذلك
الوقت غزوا مشتركا من جانب مصر وانجلترا • وفي سبتمبر ١٨٨٥ كتب
محمد الخير ليبلغ الخليفة بأن الانجليز وقد عرفوا بسوت المهدي بدأوا
يعدون للقيام بغزوة ذات ثلاث شعب لاقليم دنقلة • والواقع أن خططا من
هذا القبيل لم تكن موجودة ، فكل جانب بالغ في نوايا الآخر الهجومية
وقدرته ، على حين أن الجانب المصرى الانجليزى صرف النظر اذ ذاك
عن مشروع الحملة النيلية • وفي الجانب المصرى الانجليزى لم تعد
حملة النيل قائمة - أما قوة الحدود المصرية الانجليزية فقد اتخذت من
أسوان مركزا لقيادتها ووضعت لواءها الأمامى في وادى حلفا وآخر
مراكزها جنوبا في كوشة على بعد ٤٢ ميلا من نهاية الخط الحديدى -
بينما كان الأنصار الموجودون في الشمال لا يزيدون عن كونهم قوات
محلية تولت السيطرة على الأقاليم تدريجيا مع انسحاب القوات المصرية
الانجليزية منه • وعندما عاد عبد الرحمن النجوى بعد استعادة سنار
أرسل الى بربر لاعداد حملة • واستمرت التعبئة وبخاصة في الجزيرة وأن
بقى الغرض منها من قبيل الاحتياط • وبرغم استمرار نشر الدعوة الى
الجهاد فلم يكن لدى الخليفة في نهاية ١٨٨٥ جيش قادر على محاولة غزو
مصر •

وتزايد قلق الخليفة في نهاية العام • ففي نهاية نوفمبر هاجمت المراكز
المصرية - الانجليزية القوات المحلية في دنقلة وقد عززت الامدادات ، وفي
ديسمبر كانت قد حشدت قوات تكفى لايقاع ضربة حاسمة بالأنصار وفي
٢٩ ديسمبر أوقعت القوات المصرية الانجليزية بقيادة ستيفنسون وجرنيل
الهزيمة بالأنصار في معركة جنس • ولاح في الأفق امكانية غزو عاجل ولكن

المنتصرين لم يواصلوا نجاحهم بل أن هذا الانتصار كان في الواقع مقدمة لانسحاب جديد - فما وافى أبريل ١٨٨٦ حتى كانت جميع المراكز الواقعة جنوب وادي حلفا وقد أخليت على حين أن وادي حلفا ذاتها لم تكن فيها الا حامية مصرية خالصة .

وقد أثر الجزع القائم على غير أساس في الشمال على مجرى العلاقات بين عبد الله والأشراف من ناحيتين فقد اتخذ عبد الله من محمد الخير كبشاً للفداء عن هزيمة جنس فاستدعى من دقلة وسحبت منه قيادة الاقليم في أوائل ١٨٨٦ . وما كاد يعود الى بربر حتى سحبت منه هي الأخرى . وهكذا تم التخلص من رجل آخر من الأنصار الأقوياء الأشراف . وبرغم أن النجومى كان القائد الاسمى للقوة التى جرى اعدادها في الشمال الا أن عبد الله شك في صلته بالأشراف فحدد سلطته الى حد كبير وفي سبتمبر ١٨٨٦ عين عثمان الدكيم - وهو تعايشى يمت بصلة القرابة للخليفة حاكما على بربر .

وعلى حين خيم شبح الغزو كان الخليفة محمد شريف قد جرى تعيينه اسما بصفته القائد الأعلى للقوات المعدة لمواجهة الغزو ولو أنه لم يغادر المعسكر الموجود خارج أم درمان بتاتا . وأدى عدم تقدم العدو (مصر وبريطانيا) جنوبا الى ازالة عنصر التوتر فعاد السكون الى الجبهة الواقعة على الحدود الشمالية ، ووجد الأشراف فرصة للتآمر ضد الخليفة . ولعب محمد خالد دورا خطرا في هذه المؤمرات فقد كان يأتمر على جيش كبير قدر بألف فارس ، ٣٠ ألفا من المشاة ، وثلاثة آلاف من الجهادية . ولم يكن مشغولا بعدو خارجي كما كان محمد الخير . وكان الخليفة لفترة طويلة قد حاول اقناعه بالحضور الى أم درمان لتجديد عهد الولاء ولكن بدون جدوى . وفي أول ربيع الثانى ٣٠٣ هـ (٨ ديسمبر ١٨٨٥) أعلن محمد خالد عزمه على مبارحة الفاشر وذلك بعد أن أرسل قواته أمامه وبدأ جيش دارفور تحركه ببطء شديد الأمر الذى أنقذ عبد الله . واشتمل الجيش المذكور على ثلاثة فئات ، القوات القبلية التى تجمعت من التعايشة وغيرهم من البقارة - وكان من الطبيعى أن يميل

هؤلاء للانضمام لعبد الله اذا تأزمت الأمور ، أما الفئة الثانية فهي أولاد البلد الذين كان من المتوقع بما يشبه اليقين أن ينضموا الى الأشراف ، والفئة الثالثة هي الجهادية الذين كان انضمامهم الى أحد الطرفين ذا فائدة مؤكدة .

وقد بيت عبد الله النية بقدر الامكان - على انهاء طاعة الجهادية لمحمد خالد وكان مندوبه حمدان أبو عنجة الذي كان لا يزال يقاتل في جبال النوبا وكان من المحتمل أن يستطيع اعتراض جيش دارفور ولكن في ٢٥ جمادى الأولى ١٣٠٣ هـ (أول مارس ١٨٨٦) كلف أبو عنجة بدعوة محمد خالد الى السماح لقواته بالاشتراك في هجوم على جبل الداير فاذا ما حضر محمد خالد بنفسه كان من الواجب أن يقابل باحترام لأنه كان يبدو مواليا للخليفة أيا كانت نواياه . واذا ما اقتصر على ارسال رجاله وجبت معاملتهم معاملة طيبة وفي كلا الحالين كان على أبو عنجة أن يحاول كسب مودة الجهادية وبإمكانه في نهاية الحملة الاحتفاظ بأولئك الذين يودون البقاء معه وبالتعايشة كذلك وحث الخليفة أبو عنجة على أن يعالج الأمور بالطريقة التي يراها على أن يبقى الأمر في طي الكتمان .

وفي تلك الأثناء كان الأشراف يتصرفون كما لو كانوا قوة مستقلة داخل أم درمان ويعدون العدة لتخصيص منطقة الجزيرة لمحمد خالد وقواته عند وصولهم . ولكي يواجه الخليفة مخططهم ويبقى على الاقليم لأبو عنجة وقواته أرسل يونس الدكيم شقيق عثمان لاحتلاله . ومن الواضح أنه وجد اتفاق بين الأشراف ومحمد خالد لكي يستخدم الأخير قواته لتضييق سلطة الخليفة ان لم يكن للقضاء عليها وسعى الخليفة من جانبه لاضعاف قوة محمد خالد ، وفي أوائل مارس أرسل الى محمد ود سليمان قائد جهادية دارفور المعسكرة في بارا يأمره بأن يرسل الى أبو عنجة التعزيزات التي قد يتطلبها الموقف وسارع محمد ود سليمان بإفشاء هذا الأمر لمحمد خالد .

وحينئذ كان التوتر يتزايد في أم درمان - وأدرك الخليفة تعذر تجريد محمد خالد من قوته بالاجراءات التي سبقت الإشارة إليها . وفي الخامس من جمادى الثانية الموافق ١١ مارس أرسل سكرتيه الموثوق به المدثر ابراهيم الى أبو عنجة ومعه خطاب شديد السرية جاء فيه أنه جرت العادة في عهد المهدي على توزيع جميع الأسلحة والذخائر والدروع والملابس ، والجهادية والفرسان بين الرايات الثلاث . ومن ثم فعلى أبو عنجة أن يعترض محمد خالد في الأبيض ويقوم بتنفيذ التوزيع وعليه أن يأخذ النصيب الخاص بالراية السوداء كما يضع النصيب الخاص بالخليفة محمد شريف تحت اشرافه على أن تحفظ جميع الذخائر في الأبيض في انتظار أوامر الخليفة .

وفي اليوم التالي شاعت في أم درمان أنباء بعثة المدثر واعتقد الأشراف أن تعليمات صدرت لأبو عنجة للقبض على محمد خالد - وأمر الخليفة أبو عنجة من جديد بأن تتخذ تصرفاته طابع السرية التامة مع ارسال تعليمات لقائد المهدي في الدويم لمنع مرور المراسلات من أم درمان الى كردفان بدون تصريح من الخليفة أو بالعكس ما لم يكن عليها خاتم أبو عنجة . وخلال الأيام القليلة التالية انفجر الموقف في أم درمان^(١) . وقد ضرب عبد الله ضربته الأولى عندما طلب من الخليفتين الأصغر تسليم أنباعهما الخاصين وراياتهما وأسلحتهما والجهادية التابعين لهما على أن تضاف جميع الموارد العسكرية في العاصمة للراية السوداء تحت قيادة يعقوب . وكما حدث عند موت المهدي قدّم الخليفة «على» تأييده العاجل والمخلص لعبد الله . كما وجد الخليفة محمد شريف أن لا قبل له بمواجهة هذه التطورات وتم اعداد منشور يعبر عن الولاء لعبد الله وقع عليه من قبل الخليفتين الأصغر وكلف أبو عنجة بعرضه على محمد خالد ، على أن يعامل الأخير بلباقة متصفة بالحذر الى أن يتضح موقفه . وإذا رأى أبو عنجة أن يعتقله فعليه أن يقرأ المنشور على قواته ويبلغهم بأنه قبض

(١) في رجب ١٣٠٣ (ابريل - مايو ١٨٨٦) وفقا لتقرير بوردينى .

عليه لخروجه على خليفة المهدي والخلفاء (١) .

وحينئذ أبدى الخليفة مزيدا من التشدد في مكاتباته مع محمد خالد فأمره بتسليم من لديه من جهادية وأموال لأبو عنجة . وسمح بتقسيم الفرسان فقط وفقا للترتيب الذي سبق وضعه بشأن جيش دارفور ونبه على أبو عنجة بعدم الكشف عن الأمر السابق الخاص بتقسيم الجهادية وأخطره بأن الأشراف لم يعودوا مصدرا للخطر منذ تم تجريدهم من الجهادية .

وتم تنفيذ التعليمات وفي ١٥ رجب ١٣٠٣ (١٩ أبريل ١٨٨٦) كتب أبو عنجة تقريرا عن مجيء محمد خالد الى بارا وبسا كان من تصفية قيادته . وحينئذ بدأ أبو عنجة التحقيق مع الموظفين والكتبة الذين عملوا مع محمد خالد حول اختفاء خيول وذخيرة وأدوات حربية أخرى . وبعد عشرة أيام أعلن عدم نجاح معظم جهوده وتقرر نقل ابراهيم رمضان أمين بيت مال دارفور بعد أن عوقب بالضرب الشديد خلال عمليات التحقيق ليصبح أمينا لبيت المال الرئيسي بأم درمان . وبقي محمد خالد سجيناً لمدة عام في الأبيض ثم أرسل الى أم درمان ليكمل فترة سجنه . كما نكل الخليفة بالرجل الذي تدين له المهدية بنجاحها في كردفان - وهو الياس أم برير - الذي كان قد بقي في الأبيض بعد مغادرة المهدي لها ثم انتقل الى الخرطوم بعد سقوطها في أيدي الأنصار وهناك بنى مسكناً خاصاً له بعد أن أمر الخليفة بإخلاء المدينة . وصاحب ابنه عمر الياس محمد خالد في تقدمه من دارفور . وأمر الخليفة أبو عنجة بالاستيلاء على الثروة التي أضافها عمر الى أملاكه بحيث ترد أمواله وعبيده وأسلحته الى بيت المال . وسمح لأبو عنجة بتوزيع ما يشاء من خيوله وإرسال الباقي الى أم درمان . مع اعتقال عمر نفسه اذا ما رأى أبو عنجة حاجة الى ذلك .

ومن ثم فبعد عام من وفاة المهدي لم يبق من حكام الأقاليم العظام الذين عينهم سوى اثنين . ولم يكن أولهما كرم الله كرعساوى الموجود

في اقليم بحر الغزال البعيد الذي تسوده الوثنية ليمثل خطرا على سلامة عبد الله . أما عثمان دقنة في الشرق فكان بمثابة وسيط لا يمكن الاستغناء عنه للسيطرة على قبائل البجة . وكان هو وأتباعه بمثابة جماعة مستقلة يمشاكلها الخاصة وبميدان نشاطها الخاص ولم يكن يخشى من تحالفه مع الاشراف نظرا لكثرة مشاغله الخاصة فضلا عن عدم وجود مصالح خالصة لديه . ولكن أحمد سليمان في أم درمان انضم صراحة الى فريق خصوم عبد الله . وفي ٢٦ ابريل ١٨٨٦ دارت عليه الدائرة ، عندما اعتقل وصعد بالأغلال . فعند استدعائه لتقديم كشف حساب دقيق عن المبالغ الكبيرة والكميات الضخمة من البضائع التي دخلت بيت المال في العام السابق أبدى عجزه عن اجراء ذلك - فصودرت بضائعه وبضائع شقيقه محمد (١) أيضا . وحل محله في أمانة بيت المال ابراهيم محمد عدلان وهو من أهالي واد مدني وكان تاجرا ناجحا في الأبيض الى وقت سقوطها . وقد عمل في بيت المال تحت امرة أحمد سليمان وأرسل الى بربر ليجرد الغنائم التي جمعت عند سقوط المدينة . وتم تنظيم خزانة المهديّة بفضلته تنظيميا كاملا .

وما انتهى العام الأول من حكم عبد الله حتى كان وضعه قد أصبح أكثر استقرارا مما كان عليه في أوائل حكمه . فقد حالفه الحظ الى حد ما حين مات محمود عبد القادر وتقاعس البريطانيون عن التقدم بعد معركة جنس . على أن معظم الفضل في تثبيت سلطته يرجع الى حسن انتهازه للفرص وسرعته في التصرف اذا ما قارنا ذلك ببطء الأشراف وأعوانهم وعدم فاعليتهم . كما أنه يدين بالكثير لاخلاص الخليفة على الذي ضمن نفوذه تعاون الأنصار المتدينين والذي كان بمثابة ضمير الحركة المهديّة بعد وفاة مؤسسها . وأخيرا فان اعتماد عبد الله الكامل على مساعدة حمدان أبو عنجة وحسن تصرفه قد أنقذه من احتمال تحالف محمد خالد مع الأشراف ، ومن ثم مكنه من القضاء على خصومه واحد بعد الآخر .

(١) قد يكون محمد سليمان هو نفسه قائد جهادية دارفور الذي سبقت الإشارة اليه .

الفصل السابع

الدولة المهدية المحاربة

١ - المناطق الغربية

١ - الخليفة والجهاد :

أمكن تجنب الخطر المباشر الذي كان يندر بتفكك الدولة المهدية وذلك حين استولى عبد الله على السلطة بسرعة وحزم الا أن صراعه مع الأشراف كشف عن التيارات الخفية التي كانت تحيط بالدولة المهدية . وحين فرض سلطته على مركز الدولة كانت الأفانيم النائية لا تزال تشكل مصدرا معتملا للخطر . فبقارة الغرب والفور على وجه الخصوص وقد ساعدوا المهدي في رفع النير المصرى لم يكن لديهم أدنى استعداد لمعاونة الخليفة لأنه شخص مغمور النسب نشأ بين ظهرائهم . وإلى جانب مشكلة إخضاع الغرب كانت هناك مشكلات الحدود الشمالية والشرقية للسودان .

وقد خيم الهدوء على الشمال بعد انسحاب القوات المصرية - الانجليزية من دنقلة . وفي الشرق بقيت الحبشة تفصلها عن السودان منطقة حدود غير محددة بدلا من حدود معترف بها . ولعل الدبلوماسية الناجحة كانت تستلزم عدم التعرض لمصر والحبشة وتركهما في سلام الى أن يتم لعبد الله اقامة حكمه على قواعد صلبة . ولكنه لم يستطع القيام بذلك - فالضمان الأساسى لبقائه في الحكم كان يقتضى التحرك الدائم الذى اصطفت به الحركة المهدية في عهد مؤسسها .

ولقد رأينا كيف استعان عبد الله بالعقوبات الروحانية التي اشتملت عليها المهدية وطوعها لتحقيق أغراضه . وهكذا أيضا نجده يجدد دعوة المهديين للحكام الملحميين والشعوب غير السودانية . وفي ١٣٠٣ هـ دعا مكان الحجاز ونجد ومصر الى قبول المهدية . وشهد العام الثانى من

حكمه ارسال الرسائل للخديوى محمد توفيق والملكة فكتوريا والسلطان عبد الحميد . وارسلت مكاتبات متعددة للملك جون ملك الجبشة فيما بين ١٣٠٢ ، ١٣٠٥ - وقد تم تجاهل هذه الرسائل من جانب من ارسلت لهم ومن ثم أصبحوا هدفا للجهاد . ومعنى هذا من الناحية العملية ان عبد الله وجد نفسه مضطرا لاتخاذ موقف متطرف تجاه مصر والجبشة . وقد أدى الجهاد ضد مصر الى كارثة توشكى ، وان اصاب الانصار بعض التوفيق فيما يتعلق بالجبشة .

وقد عبر الخليفة عن سياسته برؤى تنبؤيه مقتنيا بذلك السوابق التى وضعها المهدي ولعله لجأ الى هذه القوة الخارقة لان مصر كانت فوق كل شئ دولة اسلامية ان لم تكن مهديه ، على حين ان حديثا نبويا كان يحرم على أتباعه شن الحرب ضد الاحباش - وهناك حضرة او رويه نشرت فى ٢١ ربيع الثانى ١٣٠٥ هـ (٦ يناير ١٨٨٨) وجاء فيها ، قال لى الرسول « اذن لك بغزو الأحباش فى ديارهم ، وعليه . . امرنا حمدان أبو عنجة يغزوهم بالانصار الذين كانوا معه . وقد غزاهم فى عقر دارهم وانتصر عليهم بعون الله . . . ثم كبر النبى ايذاً بحرب الأحباش عدة مرات وكبرنا معه » .

والواقع أن أبو عنجة لم يخرج من القلابات قبل ٢٤ ربيع الثانى ومعنى هذا أن الإشارة الى النصر الذى جاء فى هذه الحضرة كان بمثابة توقع لحدوثه . وقد نشرت حضرة أخرى فى أوائل شعبان ١٣٠٥ (منتصف شهر ابريل ١٨٨٨) لم تكتف بتكرار تأكيد التنبؤ بالنصر فى الجبشة بل أكدت كذلك الملامح الأخرى لسياسة الخليفة وهى الملامح المنيرة للشك . « أتانى سيد الوجود ومعه المهدي والخضر وجلس سيد الوجود عن يمينى ووجهه الشريف متجه نحوى . وجلس المهدي عن يسارى صامتا تأدبا لرسول الله وجلس الخضر خلفى . وفى هذه الحضرة أخبرنى النبى بأنه اذا برز أعداء الله الحبش الى القتال فان أيديهم ستغل الى أعناقهم وسيكتب لنا النصر عليهم كما أبلغنى النبى أيضا بشأن الترك أن الرعب من المهديّة قد أخذ بمجامع قلوبهم ، وأنه سمح بارسال الأنصار

ضدّهم في مصر ثم كبر النبي ضد المصريين مرتين وكبرنا من ورائه كما كبر ضد الترت والانجليز وكبرنا من بعده ٠٠٠ واخبرني النبي ان دل ما اتحدته من نداير من قتل صالح الدباشي وابن أبي روف وما اتحدته في دارفور وما ان منى مع الشكريه والبطاحين (١) وندايرنا في العاصمة ، واخبرني النبي ان الله تعالى جعلني صاحب هداية على جميع العالم ووسعه بين يدي » .

(٢) التورات القبلية : ماديو رئيس الرزيقات وصالح رئيس النبابيتس :

من أهم عوامل القضاء على الحكم المصري في دارفور عداء قبيلة الرزيقات بزعامة الشيخ ماديو على . وعندما تولي محمد خالد حكم دارفور بعد سلاطين الدماديو سيطرته على شكا وتفاهم الاثنان على عدم التعرض لبعضهما البعض . على أن ماديو لم يهتم كثيرا بالاستجابة لدعوة المهدي المتكررة له بزيارة أم درمان وما كاد المهدي يتوفى حتى أعلن تمرده .

وعندما ترك محمد خالد الفاشر في طريقه الى المعتقل والسجن في بارا ترك حكومة دارفور ليوسف ابراهيم ابن السلطان الذي هزمه الزبير رحمه وقتله في سنة ١٨٧٤ . وكان مندوب المهدي المحلي في شكا هو محمد الشيخ محمد كرساوي الذي تولي شقيقه كرم الله ادارة بحر الغزال . وبدا لماديو أن الوقت قد حان لهدم ما تم عمله في السنوات الاثنتي عشرة السابقة - فلو أمكن التغلب على الأنصار الذين يتزعمهم رئيسهم الدنقلاوي لأمكن للرزيقات استعادة السيطرة على منطقة الحدود بين دارفور وبحر الغزال بينما يعود الحكم في الفاشر من جديد الى أحد سلالة سلاطين الفور .

(١) لم تقدم الشكريه أكثر من مساعدة جزئية للمهدية كما انها عاونت في امداد كسلا أثناء حصارها وعندما ابت القبيلة الانضمام للخليفة اعتقل شيخها عوض الكريم احمد أبو سن في أم درمان حيث توفي في عام ١٨٨٦ وجردت القبيلة من ابلها وخيلها التي تمثل ثروتها واشتدت الكارثة عليها في المجاعة الكبرى ١٣٠٦ ، والاحداث المتعلقة بصالح وأبو الروف ودارفور والبطاحين سيأتي وصفها فيما بعد ويوجد عرض لكلتا الرزيتين في وثائق المهدي / ٢ .

وبدأت الأنباء عن قلاقل دارفور تتسرب شرقا في رمضان عام ١٣٠٣ هـ (يونيو ١٨٨٦) وأصبح الموقف شديدا. الإرباك للخليفة - فقد أراد الإبقاء على سلامة الغرب حتى يوفر ملجأ له عند الحاجة ولكن الأشخاص الوحيدين الذين كان يستطيع الاستعانة بهم لمواجهة مادييو ما كانوا الا محمد كرساوى الدنقلاوى ، ويوسف ابراهيم الفوراوى وكلاهما لم يكونا يميلان اليه . وكانت المشكلة التى واجهته هى كيف يستطيع الافادة منهما ضد الرزيقات دون أن يمكنهما من احراز قوة كافية تغريهما بالانقلاب عليه . اما أبو عنجة فكان لا يزال فى كردفان وكان على عبد الله أن يعتمد عليه باعتباره مدافعا عنه فى وجه شيوخ الغرب الافوياء جدا . وما حل اغسطس حتى كان محمد كرساوى قد ابلغ عن محاولات قام بها مادييو لكسب ثقة جهادية الأبيض المتمردين الذين احتفظوا بقوة كبيرة فى جبال النوبا بعد أن هزموا محمود عبد القادر . ولكن هذا لم يحدث وتحول الموقف بسرعة الى غير صالح مادييو اد اشتبك فى قتال مع محمد كرساوى . وفى أكتوبر حضر كرم الله على رأس جيش بحر العزال وطورد مادييو فى المنطقة المجاورة للفاشر وقبض عليه يوسف ابراهيم فى شهر نوفمبر وهو فى طريقه الى جبل مرة .

وقد أرسل الاخوان كرساوى مادييو الى طريق أم درمان ولكن أبو عنجة اعترض طريقه بينما كان فى الأبيض . وكان هناك عداء قديم بينهما يرجع تاريخه الى ما قبل المهديّة عندما عامل مادييو أبو عنجة وهو سجين بكل ازدراء وقسوة . والآن انعكست الآية ، فتوقعا لأوامر الخليفة القاضية بإرسال مادييو الى أم درمان ، وجه أبو عنجة اتهاما الى سجينه الذى لم يلبث أن حكم عليه بالاعدام ويقال أن مادييو أنب أبو عنجة بقوله « ليس العبد الوضيع هو الذى يملك ذبحى وانما الله العظيم هو الذى سيذبحنى اذا شاء . وأنا لم أطلب منك الرحمة وانما مجرد العدالة ولكن انى لعبد مثلك أن يكون نبيلاً . اننى مادييو الذى تعرفه جميع القبائل » . وقد أرسل رأسه للخليفة الذى بعث لأبو عنجة بما يفيد رضاه بما حدث .

وهناك زعيم هام آخر تجاهل الاسدعاء لآدم درمان وهو صالح فضل الله سالم شيخ الكبايش . ولم يتصف موقف عائلته من المهديه على الاطلاق بالصداقة الحميمة . وفي سنة ١٨٨٣ اعدم اخوه النور فضل الله سالم بامر المهدي في الابيض . وكان عداء الكبايش يتسبب خطرا استراتيجيا بالنسبة الى الخليفة بطرا لان هجرتهم السنوية في تيسر كردفان ودنقله جعل هذه القبيلة سيده الطرق الواقعة بين مصر العليا وغرب السودان بحيث شكلوا وسيطه لنقل المعلومات الى السلطات المصرية الانجليزية لما كانوا يشكلون خطرا محتملا على جناح عبد الله . وكانت ثورة ماديوب على اشدها حين انحد عبد الله عدة خطوات لانخضاعهم (اى الكبايش) .

ففي اوائل سنة ١٣٠٤ (سبتمبر ١٨٨٦) عرضت ضمانات الأمن على القبيلة مما ادى الى كسب بعض الكبايش . وبدأ صالح لمفاوضاته مع انخيفه وانصاره ولكن الخليفة شك في ان المقصود من ذلك هو كسب الوقت الى ان يتم له جمع المؤن وتجنيب رجال قبيلته . والواقع انه كان فعلا على اتصال بالقيادة المصرية الانجليزية التي أرسلت له مددا من البنادق لم يصل منه اليه الا القليل .

وقبل هذا الحادث كان موقف الخليفة قد تحول من مجرد المراقبة الى العداء العلني . وفي ٤ صفر ١٣٠٤ (٢ نوفمبر ١٨٨٦) نبه على أبو عنجه بتحريض البدو ضد صالح ومنعه من الوصول الى أرض قبيلته . وبعد ذلك بشهرين أرسل المبعوثون بندا أخير لصالح حتى يتوجه الى أم درمان . وعندما فشل هذا العرض أمر عبد الله بقية القبائل بمقاطعة الكبايش وعدم بيعهم القوات اللازمة لهم وهدد من يخالف بالعقاب . ثم هاجمهم عثمان آدم حاكم كردفان ، ووضع الخليفة خطة للهجوم على بلادهم من الجنوب والشرق والشمال على أن يتعاون أبو عنجه والنجومى في تنفيذ ذلك . وقد جرى هذا في يناير سنة ١٨٨٧ واستمرت الاستعدادات حتى ابريل . وما حاز ذلك الوقت حتى كان صالح قد كسب أنصارا كثيرين من مختلف القبائل المتنقلة التي أقسمت

على الاشتراك في القتال ضد المهديّة • وكان أبو عنجه على وشك الرجوع مع جيشه الى أمدرمان وذلك بعد انتهائه من حملته في جبال النوبة • فكلّف عثمان آدم بتولى العمليات ضد صالح ، مستخدماً بعض قواه الخاصة من جنود المهديّة تحت قيادة ضابطه سليمان أحمد أكرت ورجال قبيلة دار حامد ، الأعداء القدامى للكباشيش بقيادة شيخهم سيمأوى تمساح (١) ، وبدأت المطاردة وبرغم أن صالح قد قاوم بشجاعة • فإنه حوَصِرَ في النهاية وقتل في مايو ١٨٨٧

(٣) ثورة دارفور - يوسف إبراهيم وأبو جميزة :

لم يكن دافع يوسف إبراهيم في المساعدة التي قدمها فيما يتعلق بمطاردة مادييو هو الإخلاص للمهديّة بأي حال بل التلّيف الى إخراج كرم الله من بلاده في أقرب فرصة ممكنة حتى يستعيد في شخصه سلطته دارفور القديمة • وكانت قد وصلت للخليفة بالفعل دلالات على نيات يوسف - فقد أحاط نفسه بحاشية من أعضاء الأسرة المالكة والموظفين الفورأويين •

وفي جمادى الأولى سنة ١٣٠٤ (فبراير ١٨٨٧) كتب أبو عنجه بأن مبعوثيه الذين أرسلهم بناء على أوامر الخليفة كجواسيس عادوا يحملون معهم قصة مدارها أن يوسف أعاد النظام الإداري لدارفور الى ما كان عليه في عهد أسلافه وأنه اتخذ لنفسه لقب سلطان • وفي تلك الأثناء اكتشف يوسف صعوبة إزاحة كرم الله وسرعان ما تدهورت العلاقة بين السلطتين الموجودتين في دارفور • وشكا يوسف لأبو عنجه كما شكا كرسأوى للخليفة •

ووقع الخليفة من جديد في مأزق فلن يخدم مصالحه لو استطاع أحد الفريقين الأفراد بالسيطرة الكاملة على هذا الإقليم النائي من

(١) قتل والد صالح كلا من والد سيمأوى وعمه
وثائق القاهرة (D 31/1) Cairint 1/40/246
وعرف هو نفسه باسم جرياجر (Greiger) وهو الاسم الذي اعتاد
سلاطين إطلاقه عليه •

أملاكه • وفي البداية كان من الواضح أنه يخشى الدناقلة أكثر مما يخشى احتمال استقلال دارفور • وفي خطاب تاريخه ٢٤ جمادى الثانية ١٣٠٤ (٢٠ أغسطس ١٨٨٧) نجد تلخيصا وانسجا للخطوات التي اتخذها أبو عنيجة في هذا الشأن ، مع موافقته الواضحة عليها - اذ شكأ يوسف لأبو عنيجة من أن كرم الله قد طلب ضرائب لا يستطيع الاقليم الوفاء بها بسبب ما أصابه من خراب على يد محمد خالد • وكان وكلاء كرم الله منتشرين في كل مكان بينما لم تبق في يد يوسف الا الفاشر • وقد أمر أبو عنيجة كرم الله بالانسحاب وترك دارفور ليوسف باعتباره حاكما لها على أن يكتفى بمحاربة القبائل المعادية مثل الرزيقات • وأكد الخليفة هذه الأوامر وتم استدعاء الكرغساوية لأم درمان ولكنهم قابلوا هذا الاستدعاء بالتجاهل •

وفي صيف عام ١٨٨٧ أحسَّ الخليفة بسدى خطورة يوسف المحتملة وذلك بعد أن بدت رغبته في الحصول على الاستقلال وبعد امتناعه بإصرار عن تلبية الدعوة للحضور الى أم درمان • ومع أن أبو عنيجة ترك الغرب حينئذ الا أنه ترك هناك رجلا يمتاز بالافتدار هو عثمان آدم الذي اشتهر باسم جانو وهو من النعاشة المقربين للخليفة وقد كلف بحكم كردفان • ومع صغر سنه (حوالى ال ٢٠ تقريبا) الا أنه كان قد لفت الأنظار بفضل كفاءته واخلاصه منذ تعيينه في الأبيض سنة ١٨٨٦ • ورأى فيه الخليفة أصلا من يستطيع القضاء على يوسف ابراهيم وكبح جماح كرغساوى الى أن يتم ابعادهم عن الغرب كما حدث بالنسبة الى سواهم من الدناقلة الأقوياء •

وبدأ الاعداد للحملة في محرم عام ١٣٠٥ (سبتمبر - أكتوبر ١٨٨٧) حتى يسكن تجهيز كل شئ قبل بدء فصل الشتاء • وكان الهدف المباشر للحملة هو دارا التي طرد منها يوسف ، كرم الله كرغساوى • وكتب الخليفة الى الاخوة كرغساوى يأمرهم بالانضمام الى عثمان مع جميع رجالهم • وكان من المتوخى بالنسبة الى قوات عثمان أن تضم كل الفرق الكردفانية باستثناء حامية الأبيض •

وقد زود بمنشور يطالب رجال دارفور بطاعته كما زود بمنشورات أخرى للقبائل المختلفة على ان تداع عند وصوله الى دارفور . ويتضح لنا شك الخليفة في الاخوة برغساوى من خطاب يكلف عثمان آدم بضرورة ابلاغه عن اى بادرة من جانبهم بعدم التعاون - وفي هذه الحالة خولت تولى قيادة قواتهم . وفي النهاية نجد ان عبد الله يخلع على عثمان سلطات مطلقة وذلك في ١٤ صفر (اول نوفمبر) .

وبارح عثمان آدم الابيض في ٢٢ محرم ١٣٠٥ (١٠ أكتوبر ١٨٨٧) وتقدم عن طريق الاضية ، نقطة تجتمع قواته ، الى شكا . وهناك انتقى بمحمد كرجساوى الذى سلم قواته . اما كرم الله فلم يعد يثير مشكله بعد أن هاجمه الرزيقات وكبدوه خسائر فادحة . ومن شكا تقدم عثمان آدم نحو دارا - وقد ذكر أن تعداد قواته قد بلغ ١٧١٥٩ رجلا . واشتبك في ثلاث معارك مع الفور ترتيب على الثالثة منها سقوط دارا في يده وذلك في ١١ ربيع الثانى ١٣٠٥ (٢٧/١٢/١٨٨٧) . وحينئذ جع يوسف ابراهيم قواته ليدخل بها في جولة ختامية مع عثمان . وامتنع يوسف نفسه عن مصاحبة الحملة التى لاقت الهزيمة وهرب هو الى الملجا التقليدى لأسرته ، وهو تلال جبل مرة . وفي ١١ جمادى الأولى ١٣٠٥ (٢٥ يناير ١٨٨٨) سلمت الفاشر بعد معركة أخرى - وكان الخليفة قد أرسل مرسوما تضمن خلع يوسف وتعيين عثمان عاملا عموميا للأقاليم الغربية ، وحينئذ نشر هذا القرار . واتخذ عثمان من الفاشر مركزا لقيادته العامة . وفي رجب ١٣٠٥ (مارس ١٨٨٨) أرسل رأس يوسف ابراهيم الى أم درمان ، وكان قد لقي مصرعه على يد قوة أرسلت تحت قيادة الخاتم موسى أحد كبار ضباط عثمان وخلفه أخوه أبو الخيرات آخر سلاطنة دارفور الاسمين .

ولم تكن هزيمة الفور وتفككهم دليلا على انتهاء نزعاتهم الانفصالية - فقد أمكن لهم في عام ١٨٨٨ الافادة من عوامل السخط للقيام بحركة جعلت القضاء على المهدية في الغرب أمرا محتملا . فالى جانب دارفور وجد عدد من السلطنات الصغيرة منها دار تامة ، ودار المساليط

وغيرها من الامارات التي أصبح استقلالها مهدداً بعد أن كشف سقوط يوسف ابراهيم عن قدرة المهدي على مواصلة الهجوم والتوسع وكان من المحتمل القضاء على هذه السلطنات والفرور لولا الظهور المفاجيء لاحدى الشخصيات التي وحدتهم فى العمل ضد الانصار بضعة أشهر • ويصف خطاب بعثه عثمان آدم للخليفة فى ٢٩ محرم ١٣٠٦ (٥ أكتوبر ١٨٨٨) القائد الجديد بقوله « يقال ان الرجل الذى يدعى خلافه السنوسى أمضى بعض حياته مع العرب المهرية • وقد كتب أحجية للنسوة والاطفال وما شابه ذلك • وعندما جاءت قوات المهدي جاء معها ولان يقف فوق محفة ممسكا بقبضة من التراب يقذف بها الانصار ثم هرب مع الآخرين وذهب الى تامة وعاش فى القفار • وعندما جاء الانصار وفضوا على السلطان ذهب الى ابنته المضطرين وادعى أمامهم أنه أرسل لهم من طرف ابن السنوسى لكي يقضى على الانصار وطلب منهم حمل سائرهم وتنبأ لهم فى حالة محاربتهم للانصار يافئائهم جميعا فلا تقوم لهم بعد ذلك قائمه • لما قال « ان الريح قد قذفت بى اليكم » • وبدأ يعمل لهم رقى وأحجية • ولا يعرف اسمه ولا قبيلته أو مكان نشأته (١) •

وبعد بضعة أيام وصف جاسوس آخر لعثمان القائد الجديد ، بأنه (أى أبو حمزة) شاب أمرد داكن البشرة ، وأصله غير معروف لدى أتباعه الذين يعتقدون أنه خرج من شجرة جميز ولكن لون بشرته ولهجته يدلان على أنه ينسب الى قبيلة قرعان •

وقد أحيط هذا الرجل باستمرار بجو أسطورى غامض ويبدو أنه « فقى » ادعى قوة سحرية وأكد أنه خليفة محمد المهدي بن السنوسى الذى كان له نفوذ كبير بين قبائل غربى دارفور • ومن هنا نجده يدعى بأنه أحق بخلافة عثمان الشاغرة التى كان المهدي قد عرضها على السنوسى ولا شك أنه كان يسعى باتخاذ هذه الخطوة الى الحصول على مساند المهديين المنشقين الذين اعترضوا على زعامة عبد الله •

وقد بالغت الأقاويل السودانية في ذلك الوقت وهي الأقاويل التي نقلت الى المخابرات العسكرية المصرية في هذه القصة . ولما كان هذا المتورد يدعى بخلافة عثمان فقد اقترن بالرجل الذي عرضت عليه هذه الخلافة في الأصل ومن ثم انتشرت الشائعات بأن محمد المهدي بن السنوسي ذاته كان في طريقه الى أم درمان .

وسرعان ما اكتسب أبو جميزة وهو الاسم الذي أطلق على هذا الزعيم المناهض للمهدية - عددا كبيرا من المؤيدين بما في ذلك بعض رجال قبيلة المساليط التي بدأت المهدية تمارس الضغط عليها وحجاج مكة الذين وجدوا أن النظام الجديد في السودان قد اعترض طريقهم ، والفور الساخطون بزعامة أبو الخيرات . وعندما تقدم الى دار تامة أوقع بقوة مهدية هزيمة فادحة في محرم ١٣٠٦ (١٨٨٨) . وتراجع الأنصار الى كبكاية حيث أمدهم عثمان آدم بجيش جديد يقوده محمد بشارة أحد كبار ضباطه . وقدر تعداد قوة الأنصار الاجمالية في كبكاية بنحو ١٦٢٥٣ منهم ٣٠٩٤ مزودون بالأسلحة النارية ، ١٨٢٧ من الخيالة و ١١٣٣٢ من المسلحين بالحراب . وعندما خشي محمد بشارة من هبوط معنويات رجاله اذا بقوا في كبكاية تحرك غربا في ٢٠ صفر (٢٦ أكتوبر) وهاجم دار المساليط حيث عزم على اتخاذها مركزا لقيادته وهناك أصيب بكارثة فادحة . ويبدو أنه وجد صعوبة في الحصول على معلومات عن أبو جميزة الذي هاجمه بجيش اشتركت فيه قبائل مختلفة في ٧ ربيع الأول (١١ نوفمبر) وكانت هذه الهزيمة - كما أبلغ عثمان آدم الخليفة - أسوأ من سابقتها . وحاول الأنصار المحاصرون والمكدودون شق طريقهم للعودة الى كبكاية ولكنهم وجدوا المعسكر مهجورا - اذ أن الحامية التي تركها محمد بشارة كانت قد ولت الأدبار الى الفاشر .

ووجد عثمان آدم نفسه في مأزق خطير جدا - فقد استولى العدو على معظم ذخيرة الحملة فضلا عما استهلك منها خلال المعركة . وكانت الخسائر ثقيلة كما امتلأت الفاشر بقوات منهارة معنويا . ويرغم أن الحاكم الشاب توقع ثورة علنية تقوم بها القبائل العربية وغير العربية

في جميع أنحاء دارفور ، إلا أنه لم يفقد رباطة جأشه بل انه استعرض قواته خارج المدينة وأعلن عزمه على التقدم غربا . وتوقع أن يخطر أبو حمزة بعزمه هذا مما يتيح له فرصة سكون تستعيد فيها قواته روحها المعنوية وتصل فيها الامدادات من شكا ولكن الموقف كان صعبا . وفي ٢٦ ربيع الأول (٣٠ نوفمبر) كتب مبلغا الخليفة بأن الثورة أصبحت عامة في دارفور وأنه لابد من اعادة فتح كل الأقاليم من جديد . وأبلغ سليمان أحمد أكرت عن أحداث الرزيقات وكيف أنهم ثاروا ثانية وأن بعثة من شيوخ البقارة ولت الأدبار ولم يعثر لها على أثر في ذات الوقت الذي وصلت فيه أنباء الى الفاشر عن هزيمة محمد بشارة . وكانت القوات الموجودة في الفاشر في ذلك الوقت تضم ٥٦٦٥ من حاملي البنادق و ٢٦٨٢ خيالة ، ١٤٢٢٠ من المسلحين بالحرب .

ومن حسن حظ عثمان أن أبو حمزة لم يتعجل التقدم وقيل أن أتباعه رفضوا القتال خارج أراضيهم القبلية وبدأ أتباعه يفقدون حماسهم ويتسربون الى بيوتهم . وبالإضافة الى هذا كانت تعزيزات الأنصار تشق طريقها . وبوصول سليمان أحمد أكرت بلغ تعداد الجيش ٣٦٤١٩ . وفي ١٠ جمادى الأولى ١٣٠١ (١٢ يناير ١٨٨٩) وصل أخيرا الى الفاشر جيش يقوده أحمد فضيل كان قد غادر أم درمان منذ عام كامل تقريبا . وتحركت الأحداث بعد ذلك بسرعة . اذ تقدم الثوار نحو الفاشر وان لم يصحبهم أبو حمزة ، فقد توفي في دار المساليط وانتقلت القيادة الى أخيه ساغة .

وفي ٢١ جمادى الثانية (٢٢ فبراير) التحم الجيشان خارج الفاشر وكان قتالهما في ذلك اليوم مريرا وتأكد في نهايته فوز الأنصار وقتل ساغة في القتال ، كما هرب أبو الخيرات ثانية الى جبل مره حيث قتله عبيدة بعد ذلك بعامين .

(٤) السياسة القبلية في الغرب :

فكر الخليفة خلال حكم عثمان آدم للغرب في اللجوء الى سياسة تؤدي الى تقليل قوة قبائل البقارة المتمردة أو اضعافها . وأدى القضاء على ماديبيو بعد ثورته الى ازاحة خطر شيوخ القبائل الكبار . وبناء

عليه استقرت سياسة عبد الله على أسس ثلاث • الاطاحة بشيوخ القبائل
الوراثيين التقليديين ، وتهجير القبائل المشكوك في ولائها للمهدية الى
أم درمان ، واستغلال الخلافات القديمة بين القبائل لضعافها • وكان
المظهر الأخير لتلك السياسة هو اللجوء الى طريقة فعالة واقتصادية
لاخضاع القبائل ، أى بالعودة الى الأساليب القديمة التى كان يلجأ اليها
الحكم المصرى مما كان يناقض أخلاقيات المهدية (١) •

ويمكن أن نجد مثالا لاستبدال الشخص الذى عينه عبد الله ،
بالسلطات القبلية المقررة في منشور للمسيرية جاء فيه • « ... بدافع حبنا
وعطفنا عليكم كتبنا لكم المنشورات لكي تجيبوا داعى الله وتهاجروا في
معية ابراهيم صابون الذى جاءكم من عندنا لهذا الغرض ... ويجب
عليكم ألا تنصتوا للزعماء المذنبين ... والشيوخ الذين سيظروا عليكم
في عهد الترك لكي يجعوا الضرائب ... ولو اتبعتم كلماتهم سيوقع
بكم دون شك عقاب شديد في هذه الدنيا والآخرة ، فسوف تخرب
أرضكم وتسبى نساؤكم وتتهب ثرواتكم ويسبى بنوكم لأن يد المهدية
مبسوطة فوقكم أما عن معارضة زعمائكم المشار اليهم للدين وفشلهم
في اتباع المهدية فقد قررنا عزلهم واتخذنا من الرجل المحترم ابراهيم
صابون عاملا على جميع المسيرية (٢) •

على أن مثل هذه التعيينات لم تحتو على ضمانات لأن تقبلها
القبائل المعنية ولكي يفرض الخليفة ارادته على المعارضين لجأ كثيرا الى
الهجرة التى أصبحت حينئذ تنفذ عن طريق الزيارة الاجبارية لقبيلة
أو أشخاص بارزين لأم درمان حيث يصبحون تحت رقابة الخليفة ومعرضين
للدعاية لا تنقطع • وكان المهاجرون في أم درمان بمثابة رهائن في الواقع
وكان بإمكان الأشخاص أن ينالوا شرفا مشكوكا فيه (وعد به كرم الله

(١) على أن هذه السياسة قد نفذت في حياة المهدي ضد الحوازمة
الذين أعلن أنهم قد نقضوا ميثاقهم مع المهدي ، ربما لأنهم لم يشتركوا في
الجهاد ضد الخرطوم . وتوجد مسودة خطاب كنبه الخليفة وهاجمهم فيه
في المهدية / ٣١/٢ ، ٥/١ بتاريخ شوال ١٣٠١ (يولية - أغسطس ١٨٨٤) .
(٢) نفس المصدر ، ٣١/٢ - وثيقة جارى ترميمها .

ومنح لسلطين) هو اعتبارهم « ملازمين » بالباب الشريف ويتطلب ذلك الشرف ممن وقع عليه الاختيار ملازمة الخليفة والمسجد في كثير من الأوقات . وكان من الممكن أن يستمر انتزاع القبائل من مواطنها اما لفصل واحد كما حدث في أكثر من مناسبة ؛ وأجابا ما كان النقل المستمر لجماعات خطيرة بوجه خاص موضع اعتبار . وتأيدت سياسة الهجرة الاجبارية أو الاقتلاع في منشور الشعرة .

وكان من طموحات عبد الله منذ وقت طويل أن يطبق هذه السياسة على التعايشة وغيرهم من البقارة . وكان قد فكر في تحقيقها خلال حياة المهدي عندما كان محمد خالد حاكما لدارفور ولكن نجاحه في تحقيق ذلك كان محدودا . وأدى استبعاد محمد خالد وامتداد سلطة عثمان آدم الى دارفور الى اعطائه فرصة جديدة . وقد أسىء فهم الدافع الذي جعل الخليفة يستدعي البقارة ، ويبدو أن هدفه لم يكن اغراق أقاربه البدوين في خيرات الأقاليم النيلية بقدر ما كان يرغب في وضع قبائل ، يعرف هو ، لدى ميلها للفوضى تحت رقابته . ومن المشكوك فيه ما اذا كان وجودها في أم درمان قد أدى الى زيادة تأمينه ، فالتعايشة عديمو النظام والذين تصعب السيطرة عليهم لم يشكلوا أداة يركن اليها عند نشوب أزمة . وهو ما أوضحته سياسة الخليفة ازاءهم فيما بعد . وعندما تم استدعاءهم لأم درمان قدمت لهم الرشوة لترغيبهم في البقاء . . بمعاملتهم معاملة خاصة وعدم التضييق عليهم . ولكن هذا الوضع المفضل الذي تمتعوا به قد منح لهم من قبيل السياسة والعجز لا حبا فيهم .

فمن الخطأ الاعتقاد بأن التعايشة جاءوا مغتربين الى أم درمان (١) كما يحدث عندما يدخل أبناء الصحراء المتجولون الى أرض خضراء تفيض لبنا وعسلا . ومن الخطأ أيضا الظن بأن بقاءهم في العاصمة كان استقرارا أقدموا عليه بمحض اختيارهم . فان تتبع استدعاءاتهم

(١) مما يثبت ذلك الوثيقة التي بعث بها الخليفة الى عثمان آدم وجاء فيها امره اياه « بالبحث عن الفارين وارجاعهم الى أم درمان بالشعبة والجنزير مع المحافظة القوية » نعوم شقير طبعة بيروت ص ١١٣٩ (المترجم) .

يكشف عن عكس ذلك • ففي ١٦ ربيع الثاني ١٣٠٥ هـ (أول يناير ١٨٨٨) أرسل الخليفة الى عثمان آدم طالبا منه ارسال جميع العرب المشكوك في ولائهم الى أم درمان قبل مغادرته دارفور • وخص بالذكر قبائل البقارة الثلاث : الرزيقات والهباية والتعايشة • وقد سبق استدعاء هذه القبائل لمركز قيادته بينما كان في شكا ولكن التعايشة أحدثوا شغبا ولم يستسغ زعيم التعايشة الوراثي الغزالي أحمد خوفا ارتقاء ابن عراف القبيلة للسلطة العامة ، ومن ثم قتل في الشهر التالي الرسل الذين جاؤوه من قبل عثمان آدم ومعهم عهود بالأمان •

وعندما أبلغ عبد الله بهذا التمرد كتب في ٢٠ جمادى الثانية (٣ مارس) لعثمان مزودا اياه بخطابات للتعايشة على أن يتم توزيعها عند الحاجة • ووجه أحد هذه الخطابات للقبيلة بضمة عامة وشيوخها بصفته خاصة • وهى تبلغهم عفوه عن أخطائهم السابقة اذا انضموا فوراً لعثمان آدم • أما الغزالي فتقرر عزله من زعامته حيث أنه حنث بيمينه وكان على التعايشة أن يعزلوه فهو وأتباعه أعداء للمهدية • ووجهت رسالة أخرى للغزالي ذاته ذكر فيها بزيارته للخليفة فى الأبيض وحلفه يمين الولاء للمهدى • وعرف حينئذ أنه حنث بيمينه وولى الأذبار بعد مهاجمة رجال قبيلته ذاتها الذين عاونوا المهدية وأمر بالتوجه الى عثمان آدم مع اعطائه الأمان ، وأكد له بأنه اذا لم ينفذ هذا فسيتم القبض عليه ووضعه فى السجن • والخطاب الثالث لشخص اسمه صالح حوا - ومن الواضح أنه قائد التعايشة الذين خضعوا لعثمان • وقد صدرت اليه التعليمات بالقبض على الغزالي وأنصاره والانضمام بجميع قواته الى عثمان •

ويبدو أن الخليفة استنفذ صبره سريعا ففي ١٢ رجب (٢٥ مارس) أرسل لعثمان آدم انذارا تجرى اذاعته فى شتى أنحاء بلاد التعايشة على أن يتم القضاء على القبيلة اذا ما كانت لا تزال ترفض المجيء • وبعد القضاء على حركة الفور كان على عثمان أن يقوم بتكوين جيش قبلى لاستخدامه ضدهم • وهكذا كان استغلال الخلافات الموجودة بين البقارة نوعا من السياسة • فكان من المتوخى تخريب أرض التعايشة ووقف (م ١٢ - المهدية)

زراعاتهم حتى يضطروا للاذعان عن جوع • والاذنار الذى اشتمل على هذه التعليمات القاسية يمثل قطعة طويلة من السب والقذف (١) . وقد وجه الاذنار الى جميع التعايشة بوجه عام وقلاده بيتا بيتا وفرعا فرعا ورجلا رجلا كبيرا وصغيرا وبدأ بذكر رسالة المهدي الالهية وسعادة من يلبي الدعوة والعقوبات التى تنتظر الكفرة • ولوم التعايشة لفشلهم فى تلبية استدعاءات الخليفة المتكررة بالانضمام الى سلك المهديّة وعثمان آدم • ويلحق ذلك بقوله لو كان ذلك بسبب افكاركم للمهديّة فقد خرجتم على الاسلام وأصبحتم كفارا (حمانا الله من هذه الحالة) ولو كان ذلك لعدم ايمانكم بوعد الله واخترتكم العمى على المهدي فان شاء الله فان ما أصاب الكفار والضالين فى القديم والحاضر سيصيبكم • واذا كان ذلك لأنكم ترون أنفسكم أكبر من أن تتبعونا وتحسدونا على ما ترون وتتمنون فعل مثله - أفلا تعلمون أن القوة الالهية تزين ما تأتى به ومصيره الزوال وأن الله يضع سره فى أضعف خلقه ؟ » •

ثم ينتقل عبد الله الى تهديد رجال قبيلته بالخراب والدمار « فان كان لديكم القوة على محاربة المهديّة فاستعدوا اذن وسوف لا يفيدكم ذلك لأنكم ضعاف وليس لكم قوة وأنتم رأيتم ما فعلته المهديّة لمن هم أقوى وأكثر عددا وأكثر ثروة منكم فما الذى تستطيعونه مع قلة عددكم وضعفكم وقلة حيلتكم ؟ » •

وهذا هو الاذنار الأخير الذى يجرى ارساله - وعلى التعايشة عند استلامهم اياه أن ينضموا الى عثمان آدم بدون تأخير والا كان عليهم أن ينتظروا العقاب الذى تأجل طويلا • فاذا ما استسلموا حصلوا على الأمان لأنفسهم وجميع أملاكهم ولن يجدوا الا ما يسرهم •

« ولكن اذا اعتزمتكم الماطلة فى ترك دياركم وكانت أموالكم وأولادكم ودياركم أعز عليكم من الله ورسوله والجهاد فى سبيله فان الله أكبر عليكم ، الله أكبر عليكم ، الله أكبر عليكم (٢) • واستعدوا لقتال الله

(١) المهديّة ٣١/٢ ، ٥٠ ، ٤٠٠ عريج وقلادة هما عشرينا التعايشة .

(٢) هذا هو الترديد الثلاثى لصيحة الحرب المهديّة .

ورسوله أينما تولون وجوهكم في الأرض فان قوة الله تحيط بكم وأغلال القوة على أعناقكم » •

وحمل عبد الله شيوخ التعايشة وزر سلوك قبيلتهم ... » ان ذنبكم وذنوب كل من معكم الكبار والضعاف النسوة والأطفال والمرضى معلقة بأعناقكم وسيحاسبكم الله عليها يوم القيامة ، ويستمر عبد الله في رسالته منذرا اياهم بعجزهم عن مقاومة الأنصار في القتال « ان المخرج الوحيد أمامكم هو الهرب والتفرق في البلاد فهل تهربون وحدكم وتتركون النساء والأطفال والكمول والأراامل واليتامى والعجزة لأنكم شيوخهم وزعماءهم وهربكم وحدكم وترككم أمر لا يليق باستغلاككم لهم طويلا اذن فما دام هؤلاء الأفراد الضعاف ينتمون اليكم ويعملون لحسابكم فأنتم مسئولون عن أخذهم معكم في صحبتكم وحملهم معكم • ومن ليس له ثور يركبه عليكم باعطائه واحدا ليحملة وأولاده (١) • ومن ليس له حمار تعطوه واحدا ومن ليس له بقرة تعطوه بقرة لتحمله وأطفاله • لا تتركوهم في الديار لكي لا يحيق بهم غضب جنود الله وسخطهم لأنكم أنتم الذين احتجزتموهم طوال هذه المدة مبعدين اياهم عن طريق الهدى • ومن ثم فان هربكم بأنفسكم وترككم اياهم من ورائكم سيكون عارا يلحق بكم بين القبائل وأيضا ستسألون عنهم في يوم القيامة بين يدي الله ... والمهدية باذن الله ستأخذكم جميعا • ولن ينقذكم من يدها البعد في المسافات أو التفرق في الأرض لأنه لا يمكن لأى منتصر أن ينتصر على الله ولا يستطيع هارب أن ينجو منه وما علينا الا البلاغ وأنتم بالخيار بين سلوك طريق الجنة أو النار والسلام » •

وقد اتبع عثمان آدم الخطة التي وضعها عبد الله - فبعث بالانذار الى التعايشة وبدأ يعد قوة قبلية ليقاتلهم بها • ونجحت سياسته في اخضاع القبيلة • وفي ١٧ رمضان (٢٨ مايو) أبلغ الخليفة أن الغزالي وغيره من الزعماء سلموا أنفسهم للحملة • ونبه عليه عبد الله بمعاملة التعايشة معاملة طيبة وارسالهم لأم درمان • وتقرر اعتبار أملاكهم فيئا

(١) درج البقارة على استعمال الثيران باعتبارها دوابا للحمل •

ومن ثم تصادر لحساب الخليفة • ولكن عثمان أمر باستخدامها في تعجيل رحيلهم • وخاب أمل القوات القبلية التي عباها أو التي عاوتته ضدهم فيما طمعت فيه من غنائم • وفي ٦ شوال (١٦ يونيو) تقدم التعايشة لعثمان آدم بالمئات وبناء عليه قسموا الى جماعات في طريقهم الطويل الى النيل الأبيض (١) • أما وصف الترتيبات التي أعدت لاستقبالهم في مهجرهم فيتضمنها خطاب أرسله الخليفة الى أبو عنجة في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٠٦ هـ (٢ يناير ١٨٨٩) •

وبركة الله وصل أقرباؤنا منذ بعض الوقت الى بارا • ومن هنا (أم درمان) قررنا تعيين بعض الأخوة ، عبد الباقي عبد الوكيل ، السنوسي ومحمد عثمان خالد لتيسير ترحيلهم وأرسلنا الزاكي عثمان ليعث بدواب كافية لنقل رجال عبد الباقي •• الآن نحمد الله لأن أول الأقارب وصل الى « شاباشا » ومنها سيتم ترحيلهم الينا بالبواخر • والبواخر على استعداد لإحضارهم فور وصولهم وبإذن الله سيصلون قريباً الى العاصمة (٢) •

وسنعرض فيما يلي الدور الذي لعبه التعايشة في السنوات الأخيرة من حكم عبد الله • فمخادرتهم لدارفور لم تنه الاضطرابات القبلية في ذلك الاقليم فقد أثار تمرد أبو جيمزة موجة جديدة من التمرد القبلي واحتاج عثمان آدم بعد انتهاء معركة الفاشر الى العودة من جديد الى تهدئة

(١) كتب الخليفة الى ابي عنجة أيضاً بتاريخ ٨ محرم ١٣٠٦ هـ معبرا عن رضاه لهجرة الوف من التعايشة والزيقات والهباتية والحمير وغيرهم ما بلى « بعد السلام نعلمك انه بحمد الله قد انتهى امر التعايشة فحضرنا من بلادهم بأكملهم والآن قاموا من الفاشر وأولهم قد وصل جبل الحلة وهم كثار حتى لقد يبلغون من عائلة المجاهد نحو ٦٠ الفا وكون ذلك مما يزيد المسرة في الدين حررنا لك هذا ثم أن الهباتية حاضرون جميعهم بعد التعايشة بواسطة المكرم عثمان آدم ومن بعدهم يحضر قبائل متفرقة من اهالي الناقة وأخلافهم رزيقات وغيرهم نساء ورجال والله ينصر الدين ويخلد الكافرين » •

نوم شقير : تاريخ السودان وجغرافيته طبعة بيروت ص ١١٣٩ (المترجم) •

(٢) مهدية ٢٦/١ ، ١/٦ ، ١/٤٤٧ •

القبائل . وبعد تلك الواقعة بقليل أرسل عثمان الى جميع الأنحاء والاقاليم مقدما ضمانات الأمان . ولكن القبائل ماطلت في أمر المجيء اليه ومن ثم بدأ يعد لحركة عسكرية ضدهم وكان بنى هلبة نواة حركة العصيان بين العرب ، بينما أثبت الفور حول جبل مرة - كما كان الحال دائما معهم - أنه لا سبيل اليهم . وفي ٢٩ رجب ١٣٠٦ (٣١ مارس ١٨٨٩) كان عثمان في طريقه لاختضاع بنى هلبة وكتب بأن تعداد قواته ١٧٧٢٢ رجل يحمل ٦٤٠٩ منهم أسلحة نارية وبينهم ١٨٧١ من الفرسان . وجرى الهجوم على بنى هلبة والفور وفي شوال (يونيو) أرسلت حملة لمطاردة بعض التعايشة الذي هربوا من أم درمان في طريقهم الى بلادهم .

وحينئذ أدرك عثمان آدم أنه لا سبيل للاحتفاظ بدارفور الا بالعدول عن سياسة الغزو والارهاب واستبدالها بالحكومة المستقرة . وبناء عليه عقد اجتماع قبلى كبير في دارا . وأرسلت الخطابات للقبائل تعرض عليها ضمانات الأمان وجاء كثيرون من العرب وغيرهم لمقابلة الحاكم .

ولما كان موسم المطر قد أقبل وكان لابد من تفرقهم سريعا حتى يبدأوا الزراعة عين عثمان ضابطا من الأنصار للإشراف عليهم . « ليعملوا في الاشراف عليهم ولفحص أحوالهم ليلا ونهارا ، ولاعطائهم أوامر بزراعة الأرض وليؤدوا الصلاة والراتب » (١) وجرى اختيار شخص لكل قبيلة فيما عدا القبائل كثيرة العدد . وطمع عثمان في نشر هذا النظام بالتدريج في المناطق الجنوبية . وأمر الضباط بالاقامة بين ظهرائى القبائل وحذرهم من الاستيلاء على أى شئ منهم باستثناء الضريبة الشرعية التى تحصل فى وقت الحصاد . وأعيد ما نهى الأنصار الى أصحابه . وفي ٢٤ شوال (٢٣ يونيو) اخض عثمان آدم نتائج عملية التهدة بما ذكره من إعادة النظام فى منطقة الفاشر ودارا والتويشة وجبل مبذوب وفى مناطق أخرى كانت الفرق التأديبية تارس عملها وأبدى معظم سكان الجنوب خضوعهم بينما أبدت القبائل الشمالية خضوعها لأحد معارضى عثمان .

(١) الراتب هو مجموعة من الآيات والاحاديث والادعية كلف المهدي انصاره بقراءتها يوميا .

الفصل لشارن

الدولة المهديّة المحاربة

٢ - المناطق الشرقية

١ - توطيد الحكم المهدي في المناطق الشرقية :

اشتملت المناطق الشرقية للدولة المهديّة على ثلاثة قطاعات لكل منها تاريخ سياسي وعسكري مستقل الى حد كبير . وتركز القطاع الشمالي حول سواكن حيث كان القتال بمثابة مبارزة طويلة المدى بين عثمان دقنه والقوات المصرية الانجليزية . وقد سبق ان عرضنا للمرحلة الأولى من هذه المبارزة وسنعرض في فصل تال الى مراحلها الأخرى . وفي القطاع الأوسط كانت كسلا نقطة الارتكاز بالنسبة الى المقاومة المصرية وعندما سقطت هذه البلدة في أيدي المهديين تحولت الى قلعة تصدت للأجباش ثم للايطاليين وحمت السودان من الهجمات التي وجهت اليه مما يعرف الآن بإقليم أرتريا . وقد امتد القطاع الجنوبي ما بين أعالي نهر العظيرة وأعلى النيل الأزرق حيث وجدت ثلاث مراكز هامة هي القصارف أو سوق أبو سن وهي مركز الشكرية وسوقها الرئيسي والقلابات (١) والجيرة وهذه المدن كانت تمثل مدن الحاميات في شمال المنطقة وجنوبها .

وقد بدأ حصار مصطفى على هدل لكسلا في شهر نوفمبر ١٨٨٣ واستمر ٢٠ شهرا . وقد تصدت الحامية - تحت قيادة حاكمها أحمد بك عفت - لقوة المهديّة التي تفوقها كثيرا ، بشجاعة ولمدة طويلة . وأدى وجود مركز الميرغية في بلدة الختمية المجاورة الى تعزيز قوة خصوم المهديّة كما لعب بطانة سيد محمد عثمان الميرغني الثاني وأتباعه دورهم في القتال . ولكن كما هو الحال بالنسبة الى بقية المراكز المصرية المحصنة في

(١) عرف الاقليم باسم اقليم القلابات . كما اطلق على المدينة الرئيسية اسم المئمة .

السودان استهلكت قوة الفرق الحكومية تدريجيا بسبب نقص الامدادات
بينما ازداد الانصار قسوة . وفي شعبان ١٣٠٢ (مايو ١٨٨٥) تم اخلاء
بلدة الختية التي نهبا بعد ذلك مباشرة المتوردون .

أما مراكز القطاع الجنوبي فلها قصة مختلفة . فلم تكن بالقضارف
الافوة تقوم على غير النظاميين الذين يعسكرون بها وكانت في الأصل
مركزا تجاريا وبها كان يزرع الدخان تحت شراف الاوربيين وبقي راس
قبيلة الشكرية ، القبيلة البارزة في المنطقة ، وهو الشيخ عوض الكريم
أحمد أبو سن على ولاته التام لحكومة مصر . ولبن ابنه عبد الله
عوض الكريم انضم للمهدى وتولى زعامة أبناء القبيلة الذين انضموا
للمهدية في تلك الآونة . وقد استسلمت القضارف تلبية لنداءاته في ابريل
١٨٨٤ . وحينئذ أرسل الأنصار كتابا للقلابات يدعونها فيه ايضا للانضمام
للمهدية . وكانت القلابات سواقا هاما للتجارة مع الحبشة كما كانت مراكز
لجاليه التكرار في السودان . وكان المسئول المحلي بها من قبل الحكم
المصرى شخص يدعى صالح بك ادريس أو صالح شقة وهو من التكرار
البارزين وله أتباع يزيدون على الأربعة آلاف من الرقيق يحملون السلاح
النارى للمحاربة في صفه حين ينشب القتال ويفلحون أراضيهم في وقت
السلام . وبالإستعانة بهؤلاء بعد تعزيزهم رجال قبيلته وقوات الحكومة،
استطاع مواجهة الثورات المحلية الصغيرة في أوائل المهديّة . ولكن مع
سقوط القضارف تعرض مركزه للخرج وعندما تسلم الدعوة التي أتته
من شيوخ الأنصار طلب مهلة قدرها ثلاثة أشهر مدعيا أنه في حاجة الي
وقت طويل لاقتناع قواته بضرورة التسليم . وفي تلك الآونة كتب لأحمد
عفت وغوردون طالبا العون والمساعدة ولم يكن أيهما طبعاً في موقف
يسمح له بذلك . واستؤنف القتال الجدى في أواخر ١٨٨٤ واستطاع
صالح أن يصمد ، وفي نوفمبر ساعدته قوات حبشية . بينما تعرضت
حامية الجيرة على نهر ستيت في هذه الفترة لهجمات مماثلة من الشكرية
وغيرها من القبائل .

وفي تلك الأثناء سعت السلطات الانجليزية والمصرية الى سحب حامياتها وأبرمت معاهدة في يونيو ١٨٨٤ مع الملك جون ملك الحبشة سمحت له باستعادة منطقة الحدود (التي تعرف الآن باسم ارتريا) • وكان قد سبق اقتطاعها منه لحساب مصر بشرط أن يساهم في تسهيل انسحاب حاميات الحدود • وبناء على هذه الاتفاقية أرسل ضابط مصري • سعد رفعت • من قبل الحاكم البريطاني لشواطيء البحر الأحمر لاستدعاء القوات من القلايات - وقد ضم رفعت مغامراته فيما بعد في تقرير شيق يتصف بالتواضع (١) • ففى صفحة ٢٥ من غير النظاميين شق طريقه الى أسيرة • ومن هناك كتب للملك الحبشة الذى أرسل له حرسا لمرافقته الى عدوة • وهنا نشأت صعوبة - اذ لم يكن سعد مزودا بهدايا للملك واضطر لشراؤها من جيبه الخاص وان اعترف بأز الحكومة عوضته عنها فيما بعد - وتحرك سعد ثانية في ٢٣ أغسطس ١٨٨٤ مزودا بقوة من الأحباش ليرفع الحصار عن القلايات واتخذ طريق اكسوم فعبّر تاكازى الى غندار ومن هناك أوصله الطريق الى أطراف القلايات • وقد أحرز الأحباش الذين انضمّت اليهم قوات صالح بك انتصارا على الأنصار وسلمت المؤن الحكومية للحامية لقائد الأحباش وبدأت القوات المصرية تحركها مع عائلاتها في طريق العودة الى الشاميء •

ولم يتم ذلك بسهولة ، فقد دبر صالح إدريس ايلا وبغالا لنقل الحرس ونبه على زعماء الأقاليم الحبشية بأعداد أدوات لركوب النسوة والأطفال • وتولى الجنود حمل زملائهم المرضى العاجزين عن السير على نقالات • وفى الطريق الى غندار رفض أحد الزعماء الحبش غير المواليين إمداد اللاجئين بالمؤن • ومن ثم اضطروا للبقاء في اقليمه أحد عشر يوما اقتاتوا فيها على الفاكهة والنبات البرى • وأرسل سعد الى الملك جون شاكيا تلك المعاملة ولم يعطهم الزعيم ما احتاجوا اليه الا أخيرا وبعد أن وصل رد الملك • وبينما كانوا في غندار دعى سعد لمقابلة الملك بعد أن نبه عليه بالاستغناء عن الادلاء ودواب النقل الخاصة بحرسه • وأبلغ بأنه

ليس من حقه طلب المؤن والرجال والدواب له ، فالمعاهدة لم تنص الا على حق المرور بأمان في الحبشة وكان معنى تنفيذ هذه التعليمات جعل مهمة سعد في حيز الاستحالة . ولهذا سعى الى مقابلة الملك وقدم له احتجاجا على ذلك وختم احتجاجه بالاشارة الى أن تقاريره ستنشر في الصحف وتقرأ في أوروبا وغيرها » وأن هذا العمل لا يتفق مع كرم الملوك وانى اذا لم أجد مساعدة فانى أفضل الانتحار على أن أرى مهمتى تشل . وقد كوفى سعد على تصرفه الجسرى ، اذ ألغى الملك جون تعليماته وأعيد التصريح بامداد البعثة بما تحتاجه . وبرغم ما أحاط بما تبقى من الرحلة من صعوبات ومخاطر الا أن اللاجئين تقدموا بشجاعة وعندما وصلوا الى بلاد الرأس ألوه زعيم أسيرة قوبلوا بكل الجمالات العسكرية فقصده رحبت بهم فرقة موسيقية وقام محاربو الزعيم باستعراض عام . وأخيرا وصلوا الى ميناء مصوع حيث تسانت الفرق أجراها وهكذا أتت هذه البعثة مهمتها الصعبة باصرار ونجاح .

وكانت القلايات قد أخليت في ٢٨ فبراير ١٨٨٥ ولم يتم انقاذ الجيرة الا بعد أربعة أشهر عندما وصل جيش حبشى الى المناطق المجاورة لها . وأمكن هزيمة الأنصار وإبعادهم . وفي ٢١ رمضان ١٣٠٢ (٤ يوليو ١٨٨٥) استولى الأحباش على المؤن تم انسحبوا مع القوات المصرية وأخذ الأخيرون سبيهم الى مصوع . أما المدافعون عن كسلا فلم يكن لهم مثل حظ سابقهم برغم شجاعتهم . فقد ضيق عليهم الخناق عقب سقوط الختمية وأوشكت مخازن الغلال على النفاذ وتم الاجهاز على جميع دواب النقل الموجودة بالمدينة بل أنه جرى أكل الجلود الجافة والصمغ . وأخيرا لم يجد الحاكم بديلا عن الاستسلام . وكما حدث في أماكن أخرى رأت الحامية أنه من الأفضل لسلامتها أن تطلب شروط السلام من المهدي ذاته بدلا من الوقوع تحت رحمة القائد المحلى . وبناء عليه أرسلت الرسائل الى أم درمان التى أجاب عنها المهدي في ٣ شعبان ١٣٠٢ هـ (١٨ مايو ١٨٨٥) بارسال مندوبين عنه لقبول الاستسلام . وكان على رأسهم الحسين ابراهيم ود زهرة وهو عالم بارز من أرض الجزيرة . وقد

واصلت الحماية صمودها لفترة أخرى على أمل أن يأتي الأحباش بزعامه
الرأس الوله لاتقادها - ولكن ذلك لم يتحقق . وفي ١٦ سوال
(٢٩ يوليو) استسلم أحمد بك غفت لمبعوفى المهدي .

والى حين لم تمس حياة الحاكم السابق وإن استخدمت وسائل
العنف المعهودة مع الضباط لاستخلاص ما لديهم . وفي ١٠ من ذى القعدة
(٢١ أغسطس) استولى عثمان دقنة على المدينة . وأعلن الحرب على
الرأس الوله . وفي الواقعة الأولى التى جرت فى كوفيت هزم الاحباش
ولكن الرأس الوله استدعى قوات جديدة . وفي الواقعة الثانية هزم
الأنصار هزيمة فادحة . ونجح عثمان فى العودة الى كسلا وخلال غيبته
حاول أحمد غفت وبعض الضباط السابقين والأشخاص البارزين التآمر
لاستعادة المدينة . ولكن المؤامرة اكتشفت وعند عودة عثمان قتل الحاكم
مع اثنين من الموظفين وأكبر تاجرين أجنيين فى المدينة . وعقب ذلك عاد
عثمان دقنة الى سواكن تاركا ابن أخيه قائدا على كسلا .

٢ - القلايات والمعارك الحبشية :

لم يحاول الأحباش الذين عاونوا سعد رفعت فى اخلاء حامية
القلايات الاستيلاء على هذا الموقع - فلم تمض خمسة أيام على انسحاب
الحامية حتى احتل محمد ود أرباب الموقع باسم المهدي . وقد تم هذا
فى ٥ مارس ١٨٨٥ ولم يكن الحاكم الجديد الا أحد أقرباء صالح ادريس
وهذه الحقيقة تبين الأهمية المستمرة للتكاير فى هذا القطاع . واستمرت
ادارة محمد ود أرباب نحوا من عامين ولكنها انتهت بنشوب القتال مع
الأحباش - فعلى الجانب الآخر من الحدود كان اقليم الرأس الشجاع
عدار (١) ، الذى لجأ اليه كثيرون من الهاريين من المهديّة ومنهم صالح
ادريس ذاته وشيخ قبيلة الحمران Hamran على الحدود والمضوى
عبد الرحمن الذى انقلب على المهديّة وهرب ناجيا بحياته للمرة الثانية .
وسرعان ما تزايد التوتر بين الأحباش والحاكم المهدي ، ووصل الخلاف

(١) وردت هكذا فى كتاب شقير وارشيف المهديّة أما الكتاب
الأوربيون سلاطين واورفالدر وونجت فيطلقون عليه اسم - ادال .

الى قمته عندما عجز محمد ود ارباب عن منع أحد أتباعه من الغزو وتعكير السلام عبر الحدود ولهذا عبر رأس عدار الحدود واخترق البلاد الواقعة تحت حكم المهدية في يناير ١٨٨٧ على رأس قوة كبيرة من الأحباش وقل محمد ود ارباب أثناء القتال . كما وصل في تقدمه الى نقطة تقع في منتصف الطريق بين القلابات والقضارف . وبعد انتصار الأحباش على الأنصار انسحبوا تاركين القلابات مهجورة .

واشتد قلق الخليفة عندما وصلته هذه الأنباء للمرة الأولى ولكنه استعاد اطمئنانه عندما تبين له عدم رغبة العدو في الاحتفاظ بمكاسبه . وتم تنظيم قوة تحت قيادة يونس الديكم . وفي ٦ جمادى الأولى ١٣٠٤ هـ (٣١ يناير ١٨٨٧) عبر عبد الله الى الشاطيء الشرقي ليودع جيشه وداعا رسميا . وفي تلك الاونة أرسل لحمدان ابو عنجة ليتعجل عودته من كردفان . وعندما احتل يونس القلابات من جديد سار على سياسته استفزازية - فقام أحد ضباطه واسمه عربي دفع الله بشن الغارات وعام بنفسه بالاستيلاء دون وجه حق على قافلة لتجار من الحبش وصيادهم بضاعتهم ثم بعث بهم مكبلين بالأغلال الى أم درمان . وكان من الواضح أن الخليفة نفسه يعد العدة للقتال . وفي ٢٧ رجب ١٣٠٤ (٢١ أبريل ١٨٨٧) وصل أبو عنجة وجيشه الى ضواحي أم درمان (١) وقد جرى لهم استقبال رسمي في استعراض عسكري كبير . وفي تلك الأثناء كتب الخليفة للملك جون داعيا اياه الى الرضوخ للمهدية ويتهمة بالسماح بالغارات على مسلمي الحدود ، فضلا عن اعطائه حق اللجوء لصالح ادريس وغيره من المرتدين . وانهذره باعلان الحرب عليه ما لم يمد جميع الأسرى المسلمين ويسلم اللاجئين اذا ما رغبوا في العودة - أما اذا لم يرغبوا فعليه بأن يسلم اقرارات عليها أختامهم بارتدادهم وكفرهم على أن يتعهدوا بتجنب

(١) يحدد سلاطين (النار والسيف ص ٤٢١) أواخر شهر يونيو تاريخا لعودة أبو عنجة - أما أورفالدر ص ٢٢١ ، ٢٢٤ فيحدد لعودته يوم ٢١ يوليو ١٨٨٧ الموافق لعيد الأضحى . وقد حددت هذا التاريخ استنادا الى وثيقة هي خطاب من الخليفة لأبو عنجة . انظر وثائق المهدية ٢٥/١ ، ٤ ، ٢٨٠ .

القيام بأعمال عدوانية في المستقبل^(١) . وقد بقيت هذه الرسالة بدون أي رد وأن تلقى الرأس عدار أوامر من الملك جون لكي يجهز حملة ضد الأنصار .

وقد وصلت هذه الأنباء ليونس الدكيم عن طريق جواسيسه ونقلها بدوره للخليفة الذي أمر أبو عنجة في ١٩ محرم ١٣٠٥ (٧ أكتوبر ١٨٨٧) بالتقدم بقواته الى القلابات وقد جرى بعض التأخر في المراحل الأولى للتقدم لأن مجموعتين من رجال أبو عنجة كانتا في جنوب الجزيرة في محاولة لقمع التمرد القبلي الذي قامت به قبيلة رفاعة الهوى بزعامة شيخها من عائلة أبو روف .^(٢) وقد انتهت تلك الحركة بقتل الزعيم ذاته وسبق الأحياء ممن بقوا من قبيلته الى أم درمان حيث عاشوا في ذل ومهانة . وقد خشى الخليفة أن يؤدي تعيين أبو عنجة حاكما على القلابات الى سوء تفاهم مع يونس الدكيم فأرسل تعليمات كان يأمل في أن تؤدي الى تحسين الوضع . وكان على القائدين المشتركين أن يعملوا متعاونين وألا يسمحا لأحد بإيجاد الفرقة بينهما وأن من المستحسن أن تكون لقوات كل منهما معسكرات خاصة . وكان على القاضي المصاحب لأبو عنجة أن ينتقل للعمل مع رجال يونس . وقد نصت التعليمات أيضا على أن يصدر القائدان مجتمعين كل القرارات التنفيذية . وكان على أبو عنجة أن يبحث رجاله على أن تكون علاقاتهم حسنة مع رجال يونس على أن الخليفة قرر صراحة في النهاية أن على يونس أن يطيع أبو عنجة .

وعند وصول أبو عنجة الى القلابات ووجه في الحال بمسكلة خطيرة - فقد تكرر بين قوات الحدود الشرقية ما حدث في الغرب تحت زعامة أبو حمزة : اذ تجمع الناقمون حول شخصية أسطورية . وأعلن تكرروري اسمه آدم محمد أنه النبي عيسى الذي تحدد مجيئه بعد المهدي

(١) يورخ شقير (في كتابه تاريخ السودان وجغرافيته ج ٣ ص ٤٦٩) هذا الخطاب بجمادى الأولى ١٣٠٤ / مارس ١٨٨٧ . ووفقا للتاريخ الجريجوري يجب ان يكون المقابل هو يناير - فبراير ١٨٨٧ . وقد اخطأ ونجت (المهدية ص ٣٣٣) في ترجمة الخطاب فجعل تاريخه في يوليو سنة ١٨٨٧ .

(٢) انظر الفصل السابق .

مؤكد علم الخليفة المسبق بصحة رسالته • وسرعان ما انضم اليه بعض الضباط الذين يحتفل أن معظمهم جاءوا من دارفور أو من المناطق الواقعة الى الغرب منها • ولعل يونس نفسه كان على علم بالمؤامرة أو لعله على الأقل لم يكن قادرا على السيطرة عليها • ووصلت أنباء المؤامرة الى الخليفة الذي أقر في ٧ ربيع الثاني (٢٣ ديسمبر) حكم الاعداء على المتآمرين كما أمر بتفريق الوحدات التي كانت تحت قيادتهم على ضباط آخرين وطالب بتجديد عهد الولاء له وفي ذات اليوم أرسل منشورا للأنصار في القلابات منددا فيه بمدعى النبوة وأرسل ثلاثة من الأنصار البارزين في أم درمان بالنيابة عنه حاملين هذه الرسائل •

وبعد يومين عدل عبد الله عن قراره الأول وبعث بكتاب جديد قرر فيه اعدام آدم نفسه مع وزيره على أن يعفى عن بقية المتآمرين البارزين اذا أعلنوا رضوخهم للقائدين • ولكن قراره الثاني وصل متأخرا فقد أعدم الضباط قبل وصول القرار للقلابات واضطر الخليفة أن ينهى الاجراءات فأصدر منشورين حذر الأنصار بوجه عام في أولهما من مصير المتآمرين وأمرهم فيه بالابلاغ عن أى حالات الدعاية المماثلة بينما عرض المنشور الثاني للرؤية التي شاهد فيها المتآمرين وهم يصلون عذاب النار دون أن يستطيع أحد انقاذهم من ذلك العذاب حتى وأن توسط الخليفة في هذا الأمر •

وعاد يونس بعدئذ الى أم درمان ومن الواضح أنه لم يغزل من قيادته حيث أن خطابات الخليفة لأبو عنجة في الأسبوع الأول من جمادى الأولى (أواسط شهر يناير ١٨٨٨) أعطت تعليمات بشأن الترتيبات الخاصة بعودته • وبسجرد تحرر أبو عنجة من زميله قام بغزوة للحبشة فقسم قواته الى أربعة أقسام يقودها على التوالي أحمد على (الذي كان قد انضم اليه وشيكا ومعه الامدادات) عبد الله ابراهيم ، والزاكى طمل ، وعربى دفع الله وجميعهم من القادة المشهود لهم بالخبرة والكفاءة • ثم غادر القلابات في ٢٤ ربيع الثاني (٩ يناير ١٨٨٨) وبعد تسعة أيام وصلوا

الى غاصمة الرأس عدار واشتبكت القواتان في قتال انتهى بانتصار
الأنصار . وفي اليوم التالي دارت المعركة مع القوات الرئيسية للرأس
عدار وقد أطلق الأحباش نيرانهم من أربعة مدافع قبل أن يصل حاملوا
السلاح من الأنصار الى مدى نيرانهم ولم يتوقف الأنصار عن التقدم
وإن امتنعوا عن اطلاق النار الى أن اقتربوا من أعدائهم وفي نهاية ساعة
من القتال تراجع الأحباش واستولى الأنصار على غنائم كثيرة . وفي
٧ جمادى الأولى (٢١ يناير) تابع الأنصار سيرهم وبعد يومين دخلوا
غندار العاصمة القديمة دون مقاومة تذكر ثم عادوا بنعيمتهم وأسراهم
الى القلابات . واستطاع الرأس عدار نفسه النجاة وإن وقع أطفاله في
أيدي الأنصار واقترح أبو عنجة جعلهم رهائن سكن استبدالهم بمصالح
أدريس .

وفي ٢٣ جمادى الثانية (٧ مارس) أخطر الخليفة أبو عنجة بأن
يونس في طريق عودته للقلابات . ولم تطل اقامته لأنه استدعى مع المشرف
على خزنته في ٧ رجب (٢٠ مارس) لأم درمان . وحينئذ تقرر أن تتبع
جميع القوات الموجودة في القلابات وأمر أبو عنجة ووضعت الخزينة كما
وضع القضاة تحت اشرافه . وتقرر الاعداد لحملة صيفية ثانية . وفي
٧ شوال (١٧ يونيو) كان أبو عنجة ورجاله يواصلون السير من جديد ،
ولم يحقق تقدمهم نتائج تذكر وفي ٢١ ذو القعدة (٣٠ يوليو) بدأ
مسيرته عائدا للقلابات وأثبتت أمطار الحشة مدى ايزائها للجيش وحالته
الصحية . وقرر الخليفة عندئذ الترحيب بقائده المظفر مرة ثانية في
أم درمان وأرسلت باخرة الى أعلى النيل الأزرق لنقله ولكنه استخدم
ابلا في الجزء الأخير من الرحلة . ودخل أم درمان ليلة ٢٨ صفر ١٣٠٦ هـ
(٢ نوفمبر ١٨٨٨) ثم عاد ثانية الى مقر عمله بالقلابات في ١٦ ربيع الثاني
(٢٠ ديسمبر ١٨٨٨) حيث بدأ الاعداد لاشتباك آخر مع الحشة . وفي
٩ جمادى الأولى ١٣٠٦ هـ (١١ يناير ١٨٨٩) وصلت كتابات من الملك
جون يعرض فيها السلام حولها أبو عنجة للخليفة وإن واصل في ذات
الآونة تقوية مركزه . ولكن الرد الذي وصل للملك جون كان مثيرا ومن

ثم قرر القيام بحملة ضد الأنصار وقبل أن تبدأ الحملة تقدمها تغيرت قيادة القلايات إذ سقط أبو عنجة غليلا وتوفي في ٢٧ جمادى الأولى ١٣٠٦ هـ (٢٩ يناير ١٨٨٩) وسرت - كما جرت العادة - شائعات عن موته مسموما رغم أنها لم تقم على أساس ، إذ أنه بقى في منزله فترة بسبب مرضه قبل حملة الصيف . وقد أسف لموته جنوده وجاءت وفاته في وقت خرج بالنسبة لحماية القلايات .

وأعقب وفاة أبو عنجة خلاف حول من يخلقه في القيادة وعزم الخليفة باديء الأمر أن يولى القيادة لأحمد على أحد أقاربه المقربين وفعلا دعا الجهادية بالقلايات لتقديم الولاء له بصفته القائد المحلى الأعلى للجيش . وكان هذا في ٤ جمادى الثانية ١٣٠٦ هجرية (٥ فبراير ١٨٨٩) ولكن هذا الاختيار لم يقابل بالرضا محليا . وبناء عليه أرسل الخليفة مجموعة من الوكلاء اقترحوا للقيادة الزاكي طمل ونال هذا الاختيار رضا عبدالله . وكان الزاكي شأنه في ذلك شأن أبو عنجة ينتسب الى قبيلة المندلا التابعة للتعايشة . ولا شك أن تعيين رجل كان عبدا في الأصل للقيادة العليا كان مصدرا لاستياء أحمد على تماما كما كان تعيين سلفه بالنسبة ليونس الديكم . ولكن يبدو أن تعيين الزاكي فاز برضاء الجيش .

وقد أتم الزاكي تحصين القلايات واستعد لمواجهة هجوم الملك جون ولم يطل به الانتظار ففي مارس زاد اقتراب القوة الحبشية التي كان يقودها الملك نفسه وفي معيته جاء رأس عدار والرأس ألولة وأيضا صالح ادريس . وقام الأحباش بهجومهم في ٩ مارس واخترقوا خطوط الدفاع السودانية وعندما أوشكوا على كسب المعركة انقلب النصر الى هزيمة - إذ أصيب الملك جون خلال المعركة وقتل الى خيمته حيث توفي في ذات الأمسية . وبموته فقد الأحباش روحهم المعنوية وقبل أن يصبح اليوم التالي كانوا قد بدأوا انسحابهم ولحق بهم الأنصار الذين هاجبوا قسما من الجيش أمكن دحرة بسهولة .

وسقط قدر كبير من الغنائم في أيدي الأنصار ومنها تاج الملك المتوفى
وسيفه • كما تم اكتشاف جثة الملك التي كان الأحباش يحملونها لدفنها •
وأرسل الرأس الى أم درمان للعرض مع بعض العلامات الأخرى التي تثبت
انتصار المهديّة •

وفي أم درمان طغت الغبطة بالنصر على الخليفة وطبع تقرير الزاكي
الذى وصف فيه أحداث المعركة ووزع في الأنحاء والأقاليم • ولكن
الواقع أن انتصار القلايات جر على المدى بعيد كارثة للمهديّة تشبه
الكارثة التي وقعت بالأحباش • فعندما زانت قبضة الملك جون القوية عن
الحبشة تعرضت الى حين للتفكك والانقسام • واغتنم الايطاليون الذين
سبق لهم احتلال أملاك مصر في مصوع في ١٨٨٥ • فرصة هذه الأحداث
فتقدموا الآن الى الداخل وأنشأوا مستعمرة ارتريا في عام ١٨٩٠ • وهكذا
عسكرت قوة استعمارية أوروبية في مواجهة القطاع الأوسط من مناطق
شرقى السودان - وكانت هذه القوة تشكل عدوا محتملا يفوق في خطورته
الملكية الحبشية الاقطاعية التي كانت المهديّة تستطيع مواجهتها على قدم
المساواة •

وهكذا ... كان من نتيجة النصر الذى تم احرازه في القلايات في
عام ١٨٨٩ فقدان كسلا التي استولى عليها الايطاليون في عام ١٨٩٤ •

الفصل التاسع

الدولة المهدية المحاربة

٣ - مصر

اتخذت الخطوة الأولى نحو القيام بحملة على مصر في حياة المهدي عندما صدرت الأوامر الى عبد الرحمن النجومي الذي أرسل في فبراير ١٨٨٥ لمواجهة حملة الانقاذ ، بالبقاء في المئمة . على أن حالة قوات النجومي لم تكن تبعث على التفاؤل فلم يتوفر له المال اللازم لدفع رواتب الجند فرجع الكثيرون منهم الى أم درمان . ولم يؤد استصراخ محمد الخير حاكم بربر ليقدم عوناً مالياً الا الى الاحتجاج بأن الأنصار يجمعون ضرائب غير شرعية في اقليمه . وحاول النجومي ورفاقه التكيف مع الموقف باستدانة الأموال وفرض الاتاوات على الشائكية وغيرهم من أحلاف « الترك » . وقد قام هؤلاء بدورهم بالشكوى للمهدي . وقد انتشر وباء الجدري وغيره من الأمراض بين رجال الجيش .

وقد تم هذا قبل وفاة المهدي بشهر - وأدت هذه الصدمة ثم صراع الخليفة مع منافسيه من أجل الاستئثار بالسلطة الى تأجيل الخطة الطموحة الخاصة بالزحف على مصر الى حين . وفي أغسطس بعث الخليفة بالنجومي ليتولى المساعدة في العمليات التي بدأت ضد الحامية المصرية في سنار فلم يصل الا بعد سقوطها ، وفي سبتمبر كان قد رجع الى العاصمة . وقد شهد أواخر العام تصاعد خطر الهجوم من جهة الشمال الذي أدى الى جنس . ولكن هذا الخطر زال كما رأينا في أوائل عام ١٨٨٦ بعد أن أخلى الانجليز والمصريون النقاط العسكرية التي كانت موجودة جنوب وادي حلفا . وفي أبريل ١٨٨٦ كان النجومي موجوداً في بربر حيث كان يقوم بتنظيم نقل قواته الى دنقلة - وبدأ للمرة الثانية امكان تنفيذ خطة الجهاد ضد مصر .

وكان شك عبد الله في الأشراف وأولاد البلد يزداد - وكان يحتمل أن ينضم هؤلاء الآخرون الى الأشراف في أى صراع ينشب بينه وبين هؤلاء .

وبرغم خدمات النجومى المخلصة للمهدية الا أن شكوك الخليفة حامت حوله لأنه من الجعليين فضلا عن أنه كان أكفأ من أنجبه أولاد البلد من الجنود وأكثرهم شعبية . ولعله خشى في أغسطس ١٨٨٥ اتحاد النجومى مع محمد عبد الكريم الذى تولى الاستيلاء على سنار - وبدأ مهتما باستدعاء القائدين لأم درمان ، وتخوفا من تحول سنار الى قاعدة لمنافسيه أعلن في منشور الشعرة حق المهدي في اخلائها كلية : « سنار أصحابى لا يسكنوا فيها - ولا يبدأوا منها غزوا - والذى يسمع الانذار ويموت فيها ليس من أصحابنا » (١) .

وسرعان ما عاودت الخليفة شكوكه في النجومى بعد أن عاد الأخير لقيادة الحملة الشمالية . وفي يوليو ١٨٨٦ بعث عبد الله بأحد مساعديه المقربين وهو بقارى من قبيلة الهبانية اسمه مساعد قيدوم ليعمل اسميا كوكيل للنجومى . ولكن الحقيقة هى أن مساعد قيدوم كلف بمراقبة قائده لحساب الخليفة . وفي أكتوبر ١٨٨٦ غادر النجومى بربر مع آخر قواته ووصل الى العرضى التى أصبحت مركزا لقيادة عملياته في ٩ نوفمبر . وهناك بقيت القوة الرئيسية للحملة المهدية لمدة عامين ونصف . ولا شك أنه وجدت بعض فصائل متقدمة الى الشمال احتكت بين الحين والآخر بالقوات المصرية وهاجمت القرى النبلية الواقعة بالقرب من وادى حلفا من قاعدتها في صرص . ولم يبد في الأفق ما يؤذن ببداية الغزو المرتقب وذلك برغم وصول مبعوثين في ابريل ١٨٨٧ الى وادى حلفا يحملون معهم « انذارات » من الخليفة للتخديو محمد توفيق والملكة فيكتوريا والسلطان عبد الحميد وتدعوهم الى الخضوع للمهدية . وكانت هذه الانذارات على شكل تحذير للحكام الذين أشرنا اليهم . والواقع

ان بدء الهجوم على مصر تقرر تأجيله بسبب أحداث السودان ككل
وبسبب المشاكل الخاصة بأعداد حملة الشمال . فالفترة الممتدة من يونيو
١٨٨٦ الى مارس ١٨٨٩ كانت كما رأينا - فترة أزمت متوالية في المناطق
الشرقية والغربية . ويبدو أن الخليفة وقد واجهته هذه الأخطار شديدة
الالاح أثر تغليب السكون والهدوء في الشمال محتفظا بجيش قوى
كقوة احتياطية في العرضى لمواجهة أى تهديد قد يتطور . وبالإضافة الى
ذلك فان توتر العلاقات بين النجومى ومساعد قيدوم كان كفيلا بشل
مبادرات القيادة الشمالية . وفي ديسمبر ١٨٨٧ كتب الخليفة الى النجومى
ليؤنبه على اهماله لمساعد ورجاله وسماحه بقيام خلافات بين الطرفين .
وقد أبدى النجومى من جانبه ولاءه وإخلاصه للخليفة ودحض الاتهامات
التي وجهها لمساعد اليه .

وفي أوائل ١٨٨٨ قرر النجومى تأكيد حقوقه باعتباره قائدا للحملة
فأرسل قواته الأمامية تحت قيادة صفية عبد الحليم مساعد لاحتلال
صرص التي لم تقو فيها قبضته حتى ذلك الوقت . وتوقعا منه لحدوث
هجوم مصرى انجليزى بعد أن وصل لعلمه مجيء السردار جرانفيل الى
الحدود ، أرسل مساعد قيدوم في ١٨ يناير على رأس امدادات معتزما أن
يلحق بها بنفسه . وعندما نقل خبر هذه الاجراءات الى الخليفة أسرع
في تحطىء النجومى وأمر بإعادة مساعد الى العرضى علو أن يبقى رجاله
في صرص تحت قيادة عبد الحليم . وفي رسالة أخرى منع النجومى من
فصل أو تعيين أو تأديب أى عامل دون موافقة الخليفة المسبقة . وأرسل
الخليفة تعليمات الى النجومى بشأن مسلكه . مع مساعد قيدوم وفي فبراير
كتب النجومى بما يفيد بعودة العلاقات الطيبة بينهما .

وفي مارس تلقى النجومى اذن الخليفة له بزيارة أم درمان وعين
مساعد قيدوم قائدا بالنيابة عنه خلال غيبته . وبدأ رحلته في ٩ رجب
١٣٠٥ (٢٢ مارس ١٨٨٨) أما ما دار بينه وبين الخليفة فلم يعرف الا مما
ذكره شقير . وتذهب روايته الى أن الخليفة سخر بالنجومى بسبب
فشله في التقدم نحو مصر وأهانته على ملا من الناس .

وعلى كل حال فقد تم التوصل الى قرار باحياء مشروع الغزو وشغل النجومى نفسه خلال عودته الى دنقلة بتعبئة قوات جديدة للجهاد . وفى المتمة وجد أمامه رجال قبيلة البطاحين ، التى أعدم ٦٧ من ذويها علنا أو عذبوا فى أم درمان بأمر من الخليفة بسبب عدم رضوخهم . ومثل هؤلاء لم يكن من الممكن أن يكونوا جنودا مواليين للمهدية وأخطر النجومى عن خسائرهم الفادحة بسبب هرب بعضهم . وعندما وصل الى مروي فى منطقة الشائقية قرأ نداء الخليفة للجهاد وعين مندوبين للتعبئة . ووصل الى دنقلة فى ٣ محرم ١٣٠٦ (٩ سبتمبر ١٨٨٨) . وفى الشهر التالى اتخذ الخليفة خطوات جديدة لتعبئة القبائل النيلية فى الشمال وذلك بتعيين محمد الخير الحاكم السابق لبربر وعلى سعد فرح زعيم الجعليين للإشراف على تعبئة القبائل .

واستمر التوتر فى العلاقات بين النجومى ومساعد قيديم . وجريا على أسلوبه المعتاد فى مثل تلك الخلافات أرسل الخليفة ثلاثة مندوبين للتحرى والافادة . وبعد قليل استدعى مساعد لأم درمان ولكن غيخته لم تطل حيث عاد ثانية الى العرضى فى ٢٧ صفر (٢ نوفمبر) بمكانة متزايدة . وبصفته وكيلًا للنجومى أصبح يشترك فى المسئولية مع المندوب المحلى للخزينة عن الادارة المحلية . وفى تلك الأثناء بقى المندوبون الثلاثة فى العرضى وتقررت استشارتهم فى جميع الشؤون ذات الأهمية . وأخيرا فى ٢٧ جمادى الثانية (٢٨ فبراير ١٨٨٩) وصل يونس الديكى من أم درمان بصلاحيات واسعة النطاق .

ومما ساهم فى تعويق فاعلية الحملة نقص الأغذية - فطريقها من بربر يجرى فى مناطق لا تتجاوز الأراضى الزراعية فيها حدود شطآن النيل وجرائره . وعلى مدى أكثر من عامين عسكرت قوات متزايدة من الجند المصحوبين بعائلاتهم فى هذه الأرض الجرداء بينما نقصت القدرة الانتاجية للقبائل النيلية أولا بسبب سلوك الأنصار الفوضوى وثانيا بسبب التعبئة العامة . وخلال العام الأول الذى قضاه النجومى فى دنقلة اضطر لمطالبة ابراهيم محمد عدلان المشرف على الخزينة بإرسال غلال من أم درمان - وهذا

الاجراء كان مربكا بسبب صعوبات النقل • وتكرر نقص الأغذية في العام التالي (١٣٠٦) بصورة أكثر خطورة بسبب ضعف فيضان النيل • وفي أول ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٨٨٨) ذكر النجومى في تقرير له أن الجهادية عمدوا الى السلب والنهب بسبب ما كانوا يعانونه من نقص في الغذاء والكساء • وفشلت الانذارات والسجن والغرامات التى فرضها ضباطهم فى كبح جماحهم ومن ثم أرسل النجومى دوريات ليلية من الخيالة • وكان قد تلقى فى اليوم السابق كتابا من الخليفة ينبه عليه فيه بابقاء سواقي دنقلة فى حالة صالحة للعمل وألا يدرج فى قوائم التعبئة أكثر من رجل واحد من العاملين عليها •

ويبدو أن نقص الغذاء كان العامل الحاسم فى التحرك نحو مصر • وعندما أخطر النجومى فى نوفمبر بتعيين محمد الخير وعلى سعد لتعبئة القبائل النيلية اقترح بالنسبة لظروف المجاعة تحرك القوات الموجودة فى العرضى قبل وصول التعزيزات • وبناء على أوامر الخليفة عقد مجلسا فى أوائل يناير ١٨٨٩ لاعداد الترتيبات اللازمة للتحرك شمالا ، الذى مضى بعض الوقت قبل أن يتم : وسبب التأخير غير واضح ولعل مرجعه وصول يونس الديكيم لتسلم ادارة دنقلة ويبدو أن شهرى مارس وابريل انقضا والنجومى مشغول بتسليم عمله ليونس واعداد الترتيبات النهائية لتحركه هو شخصيا • وقد غادر دنقلة نحو الشمال فى ٣ رمضان (٣ مايو) وفى ٥ شعبان (١٠ ابريل) أرسل الخليفة أربعة مبعوثين بإنذارات نهائية للخيديوى والملكة فيكتوريا والمندوب البريطانى بالقاهرة • أرفق فيها عدد من الوثائق التى تثبت انتصار المهدي الأخير على الملك جون (يوحنا) ملك الحبشة •

وتحركات الحملة على الشاطيء الغربى للنيل وقبل أن تنتهى بقوات عبد الحليم مباشرة تسلم النجومى من الخليفة نسخة من كتاب الزاكي طلم فى وصف انتصاره على الأحباش فى القلابات • وبتأثير هذه الأنباء المشجعة تقدم الأنصار ولكنهم واصلوا تقدمهم بضمن فادح اذ لم يحصلوا على جرايات منذ مغادرتهم العرضى ، ومن ثم اضطروا الى التهام التمر

مديم النضج والمتصف بالمرارة وطحنوا نوى البلح وحتى دواب النمل التي حملت متاعهم التهموها - وساروا يحدوهم الامل فيما ينتظرهم من ترحيب أهل القرى المصرية بهم ومساعدتهم لهم وهم في طريقهم الا ان نكسة محزنة كانت في انتظارهم .

وصل الأنصار الى مدى الرؤية من الأعداء لأول مره عندما عسكروا في ٢٨ يونيو في معتوقة على الضفة الغربية جنوب وادى حلفا . واعتزموا التقدم من هذه النقطة الى بنبان الواقعة على بعد ٢٥ ميلا شمال أسوان . وكان من المعروف أن بنبان من المراكز القوية التي يحتل أن يوجد فيها كثير من المتعاطفين مع المهدي . وذلك لأنها كانت مركزا لاقليم امتلا باللاجئين والتجار من دنقلة ممن حافظوا على اتصالهم بالحكام الجدد في وطنهم الأصلي . وقرر النجومي أن يتخذ حفاً لمسيرته وتقدمه طريق الصحراء مبتعدا تماما عن النيل حيث كانت مراكب الأعداء المسلحة بالمدافع تقوم بأعمال الدورية . وكان يأمل في أن تمد القرى الصديقة جيشه بالغذاء والماء .

وفي أول يوليو تحرك الأنصار من معتوقة وتابعت القوات المصرية والابجليزية الموجودة في وادى حلفا مراقبتهم وهم يشقون طريقهم في الصحراء حيث بلغ عددهم ما يقرب من ٥٠٠٠ محارب وأكثر من ٨٠٠٠ من الأتباع . وباتوا تلك الليلة في الصحراء ، وفي فجر اليوم التالي وصلوا قرب أرجين وهي قرية على مسيرة أربع ساعات شمال وادى حلفا . ولم بقابلوا هناك بأدنى ترحيب ولم يجدوا سوى مراكب العدو تقطع عليهم البحر وقواته ترسو على شطآنه لتقطع عنهم الماء . ولثلاثة أيام قاتل الأنصار ليشقوا لهم طريقا الى النهر . وفي ٤ يوليو استأنفوا رحلتهم الشاقة نحو الشمال . وفي ١١ ذى القعدة (١٠ يوليو) وصلوا الى بلاجة ومنها كتب النجومي للخليفة وليونس الديكيم واصفا ما عليه جيشه من حال يرثى له . فكثير من الأنصار ماتوا ومعظم الجهادية هجروهم الى الأعداء بما فيهم جميع رجال المدفعية وعددهم ٣٥ لم يبق منهم سوى ثلاثة . كما نفقت جميع الخيول ودواب الحمل تقريبا وترك جانب من

الذخيرة وجميع المدافع على الطريق عدا واحد بسبب نقص وسائل النقل وحتى تابع النجمي الخاص بحمل الماء هجره ، ولم يبق معه من حرسه الخاص سوى ثلاثة أو أربعة أشخاص .

وعسكر الأنصار في بلاجة لمدة ١٨ يوما وصل جرانفيل خلالها لتسليم القيادة . وفي ١٦ يوليو أرسل للنجمي رسالة يدعو فيه للتسليم أهم ما جاء بها : أكتب اليك هذا يا ولد النجمي لأعلمك أن قائدني الباسل وود هوس باشا أخبرني بتهجمك على الحدود فجئت لأرى بعيني الحالة الراهنة وعلى أثرى ألوف من العساكر البريطانية المصرية ... وكنت صممت على سحقك ومحو أثرك وأثر أنصارك عن وجه البسيطة بلا انذار ولكن عند حضوري الى هنا وجدت أنكم قوم مستضعفون مساكين تسوتون جوعا وعطشا . وأنا عالم بسوء حالك أنت وعالم أنك فريسة لغيرة ذلك الخليفة الكذاب الذي جعل ابن عمه يونس عاملا في مكانك ... وارسلت أنت والأعراب الذين يخشى شرهم لأنه يعلم أنكم ستهلكون بسرعة . وأنتم فيما نعلم ، طالبون بنبان وتظنون أن أهلها ينصرونكم فاعلموا أن بنبان تبعد عنكم مئات من الأميال وتفصلكم عنها مفازة طويلة لاماء فيها . بل هي ان وصلت اليها فانكم تلاقون فيها جيوشا بريطانية ومصرية متعطشة لشرب دماء الأعداء . وعليه فاذا تقدمت الى الأمام فأنت هالك لا محالة واذا رجعت الى الوراء فان جيوش حلفاء واقفة لك بالمرصاد واذا بقيت حيث أنت مت جوعا وعطشا . بهذا أدعوك الى التسليم لكي لا يموت العاجزون من النساء والأطفال فاذا سلمت سلمت أنت ومن معك من الأمراء والأعوان . وأما اذا أبيت التسليم فليس أمامك الا الهلاك (١) .

هذا الخطاب وما انبنى عليه من اثارة لأحاسيس الخوف والتمرد ، أتى برد فعل مخالف لما قصد به - فقد جاءت اجابة النجمي غير متوقعة .

« ... ونقول لك انا ما بعثنا من طرف السيادة الا لرعاية الناس .

(١) هذا والرد عليها موجود في مهدية / ١

والمسلمين وادخالهم في سور الرحمة والهداية أجمعين • وليس حضورنا الى بنبان فقط كما تقول ولسنا نقصدها بالذات بل المقصود بالذات الوصول الى جميع البلاد وادخال أهلها في الدين بسعونة الله رب العباد فمن صدق وآمن واتبع وسلم الأمر لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ومهديه (عم) وخليفته عليه الرضوان وسلم جميع ما كان معه من الأسلحة والجبائين آمناء على نفسه وماله وولده له مالنا وعليه ما علينا ومن خالف واتبع نفسه وهواه وأبى الا جماعا فالسيف حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو أحكم الحاكمين • هذا وأعلم أن جوابك المذكور وغيره من الأجوبة الواردة منك الى الاخوان الثلاثة أرسلت الى سيدى يونس مع أحد الرسولين ومنه الى سيدنا ووسيلتنا الى الله خليفة المهدي (عم) للاطلاع عليها وحضور الرد لكم من لدنه بما فيه الكفاية ...

... أما ما ذكرته من كثرة عساكرك وقرب وصولها .. فذلك لا يهولنا ولا يخيفنا بل لا نخشى أحدا الا الله تعالى « لو الثقلين الانس والجن فلقد كنا قبل هذا متربصين بكم وفائمين على جهادكم وشن الغارة عليكم وبما أن الله أخرجنا من ظلمات موالاتكم وقربكم فاعلم انا باقون على قتالكم وجهادكم واستئصالكم حتى لا ندع على وجه الأرض منكم داعيا ولا مجيبا أو يفوز بالشهادة من يفوز ويلافى الله تعالى فتحقق ذلك ولا تغتر بعساكرك ومدافعك ... وفيما سبق من اهلاك رجالكم ورؤساء دولتكم كهكس وغوردون وأشباههم مع كثرة جنودهم وعدتهم وعددهم كفاؤه فان أسلمت وسلمت جميع المدافع والجبخانات والأسلحة سلمت عليك أمان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومهديه (عم) وخليفته عليه الرضوان والا فهذا حجة عليك وذنبك وذنب من معك مطوق في ذمتك » .

وبينما النجومي في بلاجة تلقى إمدادات عوضته الى حد ما عن خسارته الأخيرة وأوصلت قوته المحاربة الى نحو ٣٣٠٠ مقاتل • وفي ٢٨ يوليو استؤنفت المسيرة الشاقة عبر الصحراء وكتب النجومي بذلك في اليوم السابق ما يحتمل أنه خطابه الأخير الى الخليفة • وبرغم كلماته الجريئة التي وجهها لجرانفيل نجد نعمة اليأس ترفرف على هذا الخطاب

الذى مكن عبد الله من التحقق للمرة الأولى من أن حكم دولة مهدية عالمية أمر بعيد النال . وفى خلال ال ٢٣ يوما التى بقيها الأنصار فى مصر لم يتصل بهم أحد سواء للانضمام لعقيدتهم أو للاشتراك معهم فى تجارة . واشترك جميع المصريين فى تعويق الأعداء سواء بمنع الغذاء عن الأنصار أو بحمل السلاح ضد السودانين ولم تصل منهم رسائل أو رسل أو معلومات - هذا اذا استثنينا أحد شيوخ العبادة الذى كان يلعب دورا مزدوجا . وأشار النجومى الى استحالة الاعتماد على المصريين الذين لم يقبلوا المهدية وهكذا لم يكن لما أشيع سابقا عما يطنونه من ايسان المهدية فى أعماقهم أساس من الصحة .

وجاءت النهاية فى ٣ أغسطس بجوار قرية توشكى على الضفة الغربية للنيل ، حيث حصل جرائيل هناك على نصر ساحق وحاسم . وحمل النجومى ذاته محتضرا بعيدا عن الميدان بعد أن جرح ثلاث مرات فى المعركة وأسر الجبل الذى حمل جثته بعد أن دافع عنه بشجاعة حفنة من رجاله . وهكذا ذابت الحملة المهدية ونقل الى المعسكرات المصرية الانجليزية أكثر من خمسة آلاف رجل من اللاجئين والأسرى . ومرة أخرى تكرر ما حدث بعد معركة جنس اذ توقع السودان تقدم القوة الانجليزية المصرية الى أم درمان .

ان الاتهام الذى جاء فى رسالة جرائيل عن تعدد عبد الله ارسال النجومى فى مهمة ميئوس منها ليقضى عليه وعلى القوة المقاتلة لأولاد البلد أمر شائع فى السودان الى يومنا هذا وهو سبب أساسى للغيوم التى تحيط بسمعة الخليفة لدى أهل بلده . ولعل هذه التهمة لها نصيب من الصحة فمن المؤكد أن النجومى لم يحصل بثباتا على ثقة عبد الله كما حصل عليها زملاؤه أبو عنجة وعثمان آدم بل وعثمان دقنة . ومن المحتمل أن عبد الله استطاع أن يتحمل صدمة القضاء على جيش أولاد البلد بفتور أكثر مما لو كان ذلك الجيش من البقارة أصحاب الراية السوداء . ومن ناحية أخرى فإن هناك ملابسات تبرر ما حدث . ففى عام ١٣٠٦ هـ مثل عام

١٣١٥ هـ عندما سار محمود أحمد ضد كشمش أخطأ الخليفة تقدير القوة المصرية الانجليزية وامكانياتها . ومن المحتمل أنه الى ما بعد موقعة العظيمة كان تقدير عبد الله لهم مرتبطا بما حدث لأسلافهم - هكس الذى فضى عليه مع رجاله من المصريين فى شيكان وغوردون الذى حوصر ثم أغتيل فى الخرطوم ، وتقهر بعثة الانتقاذ ، وانسحاب الحامية الشمالية بعد جنس ، والعمليات الفاشلة ضد عثمان دقته كما كان للخليفة عذره فيما توقع من ترحيب المصريين بالمهدية . ولعل المعلومات الخاطئة عن هذين الأمرين لا سوء النية المتعمدة هى التى أدت الى فشل الحملة . فالتقص الفادح فى المؤن الذى أدى الى انهيار معنوية البعثة وشجاعتها لم يكن نتيجة خطة وضعها الخليفة للقضاء على جيشه ذاته أو حتى نتيجة اهمال اجرامى من جانبه . فأحداث عام ١٣١٥ ترينا أن مشاكل الامداد تعذر التحكم فيها من قبل السلطات بأمر درمان . بل ان هذه المشاكل لم تتغلب عليها الجيوش الأوروبية بوجه عام حتى القرن التاسع عشر .

ولعل أفدح أخطاء الخليفة فى شأن هذه الحملة كان تعيينه ليونس الدكيم حاكما على دنقلة . وجرى تبرير التعيين فى الظاهر بأن يونس استطاع تسوية الخلافات بين مساعد والنجمي ، وهى الخلافات التى أعاققت تقدم الحملة . ولكن يتضح من خطاب الخليفة لعثمان آدم أنه عين يونس عاملا عموميا وكان أعلى مكانة من كلا القائدين الآخرين . ولقد أدى تعيينه الى علو نفوذ البقارة فى القيادة العليا لقوة تقوم أصلا على أولاد البلد . واختيار يونس لهذه المهمة يكشف عن افتقاد الحكم السليم لدى الخليفة - حيث أن سجل يونس فى القلايات لم يكن براقا بأى حال من الأحوال ولم تكن لديه الكفاءة اللازمة لمواجهة الموقف الحساس والخطير الذى وجد نفسه يواجهه فى دنقلة .

الفصل العاشر

السياسة والتطورات الداخلية بعد معركة توشكى

١٨٨٩ - ١٨٩٢

١ - الخليفة وسياسة تجديد الموقف في الشمال :

يبدو أن هزيمة النجومي الفادحة في توشكى كانت مفاجأة للسلطات المهدية في العرضى وأم درمان . ولعل اسراع الخليفة في اعادة تقييم سياسته وتعديله لها كلية خير ما يبرئه من تهمة تعمد ارسال الحملة عن عمد الى الكارثة التى حلت بها . وكما حدث عقب معركة جنس توقع الجميع في السودان ان انتصار القوات الانجليزية المصرية في توشكى سيتلوه تقدم مباشر صوب أم درمان . وقد بنى هذا التوقع على عدم ادراك للحقائق وان أدى هو والمجاعة التى اجتاحت السودان الشمالى في ذلك الحين الى تعديل كبير - وأن يكن مؤقتا في سياسة الخليفة . وقد اتصفت تلك السياسة الجديدة - التى ظهرت بوادرها منذ سبتمبر ١٨٨٩ بوجه عام بأنها تقوم على تهدئة السودانيين الشماليين المقيمين حول النيل . ومن مظاهرها الأخرى محاولة تحويل الطاقة الدافقة للجهاد الى السودان الشرقى وبذل جهد جاد لتحسين الوضع الاقتصادى مع تكوين رصيد من القمح والذخيرة على وجه الخصوص كأساس لا غنى عنه للعودة الى سياسة شن الحرب .

وكان رد الفعل المهدى الأول لهزيمة توشكى في اقليم دنقلة هو سحب القوات المتقدمة الى ساوادة في منطقة سوكون حيث وضعت تحت قيادة حمودة ادريس البقارى . وفى تلك الأثناء تدفق اللاجئون عبر الحدود الى مصر تدفعهم المجاعة وفقدان الثقة في المستقبل . وفى الأسابيع الخمسة التالية لتوشكى انتقل الى مصر أكثر من ٢٦٠٠ من سوكون ومحس وكتب كثير من الأعيان الى السلطات الانجليزية والمصرية ليعرضوا عليها

التسليم والمساعدة في إعادة سلطة الخديو . ووصلت بهذا المعنى رسائل من شيوخ سوكون ومن جارهم الجنوبى زبير دياب زعيم المحص الورائى ، ومن المناصر الذين يقيمون فيما وراء دنقله ، ومن شيوخ هؤلاء الجعليين الذين كانوا يقيمون في ذلك الحين في الشمال . وفي السودان الشرقى كتب القائد الدنقلاوى القوي محمد عثمان أبو قرجة لحاكم عام ساحل البحر الأحمر في سواكن معبياً عن أمله في تقدم القوات المصرية - الانجليزية .

وقد بالغت السلطات البريطانية في تقدير أهمية هذه الرسائل التي تدل على التعقل وعلق القائد العسكرى في مصر بسذاجة على ذلك بقوله « وهذا ينم عن الكراهية المتزايدة للحكم الحالى في ابسودان بدليل كثرة الشيوخ والعمد الذين يرغبون في العودة الى حكم سمو الخديو (١) » وما أن اتضح انعدام النية في التقدم الى داخل السودان حتى توقف سيل الرسائل والنداءات . ويبدو أن مؤشرات نوايا مصر وانجلترا قد وردت - ولعل هذا من قبيل السخرية - في بيان أدلى به الوزير المصرى مصطفى رياض قصد به التحريض على ثورة السودانين على الخليفة . هذا البيان ، الذى حملة الجواسيس الى السودان في أكتوبر ١٨٨٩ ، قارن بين ما تمتع به السودانين « من سلام تام ورخاء ، تحت الحكم الخديوى ، وبين حالتهم البائسة ... منذ بدء عصيان المهدي » . وبعد أن ندد البيان بزعماء المهديّة نسفكهم دماء المسلمين ومنع الحج هدد السودانين بمصير النجومى اذا ما سدرؤا في غيرهم . ولكن هذه الكلمات الحازمة انتهت بخاتمة ضعيفة وبخبريى غامض على الثورة ضد حكومة المهديّة . « ونحن نصحكم بالابتعاد عن هؤلاء الزعماء الذين ربما يخربون بلادكم ويرملون نساءكم ويبيتهن . أطفالكم في سبيل اشباع رغباتهم الذاتية » . ولم يقدم البيان أى وعد بتأييد مصر عسكرياً لمثل هذه

FFF (Frontier Field Force. Staff Diary and (1)
Intelligence report) 200, 2 Minute OF Maj. Jen. R.H.
de Montmorency dated 12 Oct. 1889.

الثورة اذا اثبتت - فقد جاء بالبيان : « ان صاحب المعالي الخديو المنصور أبدا رحيم برعيته أكثر من الأب لأبنائه • ورغبته الشديدة أن يرى بلادكم في أمان ورخاء • ولهذا السبب توقف عن استعادة بلادكم بالقوة لأن ذلك سيسبب اراقا الدماء والبؤس بينكم » (١) •

وبينما كانت نتيجة هذا البيان غير المقصودة هي عدم حفز اقتعاش ولاء السودانيين للخديو فان الخليفة كان يسعى بنشاط لاقامة علاقات أفضل مع رعيته المقيمين على المجرى الرئيسى لليل ؛ وحين كتب في ٧ محرم ١٣٠٧ (٣ سبتمبر ١٨٨٩) الى بعض الضباط الموجودين مع يونس الدكيم في دنقلة ذكر أن المجاعة هي عقاب الله الذى أنزله بسبب المظالم التى حدثت • « ان المجاعة عقاب من الله للظلم فاذا لم يقف الظلم واذا لم يكف الظالمون عنه واذا لم تطبق العقوبات الشرعية فسيقع بلا شك بلاء أعظم • اعملوا بقتضى هذا • امنعوا الجيش من التعدى والظلم وتخريب الزرع ودخول المنازل غير مسموح به » (٢) •

ومما يشبه ذلك أن الأنصار بدنقله منعوا في ٢٥ صفر (٢١ أكتوبر) من التعدى على المناصر الذين كانوا يتبعون بربر • وفي نوفمبر استدعى يونس الدكيم أحد شيوخ المحس الى دنقلة وبحث معه سبب سوء الحالة في بلده واستمرار الهجرة الى داخل مصر • وأعطى الشيخ تأكيدات بحسن معاملة المحس مستقبلا بحيث يعمل لهم كل ما يمكن عمله • وفي بيان للخليفة بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ١٣٠٧ (٤ يناير ١٨٩٠) ضد المظالم واقترافها أشير خاصة الى عدم شرعية تحصيل الرسوم في الأسواق على أيدي الأنصار • وسنشير فيما بعد الى ما جد على سياسة المصالحة من تطور وذلك بتشجيع التجارة مع مصر وتعيين موظفين من أولاد البلد • وفي خلال عام أمكن لهذه السياسة أن تؤتى بعض الثمار ، وذلك حين تحول اتجاه الهجرة الى الجانب المضاد • وقد تضمن تقرير رسمى

للمخابرات عن المدة من ١٤ - ٢٧ سبتمبر ١٨٩٠ زيادة عديدة في طلبات العودة الى السودان . وعلى العكس من هذا فان سياسة الخليفة في السودان الشرقى لقيت فشلا ذريعا بعد توشكى .

٢ - فشل الجهاد في السودان الشرقى :

أدى فشل جراهام في القبض على عثمان دقنة في عام ١٨٨٤ الى عدم حدوث تغيير في وضع الأنصار بالنسبة الى القوات المصرية الانجليزية التي كانت تتولى الدفاع عن سواكن وذلك حتى عام ١٨٩١ . وقد شاهد عام ١٨٨٥ خروج حملة أخرى غير ناجحة من سواكن . ذلك أن الحكومة البريطانية - وقد أثارها سقوط الخرطوم - تعاقبت على مد خط حديدى يربط سواكن ببربر ووضعت جراهام على رأس قوة تتكون من البريطانيين والهنود بالإضافة الى المصريين وكلفته بضمان « القضاء على قوة عثمان دقنة » . وعرفت المعركة التي جرت عقب ذلك باسم « معركة زربية ماكنيل » - وهى معركة دموية برغم قصرها نشبت في تاوفريك بين الأنصار والقوات التي كان يقودها السير جون ماكنيل والتي كانت تقوم بانشاء نقطة أمامية على الطريق الى تماى . حدث هذا في ٢٣ مارس وفي ٣ أبريل قام جراهام بهجوم آخر على تماى وتمنيب وفشل مرة أخرى في القبض على عثمان دقنة . ومن ثم تخلت الحكومة البريطانية عن مشروع غزو السودان خاصة وأنها لم تكن متحسسة لذلك منذ البداية . وهكذا تأجل مشروع مد الخط الحديدي وغادرت معظم قوات الحملة سواكن في شهر مايو .

ولم يحدث شيء هام خلال عامي ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ . وازداد نقص تعداد حاميه سواكن وان عززت استحکاماتها مع توالى محاولات الأنصار لاحكام الحصار من حولها . ولكن حرمان الأنصار من أى قوة بحرية أدى الى فشل جهودهم وان نجحوا في حصر نشاط القوات المصرية داخل نطاق الحصون بينما لم يمتد نفوذ الحكام البريطانيين العاملين لشواطئ البحر الأحمر مع ما لهم من ألقاب طنانة الى خارج سواكن ذاتها وحفنة من جزره والموانئ الواقعة على طول الساحل . ونما معسكر للأنصار

في هندوب على مرمى من مدافع مقر الحاكم العام بينما ظلت طوكر على دلتا الجاش تمثل القاعدة الرئيسية لعثمان ومصدره الرئيسى للمؤن •

وفي عام ١٨٨٦ بدأ يعرف اسم كشنر وتبرز مكانته • فقد عين في ذلك العام حاكما عاما لسواحل البحر الأحمر وخصص كثيرا من جهده لتقوية استحکامات سواكن • وفي ١٧ يناير ١٨٨٨ قاد هجوما على هندوب يحدوه الأمل في أسر عثمان دقنة وكان المهاجمون قاب قوسين أو أدنى من الفوز به وان تعرضوا لخسائر كثيرة وأصيب كشنر ذاته برصاصة في فكه • وهاجم الأنصار سواكن في سبتمبر ولكن الامدادات أرسلت من القاهرة وأمكن القيام في ١٨ ديسمبر بطاعة على الخطوط الأمامية انتهت بفك الحصار عن الحامية •

وقد أدى التكوين العنصرى المتباين لقوات المهديّة التي أحاطت بسواكن الى اضعاف فاعليتها • فعدم وجود تقارب فكرى بين قبائل البجة (أهل الرطانة) من جهة وبين من يتكلمون العربية من قوات الحملة الشرقية سواء أكانوا من البقارة أو أولاد البلد أو من الجهادية كان قد أدى الى وجود هوة عميقة بين الطرفين • وفي ربيع الأول ١٣٠٦ (نوفمبر ١٨٨٨) شكّا ضباط الجهادية للخليفة مما أصاب الجيش من تدهور بسبب نقص المؤن والسلاح والخلافات بين كبار القادة •

وفي ١٦ جمادى الأولى ١٣٠٦ هـ (١٨ يناير ١٨٨٩) أرسل الخليفة أربعة مندوبين من بينهم محمد خالد الذى استعاد الآن حظوته والظاهر المجذوب - لدراسة الموقف • ونقل المعسكر الى طوكر وزيدت القوات في ١٩ رجب (٢١ مارس) بفضل ما أرسل من تعزيزات تحت قيادة محمد عثمان أبو قرجة الذى كان مسئولا في الفترة الأخيرة عن القيادة في كسلا والذى أصبح مرؤوسا لعثمان دقنة • وأدى وصول أبو قرجة الى اضافة عامل آخر من عوامل عدم التناسق حيث أنه كان دنقلاويا من ذوى المكانة في المهديّة ، ومن ثم تجسّمت الخلافات بين البجة والعناصر العربية في المنافسة بين عثمان دقنة وأبو قرجة •

وقام المندوبون بتحقيق على أمام جميع رجال الحملة وذلك في ٢٩ رجب (٣١ مارس) وقدم الضباط بيانا بما يشتمل منه اشتغال ١٣ نقطة تدور كلها حول سوء استغلال الأموال والغلال المخصصة لتسوين القوات . وبرغم أن عثمان دقنة لم يهاجم شخصيا الا أن بعض الموظفين المالىين من المسئولين كانوا من أقاربه ونسبت المأساة الى سوء الادارة . وانهى التحقيق دون نتيجة بسبب المظاهرة المسلحة التى قام بها رجال قبائل البجة . وكتب عثمان دقنة الى الخليفة يخبره بأنه تجنب سفك الدماء .

وقد ازدادت المنافسة بين أبو قرجة وعثمان دقنة وضوحا منذ ذلك الوقت . ومع استمرار شكوى الأخير أمر الخليفة في ١٢ شعبان (١٣ أبريل) وكلاءه يبحث مشكلة العلاقات بينهما ولكنه في نهاية الشهر فرض تسوية ثبت عثمان دقنة بمقتضاها في قيادة الجيش على أن يكون أبو قرجة وكيله في الاشراف على الخزينة . ولكن سلطات أبو قرجة حددت بشدة وتقرر ألا يعمل الا بعلم عثمان ونصيحته في جميع الأمور ، واحتفظ الموظفون المالىون الذين سبق لعثمان دقنة أن عينهم بمناصبهم وكان على أبو قرجة أن يعمل بالتعاون معهم على أن يظلوا خاضعين لأوامر عثمان ويرجعوا اليه في جميع الأمور . وتقرر اعداد كشف حساب عن كل شهر على أن يعتمد عثمان ثم يرسل الى أمين بيت المال في أم درمان كي يعرضه بدوره على الخليفة .

وأطلق الخليفة يد عثمان دقنة في جميع الأمور الأساسية برغم بعض التحفظات التى وضعت لتلافي سوء استعمال السلطة أو انقاذا لماء وجه أبو قرجة . وبرغم ذلك فقد كان واضحا أن عبد الله أدرك أن لا غنى له عن عثمان في الشرق ومن ثم كان عليه أن يساعده . ومن ثم صرف النظر عن التهم والشكاوى التى وجهت ضد عثمان والمندوبين . وفي ٢٤ رمضان (٢٤ مايو) كتب الوكلاء تقريرا يفيد بانتهاء الأزمة رسميا وذلك بعد اعلان المصالحة التى تضمنت قبول أبو قرجة وكبار ضباطه وأوامر الخليفة . هذا هو ما كان عليه الموقف في شرق السودان عندما عرفت أنباء

هزيمة النجومي في توشكى بعد ثلاثة أشهر • وفي ١٦ من ذى الحجة (١٣ أغسطس ١٨٨٩) استدعى الخليفة عثمان دفعة الى أم درمان • وفي ٩ من محرم ١٣٠٧ (٥ سبتمبر ١٨٨٩) أرسلت تعليمات مشابهة لمحمد خالد ، فوصل لأم درمان في شهر أكتوبر حيث اتخذت قرارات سياسية اتضحت طبيعتها في الشهور القليلة التالية • ولم يعد محمد خالد للشرق ولكن عثمان خرج في شهر ديسمبر ومعه خطابات للقبائل تحثها على التعبئة • وكان هدف الخليفة هو انعاش الدعوة الى الجهاد في منطقة سواحل البحر الأحمر بهدف تشتيت انتباه السلطات الانجليزية المصرية فقد كان من المقرر أن يتقدم عثمان دفعة بقواته نحو ميناء القصير المصرى • وتضافرت الظروف على فشل هذه الخطة الجريئة • وقد بقى أبو قرجة بلا حراك خلال غيبة عثمان وشغل نفسه خفية بمراسلات مع سواكن تتم عن خيائته • فلم يكن متحمسا لمواصلة القتال ولكن الشراء والأرض التى حصل عليها خلال المهديّة أبقت على تبعيته للنظام ولو ظاهريا • وقد استدعاه الخليفة في ١٢ من شعبان ١٣٠٧ (٣ أبريل ١٨٩٠) وفي ١٦ فبراير ١٨٩٠ توفى الظاهر المجذوب أول حلفاء عثمان وأكثرهم نفوذا في الشرق • وبعد أن وصل عثمان ذاته الى كسلا لم يبد رغبتة للتقدم الى ما هو أكثر من ذلك برغم أن الخليفة أرسل له في مارس ومرة أخرى في مايو ليتعجل تقدمه نحو طوكر • وكان لديه من الأسباب ما بدعوه الى التوقف عن الجهاد لأن شرقي السودان كان يعاني اذ ذاك من قمة المجاعة العظوى •

وتابعت السلطات العسكرية الانجليزية - المصرية في كل من سواكن والقاهرة مجرى الأحداث بالسودان باهتمام • وغلب على فكر العسكريين البريطانيين نفاذ الصبر والسخط على الهزائم والفشل اللذين منوا بهما في السودان منذ عام ١٨٨٤ فكانوا متحمسين لاستعادة هيبتهم التى ضعفها الأنصار • وبرغم أن الفريق العسكرى حصل على تأييد قوى من جانب الرأى العام والصحافة والملكة فيكتوريا الا أن أفكارهم لم تجد حماسة من جانب بيرنج في القاهرة أو من قبل الحكومات البريطانية (م ١٤ - المهديّة)

المتعاقبة سواء أكانت حكومة أحرار يرأسها جلادستون أو حكومة محافظة يرأسها لورد سولسبرى . وكان الأحرار في رأى الشعب البريطانى هم الأكثر استحقاقا لسوم نتيجة لفشل حكومة جلادستون فى انقاذ حياة غوردون كما أنها كانت مسئولة من الناحية السياسية عن حملتى جراهام الفاشلتين ضد عثمان دقنة فى عامى ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ . وبرغم ان سولسبرى والمحافظين قد تولوا الحكم من أغسطس ١٨٨٦ الى أغسطس ١٨٩٢ الا أنهم لم يسيخوا سمعا لرأى العسكريين فيما يتعلق بشرقى السودان - ولو بصورة محدودة - حتى فبراير ١٨٩١ .

ولا شك أن الانتصار فى معركة توشكى قد أرضى السلطات العسكرية البريطانية حيث يمكن اعتباره الهزيمة الكبرى الأولى التى منى بها الأنصار على أيدي القوات المصرية أو الانجليزية وذلك رغم أنه لم يتعد كونه اجراء دفاعيا - وبرغم توقعات السودانيين لم يستقر الرأى على التقدم جنوبا بمحاذاة النيل . وبعد معركة توشكى بدأت السلطات العسكرية تمارس ضغطا مستمرا ومتزايدا فى سبيل التقدم فى المناطق المجاورة لسواكن ويظهر هذا فى المذكرات المرفقة بتقارير المخابرات المرسلة من سواكن الى القائد العام المساعد فى لندن . وترغم هذا الاتجاه هولده سميث، (Halled Smith) الحاكم العام لسواحل البحر الأحمر ، والسردار جرافيل (Grenfell) ودورمر (Dormer) القائد العام بمصر .

وقد صورت المذكرات التى أرسلت فيما بين أغسطس وديسمبر ١٨٨٩ اضمحلال قوة المهدية فى منطقة طوكر ورغبة القبائل المحلية فى عودة الحكم المصرى ، وعجزها عن التخلص من الحكم المهدوى دون مساعدة . وفى أوائل ١٨٩٠ برزت مسألة أخرى . ففى ذلك الحين كان التبادل التجارى مع القبائل المحلية مستمرا عن طريق سواكن . وأدى استيراد القمح الى التخفيف من الصعوبات التى ترتبت على المجاعة الى حد ما واعترضت الأجهزة العسكرية بشدة على هذه السياسة حيث أنها كانت بمثابة المساهمة فى اطعام العدو ، بينما نظرت السلطات السياسية

الى الأمر نظرة مخالفة - حيث كان من المرغوب فيه كسب مساعدة القبائل التي لم تلتزم بالمهدية التزاما كاملا . وبقي على كتشنر - باعتباره قائما بأعمال السردار في صيف ١٨٩٠ - أن يعمل على تعديل السياسة الرسمية . ففي مذكرتيه المؤرختين ١٩ يوليو ، ١٢ أغسطس لفت النظر الى أهمية هندوب باعتبارها سوقا للانصار ، والى كثرة هروب جهادية الحكومة من سواكن ، وأهمية قبح سواكن بالنسبة الى عثمان دقنة فيما يتعلق بتموين قواته استعدادا لمهاجمة مصر . وفي ١٢ أغسطس أغلق القائم بأعمال الحاكم العام ميناء ترنكتات الواقع تحت الادارة المصرية في وجه التجارة وبعد بضعة أيام أخرى منع خروج الغلال من سواكن بحجة اقامة محجر صحي منعا لانتشار وباء الكوليرا .

وأحرز هذا الاجراء نجاحا فوريا ومرضيا . وكتب كتشنر في مذكراته بتاريخ ٢١ سبتمبر : « يبدو أن ايقاف امداد الدراويش بالحبوب من سواكن تنفيذا لاجراءات الحجر الصحي (الكارنتينة) أدى الى النتائج المتوقعة ففرق المعسكر الموجود في هندوب بالاضافة الى أنه به قبيلة الهندوب (في الهندوة) الى أهمية الابقاء على علاقة طيبة مع الحكومة » (١) .

وجاءت مذكرة دورمر أكثر صراحة اذ جاء فيها ما يلي : أن الخوف من الكوليرا كان مفيدا على الأقل من احدى النواحي ، اذ أنه أمدنا بحجة لوقف السياسة الانتحارية الخاصة بالتجارة الحرة في الغلال و امداد الدراويش الثوار (دون الأهالي البؤساء المسالمين) بالغذاء الذي يمكنهم من مواصلة أعمالهم العدائية ضد الحكومة » (٢) .

وبينما أدى وقف الاتجار في الغلال الى الكمال الاثر الذي أحدثته المجاعة وهو جعل الجهاد في الشرق أمرا مستحيلا ، فان السلطات العسكرية كانت تبحث عن وسائل أخرى لاقتناع بيرنج وسولسبري بالسماح لها بالهجوم . وكانت هذه الحجة قد اكتشفت خلال شهرى فبراير ومارس عندما أثارت مذكرات دورمر وهولد سميث المخاوف من

الاحتلال الايطالى لكسلا • ومن ثم أرسل بيرنج لسولسبرى يزكى احتلال طوكر ولكن سولسبرى رفض المشروع • وتضمن تقرير المخابرات لشهر يونيو عريشتين أرسلهما شيوخ الهدندوة للخنديو والحقاكم العام يطلبون فيها ارسال قوة لاستعادة الاقليم وقد جاء فى العريشتين ما يلى : « بلغتنا الأخبار بأن الجيش الايطالى يتقدم بالتدريج نحو كسلا وعلى بلادنا ولكننا نرغب فى حفظ بلادنا للحكومة السابقة وليس لدينا سواها فى الدنيا » (١) •

وبعد تأمر كنشتر مع القائم بأعمال الحاكم العام فى أغسطس عاد درور وجرائيل الى الهجوم مرة أخرى وضعت رغبة الأهالى المحليين فى المقدمة ولكن أشارت مذكرة كتبها جرائيل فى شهر ديسمبر الى مرور المنوعات الى الأنصار فى ميناء تحت الادارة الإيطالية • وتابع بيرنج ، الذى تفاوض دون جدوى خلال الصيف مع ايطاليا بشأن الحقوق المصرية فى السودان ، ضغطه على سولسبرى للاستيلاء على طوكر وأخيرا أعطى هذا موافقته بتاريخ ٧ فبراير ١٨٩١ • وقد سبق هولاء سميت فى سواكن هذا القرار بسلسلة من التحركات ضد المراكز المهدية وتم الاستيلاء على هندوب فى ٢٧ يناير • وفى ٨ فبراير غادر هولاء سميت سواكن الى تركنات ومنها تقدم الى عفافيت ، التى كانت معسكرا للمهدين بجوار المركز المصرى السابق فى طوكر الذى تحول الى أطلال • ولم يقدر كل من هولاء سميت وبيرنج مدى قوات عثمان دفنة ، وفاجأ الهجوم الذى قام به الأنصار فى ١٩ فبراير القوة الانجليزية المصرية التى استطاعت رغم ذلك أن تلحق الهزيمة بالأنصار • وهرب عثمان دفنة واتجه مباشرة الى أم درمان - وبرغم الدور الذى سيلعبه فى الأعوام التالية من حكم المهدية إلا أنه فقد مكائنه ومركزه القديسين • وكان سقوط طوكر تنه لهزيمة توشكى التى حدثت قبلها بشمانية عشر شهرا - ويمكن أن نعتبر هذين

الحديثين معا دليلا على توقف الجهاد المهدوى . ومنذ ذلك الوقت كان على الخليفة أن يتخذ موقف الدفاع في وجه القوة المتزايدة للقوات العسكرية الخارجية .

٣ - المجاعة الكبرى وسياسة انخليفة الاقتصادية الجديدة :

سبقت الإشارة الى المجاعة الكبرى التي اجتاحت السودان ابتداء من عام ١٣٠٦ هـ وهى السبب الرئيسى لفشل الجهاد فى كل من شمال السودان وشرقيه . وقد شملت تلك المجاعة بضعة عامة المناطق التى تولى الخليفة الحكم فيها . وكان محصول عام ١٣٠٦ هـ (أواخر ١٨٨٨) سيئا ولم يصبح محصول الغلال كافيا الا فى أواخر ١٨٩٠ . وزاد الموقف سوءا فى بداية المجاعة بسبب وجود ثلاثة جيوش كبيرة اتخذت معسكرا لها فى كل من دنقلة والقلابات ودارفور . وقد أبلغ النجومى فى أوائل ربيع الأول ١٣٠٦ هـ (نوفمبر ١٨٨٨) عن سوء حال القوات الشمالية . ويبدو أن المجاعة تأخر موعدها فى الغرب اذ لم يشر اليها عثمان آدم قبل شهر ذى الحجة ١٣٠٦ هـ (أغسطس ١٨٨٩) . ولم تطرأ فى البداية صعوبات كبيرة فى المنطقة الواقعة بين القضارف والقلابات ولكن مشترى الحبوب بدءوا يأتون من المناطق المجاورة لشراء الكميات الموجودة .

هذه هى المشكلة التى واجهت أبو عنجة عقب عودته للقلابات فى ربيع الثانى ١٣٠٦ (ديسمبر ١٨٨٨) . فبينما كانت الحامية فى أشد الحاجة الى الغلال كان أهالى المنطقة يبيعون الغلال للتجار من أقاليم كسلا وسواكن وبربر . ومن ثم أصدر أوامره لجميع كبار المنتجين لى يحضروا غلالهم الى سوق القلابات بينما كلف صغار الزراع الذين كانت تعوزهم دواب النقل بجلب غلالهم للقضارف وثلاث مراكز أخرى . ومنع نهائيا بيع الغلال خارج هذه الأسواق .

وقد أمر الخليفة بايقاف هذه التعليمات . ففى خطاب تاريخه ١٦ من جمادى الأولى ١٣٠٦ (١٨ يناير ١٨٨٩) كتب لأبو عنجة يخبره بأنه كان من واجبه أن يطلع عبد الله فى البداية على مسألة بهذه الأهمية العامة . وكان الخليفة قد خول أمناء بيت المال فى أم درمان وكسلا باصدار تصاريح

لشراء الغلال - ومن ثم تقرر الاستمرار في البيع لحاملي تلك التصاريح على ألا يسح بيع أى شئ للمشتريين الذين لا يحملون تصاريح - فبعد كان الخليفة يخشى انتشار الشائعات عن منع نقل الغلال من هذه المناطق .

وقد تزايدت حدة المجاعة في فترة دقيقة بوجه خاص ، إذ أنها حدثت في الوقت الذي هاجر فيه التعايشة إلى أم درمان - إذ أن امداد قوافلهم بالمؤن أثناء مرورهم في كردفان كان يمثل مشكلة حادة ، وعندما وصلوا إلى أم درمان زودوا بغلال منخفضة السعر نسبيا . وزاد الموقف سوءا في أم درمان بسبب اندفاع سكان الضواحي البؤساء إليها هربا من التضور جوعا في قراهم ليتضوروا جوعا في العاصمة . ويذكر أورفالدر وسلاطين وشقير قصصا صارخة عن السودانيين وما أصابهم من مأس وأن يكن اللاجئين - وفقا لما ذكره سلاطين - هم الأكثر تعرضا لسوء الحال من سكان المدينة . وقد خفف جزئيا من حدة المأساة في العاصمة الغلال التي جلبت من الشيلوك بفاشودة .

وآدى اصرار الخليفة على الحصول على غلال لقواته المسلحة في أم درمان بأى ثمن إلى استقاط ابراهيم محمد عدلان المسئول عن خزينة بيت المال . وقد أثبت منذ خلف أحمد سليمان في أبريل ١٨٨٦ كفاءته العظيمة في إدارة الشؤون المالية ، وبرغم استغلاله لوظيفته إلا أنه تمتع بشعبية كبيرة لدى جماهير الشعب واستخدم تفوذه لحماية الفقراء من الأعباء المتزايدة التي تحملوها بسبب ما كانت تفوضه عليهم الطائفة العسكرية المتزايدة من تكاليف . ويبدو أنه أثناء حشد يعقوب وأن يكن من الصعب في غيبة الشواهد الوثائقية المباشرة تحديد العوامل الشخصية التي دفعت يعقوب إلى ذلك . ومن الممكن ألا يكون دور يعقوب في القصة أكثر من مجرد الناطق باسم التعايشة (بصفته القائد المساعد للراية السوداء) - وكان التعايشة - وفقا لما يذكره سلاطين - شديدي التحامل ضد عدلان .

وكان قد حدث نزاع بين عدلان والخليفة في عام ١٣٠٦ هـ جرد بعده أمين بيت المال من مكائته ثم حبس - ويبدو أن حبسه النهائي قد

جرى في جمادى الأولى سنة ١٣٠٧ هـ (يناير ١٨٩٠) - وذلك بعد انتهائه من جولة قام بها في الجزيرة لجمع الحنطة اللازمة للقوات الموجودة في أم درمان . وقد فشل في جمع ما فيه الكفاية لارضاء سيده لأنه أبى الاستيلاء على الغلال بالعنف والقسوة كما طلب الخليفة . وقيل أن يعقوب عيره بأنه ذهب في أجازة قضائها مع رجال قبيلته الخوالة ، والمغزى المقصود هنا هو أنه قدم الحماية لرجال قبيلته على حساب التعايشة . وهناك قصة أخرى تصور عدلان وهو يحدث الخليفة بأنه نفر قلوب رعيته بسبب محاباته للتعايشة ثم يقدم له استقالته من منصبه بسبب ذلك .

وأيا كانت تفاصيل النزاع فقد قبض على عدلان وحبس . واستطاع في حبه أن يرشو حارسه ادريس السائر حتى يسمح له بالعودة لمنزله ليلاً ، وهناك حرق أوراقه وخبأ ثروته . وبعد قليل من الأيام - ربما في أول رجب (٢١ فبراير) شق في السوق وقابل مصيره الأخير بكبرياء ، وشجعة كبيرين . وقد جرى اعدامه بصفة رسمية اذ أعلن عنه بنفخ النفير الكبير ، أمبايا ، وحضر الاعداد يعقوب على رأس الفرسان وكذلك الخليفة على بن محمد حلو . ولما لم يكن سبب سقوطه قد أعلن فقد سرت الشائعة في ذلك الحين بما كان من تبادل المراسلات مع مصر . ولا يوجد أدنى دليل على صحة ذلك ، فقد مات لأنه لم يستطع أو لم يشأ تقديم خدماته الكاملة لسياسة الخليفة القاسية بشأن ضرورة امداد أم درمان بالغلال بأى وسيلة من الوسائل .

وبعد سقوط عدلان وضعت الخزينة لفترة قصيرة تحت اشراف كل من محمد الزاكي عثمان والعوض المرضى والأول من التعايشة ولعله قصد بتعيينه ترضيتهم بينما وفر العوض المرضى الخبرة الفنية اللازمة لادارة الشؤون المالية - وكان قد سبق للعوض العمل ككاتب أول في كسلا تحت حكم المصريين . ولم يكن هذا الازدواج في الاشراف الا اجراء مؤقتا بدليل أن الخليفة أخطر عثمان دقنة في الخامس من شعبان عام ١٣٠٧ هـ (٢٧ مارس ١٨٩٠) بأنه قد تم تعيين النور ابراهيم الجيرايفاي أميناً للخرينة .

وكان النور من تجار الخرطوم أثناء الحكم المصرى ثم عين أمينا للخزينة المحلية ببربر ومن هناك استدعاه الخليفة وقد حدد اوان عمل له عقب وصوله لأم درمان في ١٦ من رجب (مارس) وهو تكرار الجولة التى قام بها عدلان في الجزيرة بحثا عن الغلال ومنحه سلطات كاملة على العمال المحليين بهدف جاب الحنطة لأم درمان وطلب منهم الطاعة التامة لجميع أوامره •

ويختلف العنف الذى اصطنعه الخليفة في الجزيرة عن الخطوات الاقتصادية التى اقترنت بسياسة التهدة التى اتبعها في الشمال حيث فتح باب التجارة مع مصر تخفيفا عن سكان دنقلة وبربر وتعزيزا لخزينة أم درمان • وشجع حدود ادريس ، بتوجيه من الخليفة ، سكان الأقاليم على التوجه الى وادى حلفا والاتجار معها بل وصل به الأمر الى حد امدادهم بمال من خزينة الأقاليم لشراء غلال وملابس وبهارات • وكانت المعلومات التى جاء بها مثل أولئك التجار مفيدة لقواد المهدي • وعمل الخليفة خلال هذه الفترة التى اتسمت بالحرية التجارية على منع تحصيل ضرائب فادحة من التجار القادمين من مصر • وتم تبادل البضائع المستوردة بالصنع العربى الذى كان حكرا لخزينة أم درمان • وعندما أصبح النور أمينا على الخزينة حاول ارغام التجار الذين دخلوا السودان من مصر على التوغل الى أم درمان حتى تستفيد هذه البئدة ماليا منهم وكان هذا الاجراء مضادا لرغبات التجار ودون شك ضد رغبات الأسواق الوسيطة في أبو حمد وبربر •

وقد لقي تخفيف حدة السياسة التجارية في الشمال مزيدا من التشجيع في أوائل عام ١٨٩٠ عندما أرسل محمد خالد (وهو دنقلاوى سبق له العمل بالتجارة) مع أمناء آخرين لدراسة الأحوال في أبو حمد ودنقلة ولاتخاذ اللازم نحو تشجيع التجارة • وسرعان ما لمس الناس ما ترتب على وجوده من أثر حسن • وقد استدعى في فبراير للاستشارة ولكنه عاد في أبريل ليشغل مركز يونس الديكيم باعتباره حاكما لدنقلة • وفي ذات الوقت عين الجعلى على سعد فرح على دنقلة ولكنه توفي في

طريقه اليها • وما حل شهر يونيو حتى كان أبو درجة في بربر وأن اقتسم
القيادة مع التعايشي عثمان الدييم — وبرغم ذلك فإن كل الدلائل في دست
الوقت دلت تشير الى أن الخليفة قد عدل عن سياسته التي دمت على
استئثار التعايشه واعوانهم وحدهم بالمراكز الكبرى • ففي المناطق الواقعة
على المجرى الرئيسي للنيل على الأقل استعاد « أولاد البلد » سلطانهم •

وانضح اتجاه محمد خالد نحو التجارة من خطاب أرسله الى تاجر
في صعيد مصر وعد فيه بحماية جميع التجار وصرح لهم فيه بالتصرف في
تجارتهم حيثما شاءوا مع تأمين عودهم لمصر (١) واستبدل حمودة ادريس
بأقدم قواد النجومي عثمان محمد عيسى الذي عرف باسم عثمان الأزرق
وهو دنقلاوى آخر • وقد تلقى تعليمات محمد خالد بتشجيع انتقال
التجار عبر نقطة الحدود في ساورده ، واعداد الترتيبات بحيث لا يستأنف
أى من الفريقين على جانبى الحدود القتال الا بعد اعطاء اخطار بذلك
أو مهلة مناسبة للفريق الآخر (٢) • وما كان تجار مصر لبغفلوا عن الافادة
من انفرص الجديدة التي منحت لهم — وجاء في تقرير عن شهر أغسطس
أنهم حصلوا — بعد سداد الرسوم التي فرضتها السلطات المهدية عليهم —
على مكاسب تبلغ ١٠٠٪ فيما يتعلق بالمنسوجات ، ٢٥٠٪ بالنسبة الى
الزيت ، ٣٠٠٪ بالنسبة الى السكر ، ٤٠٠٪ بالنسبة الى الصابون •

واتعشت التجارة أيضا مع سواكن ولكن المظهر العسكرى هنا كان
أكثر وضوحا • وبالإضافة الى تجارة الغلال التي اعترضت عليها سلطات
سواكن باعتبارها مسئولة عن امداد العدو بالمؤن اللازمة له لمواصلة
الجهاد فقد كانت هناك تجارة كبيرة في الرصاص وغيره من المواد الحربية
مع الحجاز (مع اعتبارها من المحظورات) بل ومع سواكن نفسها •
وتنبهت السلطات الانجليزية المصرية لذلك واكدت على انتعاش تجارة
الرقيق عبر البحر الأحمر لدفع ثمن هذه الذخائر • ومجرد الإشارة الى
تجارة الرقيق وانتعاشها كان ورقة رابحة لدفع السياسة البريطانية نحو

FFF, 233, 4

Ibid. 231, 2

(١)

(٢)

العمل • ولكن تصدير الرقيق من السوان في تلك الآونة كان محصورا في اضييق الحدود - فالسوق المحلي كان قادرا على امتصاص الكثير من الرقيق الموجودين كما أمر الخليفة ببيع تصدير الرجال وذلك لاحتياجه اليهم في الجهاد •

والواقع أن السلعة الوحيدة المصدرة التي أشارت اليها خطابات الخليفة لعثمان دقنة هي العاج الذي كان حكرا على خزائن المهدية • وفي ٩ من رجب عام ١٣٠٧ هـ (أول مارس ١٨٩٠) أبلغ الخليفة عثمان دقنة بأن عمر كيشة - وهو من تجار سواكن - قد أعطى له عاج خزينة أم درمان فسافر به لكي يبتاع بشنه ذخائر • وشدد خطاب آخر تاريخه ٩ من شوال (٢٨ مايو) على الأهلية العاجلة للحصول على البارود والتصدير وعين عمر كيشة ليقوم بدور مندوب بيع سن الفيل تحت اشراف عثمان دقنة • وأشارت مراسلات أخرى الى نفس الموضوع الى أن أوقف الاستيلاء على طوكر هذا النوع من التجارة السودانية ، التي ساهمت الى حد كبير طوال استمرارها في ملء مخازن أم درمان التي كانت خاوية •

وفي تلك الأثناء حاول الخليفة تشجيع انعاش الزراعة وكان هذا هو موضوع حديثه الى الضباط اللذين تجمعوا في عيد الأضحى عام ١٣٠٧ (أغسطس ١٨٩٠) وبعد سنة تخللها سقوط طوكر : أعلن في الخطاب الذي ألقاه بعد الاحتفال أنه لا يفكر في ذلك الوقت الا في السلام وأنه سيحافظ على هذه الخطة ما لم يتعرض للهجوم من الخارج • وبناء عليه تحتم على جميع شيوخ الأقاليم وأمرائها العودة الى قياداتهم حتى يولوا كل اهتمامهم الى تحسين زراعة أراضيهم (١) وأعاد الخليفة في العام التالي تأكيد حديثه السابق •

٤ - ثورة الأشراف ونتائجها :

لم يدم « لأولاد البلد » الوضع المتحسن المتمثل في تعيين محمد

خالد وعلى سعد وعثمان محمد عيسى وأبو قرجة الا لفترة وجيزة .
اذ بدت معانم المتاعب التالية في الربع الأول من عام ١٨٩١ . ففي خلال
هذه الشهور تهددت وضع الخليفة أخطار داخلية وخارجية . ففي الشرق
ضاعت طوكر ، وفي الشمال زار الخديو توفيق وادى حلقا في يناير
١٨٩١ وتلت ذلك في شهر مارس مناورات قام بها الجيش المصرى على
الحدود . واعتبرت السلطات السودانية هذين الحادثين بمثابة مقدمة
للغزو . وفي أم درمان وصل الخلاف بين عبد الله والغزالي أحمد خوفا
الى قمته وقبض على شيخ التعابشة الوراثة واحتجز في السجن لبضعة
أشهر بعد تحرك رجال قبيلته في أوائل ١٨٩٠ من أم درمان . وبعد عام
تقريبا أمكنه (أى الغزالي أحمد خوفا) الإفلات للغرب ولكنه طورد
واغتيل . وأثبت هذا الحدث عجز عبد الله عن الاعتماد على رجال قبيلته
فقد كانوا عبئا عليه أكثر مما كانوا عوناً له مما دفعه الى محاولة اربابهم
ثم مصالحتهم .

وسرعان ما طغت أزمة ثقيلة على هذه المشكلة . فقد خشي عثمان
محمد عيسى أن يقوم المصريون والانجليز بالزحف على ساوادة ولهذا
أرسل الى العرضى يطلب تعزيز قواته . وتصادف في ذلك الحين أن محمد
خالد كان متغيباً لأنه كان يقوم بجولة فأصدر نائبه مساعد قيدوم أمره
بارسائ امداد من أولاد البلد . وأثار هذا خلافا بين مساعد ومحمد الطيب
البصير قائد أولاد البلد . وعند عودة محمد خالد قرر الغاء أوامر
مساعد وأعطى تعليماته بإجراء استعراض عام . وقدم مساعد وعربى
دفع الله (الذى تولى قيادة الجهادية) شكوا مفادها أن البقارة والجهادية
غير راضين عن أجورهم وجراياتهم . وقد أهمل محمد خالد هذه
الشكايات ومن ثم أقسم المتذمرون على قتله هو وأولاد البلد واكتشف
أمر المؤامرة ولكن محاولات محمد خالد لعزل عربى ونزع سلاح الجهادية
باءت بالفشل . وكتب كل من الفريقين الى الخليفة شاكيا ووجه عربى
اتهاما خطيرا لمحمد خالد بأنه يضعف ولاء الجهادية ويفكر في الهرب
الى مصر .

حدث هذا في مارس عام ١٨٩١ - وأرسل الخليفة . وفقا للتقيد الذي جرى عليه في علاج مثل تلك الخلافات ، وكلاء عنه لدراسة الموقف . ومن الأهمية بـسكان أن أحد أولئك الوكلاء كان الحاكم السابق يونس الديكم - وقد وصلوا العرضى في شهر أبريل وأرسلوا كلا من عربى ومساعد الى أم درمان . وبدأ نجم محمد خالد في الأتول ثانية من الميدان بعد أن تسلم يونس قيادة الجهادية والبقارة . وبعد ذلك بوقت قصير ثم استدعاء محمد خالد - ورغم أنه غادر دنقلة دون أن يبدو ما يدل على عدم الرضى عنه الا أنه وضع في السجن عقب وصوله الى أم درمان . وعندئذ استعاد يونس صلاحياته باعتباره حاكما لدنقلة . ورغم ذلك كان الموقف في الاقليم أفضل مما كان عليه خلال فترة حكمه السابق . واستمرت عودة اللاجئين من مصر . وذكر في أغسطس ١٨٩١ أن عددا كبيرا منهم قد طلب العودة . وفي نوفمبر ١٨٩٥ طلب عدد من الدناقلة من ولـفريد سكاون بلنت (Wilfrid Scawen Blunt) - أثناء زيارته لوادى حلفا - أن يتوسط في مسألة السماح لهم بالعودة الى بلادهم - وجاء سرده للحادث شيقا : (وقد ذكروا لى أنهم سينالون « الأمان » هناك ، وأن الخليفة صرح بعودة اللاجئين وانهم يستطيعون استعادة أراضيهم دون عقبات وان حدة الاستبداد قلت عما كانت عليه ، وانهم سيكونون أكثر راحة هناك مما هم عليه هنا وان سكان دنقلة نقصوا كثيرا عما كانوا عليه بسبب استمرار الهجرة على مدى سبع سنوات من جراء المجاعة بحيث أصبحت الأرض متوفرة لكل الراغبين في العودة ... وأخبرونى بأن الخليفة يأخذ العشر نوعا ولكن البقارة المكلفون بالتحصيل من قبل الحكومة يستبدون خلال التنفيذ وأيضا أن أحدا لا يجازف باظهار ثرائه فكل زيادة في الثراء مصيرها الى بيت المال وان التدخل في شئون الناس قد توقف ما داموا قانعين بزراعة القليل من الفدادين والعيش على ما تنتجه . وان زادت أموالهم فما عليهم الا اخفاؤها تحت الأرض . وقد استطعت أن أفهم منهم أنهم يعتبرون استقلال بلادهم عن الحكومة (المصرية) ميزة طيبة بعد أن انتهى الظلم

الشديد الذى تعرضوا له « (١) » .

وفى أم درمان كان سخط الأشراف قد ازداد منذ الانهيار المفاجئ .
لمركزهم فى عام ١٨٨٦ - وقد وصل هذا السخط الى قمته فى نوفمبر
١٨٩١ - وكانت لهم طائفة كبيرة من المؤيدين المحتملين هم أولاد البلد
عامه وبخاصة الدناقلة العاملون على الأنهار والمستقرون على أرض
الجزيرة . وكانت شكاواهم متعددة - فقد أهين الخليفة محمد شريف
وجرد من المركز الذى اعتقد أنه حق له واهمل أولاد المهدي وترك
أرامله ليعشن فى ضيق وضنك وفقدت القبائل الدينية نفوذها السابق
وأصبحت بضائعها وأراضيها وأرواحها تحت رحمة البقارة عديسى
النظام . كما كانت لهم شكاواهم الاقتصادية (٢) فأراضى المزارعين كانت
عرضة للمصادرة بينما ارتفعت ضريبة الغلال - وهى عشر من الناحية
الاسمية - الى النصف وتدمر التجار بسبب الرسوم المتكررة التى كانت
تفرض على تجارتهم خلال نقلها . وشكا الملاحون من الاستيلاء على
بعض مراكبهم ومن الضريبة التى فرضت على الباقي واعترض أصحاب
الابل على الضريبة التى كانت تفرض على دوابهم بينما شكا المقيمون
بجوار النهر يوميا من الرسوم المفروضة على المعديات (أو ضريبة المعابر)
وكانت كل هذه الرسوم تؤثر على أولاد البلد أكثر مما تؤثر على البقارة .

ويذهب أورفالدر الى أن زج محمد خالد فى السجن هو الذى
عجل بقيام الثورة . وقد سبق ذلك خلال شهر أكتوبر عقد اجتماع
حضره الخلفاء الثلاثة وقاضى الاسلام أحمد على فى منزل أحمد شرفى
(جد الأشراف) . وقدم الخليفة محمد شريف احتجاجاته الصارخة التى
كادت تؤدى الى معركة بالأيدي ، ولكن أمكن فى النهاية التوصل الى

W S Blunt: My Diaries. pr 1, 1888 — 1900, (1)

201, London 1921

(٢) النقاط التالية وردت فى تقرير المخابرات - مصر (I. R. E) -
رقم ١ ، ٢ باعتبارها مسائل وعهد الخليفة بمعالجتها عقب مصالحته مع
الخليفة محمد شريف . وهناك احتمال بأنها كانت تمثل الشكاوى التى كان
أولاد البلد يأتون فى أن تعالج فى حالة حدوث انقلاب ناجح . ومن المحتمل
أنها ورد ذكرها فى رسائل بعث بها محمد شريف الى انتصاره .

مصالحة شكنية • ومع ذلك لم يغير أى من الطرفين موقفه • فقد أعدت مؤامرة لاغتيال عبد الله ولكن تم افشاء سرها على يد جعلى كان مشتركاً فيها • مما دفع المتآمرين الى التعجيل بتنفيذ خطتهم فاجتمعوا فى مدفن المهدي ومن حوله فى مواجهة منزل عبد الله وكان يتزعمهم الخليفة محمد شريف وفتحت مخازن السلاح السرية ووزعت الأسلحة على حين تنبأ أحمد سليمان بانتصار الأشراف •

وفى تلك الأثناء أمضى عبد الله أمسية الاثنين ٢٣ نوفمبر وليلته (١) فى تجميع القوات واقامة نطاق حول الشائرين • وكلف الحرس الخاص بحماية منزله ومنع وصول المؤن والتعزيزات الى الأشراف • وسليح التعايشة ووضعوا بين منزله وبين الأشراف بيتا أحتل يعقوب وأحمد فضيل المسجد بقوات قبلية وجهادية (٢) وما وافى الفجر حتى كان قد تم تطويق الأشراف ولكن عبد الله حاول تجنب الاشتباك لما قد يترتب عليه من خروج التعايشة عن طوعه وانتهازهم فرصة الموقف وتأزمه لنهب أم درمان والافلات الى دارفور - ومن ثم فانه شدد على قواته لمنع اطلاق النار كما أرسل قاضى الاسلام مرتين ليعقد اتفاقا مع الثوار ولكن الوساطة رفضت وحوالى الساعة العاشرة صباحا فتح الأشراف نيرانهم • وأجاب عليها رجال عبد الله برغم أوامره ولكن اطلاق النار من كلا الجانبين كان متقطعا غير منتظم ولم يتسبب عنه الا القليل من الخسائر • ومرة أخرى أرسل عبد الله وفدا من المفاوضين على رأسه الخليفة على بن محمد حلو وفى هذه المرة قبلت البعثة بالرضا واستمرت المفاوضات طوال الليل •

وفى يوم الأربعاء ٢٥ نوفمبر تم الاتفاق على شروط تعهد عبد الله

(١) يتبع هذا السرد تأريخ سلاطين وشقيير له • وجاء سرد الاحداث كما يصفه أورفالدر شديد الشبه بهذا ولكنه يذكر أنه لم تحدث اضطرابات حتى يوم الأربعاء •

(٢) كان أحمد فضيل منذ وقت قصير قد خلف فضل المولى صابون فى قيادة الجهادية •

يُتنبّدها وحلف على ذلك • وتقرر العفو الشامل عن جميع المشتركين في الحركة على أن ينال الخليفة محمد شريف كل مظاهر التكريم وفقا لمركزه ويخصص له مكان في مجلس الدولة كما يستعيد رأيه التي صودرت منه في سنة ١٨٨٦ ويسمح له بضم المتطوعين ، كما صرح له أيضا مع أبناء المهدي وأرامله بتلقى مبلغ شهري من الخزينة ، على أن يسلم الأشراف بدورهم أسلحتهم ويقدموا الطاعة الكاملة لعبد الله • ولم يوضع البند الأخير موضع التنفيذ إلا بعد صعوبات كثيرة ، وظل رجال انحرس الخاص والجهادية يحملون سلاحهم بالمسجد ليومين أو ثلاثة أخرى بعد توصل الخافاء الى مصالحه •

وقد قام الخليفة - وقد اطمأن الى زوال الخطر المباشر على سلطته بتحريات سرية • وبعد حوالي ثلاثة أسابيع قبض على سبعة من الأعيان الذين اتهموا بالاشتراك في الثورة وكان من بينهم أحمد سليمان واثنان من سكرتيري الخليفة • ولكي يبرر سلوكه هذا بعد العفو العام الذي أصدره استعان الخليفة بسلطة المهدي وبما نسب اليه من تعليمات أعطاه اياها في حضرة نبوية - واستعان في سبيل تعزيز تصرفه ببيان المهدي الصادر في ١٧ ربيع الأول ١٣٠٠ هـ • الذي منح عبد الله صلاحيات مطلقة • وتقل الأعيان السبعة بالباخرة في النيل الأبيض حتى فاشودة حيث، ضربهم الزاكي طبل حتى الموت •

وحينئذ بدأ الخليفة بوجه ضرباته الى قوات الخليفة محمد شريف وأعوانه وخاصة الجهادية والأشراف والداقلة بالجزيرة • وفي ١١ جمادى الثانية ١٣٠٩ (١٢ يناير ١٨٩٢) أشار أحمد السني وهو مندوب للخليفة في غرب الجزيرة الى الاجراء الذي اتخذ لاعتقال الجهادية الموجودين في منطقته في معتوق والكوّة وجزائر النيل الأبيض وأشار الى الترخيص الذي منحه له الخليفة محمد شريف لاعفائهم من كل تدخل في شؤون ممتلكاتهم • ولكنهم وضعوا في معتوق انتظارا لأوامر عبد الله وقبض أيضا على ستة من الأشراف في الجزر بينهم ابن محمود عبد القادر الحاكم السابق لكردفان والقائد المساعد لجهادية الخليفة محمد شريف •

وفي ٢٤ جمادى الثاني (٢٥ يناير) وصف احمد السنى كيف تم له
اعتقال الدناقلة بالكوة : « وعندما كنا فى بلدة معتوق خرجنا متجهين
مباشرة الى الكوة ليلا وبتنا فى العراء خارجها بعد أن أحكمنا
الحراسة على كل القرية ، دون أن يشعر بنا أحد . وبعد صلاة الفجر
نبهنا على جميع الرجال من سكانها بالخروج من منازلهم الى الساحة
الواقعة امام القرية وبعد ذلك امرناهم بالتفرق بحيث يكون رجال
كل قبيلة فى مكان واحد . وعندما تم ذلك أخطرنا الدناقلة بأننا امرنا
بالقبض عليهم وارسائهم الى سيدنا خليفة المهدي . وطلبنا منهم اذا كانوا
من الرجال المخلصين المطيعين أن يسلموا سلاحهم . والا فليذكروا ما يعن
لهم من قول . وكان هذا يا سيدى بعد أن وضعنا قدرا كافيا من الجهادية
المستعدين بسلاحهم . وعندما شاهدوا هذا المنظر المخيف أجابوا علينا
بالطاعة .. وفورا تم اعتقالهم ووضعوا فى الأغلال كما وضعنا عليهم
حراسة كافية . وعندئذ اتجهنا الى بقية القبائل وأعطيناهم أمان الله
ورسوله وأمان خليفة المهدي وأبلغناهم برضاكم عنهم وبعدئذ
قدمنا للدناقلة كشوفا مكتوبة ليدرخوا فيها جميع مستلقاتهم وقد أجابوا
كما هو مكتوب فى البيان المرسل لسيدى يعقوب فيما عدا الغلال بسبب
عدم علمهم بكميته حاليا ولما كان قاضى الاقليم حاضرا معنا فقد
صدق على بياناتهم بطريقة شرعية . وبعدئذ عينا عددا كافيا من الاخوة
الذين ذهبوا الى بيوتهم وأحضروا الأشياء التى كتبوها فى البيان المرفق
باستثناء قلة من المواد والأشياء والبيوت الخ .. . وجسيع هؤلاء الأشخاص
مع دوابهم وعبيدهم موجودون فى الكوة تحت حراسة مشددة فى انتظار
ما تصدرونه من قرار بشأنهم (١) .

وقد بقى الدناقلة منكودو الحظ محجوزين فى الكوة حتى شهر
رمضان (أبريل) عندما تقرر الافراج عنهم بعد مصادرة ثلث مستلقاتهم
لبيت المال . وقبل ذلك الوقت كان الخليفة محمد شريف نفسه قد

(١) نمرود شقير : طبعة بيروت ص ١١٦٨ - ١١٦٩ .

وثائق مزبدة ٩/١ ، ٣ ، ٢٠ .

جرد من آخر ما له من سلطة وألقى به في السجن • فبعد قليل من احتفال الرجبية الذى جرى في ٢٦ فبراير عقد اجتماع كبير في أم درمان حضره الأعيان أمر عبد الله بالقبض عليه • حدث هذا في ٢ مارس ١٨٩٢ - وسرعان ما صدر قرار بسجنه على يد مجلس مكون من قاضى الاسلام أحمد على ، ٤٥ آخرين من الأعيان يبدو أنهم كانوا جميعا ممن انضموا للمهدية في حياة المهدي • وطبع الحكم بمطبعة الحجر ووزع وكررت مسئولية الخليفة محمد شريف عن ثورة الأشراف ثم ما كان من مصالحته لعبد الله • وبعد ذلك جاء ذكر خروجه عن الطاعة لعدم أدائه صلوات الجمعة وعدم ممارسته الحياة العامة وفقا للمهدية ونظمها : « وبناء عليه اجتمع رفقاء المهدي ، قضاة الشرع الحنيف ، أمراء وعمد وأعيان وسألوه عن كل هذا الأمر وسبب نقضه للعهد • واعترف بكل شيء مقابلا إياهم بأقبح المقال وتفوه بما يؤدي الى سوء الحال •• حتى قال : ان الغوث معه وفي حزبه وأن نصرة المهدية تحت قدمه وان الصحابة اعترضوا على النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من سوء المقال ••• وما زالوا يراجعونه بالقول اللين الحسن وتلوا عليه منشور المهدي في خليفته والمنشور الذى وجه اليه خاصة وأمره فيه باتباع خليفته وعدم خروجه عن أوامره فعند ذلك أظهر التوبة والندم واقتضى نظر أصحاب المهدي طبق الوجه الشرعى وضعه بالسجن تأديبا له ولولا اظهار التوبة عما حصل منه لكان جزاءه أعظم من السجن ••• » (١) •

وبعد هذه الفترة عاد الأشراف الى ما كانوا عليه من عجز سياسى منذ سنة ١٨٨٦ - وبقي محمد شريف نفسه سجيناً حتى عام ١٨٩٦ ، ولم يفرج عنه الا عندما أقنع الغزو الانجليزى المصرى لدقلة عبد الله بأهمية مصالحة خصومه وتوحيد السودانين في وجه الخطر الخارجى •

(١) وثائق مهدية ٤٧/١ ، ١٠ ، ٢٢٤ •

الفصل الحادى عشر اوتوقراطية التعايشى ١٨٩٢ - ١٨٩٦

١ - الأحوال الداخلية :

تبدو السنوات الخمس التى مضت بين الاستيلاء على طوكر وتقدم كتشنر نحو ثقلة ، من الناحية التاريخية ، وكأنها فترة التناط أنفاس أتيحت للخليفة قبل أن يواجه ما اتخذ من خطوات ثابتة لاعادة احتلال السودان . أما بالنسبة للسودانيين فقد بدت بصورة مخالفة - فلم يحدث أن أحكمت سيادة عبد الله بقدر ما أحكمت فى السنوات التى تلت ثورة الأشراف ، فقد أمكن اذلال أقوى مراكز المعارضة - وبرغم أن الخليفة كان على استعداد تام فى أى لحظة لاستخدام العنف ارهابا لرعيته الا أن ضحاياه فى هذه الفترة كانوا أفرادا أكثر منهم قبائل كتلك التى ضغط عليها فى السنوات الأولى من حكمه . وعندما استفاق السودان بعد مجاعة ١٣٠٦ هـ الكبرى ، استرجع شيئا من رخائه خاصة بعد أن توقف سيل الحملات العسكرية الكبرى من الناحية العملية ونال حكم الخليفة جانبا من الرضا حتى من بين القبائل النيلية التى عانت كثيرا من السياسة التى سبق له اتباعها . واقتصر الخطر الذى هدد المهديّة فى تلك السنوات على الجانب الخارجى بعد أن أحاطت بالحدود حلقة من القوى الاستعمارية المتربة .

وسيطر على رأى العام البريطانى الاعتقاد بأن حكم الخليفة يمثل استبدادا غير محتمل وأن السودانيين تواقون للتخلص منه بمساعدة خارجيه . ولكن ادارة المخابرات العسكرية المصرية بدأت تتنبه وهى تحت اشراف الماجور (سير ريجنالد فيما بعد) ونجت بأن الأمور فى السودان لا يمكن أن تفهم بمثل هذه البساطة - وقد قدم شخص يدعى

مصطفى الأمين تقريراً واضحاً عن مجرى الأمور في ذلك الحين ، وأدمج تقريره في التقرير العام لإدارة المخابرات لشهر ديسمبر ١٨٩٢ (١) ومصطفى الأمين تاجر جعلى من أم درمان وهو رجل له بعض النفوذ ومن أقرباء قاضى الاسلام أحمد على . ومن ثم فانه كان على اتصال بالهيئة الحاكمة وان لم يكن لديه من الأسباب ما يدعوه الى الرضى عنها . وقد ترك تقريره احساساً قوياً بأمانته فهو لم يحاب الخليفة ولم يحاول الانزال من قدره كما أنه لم يحاول تقديم التأكيدات المعتادة عن ولائه السرى لحكومة الخديو وهو امتناع أكثر مدعاة للاهتمام ، حيث أنه كان يأمل بتقديم تقريره أن يضمن الافراج عن أخيه المحبوس في سجن سواكن .

وتقرير مصطفى الأمين له أهميته لأنه لا يرينا عهد الخليفة كمجرد عهد استبدادى لا تغيير فيه الا من حيث تفاوت مستوى العسف الصادر عنه وهو ما نستشفه من كتابات أورفالدر وسلاطين ، بل باعتباره حكماً يغير أسسه وأساليبه بمرور الزمن وتغير الظروف وهو حكم كان بالإضافة الى ذلك يسعى خاصة في تلك الحقبة بالذات ، للتخلص من عيوبه بحيث ينال مزيداً من رضا السودانيين . ولعل مصطفى الأمين كان يحتل مركزاً مرموقاً أو لعله كان مراقباً دقيق الملاحظة — وقد أيدت وجهات نظره تقارير المخابرات التالية كما أيدتها بمحض الصدفة عريضة الدناقلة اللاجئين في مصر التي قدموها الى بلنت في عام ١٨٩٥ والتي سبق الاقتباس منها في الفصل السابق .

وقد أوضح مصطفى الأمين أن الدولة المهدية قد تحولت في عهد عبد الله الى مملكة اسلامية عادية اذ أبدى الخليفة عزمه الصريح على أن ينتقل الحكم من بعده الى أكبر أبنائه عثمان . ومن ثم فلم يكن من المحتمل أن يغير موت عبد الله من الموقف حيث أن عثمان كان يستطيع أن يضطلع بمسؤوليات الحكم بمساعدة يعقوب . ولم تعد للخليفين

(١) IRE, 9, 6-9 كان نيويورك (Mahdia, 176) هو اول من أدرك مغزى هذا التقرير الذى لم يدع في حينه .

الأدنى منه مرتبة أى أهمية سياسية - فلم يكن « على محمد حلو » يتمتع
الابسلطة اسمية بينما تم توجيه ثورة الأشراف نوجيها سينا مما أتاح
لعبد الله تثبيت سلطته أكثر من ذى قبل وذلك بازاحة أبرز الساخطين •

أما عن العلاقة بين السودانين وحكومتهم فقد بين مصطفى الأمين
ما اتصف به حكم الخليفة فى البداية من عسف شديد حتى أن قبائل مثل
الجعلين كانت على استعداد للرجوع الى الحكم المصرى • ولكن الموقف
تغير بعد ذلك - اذ تم الاعتراف بتفوق البقارة وقضى على الانقسامات
الداخلية بينما كان الخليفة من جهة أخرى يسعى بشئ من النجاح الى
« اقامة نظام حكومى أكثر اعتدالا وشعبية » كما أصبحت الضرائب
الأساسية أخف وطأة مما كانت عليه فى عهد المصريين وان كان الخليفة
عرضه لأن يتقدم بمطالب فجائية يحتمل أنها زادت مجموع الضريبة الى
أكثر مما كان عليه قبل المهدية • وعلى كل فقد كان موقف السودانين ازاء
الضرائب يتميز بالتفاوت اذ أنهم وقد انقضى توقع عودة الحكم المصرى
وطنوا أنفسهم على التكيف مع الواقع •

وهكذا كان مصطفى الأمين يلس تزايد مساندة السودانين
بالتدريج للنظام الجديد ومن ثم حذر ونجت من أن أى غزو للسودان
تقوم به الحكومة المصرية سيقابل بالمقاومة من جانب نفس القبائل التى
كانت أكثر مطالبة بعودتها • وان مثل تلك المعارضة ستزداد مع الأيام •
وقد استقر البقارة المهاجرون فى أماكنهم الجديدة وتعايشوا سلميا مع
السكان الأصليين • وفى نفس الوقت نما شعور بأن أى تقدم مصرى
معناه محاولة المساس باستقلالهم وكان هذا الشعور على أشده فى
أم درمان وأضعف ما يكون فى أطراف أملاك الخليفة •

وقد أكد مصطفى الأمين تخلق عبد الله عن سياسة الهجوم على
الأقل فى ذلك الوقت ، واكتفائه بالدفاع عن ممتلكاته الكثيرة بدلا من
زيادتها • ولكن بازدياد تدعيم الموقف الداخلى كان من المحتمل العودة
الى الجهاد ، وذلك رغم أنه لم يكن من المحتمل أن تقوم مصر بالغزو
طالما هى واقعة تحت الاحتلال البريطانى • ومن جهة أخرى فان الخليفة

ما كان ليقبل تعرض حدوده للتهديد وقد عبأ قواته لمقاومة الاعتداء من جميع الجهات بل أنه اعترض على التجارة الخارجية وان سمح لنفسه في هذا المجال بالخضوع لآراء محمد الزاكي عثمان حاكم بربر الذي كان من جانبه مهتما بإرضاء الجعليين •

ويبدو أن تقرير مصطفى الامين يعطى صورة حقيقية للسوق في السودان خلال فترة الازدهار القصيرة للاوتوفاطيه التعايشيه • ومما لا جدال فيه أن حكم عبد الله كان مطلقا بالفعل وأنه كان في اساسه يعتمد على القوات الخاضعة له • وقد اتخذ الخليفة خلال تلك السنوات عدة خطوات لتأكيد سيادته فبدأ يتعد عن شعبه وبدلاً من حضور الاستعراض الذي كان يجري في يوم الجمعة وهو من الاجراءات الاولى التي اتخذتها الدولة المهدية المحاربة ومن أبرز مشخصاتها فانه انتهى بالظهور أربع مرات في الاعياد الكبرى عندما كان يخرج محاطاً بحرسه الخاص • وفي مرات أخرى أناب عنه يعقوب أو أخاه الآخر السنوسي احمد • وفي أوائل ١٨٩٣ بدأ في اقامة سور كبير حول الحي القائم في أم درمان الذي كان يضم منزله الخاص ومساكن يعقوب وغيره من الأعيان ومساكن حرسه الخاص • وقد بدأ بناء السور بفرض السخرة على سكان الجزيرة الذين أرغموا على الهجرة الجماعية للعمل في بناء السور خلال فترة التحارب من عام ١٣١٠ هـ • وفي ذات الوقت كان عبد الله يعزز حرسه الخاص بحيث يجعله قوة ثابتة قوية •

وفي الوقت الذي نشبت فيه ثورة الأشراف كان جهادية كارة أهم حاميات أم درمان على حين أن البقارة المهاجرين كانوا يساندون حكم عبد الله وأن يكونوا مثارا للشك •

ويبدو أن الخليفة قد شعر بعد ذلك الى حاجته الى قوة مسلحة أكثر ارتباطا بشخصه • ويرجع عدم ثقته في جهادية كارة - الى جانب عدم اتصافهم بالنظام بصفة عامة - الى أن معظمهم في الأصل كانوا يعملون في الجيش المصري القديم ومن ثم فولأؤهم مشكوك فيه في وقت أصبح من الممكن فيه حدوث اعتداء جديد من جانب مصر • وبناء عليه

فبرغم عدم تسريح جهادية كارة الا أنه ما لبثت أن حلت محلهم قوة « الملازمة » الجدد . وكان الملازمة في الأصل جماعة من المراسيل آثر من كونهم فصيلة عسكرية استخدمها الخليفة لوضع المشكوك في ولائهم من كبار الدولة تحت الرقابة . ولم تلغ هذه الجماعة وان زيد حجمها منذ عام ١٨٩٢ وأصبحت تشكل قوة للحراسة . ولم يأت عام ١٨٩٥ الا وقد بلغ تعدادها ٩٠٠٠ أو أكثر من ذلك (١) . وقد قسمت الى ٣ فصائل تحت القيادة العليا لعثمان بن الخليفة . ويبدو أن أقل من نصف الملازمة كانوا من الجهادية وغالبية هؤلاء كانوا من الرقيق الذي جيء بهم من فاشودة ومن حدود المقاطعة التي كان محمود أحمد يحكمها في الغرب . وكان الباقون من العرب الأحرار معظمهم من الغرب وأن يكن بينهم بعض الشبان الذين ينتسبون الى عائلات جعلية عريقة . ومنع انضمام الدناقلة والمصريين نهائيا اليهم . ونظم الجهادية والعرب كل على حدة . وادراكا من الخليفة لأهمية انتظام دفع الرواتب والجرية في المحافظة على ولاء قوات حرسه وروحها المعنوية أنشأ خزينة خاصة (بيت مال الملازمة) وخصص لها موارد الجزيرة .

وفي سنوات الأوتوقراطية التعايشية يبدو من الواضح أن شخصين آخرين غير الخليفة شغلا مركزين على جانب كبير من الأهمية وهما أخوه يعقوب وابنه عثمان . ولا شك أن كليهما لعبا دورا هاما في وضع سياسته وان يكن من الصعب جدا تقدير نفوذ كل منهما . وفي أرشيف المهديّة لا نجد دليلا على وجود من يشارك الخليفة سيادته . ويتضح لنا مما تبقى من أوراق يعقوب أنه كان مشغولا بتفاصيل الادارة . وفي بعض الشؤون المالية كانت ترسل صور من الأوراق له وللخليفة . أما عن مجلس العائلة الذي كان يعتقد في الغالب يوميا فلا يوجد لدينا سجل من أي نوع له . واذا كان قد تبقى شيء من أوراق عثمان فلا يحتمل أن

(١) قدر سلاطين (CRES 1895.) العدد الكلي للملازمة بتسعة آلاف . وفي كتابه النار والسيف ص ٥٢٤ يقدر العدد بما يتراوح بين ١١ الفا و ١٢ الفا .

تضيف شيئاً الى ما ورد في أوراق يعقوب فيما يتعلق بحقيقة وضعه في نطاق
الاولتوقراطية • ومن ثم فأننا مضطرون للرجوع الى الاشارات العابرة في
تقارير المخابرات وما رواه كل من أورفالدر وسلاطين ويوسف ميخائيل •
ولكن ما جاء في تقارير المخابرات والى حد كبير فيما كتبه أورفالدر
وسلاطين لا يضيف كثيراً الى الفكرة الشائعة عن يعقوب وعثمان •

أما يوسف ميخائيل فقد ادعى أن الخليفة استشاره في بعض
المناسبات • ولعله على الأقل كان في موقف يسمح له بالحصول على
معلومات من الدرجة الأولى • وكان في ذلك الحين كاتباً للرأية السوداء
وله مخبرون من بين مراسلي الخليفة •

ويتضح لنا من الصورة العامة التي جاءتنا عن يعقوب هو أنه شخص
قدير وحقود وماكر • وعليه تقع مسئولية اعدام موظفين كبار من أمثال
ابراهيم محمد عدلان ، والزاكى طمل وقاضى الاسلام أحمد • ودون أن
نحاول الحكم على شخصية يعقوب نجد أن بإمكاننا أن نجد فيه المثل
القوى لتفوق التعايشة • وبصفته وكيلاً للرأية السوداء كان يتولى
المسئولية الخاصة عن العناية بالبقارة المهاجرين وتوفير وسائل معيشتهم •
وفي الشهور الأخيرة للحكم المهدي تصادم مع عثمان بشأن معاملة أولاد
البلد ولعله كان له أثر سىء على عبد الله وأنه كان يشكل عقبة في وجه
تنفيذ السياسات الأكثر كرماً التي كان الخليفة يحاول تنفيذها من وقت
لآخر • وسواء أكان مرجع هذا الى سوء طبعه أو حقدده أو لمجرد ضيق
أفقه السياسى فانه يتعذر علينا الادلاء بحكم قاطع •

أما عثمان فهو أكبر أبناء عبد الله من امرأة تعايشية تزوجها قبل
المهدية • وكبكية أولياء العهد اندمج عثمان في شبابه مع صحبة سيئة
ودارت حول مغامراته الفاجرة قصص كثيرة ولكن والده قرر اعدامه
لوراثة العرش فتم نفي أعرأصدقائه الى النيل الأبيض وشهر به عبدالله
علنا في المسجد • ومنذ ذلك الحين بدا عثمان يتصرف بمزيد من التعقل
والحكمة واشترك بدوره في ادارة الأمور كقراءة التقارير الواردة من
الأقاليم والاشتراك في دورات تفتيشية بأمر درمان • وكان تعليمه وفقاً

للقايس العصر والمكان مناسبة وأظهر ذكاء واتساعا في الأفق خلال تناوله المشاكل التي أحاطت بحكومة أبيه في أواخر عهدها . ورغبة في تجنب آى عداة قد ينشب بين عثمان وعمه دفع عبد الله ابنه الى الزواج من بنت يعقوب . وقد أثبت هذا الارتباط قلة تأثيره اذ سرعان ما زاد التنافس بين العم وصهره . وقد أطلق الخليفة على ابنه عثمان في المرحلة التى تم له فيها الزواج أى حوالى ١٨٩١ تقريبا لقب « شيخ الدين » وكان له من العمر اذ ذاك نحو ١٨ عاما واشتهر بهذا اللقب .

وخلال هذه السنوات التى اتسمت بالسلام نسبيا حدثت ثلاث حوادث روعت سكان أم درمان وهى : اعتقال ثم قتل كل من القائد الكبير الزاكي طمل فى سنة ١٨٩٣ وقاضى الاسلام على فى عام ١٨٩٤ ثم خليفته الحسين ابراهيم ود الزهرا فى ١٨٩٥ . ومن الصعب بعد مرور هذه الفترة الطويلة من الزمن الكشف عن الأسباب الحقيقية التى أدت الى سقوطهم وان يكن محتملا أن الأولين فقدوا حياتهما ثمنا لتزايد نفوذهما وقوتهم .

فبعد انتصار الزاكي على الأحباش فى معركة القلابات استدعى لقيادة قوة تقرر ارسالها الى فاشوده لقتال الشيلوك ، غنمذ انسحاب كرم الله فى عام ١٨٨٦ لم تبق فى بحر الغزال أى حامية مهدية وعاش الشيلوك مستقلين تحت زعامة الملك عمر . وأثناء المجاعة الكبرى التى نشبت عام ١٣٠٦ هـ - أرسل الخليفة مركبين مشحونين برجاله لجمع الزكاة من الشيلوك ولكنهم رفضوا الاستجابة لهذا الطلب وان قبلوا ارسال ألفى أردب من الغلال كمعونة تنم عن الارادة الحرة . وعندما انتهت المجاعة قرر عبد الله ائزال عقابه بالشيلوك والاستيلاء على أراضيهم حتى يكسب لقدمه موزعا فى الجنوب ، وبذلك يضمن مصدرا هاما للغلال والرقيق . وغادرت «الحملة المنصورة» بقيادة الزاكي طمل أم درمان فى أواخر عام ١٨٠٣ هـ (منتصف عام ١٨٩١) ولم تعد الا بعد غيبة دامت أكثر من عام . وفى تلك الفترة قتل الملك عمر واكتسحت أرضه ولكن الشيلوك قاوموا الانتصار بعنف . ومع أن الحملة جلبت عددا كبيرا من الرقيق الا أنها فشلت فى تأكيد الاحتلال

الدائم للأقليم • واعترف الأنصار بشخص يدعى عبد الفاضل خلفا للملك عمر •

ومن أم درمان عاد الزاكي الى الحدود الحبشية • وبدأ مطمئنا الى رضا الخليفة عنه ولكن عبد الله ويعقوب تزايد شكهما في ثرائه العظيم الذي حصل عليه من الغزوات • وانتشرت شائعات فجوها ازماعه انشاء قوة من الأتباع واعتزاه اعلان استقلاله • أضف الى ذلك أن العلاقات توترت بينه وبين التعايشة في القسم الشرقي من قيادته • وبرغم أن عبدالله كتب في مارس ١٨٩٣ بقصد تعزيز سلطته الا أن هذا الخلاف لم يقو مركزه لدى الخليفة وأخيه • وفي نهاية زيارة قام بها الى أم درمان حيث عومل بكل ما يليق بالأمرء من تكريم قبض عليه وأرسل فورا الى السجن حيث ألقى في كوخ حجري محكم الغلق وترك ليموت جوعا •

وفي مايو ١٨٩٤ اعتقل أحمد على قاضي الاسلام وقذف به الى السجن • وقد استطاع خلال الاثنى عشر عاما التي مارس فيها منصبه الحصول على قسط كبير من الثروة ، وبعد اعتقاله صودرت جميع ثروته ومات في السجن (١) وخلف أحمد على في وظيفة قاضي الاسلام الحسين ابراهيم ود الزهرا الذي كان المندوب الأكبر للمهدى في عام ١٨٨٥ ، عند تسليم كسلا • ولم يدم شغله لهذه الوظيفة الا فترة قصيرة وجاء سقوطه في عام ١٨٩٥ بسبب صلابته واصراره على تنفيذ مبادئ الشريعة التي

(١) نفهم من سلاطين (النار والسيف ص ٥٧٥) بأن اعتقال احمد على قد تم في ٢٠ فبراير ١٨٩٥ اى قبل مغادرته لأم درمان بأيام قليلة ولكن هذا الاعتقال لم تعلم به القاهرة الا في يونيو ١٨٩٥ (11 E, 27, 2) وذكر انه تم بناء على أمر الخليفة في ٢٤ مايو ١٨٩٤ وهناك مصادر أخرى لنسب الاعتقال في تقارير المخابرات السرية فيما بين هذا التاريخ وهرب سلاطين وبالإضافة لذلك فان سلاطين في كتابه النار والسيف ص ٥٠٥ يؤرخ للاعتقال بموعد سابق لوصول انباء سقوط كسلا لأم درمان • أما شفير (تاريخ ح ٣ ص ٣٦١) فيحدد شهر يونيو ١٨٩٤ تاريخا لوفاته •

درسها بالأزهر (١) ومات هو أيضا في السجن (٢).

(١) شقير (ج ٣ ص ٥٦٢ ، ص ١١٨٠) طبعة بيروت يكتفى بذكر « أنه وقف عند حد الشرع - وقضى في عدد مسائل على خلاف ما أراد التعاشي » .

شبكة : السودان في قرن ص ٢٥٦ وقد جاء فيه ربما اعتمادا على روايات شفهية أو دكریات « انه كان ذا رأى مستقل في تطبيق الشريعة وكان لا يعمل بالمشورات اذا تعارضت نوعا ما معها بما امر المهدي نفسه بذلك . ولكن أصبحت للمشورات فداة في آخر حكم المهدي لا يسلم من يعمل بغيرها وتشد في موقفه ازاءها حتى سيق الى السجن ومات فيه صبرا » .

ولعل اشمل سرد للأحداث المتعلقة بالحسين وسقوطه اعطى بواسطه يوسف ميخائيل « وصلت حالة معقدة من دنقلة تتعلق ببعض الانتصار الدين ظلموا بعضا من رجال دنقله . فتقدموا بشكوى عن حقهم لقاضي دنقله فأحالها هذا الى قاضي القضاة في أم درمان . وفاضي العموم ود الزهرا كان رجلا متقدما في السن ودارسا للشريعة وعندما عرضت القضية توجه الانتصار للأمير يعقوب حتى ينه على القاضي بالحكم لصالحهم وارسل الأمير يعقوب للقاضي ود الزهرا قائلا « الحالة الخاصة برجال دنقله ونزاعهم مع الانتصار لا تصدر فيها حكما ضد الانتصار بل اصرفهم دون تغيير للوضع » فاجاب القاضي : يا سيدي يعقوب أنا رجل أتبع الكتاب والسنة ولا احيد عن الحق ولا احشئ لومه لأنم فيما يتعلق بالشرع ولكني احكم ونفا للحق المقبول » ثم قام غاصبا من مجلسه فاستشاط الأمير يعقوب غضبا وقال : « ان القاضي الحسين ود الزهرا قد انحرف عن الاسلام ويجب أن يموت » وذهب الى الخليفة المهدي قائلا : « ان الحسين ود الزهرا انحرف عن الاسلام في حضور عدد من الانتصار وأمام القاضي حسين ود جيزو الحمري وفي الحال جاء بشهود شهدوا ضده بأقوال باطله وحبس في الحجرة المربعة التي مات فيها القاضي أحمد علي .

(٢) من الصعب التوفيق بين التقارير المتضاربة عن شغل المنصب بعد سقوط أحمد علي . فالتقرير الخاص بعزل أحمد علي في مايو ١٨٩٤ (IRE, 27, 2) يذكر ايضا ان خلفه كان سليمان الحجاز ويمل محكمة

أم درمان وتأكد هذا في تقرير تال كما اكده روسنيولي (Rassinoli) الذي هرب من أم درمان في اكتوبر ١٨٩٣ (Ibid, 52, 10) أما سلاطين الذي هرب في فبراير ١٨٩٥ ، فيذكر ان الحسين ابراهيم ود الزهرا قد خلف أحمد علي . وفي (GRES "1895" 11) المكتوب في ابريل ١٨٩٥ يذكر سلاطين ان الحسين استبدل بسليمان وألغى لقب قاضي الاسلام . وفي كتاب « النار والسيف ص ٥٤٥ الذي كتب غالبا بعد اكتوبر ١٨٩٥ ذكر سلاطين ان الحسين كان لا يزال يشغل منصب قاضي الاسلام ولكنه غير مرضى عنه وقد استخلص هذا من تقرير جاء في (IRE, 38) .

ينسب ما فقدته من ثقة الى ما كان من هروب سلاطين ووفقا للمرجع =

وبخلاف هذه النوايب التي لحقت بكبار الضباط فقد كانت هناك تطورات تستحق الذكر في الأقاليم الوسطى خلال السنوات الخمس التي أعقبت ثورة الأشراف . ففي الشهور الأولى لعام ١٨٩٣ وردت تقارير عن نشوب ثورة في جنوب كردفان تهدد سلامة الخليفة ، وإن اتضح أن الأمر كان مبالغاً فيه . وفي عام ١٨٩٤ ، ظهرت أزمة نقدية ولعل سببها مرتبط بتزايد التجارة الخارجية مما أدى إلى تصدير البهارات . فقد تزايد هبوط العملة السودانية منذ وفاة المهدي . واستمر تزييف العملة برغم العقوبة الشديدة المترتبة عليه . ورغب الخليفة في إدخال ريال جديد يمكن استعماله في المبادلات الخارجية . ومن ثم يعوض النقص في المجيدي التركي والريال النمساوي . وأخذ شخص يدعى وقيع الله المحسى على عهده أعداد قالب لا يمكن تقليده ولم يأت يوليو ١٨٩٤ حتى كان ريال وقيع الله قد نزل إلى السوق ولكنه لم يكن أسعد حظاً من سابقه . وقد فوجئ الخليفة في أحد الأيام عند دخوله للمسجد بقصاصة من ورق موضوعة في المحراب وتحمل الكلمات « يا غبي أنت تستخدم عملة مصنوعة من حديد » .

وبناء عليه عقدت جلسة خاصة لتنظيم وضرب النقود وسحب التكليف بضرب النقود من المختصين الذين تولوا أمرها سابقاً وأعطيت بناء على أمر الخليفة للنور إبراهيم الجيرفاوي (الذي خلف في أمانة بيت المال العوض المرضى) وعبد المجيد عبد الله .

وفيما بين أكتوبر ١٨٩٤ وفبراير ١٨٩٥ نزل ريال جديد للسوق وهذه « العملة الجديدة » كانت أسوأ من العملات السابقة واستبدلت

= السابق (Ibid 41) فان عزل الحسين وحجسه جاء قبل أكتوبر ١٨٩٥ ببعض الوقت نتيجة خلاف ترتب على طرد يونس الديك من دنقله . وقد استدعى يونس في يونيو ١٨٩٥ . ومن المحتمل أن سليمان عمل قائماً بأعمال القاضي بعد سقوط أحمد على بينما تسلم الحسين الوظيفة في أواخر سنة ١٨٩٤ . وبعد شهور قليلة مارس فيها سلطته سجن وقتل وذلك في يوليو أو أغسطس سنة ١٨٩٥ على وجه التقريب . والمرجع السابق (Ibid 41) يذكر أن هذا حدث قبل نهاية عام من تاريخ تسلمه للوظيفة .

الريالات السابقة بالريال المجيدى بأسعار تتراوح بين ضعفين ونصف الى ثلاثة أضعاف وثلاثة أرباع ، بينما استبدلت العملة الجديدة بواقع ٨ لكل مجيدى واحد .

٢ - الحدود الشمالية والشرقية :

أدى تعيين يونس الديكى من جديد حاكما لدققله فى سنة ١٨٩١ الى استئناف جزئى للقتال على الحدود التى كانت فى حالة سكون خلال عهد محمد خالد . وعموما بقيت الحدود مفتوحة بصورة طبيعية للتجارة ولم تجر أى محاولة ثانية لغزو مصر وان تخللت هذه الفترة بعض غزوات نزل فيها الأنصار عادة على قرى غير محصنة وعادوا منها بما اغتتموه . وقد قاد الكثير من هذه الهجمات المحارب الجرىء عثمان محمد عيسى . وفى ابريل ١٨٩٢ ، هاجم صرص وفى الشهر التالى قام بهجوم شمال وادى حلفا .

وأهمية هذه الغزوات وما تلاها تكمن فيما سببته من متاعب أكثر من كونها عمليات حربية ذات قيمة وان تكن اثنتان منها على وجه الخصوص تستحقان الذكر . ففي يوليو ١٨٩٣ خرج عثمان محمد عيسى من الصحراء على رأس قوة تتألف من ٣٠٠ - ٤٠٠ رجل واحتل لأربعة أيام بلدة باريس فى الواحة الخارجية . وقد أدى هذا الى قلق السلطات العسكرية الانجليزية المصرية لأن باريس نقطة تقع فى داخل الدولة المصرية وعلى الطريق القديم المعروف باسم درب الأربعين الذى يصل بين دارفور وأسيوط . وهى تقع على بعد ٢٣٠ ميلا من صرص النقطة العسكرية الواقعة على حدود مصر وعلى بعد ١٩١ ميلا من أسيوط ، ١٤٥ ميلا فقط من اسنا . وقد علق القائم بأعمال السردار على التقرير بما يلى : « ان هذا الحدث المؤسف له بعض الأهمية لأنه يكشف عن السهولة التى يمكن بها اختراق جناح الحدود والخطر الذى يهدد المدن الكبيرة فى الصعيد مثل أسيوط وجرجا . الخ (١) واتخذت الخطوات فورا لتعزيز الدفاع عن باريس .

وشبهه بالجرأة التى تميزت بها هذه الغارة ما كان من غارة أخرى جرت فى نوفمبر ١٨٩٣ وقام بها عثمان عيسى فى صحراء النوبة ، ففى هذه المرة هاجم على رأس ٣٠٠ رجل الموقع الحصين الذى سيطر عليه العباددة بجوار آبار مرات فى منتصف الطريق بين أبو حمد وكورسكو . وقد هزم المهاجمون ولكن شيخ العباددة قتل أثناء القتال واهتزت معنويات الحماية الى حد كبير مما أدى الى ارسال قوة صغيرة من الفرق النظامية لتستقر هناك . ولعل غزو باريس والمرات كان بمثابة حركات كشفية اعدادا لهجوم كامل ولكن أحداث الحدود الشرقية حولت الأنظار عن هذا الاتجاه . وبالإضافة الى ذلك فان يونس الديكيم لم يكن من نوع الرجال الذين يتصفون بالكفاءة سواء فى ميدان الهجوم الشاق أو ميدان الصمود القوي . وقد بدا لرجال اقليمه رجلا شديدا ولكنه كان يعيش حياة خاصة لينة يمارس فيها « حياة مرحلة خفيفة » مع رجال حاشيته السود فى اجتماعات موسعة لتناول الشاي « مستهلكا فى كل منها ١٢ قرصا أو أكثر من السكر (١) وفى ٢ محرم ١٣١٥ هـ (٢٥ يونيو ١٨٩٥) استدعى هذا الايقورى على عجل الى أم درمان فغادر مقره وهو يرتعد فرقا . وفى ٦ صفر (٢٤ يوليو) أرسلت الخطابات لابلاغ أهل دنقله بتعيين محمد بشارة حاكما جديدا بدلا منه . وكان من أقرباء الخليفة وعمل تحت قيادة عثمان آدم (٢) الذى شابهه شجاعة وذكاء وأعيد حمودة أدريس الذى سبق أن عزله يونس الى نقطة الحدود فى ساوارده واستؤنفت الغزوات على الحدود المصرية حتى قبيل الهجوم الانجليزى المصرى .

وكمن الخطر المباشر على حكم المهديّة فى الحدود الشرقية - فهنا تزايدت قوة الدول الأوروبية بصورة واضحة . واستطاعت إيطاليا انشاء مستعمرة أريتريا على حساب الحبشة فى عام ١٨٩٠ ، واحتلت القوات الانجليزية المصرية طوكسر فى عام ١٨٩١ وحلت القضايف الآن مكان القلابات كمركز عسكرى فى القطاع الجنوبى . وفى شهر سبتمبر ١٨٩٣

أى بعد اعتقال الزاكي طمسل تولى القيادة هناك أحمد على المنافس القديم للزاكي . وفى ذلك الحين كانت كسلا المركز العسكرى للقطاع الأوسط ومحور الدفاع عن السودان بعد سقوط طوكر ، تحت قيادة حامد على شقيق أحمد . وكان الخليفة على علم منذ أمد طويل بالأطماع المتعلقة بهذا الجزء من أملاكه كما تلقى صحفا من مصر علم منها بأمر المفاوضات الجارية بين إنجلترا وإيطاليا بشأن الحدود الشرقية فى صيف ١٨٩٠ . وقد علق على ذلك محققا « بأن الناس لا يستطيعون مع الأسف التوقف عن تقسيم أرض لا يملكونها (١) » .

وفى عام ١٨٩٣ وجدت دلالات على أن عبد الله كان فى سبيل اعداد خطة للهجوم على طوكر وأرتريا . وأخذ عثمان دقنه - الذى اتخذ له قاعدة على نهر عطبرة - فى مهاجمة القبائل الموجودة بين هذا الخط والحدود الانجليزية المصرية . وفى شهر ديسمبر جرت عملية عسكرية بالغة الأهمية أدت الى توغل أحمد على فى داخل أرتريا حيث أصيب بكارثة - فقد هزم الأنصار فى اغوردات فى ٢١ ديسمبر وأصيبوا بخسائر فادحة وكان أحمد على نفسه بين المقتولين . وأعقب هذه الهزيمة تعديل لبعض القيادات العسكرية الرئيسية . فأرسل أحمد فضيل الذى خلف فضل المولى صابون (ربما فى سنة ١٨٩١) كفائه لجهادية كاره (٢) بامدادات الى الحدود الشرقية ليعمل مكان أحمد على . وخلفه على قيادة جهادية الكاره إبراهيم الخليل أحمد شقيق محمود أحمد الذى خلف عثمان آدم فى سنة ١٨٩١ كحاكم للغرب . وفى ذات الوقت حل مساعد قيدوم فى كسلا محل حامد على .

وعندما وصل أحمد فضيل الى كسلا نقل معظم القوة المهدية الى القضايف حيث تتوفر المؤن وبقي مساعد قيدوم فى كسلا بحامية قليلة العدد . وكانت الحالة المعنوية للأنصار فى الشرق قد تدهورت وفى شهر مايو ١٨٩٤ استدعى أحمد فضيل وكل قواته الى أم درمان ، مما

FFF, 246, 5; S, 121, 9.

(١)

(٢) نسبة الى جبل كاره .

أتاح للايطاليين الفرصة التي كانوا يترقبونها . فقد تم في ١٥ ابريل ١٨٩١ الوصول الى اتفاق انجليزى ايطالى اعترفت بقتضاء ايطاليا بمطالب مصر وحقوقها في السودان بما فيها كسلا على أن يسمح لها باحتلال كسلا مؤقتا اذا تطلب القتال مع المهديّة ذلك . وكانت الحكومة الايطالية منذ فبراير ١٨٩٤ تقترح القيام بالاشتراك مع السلطات الانجليزية المصرية بمحاربة الأنصار ولكن هذا الاقتراح رفض . وعند انسحاب أحمد فضيل قرر الايطاليون الاستيلاء على كسلا . وأخطرت الحكومة البريطانية بأن هذا العمل لا يمس أى مسألة تتعلق بالأراضى . وتم تنفيذ الهجوم في ١٧ يوليو بنجاح لحاسم وكان قد سبق لأحمد فضيل مغادرة أم درمان قبل الهجوم بثمانية أيام على رأس امدادات ولكنه فشل في العودة اليها في الوقت المناسب . وهرب مساعد قيدوم الى قوز رجب على نهر العطبرة حيث انضمت بقية قواته الى عثمان دقنه .

ووصلت الأنباء الى أم درمان بعد أسبوع ، وقد قلق الخليفة قلقا شديدا - فبسقوط كل من طوكر وكسلا على التوالي يكون الأوروبيون قد اخترقوا قطاعين من حدوده الشرقية . وأعقب ذلك اعداد حفل درامى لاعلان تصميم عبد الله على استعادة البلدة المفقودة . وركب الخليفة فى موكب عام محاطا بحرسه الخاص الى شاطئ النيل وقد اقتاد حصانه مندفعاً نحو الماء وشهر سيفه مشيرا به نحو الشرق ثم صاح صيحة الحرب « الله أكبر على الايطاليين » وعند عودته الى منزله عقد مجلسا ليقرر الخطوات التالية الواجب اتخاذها .

وبرغم نزوع الخليفة الى النضال الا أنه لم يتقرر الهجوم على الايطاليين . وقيل ان أقاربه أقنعوه بعدم الهجوم لأنهم خشوا حدوث ثورة اذا هزم الأنصار مرة أخرى . وكان فى حاجة الى قائد يركن اليه - فعثمان دقنه أكثر القواد الموجودين خبرة فقد طوكر ، وهروب مساعد قيدوم الأخير من كسلا آثار غضب الخليفة وعدم رضاه فأطلق عليه اسم « حليلة » (كما لو كان جارية) وأحمد فضيل شغل بسنازعات تافهة مع زميله النور عنقره . وفى هذه الظروف اقتصر ما اتخذته الخليفة من

احتياطات عسكرية على مجرد تعزيز خط العظبرة بشمانية آلاف رجل تحت قيادة عثمان دقنه وحامد على في قوز رجب والنقط الصغيرة في امسورى والفاشر . وأعدت قوة أخرى - ربما في حجم كل من القوات السابقة ، تحت قيادة أحمد فضيل لتعسكر في القضارف .

وقد احتفظت الحدود الحبشية في تلك الآونة بهدوئها . فبعد الفوضى التي أعقبت وفاة الملك يوحنا الرابع في سنة ١٨٨٩ ظهر منليك ملك شوا باعتباره أقوى الحكام الأحباش وأعلن نفسه امبراطورا . واعتبر الايطاليين أشد خطرا على حكومته من المهديين . وفي ١٨٩٣ ألغى معاهدة أوتشالي (ucciali) التي سبق له التوقيع عليها مع ايطاليا في ٢ مايو ١٨٨٩ بعد أن حاولت ايطاليا تفسيرها بحيث تسمح لها بالسيطرة على علاقات الحبشة الخارجية . وتوقعا منه لحدوث صدام بينه وبين الايطاليين بعث بمندوب مسلم اسمه محمد الطيب الى أم درمان برسالة شفوية مضمونها الحفاظ على السلام بين الحكومتين الافريقيتين . واتسم رد الخليفة عليه بالجفاف وعدم الترحيب « ... لسيد الأحباش منليك ن خبرك أن محمد الطيب الذي أرسل من قبلك طلبا للسلام وصل الى بلادنا وأبلغنا شفها برغبتك ألا وهي طلب السلام . والمذكور محمد الطيب عائد اليكم فاذا كنتم راغبين في السلام كما ذكر مبعوثكم فاكتبوا لنا بذلك كتابا رسميا عليه ختمكم تطلبون فيه ذلك حتى يمكننا النظر فيه واعطاءكم ردا شافيا والسلام على من اتبع الهدى (١) » .

وقد أرسل هذا الكتاب في صفر ١٣١٣ (يوليو - أغسطس ١٨٩٥) وبرغم لهجته المتعالية فان منليك استأنف مراسلاته في العام التالي . وقد وصلت بعثته الثانية الى أم درمان بعد أن تعدل الموقف الى حد كبير - فقد اتصر منليك في عدوة على الايطاليين واخترفت القوات الانجليزية المصرية الحدود الشمالية للسودان .

٣ - الجنوب :

خلال هذه الفترة برز خطر جديد سبق له الظهور هو التقدم الأوروبي صوب النيل الأعلى حيث كانت سيطرته المهدية أقل احكاما منها في بحر الغزال ، وحيث استمر أمين باشا على ادارته للاستوائية باسم الخديو برغم مضي زمن طويل منذ انتقال السودان الجنوبي لحكم المهدي . واستمرت قوات مصر محتفظة بالاشراف على النقط العسكرية حتى ودلاى وشواطىء بحيرة البرت .

وواجه أمين أزمة ساخنة في مايو ١٨٨٤ عندما تلقى رسالة من كرم الله بعد سقوط بحر الغزال يطلب فيها تسليم الاستوائية للمهدية . وكانت قوات أمين مبعثرة فضلا عما كانت تعانيه من نقص المؤن حيث لم تصل مراكب بخارية من الخرطوم منذ مارس ١٨٨٣ .

وكان لكرم الله حلفاء طبيعون في التجار والموظفين الدناقلة في الاقليم . وأملا في كسب الوقت أرسل أمين وفدا يعرض التسليم بشروط ولكن كرم الله رفض عروضه وبدأ يتقدم نحو لادو عاصمة الاقليم . وبناء عليه نقل أمين مركز قيادته الى دوفيلى الواقعة على النيل وقسم ما لديه من قوات الى فرقتين على أن تتولى الفرقة الأولى الدفاع عن القطاع الشمالى مما بقى من اقليم الاستوائية أى من دوفيلى الى الرجاف بينما تتولى الفرقة الثانية حراسة خط التفهقر من دوفيلى الى ودلاى . ولكن كرم الله انسحب فجأة بصورة غير متوقعة الى بحر الغزال حيث بقى .

وبقى أمين أكثر من عامين لم يتعرض له فيهما أحد الى أن وصلت الحملة التى نظمها ستانلى (H.M Stanley) لا تقاذه وسحب قواته . وتقابل أمين وستانلى على بحيرة البرت في ٢٩ ابريل ١٨٨٨ . وقرر الجند رفض الخروج من البلاد فمعظمهم جنوبيون لا رغبة لهم في ترك أوطانهم . وكان هناك أيضا نسبة من العرايين القدامى الذين لم يرغبوا في العودة (١٦ م - المهدية)

الى مصر (١) وحدث تمرد خلال غياب ستانلى المؤقت • وفى ١٨ أغسطس تم أسر أمين وجفسون - وهو من ضباط ستانلى - فى دوفيللى على يد قوات يقودها فضل المولى محمد الضابط السودانى • وفى هذه الآونة كانت هناك قوة مهدية جديدة تتقدم من الشمال • فى ١١ يونيو ١٨٨٨ ترك عمر صالح - وهو قائد جعلى نشأ فى شكا - أم درمان فى أسطول يتكون من ثلاثة مراكب بخارية ، وتسعة مراكب شراعية عليهما ١٥٠٠ من الأنصار • وقد وصل الى لادو فى ١١ أكتوبر وبعث برسله لدعوة أمين للتسليم • وقد أعدم الرسل فى دوفيللى على أيدي الثوار الذين قرروا مقاومة الأنصار • ووقع اشتباك فى الرجاف قتل فيه الأنصار حاكمها الذى اختاره الثوار • وأفرج عن أمين وجفسون اللذين اتجها جنوبا الى ودلاى ومنها الى تنجورو المعروفة باسم ماهاجى الواقعة على بحيرة اليرت • ولما فشل عمر فى الاستيلاء على دوفيللى انسحب الى الرجاف • أما ستانلى فعاد فى يناير ١٨٨٩ وتحرك فى ١٠ ابريل نحو زنجبار •

وهكذا تنازعت فئتان من أجل السيطرة على النيل الأعلى : الأنصار تحت قيادة عمر صالح وقاعدة عملياتهم فى الرجاف والقوات السابقة فى الجيش المصرى التى رفضت ترك البلاد ، وهؤلاء اتخذوا لهم فضل المولى محمد قائدا ، وفى نفس الوقت سعت الدول الأوروبية الى الحصول على محميات ومناطق نفوذ فى افريقيا الاستوائية • وكانت أعالي النيل من أكثر المناطق حساسية : فقبل المهدية كانت هذه البقاع الممتدة حتى البحيرات العظمى خاضعة للسيادة العثمانية والحكم المصرى • وطوال بقاء أمين بالاستوائية كان لمصر أن تدعى بحقها فى أعالي النيل • وأدى انسحابه الى تزايد النشاط الدبلوماسى الذى صاحبه كثير من التوتر بين الدول الكبرى • فقد اهتم الانجليز - بصفتهم الحكام الفعليين لمصر - بمنع أى دولة أخرى من السيطرة على منابع النيل ، وكانت هذه الرغبة

(١) أنظر كتاب المديرية الاستوائية للدكتور جميل عبيد ومنه يتضح أن الدافع الأكبر لرفض الجنود العودة لمصر دافع وطنى هو الحفاظ لها على أملاكها والحفاظ على تبعيتها ، وتبعيتهم لمصر والخشية من وقوعهم فى قبضة الاستعمار الانجليزى الذى كانوا له من الكارهين •

تحمّل في طياتها أطماعا استعمارية • وعن طريق شركة افريقيا الشرقية البريطانية (التي سجلت في عام ١٨٨٨ وان تأسست في تاريخ سابق لذلك بكثير) وبتشجيع من سير وليم ماكينون تزايد النفوذ البريطاني بسرعة في افريقيا الشرقية الاستوائية وأخذ في منافسة التوسع الألماني الاستعماري • وانهى السباق على هذا الاقليم بين بريطانيا وألمانيا باتفاق عقد في أول يوليو ١٨٩٠ اعترف بالمناطق التي تشتمل الآن على كينيا وأوغندا باعتبارها مناطق نفوذ بريطانية وأعلن أن هذه المناطق تمتد غربا الى مناطق تقسيم المياه الغربية وشمالا الى « أطراف مصر » وهو تعبير كان يعوزه التحديد • وأدى اتفاق آخر في العام التالي مع إيطاليا الى تأمين المصالح البريطانية في وجه الدول الاستعمارية الأخرى في المناطق الواقعة الى الشرق من النيل •

وعلى كل ففيمّا بين عامي ١٨٩٠ و ١٨٩٨ تزايد خطر التوسع الاستعماري البلجيكي والفرنسي صوب الضفة الغربية للنيل وبحر الغزال وكان ليوبولد الثاني ملك البلجيك قد أسس عام ١٨٧٩ جمعية الكنفو الدولية • وفي مؤتمر برلين (١٨٨٤ - ١٨٨٥) اعترفت الدول الأوروبية بسيادة ليوبولد الشخصية على دولة الكنفو الحرة التي كان البلجيكيون يديرون شؤونها في الواقع • وبعد ذلك بخمس سنوات كانت الكشف البلجيكية لحوض الكنفو الواسع واحتلاله لا تزال جارية • وقد وقع ماكينون ، الذي ساهم في تمويل مشروع ليوبولد في الكنفو في البداية اتفاقا في ٢٤ مايو ١٨٩٠ ، مع سلطات الحكومة الحرة تخلت بمقتضاه شركة افريقيا الشرقية لحساب الحكومة الحرة عن كل ما قد يحق لها في خط تقسيم المياه الغربي للنيل (١) وهكذا انفتح السبيل أمام البلجيك للتقدم نحو النيل الأعلى غربا في ذات الوقت الذي أغلق فيه في وجه الألمان شرقا • ولم يكن ماكينون يعمل باسم الحكومة البريطانية ولا مبرر لما ادعاه ليوبولد من أن لورد سالسبوري وافق على الاتفاقية •

وبرغم ذلك فقد ثبت أنها مفيدة لليوبولد في مجال المساومة فلم يتأخر في الاستفادة من شروطها .

ووصلت حملة بلجيكية الى ودلاي في ٩ أكتوبر ١٨٩٢ تحت قيادة ضابط يدعى ميلز (Mi'z') (١) الذي كان قد بعث برسالة في ٢٥ سبتمبر (٢) أبلغ فيها فضل المولى اعتراف مؤتمر برلين بحكومة الكنفو الحرة - وذكر ميلز أنه جاء لامتلاك حدودها الشمالية والشمالية الشرقية ، وكان مما جاء بالرسالة « ان الحكومة المصرية انسحبت تماما من السودان والاستوائية كما تعلمون وتخلت عنكم نهائيا . ولا أمل في احتمال عودة الحكومة المصرية الى الاستوائية أو أن عونا ما سيأتيكم منها فأنتم لا تتبعون أى حكومة وجلالة الملك (ليوبولد الثاني) يرغب الآن في التفاهم التام معكم على كل شيء ومعنى الآن خطاب يحمل ختم جلالته يدعوكم فيه الى طاعتنا . وبناء على ذلك ستصبحون مثلنا أى من موظفى حكومتنا » .

وقد قبل فضيل المولى الدعوة وفي ١٩ أكتوبر عقدت اتفاقية (٣) دخل بمقتضاها الموظفون المصريون والقوات المصرية سابقا في خدمة حكومة الكنفو الحرة وقبلوا الاحتفاظ بوظائفهم باسمها وأن يرفعوا علمها

(١) وكان القائد الأعلى هو كيرخوفن (G. Von Kerekhoven) الذى قتل في الطريق وللمزيد عن هذه البعثة وآثارها على تاريخ الكنفو انظر :

L. Lotar : La Grande Chronique de L'uele IFCR, XIV, 1946.

(٢) المهدية ، ٣٤/١ ، ٣ ، ٩١ . ويذهب لوتار (Uele, 136 - 7) الى أن الرسالة قد أرسلت في ١٥ سبتمبر . ويبدو بوضوح أن رسالة ملز ورسالة أخرى بعث بها ترجمانه الى فضل المولى (Mahdia 1 34. 11٥) تحملان تاريخ ٢٥ سبتمبر ويطلق لوتار على فضل المولى اسم فاتملولا Fatelmoula .

(٣) وثائق المهدية ٣٤/١ ، ٣ ، ٧٦ . هذا هو المصدر العربى الذى تحدث عنه لوتار في كتابه (Uel , 146) باعتباره مفقودا ويبدو أن لوتار يحدد تاريخا لهذه الواقعة فيما بين ٩ - ١٦ أكتوبر وكان هناك أيضا اتفاق تاريخه أول نوفمبر .
وثائق المهدية . ٣٤/١ ، ٣ ، ٨٠ .

ويطيعوا قوانينها وأصبح لقب فضل المولى بعد ذلك هو مدير خط الاستواء .

ولم يتمتع فضل المولى بهذا اللقب طويلا - فقد وطد الخليفة انعزم حينئذ على احكام قبضته على النيل الاعلى * وأرسل ابو قرجه في اواخر ١٨٩٢ ليتولى القيادة في الرجاف وان كان القصد من تعيينه هو ازاخته من الشمال حيث تزايدت مكائته ، وقد بذل محاولة جديدة للسيطرة على الجنوب * واتخذت خطوة أكثر جدية في محرم ١٣١١ هـ (اغسطس ١٨٩٣) ، عندما أرسل عربي دفع الله على رأس قوة تتكون من ٣٠٠ رجل في مركبين بخاريين وكان بين من نقلوا مع الحملة محمد خالد سجييا .

ووصل عربي الى الرجاف في ربيع الثاني (أكتوبر) وأرسل في الحال تقريرا سيئا عن ادارة أبو قرجه * فخزينة الاقليم أديرت بغير امانة ومعسكر القيادة العامة غير محصن والجيش تعمه الفوضى بينما لم تكن توجد رقابة كافية على المسجونين الذين أرسلوا للرجاف كما لم تتوفر لهم كفايتهم من التموين وقد عولجت جميع نواحي القصور هذه فنقل المسجونون الى جزيرة تحيط بها مياه ملينة بالتماسيح وبدأ عربي بعد ذلك في استعادة سلطة المهديّة على الاستوائية وأخضع اللاتوكا الذين كانوا يقيمون الى الشرق من النهر ، وأرسل ٣٥٩ من الرقيق الى أم درمان * وأشير الى تلك الغزوة في مجموعة من المكاتبات تاريخها ١٢ جمادى الثانية ١٣١١ هـ (٢١ ديسمبر ١٨٩٣) وفي ذات الوقت طلب عربي تخصيص ثلاثة مراكب بخارية لنقل البريد بين الرجاف وأم درمان * وازدادت مشكلة المواصلات شدة مع مضي الوقت .

وقرر عربي بعد ذلك الدخول في مواجهة مع فضل المولى فخرج من الرجاف في ٣ رجب ١٣١١ هـ (١٠ يناير ١٨٩٤) ليتقدم في بلاد الآزاندي حيث وجد أن فضل المولى قد تحرك فعلا في اتجاه النيل . فتبعه الى منطقة ودلاي حيث لحق به في ٢٢ رجب (٢٩ يناير) *

وفي المعركة قتل فضل المولى وسقطت أوراقه بما فيها المعاهدة

التي وقعت مع ميلز في يد عربي الذي أرسلها فوراً الى أم درمان مع بعض مظاهر نصره التي اشتلت على أربعة أعلام لحكومة الكونغو الحرة . ولخص عربي المعلومات التي حصل عليها بشأن الاطماع الأوروبية في الجنوب في تقرير جاء به « وعندما حكم الله على المتمرّد فضل المولى بالموت وجدنا في منزله عدة مكاتبات جاءت من حكومات المسيحيين مثل حكومة البلجيك والانجليز متضمنة أنباءهم وأهدافهم . وبين محتوياتها وجدنا خطاباً بالعربية يحوى معلومات عن عقد اتفاقية بين حكومة البلجيك وحكومة الانجليز (تقول) بأن الأرض الشرقية للاستوائية بكل حدودها تذهب الى دولة الانجليز بينما تذهب الأرض الغربية بكل حدودها الى حكومة البلجيك . وقد وصل القادة الحريون للحكومتين المذكورتين في الحقيقة الى قرب الأقاليم المتفق عليها - فالقوات البلجيكية توجد الآن في اقليم نيام نيام على بعد خمسة أو ستة أيام من حدود المهديّة . وقوات الحكومة الانجليزية موجودة الآن في تنجورو على شاطئ النيل الأبيض وجاء رحيل المتمرّد فضل المولى نفسه من الأزاندى واستقراره على النهر بناء على أمر من قائد القوات البلجيكية بالاستقرار بجوار دوفيلي كما أمره برفع علم المسيحيين هناك والاستيلاء على الاقليم قبل أن يتم استعداد الانجليز تماماً ومن ثم بدأت الخلافات . وقد سمعنا . . . أن أعداء الله المسيحيين يشيرون بأنهم جاءوا للاستيلاء على كل السودان من هذا الطريق بادعائهم أن هذا هو أسهل الطرق وأقربها الى بلادهم . ولما كان الأهالي هنا من الزنوج فيمكن خداعهم وخاصة أن الطريق ذاته يمر بوادي هذا النهر المتصل بأنهار بلادهم (١) » .

وقد قام عربي بعد انتصاره على فضل المولى بحملة ضد المعازل الشرقية للبلجيكيين . وحدثت ثلاث معارك فيما بين رمضان ١٣١١ وجمادى الأولى ١٣١٢ (مارس - نوفمبر ١٨٩٤) ترتب عليها اخلاء ٨ محطات بلجيكية على الشاطئ الغربي وفي بلاد الأزاندى . وفي ديسمبر

هزم عربى - رغم أنه لم يسجل ذلك - أمام ضابط بلجيكى وانسحب الى الرجاف .

وما لبثت أن بدت تتأرجع بعد الرجاف وانزاعها . وقد بدأت أول معارك عربى مع البلجيك عقب مغادرة مركب بخارى لأم درمان ببضعة أيام . وعندما كتب المجموعة التالية من التقرير فى ١٢ شوال ١٣١٣ (٢٧ مارس ١٨٩٦) لم تكن وصلت أنباء من الخليفة على مدى عامين وكان قد حاول اجراء اتصالات برية على الشاطئ الشرقى للنيل ، ولكن الحملة التى أرسلت مع الياس على كافونه ابن الزعيم السابق للعدييات تورطت فى قتال مرير مع النوير قتل فيه الياس وانسحب عربى الى بور تاركا نصف رجاله بالرجاف وكان يقدم المساعدة لبعض الدنكا حتى يقبلوا نقل بريده الى أم درمان .

وأمكن فى صفر ١٣١٤ (يوليو ١٨٩٦) إعادة الاتصال فوصلت ٣ مراكب بخارية تحت قيادة عمر صالح الى فاشودة ولكن مسغراهم هي الوحيدة التى أمكنها المرور من منطقة السدود . ورغم أنها أحضرت معها امدادات لعربى الا أن الحماية الاستوائية خسرت بحضورها أكثر مما كسبت - وقد كتب عربى فى تقرير له بعد عامين : « لقد تغير حال الأنصار عما كانوا عليه وانهارت روحهم المعنوية منذ اليوم الذى وصلت فيه باخرة عمر صالح بسبب ما ذكره لهم عن المهديّة وما أصابها (حديث لأهمية لذكره) وما فعله الايطاليون المسيحيون فى كسلا وما الى ذلك حتى فقدوا معنوياتهم وعزمهم على القتال » .

وبينما كان عربى يقاوم محاولات البلجيك لاختراق النيل الأعلى كانت هناك فرقة أخرى من الضباط والجنود تتحرك شمالا من نهر بومو بهدف الوصول الى حفرة النحاس وهى المنطقة التى كان يتم فيها استغلال مناجم النحاس فى جنوب دارفور على حدود الدولة المهديّة . هذه

الحملة (١) وصلت كاتواكا Kauaka (٢) على نهر الأدده (Adda) على مسافة قليلة من حفرة النحاس في مارس ١٨٩٤ وكان هذا هو نهاية تقدمها . وحاول طابور آخر تقدم من الجنوب في هذا الشهر (٣) كسب موقع له في منطقة حمد العباس موسى (٤) زعيم قبيلة الفاروكي Faruki الى الجنوب الشرقي من حفرة النحاس . والتقت هذه الحملة بحمد في يوليو وفي الشهر التالي وقعت اتفاقية بينهما قبل بمقتضاها هذا الزعيم حماية حكومة الكنفو الحرة وأخذ على عاتقه توفير الاتصال بينها وبين حدود دارفور (٥) .

وسرعان ما وصلت أنباء تقدم البلجيك في منطقة بحر الغزال الى محمود أحمد ومنه أبلغت للخليفة . وأرسل محمد معاونه الخاتم موسى عبر بحر العرب ليواجه الخطر وكان زعيم كاتواكا على اتصال بالأنصار الذين أبلغوا بضعف المعتقل البلجيكى على نهر الادده Adda . ولم يكن انسحاب البلجيك من هذه الأقاليم خشية المهدي وانما بسبب الاتفاقية الفرنسية البلجيكية المعقودة في أغسطس ١٨٩٤ (٦) التي تقرر بمقتضاها

(١) أنظر L. Lotar, la Grande Chronique de Bomu, IICB, IX/3, 1910, 80 - 85; S. Santandrea, The Belgians in West Bahr El Ghazal, SNR, XXXVI, 2, Dec; 1955 188 - 91.

(٢) يعرف سانتاندريا (ص ١٩٠) الكاتواكا - طبقا لما أخبره به بعض سكان الاقليم فيطلق عليها اسم كوتى - واكا ، وهي عشيرة تدخل في نطاق قبيلة كرش القبضة في هذه المنطقة .

(٣) Lotar : Bomu, 92 - 16, 123 - 6.

(٤) يذكر لوتار (في مصدره السابق ص ٧٥) ان حمد الذى تطلق عليه المصادر البلجيكية اسم فقى حمد أو فقى أحمد (هو ابن يوسف سلطان واداي ولكن شكل اسمه لا يدل على ذلك ويذكر سانتاندريا (ص ١٩٠) انه ادعى ذلك في محاولة منه لتعزيز سلطته .

(٥) Slatin : Fire and Sword, 509 - 511.

ويطلق سلاطين على حمد اسم « سلطان حمد ود موسى - كما نشر ابل وثائق أخرى متعلقة بهذه الفترة .

A. Abel : Traduction de documents Arabes concernant le Bahr - el gazal (1893 - 1894) in Bulletin de l' Academie Royale des Sciences coloniales, XXV/5, Brussels 1954. 138^e - 1409.

(٦) أنظر الفصل التالي .

فصل حدود حكومة الكنفو الحرة عن بحر الغزال • وقد بلغت هذه الاتفاقية للضباط البلجيكي في المنطقة خلال شهر ديسمبر وبدأ اخلاء مواقعهم عقب ذلك • ومن ثم فتح الباب بالنسبة للمناطق الشمالية في بحر الغزال لتدخل منها المهدية وتتوغل ثانية وسلم حمد للخاتم المعاهدة وبعض المستندات الأخرى المتعلقة بالتحرك البلجيكي • ونقلت هذه الأوراق الى أم درمان حيث ترجمها سلاطين في أوائل عام ١٨٩٥ •

الفصل الثاني عشر القضاء على الدولة المهدية

١ - الخلفية الدبلوماسية لاسترجاع السودان :

تلقى كتشنر الساعة الثالثة من صباح يوم ١٣ مارس سنة ١٨٩٦ برقية تحيطه علما بأن الحكومة البريطانية تخوله التقدم بالجيش المصرى نحو عكاشة داخل أراضي المهدية وكان ثمة تفكير فى إعادة احتلال اقليم دنقلة . وسرعان ما نسق كتشنر وكرومر الخطط اللازمة ثم أرسل قرار الحكومة البريطانية الى الخديو عباس الثانى ووزارته . وفى الواقع أن سلامة مصر الاقتصادية والحريية كانت تقتضى استعادة السودان ولكن هذا السبب الذى تم الاستناد اليه فى عام ١٨٩٦ لم يكن حينئذ أكثر مساسا مما كان عليه منذ اثنى عشر عاما . وحين استشار كرومر حكومة سولزبرى فى نوفمبر ١٨٩٥ بشأن تخصيص الاعتسادات اللازمة اما لبناء خزان فى أسوان أو فى القيام بحملة على السودان أحيط علما بعدم وجود أى احتمال فى ذلك الوقت للموافقة على قيام مثل تلك الحملة . ومن ثم فإن الموافقة على ارسال حملة الى دنقلة لا بد وأن تكس دوافعها فى ثانيا الموقف الدولى خلال الشهور الأولى من عام ١٨٩٦ (١) .

(١) الاسباب المعروفة عن الخلفية الدبلوماسية توجد فى كتاب :

langer, Diplomacy of Imperialism.

ولكن يجرى الآن إعادة النظر فى هذه الاسباب فى ضوء بحوث وثائقية أشمل ومن ثم يجب اخذها بشئ من التحفظ . ولمزيد من الدراسة انظر :

A. J. P. Taylor : Prelude to Fashoda, The Question of the upper Nile, 1894 - 95 - KHR, IXV. 1950, 52 FF.

وتوجد بعض المعلومات عن السياسة الفرنسية فى النيل الأعلى فى :

CIN, Sa deroon. Emir Sulayman ibn Inger Abuilleh, S. N. R. XXXV/1, 1954, 22 - 74.

ويدرس مستر ساندرسون الآن الصراع بين انجلترا وفرنسا حول اعالي النيل خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٨٩٠ و ١٨٩٩ .

وقد توفرت حجة ارسال الحملة حين هزمت القوات الايطالية في عدوة في اول مارس ١٨٩٦ • وكان قد تقرر مند شهر يناير امكان القيام بمظاهرة عسكرية على النيل للتخفيف من ضغط المهديّة على الجناح الايطالى فى كسلا • وادى انتصار الحبشة الى طلب ايطاليا المساعدة من جديد • وتزايدت الشبهة فى وجود نوع من التعاون أو الاتفاق بين القوات الحبشية والمهديّة • هذا هو الموقف الذى أدى الى برقية ١٣ مارس •

أما السبب الحقيقى للقرار البريطانى المفاجئ فيرجع الى عوامل أكثر عمقا مما يمكن تصوّره حيث لم يكن الهدف مجرد انيام بمظاهرة بل قصد به الى استعادة اقليم دنقلة بأسره •

وقد أيد الرأى العام البريطانى بحماس شديد فكرة التقدم نحو النيل ذلك أن المهانة والغضب اللذين كانا قد استبدا به حين ترامت اليه أنباء مقتل غوردون كانا لا يزالان يفعلاّن فعلهما بعد عشر سنوات • وأدى نجاح حكومة المهديّة فى البداية واستمرارها فى البقاء الى نمو العداء الذى غذّاه عدم الرضا عن العلاج المؤقت للأحداث والوصف المتوتر لارافة اندماء والاستبداد كما جاء فى بعض الكتب مثل :

Mahdism & the Egyptian Sudan, Ten Years Captivity in the Mahdi's camp, & Fire & Sword in the Sudan.

وقد شابت تصريحات الرجال المتصلين بشئون السودان وأحداثه اندفاعات عاطفية ولكن ليس من الانصاف أن نعتبر هذه الحالة النفسية مجرد تعبير عن الرغبة لأخذ ثأر غوردون ، برغم أن مثل هذا الثأر كان مفهوما ومتوقعا لدى السودانيين (١) •

(١) نسب يوسف ميخائيل لعثمان شيخ الدين الحديث التالى عن الخليفة « واعلم مؤكدا أن البريطانيين عليك ثارا ، هو الانتقام لهكس ، والانتقام لغوردون ، والانتقام للبريطانيين الذين قتلهم فى بلاد السودان • وأن المصريين عليك ثارا عظيما للانتقام لجميع رجالهم تركا ومصريين ولحكم بلادهم وهم قادمون الآن للأخذ بثأرهم واستعادة حكمهم •
مخطوطة يوسف ميخائيل (١) ص ٩٩ •

وتلخص كلمات ونجت موقف كثير من معاصريه كما توضح الروح التي صيغت ادارته الطويلة للسودان « ان قيام سودان جديد وافضل على اشلاء غوردون وكل أولئك الضباط والرجال الشجعان الذين هضوا نجهم خلال قيامهم بواجبهم باخلاص ، فهو الأمل المتجد لكل من يرجو مصر الرجاء من دل قلبه (١) » .

وهكذا كانت الارض مهددة تماما فيما يتعلق بالرأى العام البريطانى، لمحاربة الخليفة عندما تواتى الظروف . وقد تزايد خطر التوسع البلجيدى الفرنسى الاستعماري نحو اعالي النيل منذ عام ١٨٩٥ . وقد تازمت الأمور في ١٨٩٤ - ففي ذلك العام عرف ان الفرنسيين يخططون للتقدم نحو لادو أو فاشودة . ويبدو ان اعلان الحماية البريطانية على أوغندا في ١٢ أبريل عام ١٨٩٤ أدى الى اعطاء دفعة اخيرة للمشروع في مفاوضات مع ليوبولد الثانى على أمل الوصول الى اتفاق يؤدى الى حماية المصالح البريطانية والمصرية في مواجهة أطماع حكومة الكونغو الحرة وفرنسا . ووجد في ذلك الحين اتجاه لدى البريطانيين للإطاحة بالدولة المهديّة بالتقدم في وادي النيل ومن ثم كان الاعتراف دوليا بأعالي النيل كمناطق نفوذ بريطانية أمرا مرغوبا فيه الى أقصى حد .

وكان ليوبولد قد اقترح في عام ١٨٩٢ أن يتنازل عن ادعائه - طبقا لاتفاقية ماكينون - بتأجير بريطانيا للأراضي له . ولم يتم بحث هذه الفكرة في حينها وأن بدأت مفاوضات بشأنها في مارس ١٨٩٤ انتهت بتوقيع معاهدة بين الكونغو وانجلترا في ١٢ أبريل . وقد أدت هذه المعاهدة الى تحقيق أطماع بريطانيا في الحصول على منطقة نفوذ لها في أعالي النيل . وتركت الضفة الغربية شمالا حتى فاشودة وغربا حتى خط طول ٣٠ شرقا لليوبولد مدى الحياة . كما ترك باقى حوض بحر الغزال غرب هذا الخط لليوبولد وخلفائه . وهكذا أقيم حاجز حال بين الفرنسيين وبين الوصول الى كل من بحر الغزال وأعالي النيل وأصبح للبلجيك الحق في احتلال هذه الأقاليم وهو ما شرعوا دون ابطاء في تحقيقه

بينما قبلت طلبات بريطانيا ومصر (ولم تكن هناك تفرقة بين الاثنين في نظر هوايت هول) من حيث المبدأ وأصبح من الممكن وضعها موضع التنفيذ يوما ما •

ولم يكذب يتم توقيع الاتفاق بين الكونغو وانجلترا حتى تقدمت الحكومة الفرنسية - وهي تجهل ما حدث - لتعرض على ليوبولد تسوية مناسبة بشأن حدود أوبانجي المتنازع عليها بين حكومة الكونغو الحرة وأفريقيا الفرنسية (١) بشرط السماح لفرنسا بتنفيذ يصلها بأعلى النيل • واهتم ليوبولد الآن بتأخير إعلان اتفاقته مع بريطانيا بقدر ما كانت بريطانيا مهتمة بسرعة اذاعتها • وحلا لهذا الاشكال وضع اتفاق جديد مع بريطانيا (وقع عليه في ١٢ مايو ١٨٩٤) يتفق مع الأول وأضيف لمرفقاته « التأكيد بأن أطراف الاتفاقية لا يجهلون ادعاءات تركيا ومصر بشأن حوض النيل الأعلى » • ومن الصعب أن ندرك كيف كانت هذه الادعاءات ذات فعالية في إيجار لم يصادق عليه كل من السلطان والخديو •

وفي الواقع لم يكن من المتوخى من الاتفاقية أن تستمر طويلا - وحذر السفير البريطاني في باريس من أنها ستؤدي الى افساد العلاقات بين فرنسا وانجلترا • وتقرر في شهر يونيو حذف عبارة من الاتفاقية مضمونها السماح لبريطانيا بمرور عبر أراضي الكونغو وذلك نتيجة لاعتراضات ألمانيا • وأثارت فرنسا حق بريطانيا في تبني الدفاع عن ادعاءات العثمانيين والمصريين • وجرت المطالبة بالغاء الاتفاقية وقبل ليوبولد الدخول في مفاوضات مع الفرنسيين • وفي ١٤ أغسطس تم التوقيع على اتفاقية فرنسية كونغولية جبت الاتفاقية الانجليزية الكونغولية السابقة • ففي مقابل اجراء تسوية مناسبة على الأوبانجي قبلت حكومة الكونغو الحرة التنازل عن كل ما احتلته والتعهد مستقبلا بعدم ممارسة أى تدخل سياسى من أى نوع غرب خط ٣٠ شرقا وشمال

(١) لمزيد من المعلومات من النفوذ البلجيكي في الأوبانجي والنزاع مع فرنسا الذي انتهى بالاتفاقية الفرنسية الكونغولية انظر :

خط ٣٠° شمالا وكان معنى هذا ألا يكون لليوبولد حق في أن يؤجر أكثر من منطقة لادو شمالا (١) وأن هناك فيما عدا هذه المنطقة مساحة كبيرة تشمل بحر الغزال ومعظم النيل الأعلى لم تعترف الحكومة الفرنسية بادعاءات بريطانيا فيها كمنطقة نفوذ لها .

وعلى كل فإن الفرنسيين كانوا على استعداد للتفاوض مع بريطانيا وكان من المحتمل أن يقبلوا الادعاء البريطاني كجزء من تسوية عامة كذلك التي تم التوصل إليها فيما بعد طبقا للاتفاق الودي المعقود في عام ١٩٠٤ . ولكن المفاوضات قطعت وزاد الخلاف في السنوات الأربع التالية . وفي ١٧ نوفمبر ١٨٩٤ نبه مجلس الوزراء الفرنسي على وزير المستعمرات بضرورة احتلال أكبر مساحة ممكنة من الأراضي توقعا لزعف بريطانيا من أوغندا . ولم تتحقق الخطط الفرنسية وان عرف منها ما يكفي لانهذار بريطانيا . وفي ٢٨ مارس ١٨٩٥ أعلن سير ادوارد جراي باسم الحكومة « أن حملة فرنسية ترسل الى أرض معروف مدى ما لنا فيها من حقوق منذ أمد طويل - سيعد عملا غير ودي وسيُنظر اليه في انجلترا بهذا المنظار » .

وتبين أن القيام بحملة بريطانية من أوغندا فكرة غير صالحة ومع ذلك جددت فرنسا استعداداتها للتقدم في أعالي النيل . ولم يكن الهدف الفرنسي مبدئيا هو احتلال وادي النيل بل الحصول على وضع يمكن فرنسا من ارغام انجلترا على مفاوضاتها في سبيل اجراء تسوية عامة لأوجه الخلاف الرئيسية دون أن تتأثر بذلك هيبة فرنسا . وكان من شأن امتداد النفوذ الفرنسي الى أعالي النيل أن يقوى مركز الحكومة الفرنسية كما يساعد على تهدئة الرأي العام بسبب ما فقدته فرنسا من مكانة في مصر . وفي نوفمبر ١٨٩٥ وافق وزير الخارجية على ارسال حملة للنيل الأعلى بقيادة الكابتن مارشان كما أن ليوبولد بالاتفاق مع فرنسا أعد حملة وجهتها النيل لاحتلال قطاع لادو متعاوناً في ذلك مع بعثة مارشان الذي

(١) وبالسماح بهذا تخلى الفرنسيون بلباقة عن تأييدهم السابق لادعاءات مصر .

أعدت له الأوامر النهائية في ٢٤ فبراير سنة ١٨٩٦ ولكنه لم يبدأ تحركه فعلا من برازافيل قبل مارس ١٨٩٧ • كما فرضت فرنسا نفوذها على الحبشة • ومع توتر العلاقات بين منليك وإيطاليا عقب الغاء معاهدة أوتشالي Uccidli طلب حاكم الحبشة معونة فرنسا وسمح سرا بمرور السلاح عن طريق الصومال الفرنسي • وتزايد النفوذ الفرنسي في الحبشة عقب انتصار عدوة وبعد أن تسلم مارشان أوامره • وقد وصل لاجارد Lagarde حاكم الصومال الفرنسي الى أديس أبابا في مارس ١٨٩٧ في مهمة خاصة وحصلت الحبشة على تأييد فرنسا القوي لكل ادعاءاتها في الضفة اليمنى من النيل الأبيض بين خطى ٥° - ١٤° شمالا بينما كانت ثلاث بعثات فرنسية للاستكشاف تأمل في التقدم عبر الحبشة في اتجاه السوبات وأعلى النيل •

وتزايدت خطورة التقدم الفرنسي المزدوج وضوحا مع مضي الوقت، كما تناقصت الحجة الأساسية له - ألا وهي الخطر الذي حاق بكسلا من جراء تهديد المهديّة لها • ولا شك أن هذا الخطر كان حقيقيا في البداية - ففي الاحتفال الرجبي ٢٧ رجب ١٣١٣ (١) (١٣ يناير ١٨٩٦) عقد الخليفة - وفقا لما جرت عليه العادة - مجلسا من كبار قادته وقيل أنه قرر فيه اعداد حملة لاسترجاع كسلا من الايطاليين (٢) على أن تشارك قوات أحمد فضل وحامد علي وعثمان دقنة في تنفيذ هذه العملية • وتقرر أيضا ارسال امدادات للشمال لاستعراض النشاط في منطقة الحدود •

وبرغم أن خطة الخليفة أفادت من ظروف الحرب الدائرة بين منليك والايطاليين إلا أنه لا توجد شواهد على أن الحاكمين الافريقيين كانا ينسقان عملهما • وكما أشرنا سابقا (٣) عرض منليك عقد اتفاقية مع عبد الله في سنة ١٨٩٥ خلال بحثه عن حلفاء ضد الايطاليين ولكنه تلقى ردا رسميا

(١) أي الاحتفال بالاسراء والمعراج في ٢٧ رجب من كل عام •

IRE 44, 2 - 3

(٢)

(٣) انظر الفصل السابق •

غير مشجع ثم كتب ثانية في ١٥ أبريل ١٨٩٦ معلنا نبأ انتصاره في عدوة
وكرر اقتراحه بشأن عقد اتفاقية •

وفي ١١ يونيو أرسل مبعوثا آخر باقتراحات شفوية للخليفة • وأجاب
عبد الله على هذه الاقتراحات في ربيع الثاني ١٣١٤ (سبتمبر - أكتوبر
١٨٩٦) في رسالة حملها مبعوثه الخاص محمد عثمان خالد • ورغم أن
القوات المهدية في تلك الآونة كانت قد طردت من دنقلة إلا أن الخليفة
لم يتنازل عن تعاليه نحو صاحب انتصار عدوة فكتب اليه « وأما ما يتعلق
برغبتكم في تحقيق السلام بيننا وبينكم فاعلموا أنه لا يوجد بيننا وبين
الأوروبيين إلا علاقة الحرب ، ونحن لا نقبل مجيء الأوروبيين الى بلادنا
الاسلامية من أجل الشراء والبيع أو بحجة الترحال • فإذا كان موقفك مثل
موقفنا بحيث ترفض دخول الأوروبيين لبلادك إلا في حالة الحرب وبحيث
لا تتصل بهم كما هو حالنا فيمكن في هذه الحالة عقد اتفاق سلام بيننا
وبينكم (١) •

وعاد محمد عثمان خالد من الحبشة في أوائل ١٨٩٧ ولم يستطع
منليك قبول شرط عبد الله من أجل السلام ولكن كلاهما لم يرغب في قطع
جبال الاتصال مع بعضهما البعض ؛ ففي أواخر ١٨٩٧ تركت بعثة أخرى
الحبشة الى السودان وكان بين أعضائها شخص اسمه محمد بشرى سبق
ارساله من قبل الخليفة الى منليك وعاد الآن بخطاب معتمد من امبراطور
الحبشة ورسالة شفوية • وفي نفس الوقت تقريبا أرسل منليك مبعوثه
السابق محمد الطيب مرة ثانية بخطاب معتمد ورسالة شفوية •

وكانت هذه البعثة الأخيرة على جانب من الأهمية • وعندما وصل
المبعوثون لام درمان في ذى القعدة ١٣١٥ (مارس - أبريل ١٨٩٨) كانت
قوات كتشنر قد وصلت الى العطرة وقوبل الضيوف هذه المرة بتشريف
كبير ووضعت ترتيبات متعددة للترحيب بهم • وأصبح ابراهيم رمضان

الذي كان لشهور قليلة سابقة المشرف على الخزينة العامة رئيسا للبعثة .
ورغبة في ارضاء المسيحيين من أعضاء البعثة تقرر عدم ذبح الحيوانات
اللازمة لطعامهم على أيدي المسلمين . وأهمل مؤقتا تنفيذ قانون المهديّة
الخاص بتحريم المشروبات الروحية حتى يسكن تقديم عرق البلح للأجباش .
كما أقيم مهرجان خاص للضيوف أطلقت فيه النيران من الترسانة .

وجاءت اللحظة الحرجة للبعثة عندما قدم الأجباش للخليفة في مقابلة
سرية علما فرنسيا أعطى لمحمد الطيب من لاجارد في حضور منليك ووفقا
ليوسف ميخائيل « طلب المبعوث من الخليفة رفع هذا العلم على حدود
مملكته ليكون ملكا مستقلا على مملكته وينال حماية فرنسا (١) » . وبناء
على ذلك أخفى الخليفة العلم في منزله . ويبدو أنه وضع في الاعتبار
احتمال استخدامه لمواجهة التقدم الأخير لككتشنر ووجد في ذلك تأييدا
من عثمان شيخ الدين . أما يعقوب فلم يبال كثيرا بهذه الفكرة (٢) .
وذكر يوسف ميخائيل أن الخليفة تنازل لمنليك عن بعض تلال بني شنقول .
وهذا الاقليم يقع على حدود القوتين وعاش زعيمه المحلي مستقلا بالفعل
عن الخليفة . وبعد هذا التسليم طرده الأجباش من بني شنقول واحتلوا
الاقليم . ويكشف حادث العلم عن خطة لاجارد فيينا يتفاوض مع منليك
لفتح طريق الى النيل يتخذ سياسة أخرى مفادها محاولة اقناع عبد الله
بأن يقبل حماية فرنسا وفي كلتا الحالتين لم يصبه التوفيق في نهاية الأمر .

ويظهر أنه برغم تحسن العلاقات بين منليك والخليفة فيما بين عامي
١٨٩٥ و ١٨٩٨ وبرغم تقدم المفاوضات الخاصة بعقد تحالف بينهما منذ
الصيف السابق للاحاطة بعهد عبد الله ، إلا أنه لم توجد أي مخالفة رسمية
أو أي مشروع محدد لتبادل التعاون في وجه الضغط الأوربي . وبستارنة
سياسة عبد الله السلبية كما جاء وصفها في خطابه بتاريخ ربيع الثاني

(١) مخطوطة يوسف ميخائيل (١) ص ٩٦ .

(٢) يحدد يوسف ميخائيل موعدا ، لوصول البعثة التي جاءت
بالعلم ، سابقا لوصول محمود أحمد لأم درمان (أوائل ١٨٩٧) ومن بقية
الشواهد يبدو استحالة ذلك زمنيا .

١٣١٤ هـ ، بسياسة منليك وسماحه بدخول الأوروبيين والافادة من آرائهم مع ايجاد توازن بين قواهم المتنافسة في سبيل الاحتفاظ باستقلال الحبشة نجد أن سياسة الأخير كشفت عن حكمة أكثر ومرونة أعمق . هذه المرونة السياسية والمهارة الدبلوماسية لعاهل الحبشة اذا قورنت بسياسة حاكم السودان ، هي صاحبة الفضل الى حد ما في التفاوت في مدى ما حققه كل منهما من نجاح في التعامل مع الامبريالية الأوروبية العدوانية السائدة في ذلك العصر . وقد بلغت سياسة منليك قمة نجاحها في عدوة بينما انتهت سياسة عبد الله بأشكالها المتعددة بالفشل في كبرى .

٢ - الغزو الانجليزى المصرى لدنقلة وعطبرة :

وصفت أحداث الغزو الانجليزى المصرى الذى أدى الى استعادة السودان من وجهة نظر الفاتحين في كتابات كثيرة معاصرة ألفت بعد ذلك (١) ومن ثم فان هدف الكتابة التالية هو مجرد تلخيص المراحل الأساسية للحملات مع ادراج بعض المعلومات الاضافية من المصادر السودانية .

واستخدمت القوات المصرية والسودانية فقط في المراحل الأولى للاسترجاع . ومعظم السودانين الذين اشتركوا في هذه العملية هم أصلاً من أهل الجنوب وبقايا الجهادية السابقين وفي كثير من الحالات كانوا من أسرى المعارك الذين يغيرون ولأهم بسهولة كبيرة وفقاً لمجريات الأحداث كلما ألفت بهم المقادير سواء في أيدي المصريين أو المهديين . وتركت

Hill : Bibliography, 139 - 40, 142 - 3 (١)

H. S. L. Alford & N. D. Sward : The Egyptian Sudan, its Loss and Recovery. Lond. 1890.

ومن الكتاب الصحفيين

G. W. Steeven : With Kitchener to Khartoum. Lond 1898.

أما السرد الكلاسيكى فقط أعطاه

Winston Churchill . The River War Lond. 1859

وهناك تقييم حديث وموجز لأحداث الحملة أعطاه

Theobald . Mahdiya, 189 - 236.

هذه القوات تحت قيادة ضباط من البريطانيين كما تولى كشنر ادارة المعارك طيلة مدة الحملة • وتولى كرومر بصفته مدنيا اشرافا اسيا على نشاطاته ولكن كشنر تمتع بثقته التامة وكذلك بثقة الحكومة البريطانية وجرى التعامل مع الحكومة الخديوية بصفة عامة باعتبارها شريكا سوريا •

أما عن الخليفة فقد بدأ حشد قواته قبل تحرك القوات المصرية وكان هدفه - كما هو متوقع - تنفيذ سياسته الهجومية التي أعلن عنها في الرجبية •

وفي الحادى عشر من رمضان ١٣١٣ هـ (٢٥ فبراير ١٨٩٦) كتب أحمد السنى الوكيل الأكبر فى منطقة الجزيرة بما يفيد أنه أعلن أوامر الخليفة الخاصة باستدعاء جميع المهاجرين ، أى البقارة ، الذين استقروا فى ذلك الاقليم • وبعد أسبوعين أعلن انتهاء التعبئة • وفى الرابع عشر من شوال (٢٩ مارس) أى بعد بداية التقدم الانجليزى المصرى تلقى أحمد السنى أوامر أخرى لارسال جميع المهاجرين والجهادية وقوات الحرس • كما استدعى ضباط الجزيرة والنيل الأبيض لمقابلة الخليفة • وفى السابع عشر من ذى القعدة (٣٠ أبريل) ذكر أحمد السنى مرة أخرى ما يفيد اتمام التعبئة •

وفى هذه الآونة ، صدرت الأوامر فى ١٨ مارس عام ١٨٩٦ للقوات المصرية فى الشمال للتقدم • كما بدأ انشاء الخط الحديدى • وفى ٢٠ مارس تم الاستيلاء على عكاشة واستعدت القوة المهدية على الحدود فى شىء من التمهّل للتقدم • ومن قاعدته فى ساوردة تقدم حموده أدرىس أولا الى كوشا فى ٢ أبريل ثم فى ٢٨ أبريل الى فركة أو (فركت) •

وفى أول مايو جرى اشتباك فى نقطة متوسطة بين فرکه وعكاشه اندحر فيه الأنصار واضطروا للانسحاب • وتعرض حموده للتأنيب لما أبداه من تخاذل واستبدل به المحارب العتيق عثمان محمد عيسى فى قيادة القوات فى فرکه • ومع امتداد الخط الحديدى جنوبا تزايد تعرضه لتهديد

غارات المهديين وأصبح من الضروري في أوائل يونيو إبعاد الأنصار عن
فرکه • فأرسلت حملة لهذا الغرض ووقعت معركة فرکه في ٧ يونيو وفيها
هزم الأنصار وقتل حموده أدريس وتم الاستيلاء على ساورده في اليوم
التالي •

وحينئذ كان الجزء الشمالي من إقليم دنقله قد أصبح تحت سيطرة
مصر وانجلترا وإن بقيت قوة مهدية كبيرة في مركز القيادة الإقليمي في
العرضي حيث كان الحاكم الشاب محمد بشاره ومعاونه مساعد قيدوم •
وقد تأخر تقدم القوات البريطانية والمصرية لسببين أولهما ضرورة الانتظار
في المعسكر الرئيسي الجديد في كوشه الى أن يسمح الفيضان بمجيء
المراكب البخارية من مصر في أوائل أغسطس بالإضافة الى انتشار موجة
فجائية للكوليرا في أواسط شهر يوليو وعدم انحسارها قبل نهايته •
وفي ٢٣ أغسطس بدأ التقدم من ساورده • وكانت القوة المهدية متمركزة
في الحافر على الضفة الغربية شمال العرضي • وهنا صمد محمد بشاره
في انتظار الهجوم المتوقع على موقعه الحصين • وتقدمت القوات البريطانية
المصرية على الجانب الشرقي ومن ثم اقتصر القتال على المراكب البخارية
الثلاثة فقط التي تولت ضرب موقع المهدية بالنيران • وعلى كل فان
الأنصار ثبتوا في مواقعهم وصعدت المراكب النيل متظاهرة بنقل القوات
عبر النيل جنوب الحافر • وهنا نجحت الخدعة وأخلت الحافر في ليلة
١٩ - ٢٠ سبتمبر •

وبرغم أن محمد بشاره لم يفقد الأمل في الاحتفاظ بالعرضي إلا أن
الموقف كان ميؤوسا منه وسقط بقية الإقليم دون مقاومة • وتم الاستيلاء
على العرضي في ٢٣ سبتمبر وسنام المقابلة لمروري بعد ثلاثة أيام • وفقد
الخليفة شمال السودان من وادي حلفا الى أرض الشائقية • وأصبح
المسرح معدا الآن للرحلة الثانية من الاسترجاع وهي المرحلة التي لم
تتوقع لها الحكومة البريطانية تلك الصورة عندما أعطت الأمر بالتقدم
في مارس ١٨٩٦ • ولكن الظروف ساعدت كتشتر عندما ذهب في نهاية
العام الى انجلترا ليطلب الإذن له بالقيام بتقدم ثان • فقد أصبح التقدم

الفرنسي للنيل الأعلى أمرا وشيك الوقوع كما أن حملة دنقلة كانت قليلة التكاليف وسريعة وناجحة • ومن تم عاد كتشنر بالصلاحيات التي سبها ووعده بامداده بقوات بريطانية لمساعدته اذا احتاج الأمر •

وتسعت الحملة في الشهور التالية بأعداد العدة للتقدم وما حل شهر مايو ١٨٩٧ حتى كان الخط الحديدي قد وصل الى كرما على ان كتشنر قرر اتخاذ تخطيط جديد يساعده على التقدم في أراضي المهديّة • فمد الخط الحديدي عبر صحراء النوبة ليصل مباشرة الى النيل عند أبو حمد حيث يمكن منها التقدم أو الهجوم على نقطة التقاء الطرق الهامة في بربر • وكانت تلك خطة ثورية لحل مشكلة غزو السودان وكان من الممكن تحقيقها بفضل التفوق التقني لدى القوات الغازية مما أدى الى أخذ الخليفة على حين غرة •

وبرغم أن عبد الله لم يستطع تحديد الاتجاه الذي يمكن أن يأتي منه التقدم الا أنه توقع مصيبا أن احتلال دنقلة ما هو الا خطوة أولية في سبيل غزو كامل للدولة المهديّة • وفي سبتمبر ١٨٩٦ أو حوالي ذلك الوقت أرسل يونس الديكيم الى بربر وهكذا وضع هذا الموقع الهام تحت أمره قائد له خبرة بالحدود المعادية • وجعلت المتسه مركزا لتجميع الحطام الباقي من جيش دنقلة بينما تركزت القوات الرئيسية في أم درمان ذاتها • وكما حدث في مناسبات سابقة عندما بدأ الغزو من الشمال أمرا وشيك الوقوع وضع الخليفة خطته على أساس اغراء الغزاه بالتقدم الى أطراف العاصمة ثم مهاجمتهم •

وأرسلت الأوامر الى محمود أحمد لكي يحضر على رأس القوة الرئيسية بالغرب الى أم درمان بعد أن يترك حامية رمزية في كل من دارفور وكردفان •

وتحركات قوات الغرب ببطء ومشقة نحو النيل الأبيض واستغرقت في ذلك شهورا عديدة • وشابه هذا التحرك في ضخامة جحافل وأثره الاستدعاءات السابقة للبقارة وتم تخريب البلاد التي اخترقها رجال القبائل • ومن حسن الحظ أن محصول عام ١٨٩٦ في الجزيرة كان وفيرا

وبفضل ترتيبات أحمد السني وعنايته أرسلت كميات كبيرة من المحصول الى أم درمان • وخصص الجانب الأكبر مما بعث به لحرس الخليفة وعندما أولم يعقوب للضيوف المجتمعين على أطراف أم درمان تجاوزت المؤن حد الكفاية •

وعسكرت قوات محمود في كراوى واستدعى يونس الديكيم من بربر في شهر يونيو نظرا لأن نية عبد الله اتجهت الى اعطاء محمود القيادة العليا على جميع المنطقة الواقعة شمال أم درمان • ومن واقع ذكريات الخليفة ومستشاريه عن بعثة الانقاذ في عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ قرروا اتخاذ قاعدة أساسية لقوات محمود في المتمة حيث يؤدى الطريق الصحراوى من اقليم دنقلة عبر جكدول وأبو طليح الى النيل • وهذه المدينة كانت العاصمة القبلية للجعليين الذين كان اخلاصهم موضع شبهة عبد الله • وبعد استشارة زعيمهم عبد الله سعد فرح أصدر الخليفة قرارا بنزوح أهل المتمة بمتلكاتهم القابلة للحمل الى اى موقع يختارونه على الضفة الشرقية •

وازاء هذا الأمر قرر عبد الله سعد ورجاله المقاومة • ووصلت الأنبياء لمحمود في الثانى والعشرين من محرم ١٣١٥ (٢٣ يونيو ١٨٩٧) • وفى اليوم التالى وصل اثنان من رسل عبد الله سعد لمروى وقدموا لكشنر رجاء زعيمهم الحصول على سلاح وذخيرة ورجال ان أمكن لمساعدتهم في ثورتهم • وكان من المحال الاستجابة لهذا انطلب في وقت مناسب - فطليلة قوات محمود كانت قد بدأت مسيرتها والذخيرة والامدادات أرسلت من أم درمان • وفى ٢٨ محرم (٢٩ يونيو) انضم محمود الى جيشه • وفى ٣٠ محرم (أول يوليو) هاجم الأنصار المدينة الثائرة • ومع ما اتصفت به مقاومة الجعليين من شجاعة الا أنه لم يكن هناك أدنى أمل وقتل عبد الله سعد أثناء القتال وأرسلت رأسه الى أم درمان مع رسالة عثر عليها في جيبه تكشف عن أن الثورة لم تكن مدبرة وانما شرع فيها عقب عودة الزعيم الجعلى من أم درمان •

ولقد كان انتصار محمود أحمد في المتمة بمثابة مأساة بالنسبة الى

قضية المهدية اذ سجل الدم المراق الكراهية الموجودة بين أولاد البلد والحكم النعاشي المطلق الذى استمر سائدا منذ اعتلاء عبد الله للحكم . وحول الانتصار السهل قوات الحملة عن هدفها الأصلي وهو الجهاد ضد الغزاه . وانغمس المحاربون القبليون وقد اتخموا بغنائمهم من الجعليين في فوضاهم التقليدية . ووجد محمود أن من المستحيل اخضاعهم للنظام وكان من المستحيل تنفيذ أوامر الخليفة المتكررة بجمع الغنائم وارسالها لأم درمان وبقي (الأنصار) مجمدين لشهور عديدة في المتمة دون رابط يربطهم ولا ضابط وكانوا على أهبة الاستعداد عند ظهور أية بادرة - للرحيل محملين بما حصلوا عليه من غنائم . كما ثبت أن هذه الثورة كانت مجرد حركة محلية . وأمكن بسهولة القضاء على تمرد صغير آخر نشب بالقرب من بربر ولم تبد بادرة أخرى للتمرد خلال ما تبقى من حكم الخليفة .

ولم يتنبه الخليفة في بادئ الأمر الى تراخي قوات حملة الشمال أو الى عدم كفاءة قائدها . ولم يكن متصورا أن العدو سيتقدم بغير طريق جكدول لأن محمود كتب في ١٩ صفر (٢٠ يوليو) ليسأل الخليفة عن الموقف الذى عليه أن يتخذه اذا تقدمت القوات الانجليزية المصرية نحو بربر : فهل يشتبك الأنصار معهم في القتال في بربر تلقائيا ؟ . وهل يتقدم محمود مع اقتراب العدو أم يسحب حاميه بربر ؟ وقد اعتبر الاتجاهين الأول والأخير غير صائبين . وبعد أسبوع جاء رد الخليفة مؤيدا ضرورة تركيز القوات في بربر وتحصين الخواق والجنادل الواقعة الى شمال هذه النقطة بحيث يمكن ارسال الامداد وقت اللزوم سواء من أم درمان أو من رجال عثمان دقنه . وأدرك الخليفة أنه اذا استولى العدو على بربر فان الامتداد المفتوح للنهر حتى السيلوقه سيثيح لمراكبه احداث خسائر كثيرة . ولهذا حث محمود على اتخاذ اجراءات عاجلة قبل أن تستطيع القوات الانجليزية المصرية الاستيلاء على كل من بربر والعطبرة .

وسوِّف محمود لمدة شهر . وفى الثانى من ربيع الأول (أول

أغسطس) كتب ليطلب مزيدا من المدافع ورجال المدفعية بالإضافة الى ١٠٠٠ بندقية على الأقل لقواته العربية لاستخدامها عندما يتولى العرب حراسة التحصينات ونقط المراقبة • ولم يكن من الممكن سحبها من الجهادية (الذين كانوا في العدة هم الذين يستعملون السلاح الناري) حتى لا يؤدي ذلك الى انحطاط معنوياتهم • وكشف خطاب اخر يحمل نفس التاريخ عن انشغال محمود بالخطر المقبل عليه من جندور • فقد تلقى نبا بان أحد أبناء عمومة عبد الله سعد كان هناك على رأس امدادات من الأعداء وأن غلب على ظنه أنهم انسحبوا • وعلى كل فقد طالب بارسال قوات كافية لحراسة المنمة الواقعة في مؤخره تقدمه المنتظر وجاء رد الخليفة العاجل على مطالبة محمود المتكررة بالسلاح بأن الثقة بالله خير من ألف سلاح • وجاء في هذا الرد أن لدى محمود كميات وافرة من السلاح وأن هناك مؤثرا كثيرة في بربر كما أنه يستطيع الحصول على مزيد منها من الجعيلين • أما طلب رجال المدفعية فيحال الى يعقوب حيث أن هذه هي مسؤوليته •

وجرت هذه الإجابة في الوقت الذي حدث فيه تطور هام في الشمال • فالخط الحديدي الصحراوي الذي وجهت عناية خاصة من أجل الاسراع في مده منذ مايو ١٨٩٧ وصل في أواسط شهر يوليو الى منتصف الطريق الى أبو حمد وأصبح الاستيلاء على هذه النقطة الأمامية للمهدية على درجة عاجلة من الأهمية • وكانت أبو حمد في يد قوة يقودها محمد الزين حسن الذي كان يخضع لأوامر محمود أحمد وعلى اتصال به • وفي ٢٩ يوليو غادرت مروي الى أبو حمد قوة بقيادة ماجور جنرال هنتر (Hunter) ولحقت بها قوة قبلية من العبابدة تحت قيادة عبد العظيم بك حسن خليفة قادمة من المرات للمساعدة في العملية • وأظهرت الحامية المهدية التي فاقها المهاجمون عددا مقاومة بأسلة • ولكن المركز (أي أبو حمد) سقط في النهاية وأسر محمد الزين ذاته في ٧ أغسطس •

وعلم محمد الزاكي عثمان (الذي أعيد مؤخرا لبربر كحاكم مدني تحت رئاسة محمود) بأنباء هذه الكارثة في العاشر من ربيع الأول (٩ أغسطس) كما بلغت محمود ذاته بعد يومين من تاريخه • وتوقع محمد

انزاكى أن يصل العدو الى القرب من بربر خلال عشرة أيام وطلب المساعدة بالحاح . ويبدو أن محمود أصابته نوبة نشاط فقد أكد للخليفة عزمه على الخروج على رأس قوات الجيش الى بربر في الغد او اليوم التالي له . أما في ذلك الحين فكان مشغولا بجلب الامدادات الى المتمره من الضفة الشرقية . وأمن الخليفة على خططه ولكن المدد المرتقب لم يصل الى بربر برغم مضي ١١ يوما بعد ذلك وان بدأت احدى الوحدات العسكريه تحرلها . ونسب محمود تأخره للصعوبات التي وجدها في نقل الفرق من الضفة الشرقية ولكنه أصبح مستعدا للتحرك في آخر الأمر . وهنا ظهر عذر آخر للتأخر . فقد تلقى محمود تقريراً بأن ٨٠٠ من رجال العدو ، ٩٠٠ من فرسانه موجودون في جكدول ومن ثم رأى تأجيل التحرك الى أن تصله اوامر من الخليفة .

وقد كتب بهذا في ٢٣ من ربيع الأول (٢٢ أغسطس) وفي ٢٨ من ربيع الأول (٢٧ أغسطس) أجاب الخليفة مكرراً تعليماته الأولى بوجوب تقديم محمود لمساعدة بربر ، على أن تبقى حامية في المسمه لمراقبة جكدول ولم توضع هذه التعليمات موضع التنفيذ حيث أدت عوامل قهرية الى عجز محمود عن تنفيذها . وفي ٢٩ ربيع الأول (٢٨ أغسطس) كتب تقريراً للخليفة يبين فيه ما اعتقد أنه الخطة الانجليزية المصرية للحملة . . . تقدم مزدوج تصعد فيه المراكب البخارية النهر من أبو حنيد بينما تتقدم القوات والقبائل عن طريق جكدول . وبعد ثلاثة أيام كتب تقريراً عن أحداث هامة فعلاً . ذلك أن محمد الزاكي ، وقد تمردت احدى الحاميات وتخلت عنه ، أخلى بربر وانسحب للجنوب ولكي يخلص نفسه من التعرض للوم الخليفة على سلوكه أبلغه بأن جيشه امتنع عن التحرك الى بربر . وقد سلم الخليفة بالأمر الواقع وبرأ محمود من شبهة التخاذل .

ولا شك أن محمود بتسويفه أضاع فرصة ثمينة لايقاف تقدم مصر وانجلترا على النيل . وفي ٣١ أغسطس دخلت قوة استكشافية من العبايدة الى بربر تحت قيادة عبد العظيم . وفي ٦ سبتمبر تم احتلالها رسمياً

بواسطة هنتر وهكذا تابعت الأحداث كما توقعها عبد الله فيما مضى .
وقامت المراكب الانجليزية المصرية برحلات استكشافية متكررة صعودا
على النيل حتى مدخل خائق سبلوقة وتلصقت استحكامات محمود
وتجمعات القوات المهدية حيشا مرت بالقرب منها . وعندما كشف هبوط
مستوى النيل عن مناطق ضحلة شمال العطبرة وهدد ذلك بقطع خط
المراكب عن قاعدتها في بربر أنشئ مرسى بجوار ملتقى عطبرة بالنيل .
وتطور هذا المرسى خلال الشهور التالية ليصبح معسكر عطبرة والقاعدة
الأمامية لكشنر .

وأضاع محمود أحمد والخليفة الأربعة أشهر التي تلت سقوط بربر
في الاعداد لخطط وخطط مضادة عقيمة . وفي أوائل شهر سبتمبر رأى
الخليفة ومستشاروه عدم صلاحية المتسه كقاعدة وفكروا في سحب الحملة
مع رجال محمد الزاكي الى السبلوقة حيث يصبح الخائق والجنادل خطا
طبيعا للدفاع يمكن عنده ترتيب مقاومة جديدة في وجه قوات متفوقة .
وأجاب محمود بأنه يفضل البقاء في المتسه حيث أنها مركز التقاء للطرق
المحتملة لتقدم العدو وذكر أن انسحابه من وجه العدو قد يؤدي الى
تخلي كل قواته عنه .

وقبل الخليفة وجهة نظر محمود ولكن الموقف ظل متدهورا وتسربت
القوات من المتسه للخارج . ولم يؤد وصول رجال محمد الزاكي الى تعزيز
القوة الأصلية ، لما اتصف به سلوك رجالها من فوضى . وفي شهر أكتوبر
بدأ نقص واضح في الغلال وفي أساييع قليلة تحول التسرب التدريجي من
قوة المتسه الى فيضان عارم . ولمواجهة ذلك اقترح محمود أحمد في
السابع من جمادى الأولى (٤ أكتوبر) القيام بعمل يائس يقتضى التقدم
الى بربر اعتقادا منه بضعف حاميتها بالإضافة الى أنه كان يرى أن هبوط
منسوب الماء في النيل وجفاف طريق جكدول يؤديان الى عرقلة حركة
العدو في البر وعن طريق النيل . واقترح التقدم على جانبى النيل ليجتاز
بربر ويخترق المنطقة الواقعة فيما وراءها حيث يتوفر القمح . وأصر
الخليفة على أن تناقش الخطة بمعرفة كبار قادة الحملة ، بحيث يعلنون عن

موافقتهم بالتوقيع عليها بكل أختامهم • وبرغم أن مجلس الجيش في اجتماعه المنعقد بتاريخ ١٩ جمادى الأولى (١٦ أكتوبر) وافق رسميا على المشروع الا أن من الواضح أنهم فضلوا البقاء في المئمة • فقد هوجم المعسكر آنذاك بمراكب العدو وأصبح تقدم القوات الانجليزية المصرية أمرا متوقعا •

ولم يحدث التقدم المرتقب وأصبح موقف الأنصار بسبب الهجمات التي تعرضوا لها والمجاعة ثم هروب القوات أمرا غير محتمل • وفي أوائل ديسمبر حاول الخليفة رفع معنويات أتباعه • وأعد استعراضا خرجت فيه قوات أم درمان الى خارج البلدة كما لو كانت في طريقها للسير شمالا • وارسل السكرتير الخاص للخليفة المدثر ابراهيم في ١٨ رجب (١٣ديسمبر) بخطاب خاص لمحمود وضباطه وجه لهم فيه اللوم لأنهم تسببوا في سقوط بربر بسبب تباطئهم • وطلب منهم سرعة التصرف حيث أن العدو أصبح قريبا بالاضافة الى نقص الغذاء وتعرض الجيش ذاته للتفكك • ومرة أخرى أعلن مجلس قيادة الجيش عزمه على التحرك نحو بربر ولكن خطابه للخليفة بذلك تحول الى طلب المؤن • وردا على ذلك وعد الخليفة بإرسال الغلال ولكن المعسكر الكبير خارج أم درمان تفكك وعادت حامية العاصمة المتضخمة الى المدينة •

ونسبت الشائعات التي سرت في ذلك الحين التخلي عن نية ارسال قوات مساندة الى النزاع على القيادة • وقيل أن الخليفة « على » عرض أن يتولى هذه القيادة في محاولة منه لتعزيز موقفه ولكن العرض سحب عندما رفض عبد الله امداد القوة بالسلاح الناري • ورأى عبد الله عندئذ وضع عثمان شيخ الدين على رأس القيادة ولكن سرعان ما ثار النزاع بين عثمان الذي كان من رأيه توزيع البنادق على أولاد البلديين يعقوب الذي كان حاقدا على ابن أخيه ومتخوفا على زعامته للتعايشة • والواقع أن تحرك أى مجموعة كبيرة من القوات من أم درمان كان أمرا غير ممكن بالفعل بسبب صعوبات الامداد • وبدأ أن السبب الذي كان مسئولا الى حد كبير عن هزيمة النجومي قد بدأ يهدد حينئذ لسقوط

محمود أحمد وشمل محاولات الخليفة لمساعدته وأصبحت حامية أم درمان الكبيرة عاجزة بالفعل عن الحركة لأنها في حالة إبتعادها عن قاعدتها كان يتعذر عليها الحصول على جرائتها •

وتأكدت هذه الناحية بما اتخذته الخليفة من اجراء بعد عودة المدثر ، اذ أرجأ موافقته الرسمية على التقدم نحو بربر الى أن يتم ارسال القمح الى المتنه ، وقد أرسلت المؤن الى وادى بشاره على الجانب الشمالى لخلق سبلوقه وان تعذر على محمود استحضارها بسبب دوريات مراكب العدو • وبناء عليه دعا الخليفة ومستشاروه فى الرابع عشر من شعبان (٨ يناير ١٨٩٨) محمود مرة ثانية للانسحاب الى السبلوقة مستثنين فى ذلك الى امكان محمود الحصول على القمح الذى تم إرساله فى الوقت الذى يتيسر فيه ارسال المزيد من المؤن - هذا الى تيسير الصمود فى وجه العدو بسبب طوبوغرافية الموقع فضلا عن امكان محمود القيام بعملياته على جانبى النيل بالتعاون مع جيش أم درمان •

وترك اتخاذ اقرار كلية لتقدير محمود • وقد اناد فى ٢٢ شعبان (١٦ يناير) باعتراضه كلية على الفكرة فقد كان يخشى أن يؤدى اى انسحاب الى هرب أعداد كبيرة • كما أعلن اصراره ورجال قيادته على العبور الى الشاطىء الشرقى والتقدم نحو العدو • ومرة أخرى وأخيرة يرضخ الخليفة لقراره • وأصدر الخليفة الآن أمره لعثمان دقنه الذى كان يعمل مستقلا فى الشهور الأخيرة على الضفة الشرقية والذى أبى الاستجابة لدعوة محمود للانضمام اليه ، بضم رجاله الى قوات محمود ، ووصل شندى فعلا فى السادس عشر من رمضان (٨ فبراير) • ومرة أخرى لم تكن الزيادة فى الكم لتعنى الزيادة فى الكيف أو فى القوق فالأحداث السابقة أظهرت مدى صعوبة الجمع بين قوات البجه والعرب فى قوة مقاتلة موحدة بينما كان عثمان دقنه بخبرته الطويلة فى القيادة الحرة زميلا مقلقا لقريب الخليفة الشاب •

وبناء على هذا القرار جرت العمليات دون تأخير وتم فى التاسع والعشرين من رمضان (٢١ فبراير) تجميع القوات على الشاطىء الشرقى •

ولم يكن هناك بد من التقدم بحذاء النيل بسبب الحاجة الدائمة للماء برغم ما يؤدي اليه ذلك من تعرض خط السير لمراكب العدو ومدافعها . وعندما وصلوا الى علياب تفجر النزاع بين محمود الذى أراد الاستمرار فى السير بحذاء النيل والقيام بهجوم مباشر على حصن عطبرة وبين عثمان دقنه الذى اقترح سير الجيش من الداخل الى أعلى مصب نهر عطبرة حتى يتجنبوا لفت نظر العدو ومراكبه وحتى يتيسر لهم اما ضرب حصن عطبرة أو ضرب بربر ، ولكى يتمكنوا من الحصول على الغذاء عن طريق الغزو أو حتى على الأقل من ثمار الدوم . وبالرجوع الى الخليفة فى شأن هذا الخلاف ارتأى تأييد خطة عثمان .

وفى الخامس والعشرين من شوال (١٩ مارس) وصل الجيش وهو جائع ومرهق الى العطبرة وكان الجنود يهربون بالملئات الا أن أعدادا تدعو الى الدهشة بقيت ثابتة فى انتظار العدو وقد حصنوا معسكرهم فى أم دبيع بالخنادق وأشأوا زربية . وفى تلك الأثناء كان كتشنر الذى أضيف لقوته فى السودان فرقة انجليزية يتحرك فى ذلك الحين صاعدا العطبرة بحثا عن الأنصار . وبعد وصول كتشنر بعدة أيام الى القرب من المعسكر لم يكن قد قرر قراره على الهجوم ولكنه قرر أخيرا أن يقذف بقواته ضد المعسكر فى يوم الجمعة الكبير الموافق ٨ ابريل . وقتل ثلاثة آلاف سودانى كما جرح أكثر من ٤٠٠٠ ولم تزد الخسائر الانجليزية المصرية عن ٥١٠ فردا من بينهم ١١٤ من البريطانيين وأسر محمود أحمد نفسه وقد توفى عام ١٩٠٦ برشيد وهو أسير بينما هرب عثمان دقنه مع بقية أتباعه .

٣ - الغزو الانجليزى المصرى للسودان - المرحلة الأخيرة :

تزايد مركز السلطات الانجليزية المصرية قوة فى شرق السودان قبل معركة عطبرة بفضل استعادة الايطاليين لكسلا الأمر الذى تم فى عيد ميلاد عام ١٨٩٧ . ودخلت القوات الوطنية التابعة للايطاليين فى خدمة مصر التى استعانت بهم فى القيام بالهجمات التى أدت الى الاستيلاء على النقاط المهدية الخارجية للفاشر وأصوبرى على العطبرة . وهكذا حرم عثمان دقنه

من مصدر نفوذه في تلال البحر الأحمر • وعندما هزم الأنصار في شهر
ابريل هرب الى القصارف ثم اتجه مباشرة الى أم درمان •

وفي هذه الآونة كانت المحاولات الفرنسية المتقدم صوب أعالي النيل
مستمرة واضطرت بعثة قادمة من الحبشة أعدها مركز دي بونشان
(de Bonchen) تحت اشراف لاجارد الى العودة بعد وصولها الى
ملتقى نهر بارو (Baro) بنهر بيبور (Pibor) في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٧ • وفي
مارس ١٨٩٨ تقدمت حملة حبشية مصحوبة بأوروبيين من أعضاء بعثة
بونشان على مجرى نهر السوبات ووصلت الى ملتقاه بالنيل في ٢٢ يونيو •
وعادت البعثة بعد أن رفعت علمى فرنسا والحبشة هناك • وبعد أيام
قليلة ، في ١٠ يوليو ، بدأ في الأفق ما هو أشد خطرا على مشاريع بريطانيا
في منطقة النيل الأعلى ، ألا وهو وصول بعثة مارشان أخيرا الى النيل
واتخاذها فاشودة مركزا لها • ولم توجد أى قوة مهدية على النيل
الأعلى تستطيع الوقوف في وجه الفرنسيين • أما القوات الموجودة تحت
قيادة عربى دفع الله والتي انقطعت الصلة بينها وبين أم درمان ، فقد قامت
بغزوة ناجحة في منطقة الآزاندى في يناير ١٨٩٧ ثم عادت الى قواعدها في
الرجاف • وهناك في الثاني عشر من رمضان سنة ١٣١٤ (١٤ فبراير ١٨٩٧)
اشتبكت مع قوة بلجيكية ، هي الحملة التى أرسلها ليوبولد الى أعالي
النيل لتعمل على الاتصال بحملة مارشان ، وهزم الأنصار في هذا الاشتباك
كما قتل ٩٣ منهم في القتال من بينهم عمر صالح • وأطلق سراح بعض
المسجونين من قبل حكومة المهدية ومن بينهم محمد خالد ومحمد عثمان
أبو قرجه بأمر البلجيك • أما عربى فاتجه الى بور مع حطام جيشه بعد أن
نفذت ذخيرته واقتصر سلاح رجاله على الحراب التى أخذت من القبائل
المحلية • ولم تصل رسائله - التى وصف فيها انهيار آخر جيوش المهدية
على النيل الأعلى - بتاتا للخليفة فقد كتبها في يوليو ١٨٩٨ وسقطت في
أيدي البريطانيين في شهر نوفمبر •

وأضى كتشهر الشهور الأربعة التالية بعد انتصاره على محمود
أحمد في الاعداد للزحف النهائى على أم درمان ورابطت القوات الانجليزية

المصرية في معسكراتها الصيفية • ووصلت ثلاثة مدافع مع امدادات أخرى بريطانية ومصرية فجاوزت قوة الحملة ٢٥٨٠٠ رجل ثلثها تقريبا من البريطانيين • أما عن الخليفة فكان منصرفا لاعداد العدة للمواجهة المنتظرة - ومع أن الموقف كان حرجا بالنسبة اليه الا أن اليأس لم يتطرق اليه • وقد حصن خائق السبلوقه وشاطئ النيل في المسطح المجاور لأم درمان • وأعد جيشا كبيرا من الحرس الخاص وأتباع الراية السوداء للقتال • وبدأ في الامكان الوفاء بوعوده المتكررة بشأن الحصول على انتصار نهائي في الصراع مع الكفرة خارج أم درمان • كما أرسل مركبان صعدا للنيل الأعلى لجلب القمح من الشيلوك •

ولم يحاول الخليفة الافادة الكاملة من ظروفه بل انه قرر سحب القوات من السبلوقه بدافع الخوف الذي سيطر عليه من جراء صعوبة امداد القوات بالمؤن بعيدا عن العاصمة • وهكذا لم تقف أى قوة في وجه التقدم الأخير للقوات الانجليزية المصرية • وفي أول سبتمبر ١٨٩٨ عسكر المهاجمون في العجيجه على الشاطئ الغربى للنيل على بعد ستة أميال من أم درمان • وكانت هناك على الجانب الشرقى قوة جعلية صديقة من غير النظاميين وهؤلاء استطاعوا بمساعدة المراكب الاستيلاء على موقع في مواجهة أم درمان • وأقيمت بطارية مدافع على الفور بدأ منها قصف المدينة بالنار وكان قبر المهدي هدفا خاصا للقصف • وحدثت المعركة مع جيش المهدي في السهل الواقع حول العجيجه بين تلال كيارى والركن المنعزل لجبل سوركاہ surkah (١) • وقد سبق أن وصفت المعركة بأدق تفصيلاتها في كتب أخرى مما يدعو الى عدم تكرار الوصف هنا • وقد بدأت فجر ٢ سبتمبر واثمت في منتصف النهار وقتل خلالها يعقوب وآخرون ممن يلونه مركزا في ساحة القتال وواجه الحرس الخاص ورجال الراية السوداء - بشجاعة عظيمة وان تكن حمقاء - المدافع الميكانيكية

(١) في الكتابات البريطانية المعاصرة لذلك الوقت أطلق عليه اسم جبل صرغام Surgham كما أطلق على العجيجه Igayga •

التي أحدثت كما فعلت في معركة العطرة مذبحه عظيمة وسقط قتيلا نحو أحد عشر ألفا من الأنصار ونحو ستة عشر ألف جريح مقابل خسارة لم تتجاوز ٤٨ قتيلا ، ٣٨٢ جريحا بين القوات الانجليزية المصرية • وأثارت هذه المذبحة الدموية النقد في بريطانيا برغم احساس الرضا والغبطة للقضاء على البربرية والانتقام لغوردون •

وعندما رأى الخليفة أنه خسر المعركة ولى الأدبار ومع ذلك لم يصب عزمه أى فتور وحاول دون طائل تجميع قواته فى أم درمان • واذ فشل فى ذلك غادر عاصمته مع تقدم القوات الانجليزية المصرية نحوها • وتلقى قواد المهديّة الذين بقوا على قيد الحياة نداءات شخصية من السلطات الجديدة لتسليم الأدوات والوثائق الموجودة تحت أيديهم وتولت الادارة العسكرية مهام الحكومة الصعبة •

وقد أخرج جسد المهدي من مشواه الذى أصابه التدمير وأحرق بناء على أمر كتشنر الذى أقر بأن الرأس قد جرى دفنه فى وادى حلفا •

وفى ٩ سبتمبر عاد الى أم درمان أحد المركبين البخاريين اللذين سبق للخليفة ارسالهما لاحضار غلال من الشيلوك وقرر بحارته أنهم وجدوا فى التاسع والعشرين من ربيع الأول ١٣١٦ (٢٣ أغسطس ١٨٩٨) قوة أوروبية معسكره فى فاشودة ، وأنهم بادلوها بإطلاق النار ثم عادوا بمركبيهما الى الرنك وهنا بقيت احدى المركبين مع القائد بينما أرسلت الثانية لاحضار نجدات من الخليفة • وفى الحال أقلع كتشنر الى فاشوده ليواجه مارشان على النيل الأعلى • ومن هنا تفجرت مشكلة دولية أدت بعد أن وصلت بانجلترا وفرنسا الى حافة الحرب الى تأكيد قبضة انجلترا ومصر على أعالي النيل ومهدت الطريق لعقد الوفاق الودى •

وبقى الخليفة الهارب لأكثر من عام مثار اشكال للحكم الجديد وقد اتخذ طريقه الى شرق كردفان حيث طمع فى تأليب أنصاره وتجميعهم • وفى هذه الشهور الأخيرة الممتلئة بعوامل الضيق واليأس عادت المهديّة الى الاستناد للحضرات والرؤى التى يراها الخليفة والتى كانت مظهرا من مظاهر المهديّة الأولى ثم تنوسى استخدامها مع بروز أوتوقراطية

التعايشية ومن ذلك ما جاء من أنه « في احدى الليالي ، رأى أحد الاخوة سيدنا خليفة المهدي (عم) ومعه حرسه الخاص فسألت ما هذا ؟ قيل لى : هذا هو خليفة المهدي (عم) وحرسه الخاص ، تجمهروا لارتداء جيبهم ... بالمكان الذى يجب عليهم أن يتدثروا بها فيه . عند ذلك رأيتهم وقد دثروا بدثار انفلق منه ضوء ساطع ومن بعد دثر باقى أفراد الجيش فرأيت الضوء يعم أرجاء المعمورة . وبعد أن انتهى ذلك رأيت الخليفة متجها برأسه الى الشرق ومعه الرايات والجيش حتى دخل أم درمان دون أن يقابله أى عائق . فقلت أين ذهب الكفار ؟ فقبل لى : ان الكفار كلهم قد لاقوا حتفهم وطهرت الأرض منهم . وفى خلال ذلك رأيت جميع الكفار موتى وجثثا هامدة وشكرت الله على ذلك » (١) .

ولم يزد أمل الخليفة فى العود الظافر الى أم درمان عن كونه حلما . وفى أوائل ١٨٩٩ انضم أحمد فضيل للخليفة . وأحمد فضيل هو الذى احتفظ بالقضارف على رأس قوة مناسبة حاميا جناح المهديّة من الهجمات التى يتم شنّها من كسلا . ولما لم يستطع الوصول الى أم درمان فى الوقت المناسب للاشتراك فى المعركة حاول الرجوع الى القضارف حيث شغل بالقتال مع قوة أرسلت من كسلا للاستيلاء على المدينة . وفى مسيرته الطويلة غربا نحو كردفان عابرا النيل الأزرق والنيل الأبيض تبخر جيشه ولم يلتق بالخليفة أخيرا الا ببقية قليلة منه .

وبرغم ذلك استطاع الخليفة الحصول على مزيد من العون ولكن قوة أرسلت ضده بقيادة ليفتنانت كولونيل ف. و. كتشنر (F. W. Kitchener) شقيق الفاتح أمكنها أن تجده فى ٣٠ يناير ١٨٩٩ بجوار شركيله (Shir kavala) مع قوة نظامية من نحو ٧٠٠٠ رجل تقريبا انسحبت بلباقة من الميدان دون قتال . وبعد انتهاء موسم الأمطار بدأ الخليفة ، الذى كان مقيما بجبل قدير ، مسيرته شمالا نحو جزيرة آبا . ومن المحتمل أنه قصد بمسيرته أم درمان . وبرغم المظهر القوي للحكومة الجديدة فى السودان الا أنها كانت تعاني من عوامل ضعف كثيرة . فقد

(١) المهديّة ١/٤٢ ، ٣ ، ٨ .

نظر المصريون المتطرفون الى التوقيع على الاتفاق الثنائي في شهر يناير ١٨٩٩ باعتباره تنازلا لبريطانيا عن المطالب الوطنية في السودان • واثارت الفرقة السودانية بأم درمان بتحريض الضباط المصريين الساخطين فور ابرام الاتفاقية • ونظرا لاعادة القوات الانجليزية الى مصر بعد أيام قليلة من الاستيلاء على أم درمان بدا وكأن الادارة لا تستند في ادارتها الا على قصة مرضوضة • وبالإضافة الى ذلك استثير السودانيون بما حدث في الصيف • فبعد معركة كراوى استسلم الخليفة محمد شريف وأرسل ليعيش في شكابا بجوار واد مدني • وفي ٢٧ أغسطس قبض عليه وعلى اثنين من أبناء المهدي بتهمة التخطيط لثورة مهدية ، وحاول أتباعهم انقاذهم عنوة ومن ثم حدثت معركة حوكم بعدها الخليفة محمد شريف وأبناء المهدي عسكريا وقتلوا رميا بالرصاص •

ومن ثم توافر الاحتمال في حصول الخليفة عبد الله على عون مناسب اذا استطاع الوصول الى القرب من أم درمان ومن ثم أرسل فيلق على عجل بقيادة سير رجنالد ونجت ليلتقى بالخليفة في الطريق وكان مع ونجت ٣٧٠٠ رجل ومع الخليفة نحو ٥٠٠٠ رجل وحدثت المعركة في ٢٤ نوفمبر عند أم دويكرات بجوار موقع كوستي الحالية ومرة أخرى اكتسحت المدافع الميكانيكية صفوف الأعداء وبعد انتهاء القتال عثر على خليفة المهدي وقد انكفأ على وجهه قتيلا فوق مصلى من فراء الخروف وعن يمينه الخليفة على وعن يساره أحمد فضيل وكان عثمان شيخ الدين أقل حظا من أبيه حيث حمل جريحا من الميدان ومات في العام التالي سجيناً في رشيد • وهكذا أسدل الستار على المهدية •

الفصل الثالث عشر

النظام الإدارى فى عهد الخليفة

١ - الأقاليم وموظفوها :

لم يحدث أن استقرت حدود حكومة المهديّة استقراراً نهائياً ، فالثورة والاختلاء والاحتلال والهجوم الخارجى - كل ذلك أدى الى مكاسب أو خسائر لكل من الفريقين المتصارعين • وحتى الأقاليم الداخلية تغيرت معالمها مع ضم مقاطعات لبعضها البعض أو فصلها عن بعضها البعض وتحولها لتتبع غيرها لأغراض عسكرية ، مالية أو إدارية • ولا توجد المادة الكافية لوصف الأقاليم وما أصابها من تركيب أو تفكك خلال حكم الخليفة • والوصف التالى يمثل بالضرورة صورة تقريبية للأوضاع فى أواخر حكمه لا فى بداياتها •

ويمكن التمييز بين الأقاليم العسكرية والمدنية (١) فالأولى كانت تمثل مناطق الحدود التى أخذت على عهدها حماية القلب النابض لحكومة المهديّة ، وحكامها كانوا بالتبعية من القواد العسكريين • وقد وضعت بمراكز تلك الأقاليم وفى النقاط العسكرية التابعة لها حاميات من الجهادية ومقاتلى القبائل وكانت لها خزائنها الاقليمية اللازمة لامداد قوتها المحلية المساحة بما يلزمها • وأقاليم هذا النوع هى دنقلة ، وإقليم حدود سواكن (ومركزه الرئيسى فى طوكر حتى سنة ١٨٩١) وإقليم الحدود الحبشية (المعروف باسم عمالة القلابات وفيما بعد باسم عمالة القصارف نسبة لقاعدته الجديدة) ودارفور • وبرغم أن كلا من كردفان وبربر لم يكونا من أقاليم الحدود الا أنهما اعتبرا من هذا النوع • وقد ضمت كردفان

(١) لم توجد هذه التفرقة فى وثائق المهديّة والمؤلف هو المسؤول عن وضع هذه المصطلحات وأيضاً عن الاصطلاح الخاص « بإقليم حدود سواكن » وإقليم الحدود الحبشية •

ودارفور لصالح عثمان آدم ومحمود أحمد في اقليم واحد كبير في الغرب (عمالة الغرب) ومع ذلك ظلت كردفان تحت ادارة نائب حاكم (وكيل) من الأبيض ويحتل أنها احتفظت بخزintها الخاصة^(١) ولم يعد اقليم بحر الغزال تحت سيطرة المهديين عقب انسحاب كرم الله كرساوى • وكشفت سهولة احتلال فاشودة على يد مارشان عن عدم سيطرة الخليفة على النيل الأبيض • ولعل سيطرة المهديّة على بحر الجبل كانت أكثر وضوحا برغم أن عربى دفع الله لم يكن يحكم الا محلة خصصت للمنفين والمعاقين بالاضافة الى قاعدة للغارات في بلدة الرجاف •

وتكونت الأقاليم المدنية (Metropolitan) من الأراضى النهرية والمناطق الملاصقة لها ابتداء من حجر العسل شمال السبلوقة الى خط عرض ١٢° شمالا وشمل امتدادها الجنوبي مناطق قبلية لم يكن للخليفة فيها أكثر من نفوذ مشكوك في أمره • وقد تبعت جميع الأقاليم المدنية خزينة أم درمان من الناحية المالية ولم تكن لها قوات قائمة بذاتها أو حكام عسكريون • وبرغم أن الرئيس الأعلى في كل منها حمل لقب « عامل » مثل حاكم الاقليم العسكرى الا أنه كان أصلا موظفا ماليا أو محصلا • ومن أم درمان شمالا حتى حجر العسل امتد اقليم غرب الحلفاية (غرب اقليم الحلفاية أو غرب الاقليم) ومقابله على الضفة المواجهة اقليم شرق الحلفاية (شرق اقليم الحلفاية أو شرق الاقليم) ومن حجر العسل الى سوبا (Suba) على النيل الأزرق وجنوب أم درمان كان هناك اقليم النيل الأبيض (غرب البحر الأبيض) تحده بلدة شباشا (Shabasha) على مجرى النيل الصاعد ومن شباشا جنوبا حتى أرض الجمع كان هناك اقليم الشط (عمالة الشط)^(٢) مشتملا على أرض الجمع بأكملها • وعلى الشاطئ الشرقى للنيل الأزرق وجد اقليم النيل الأزرق (شرق العديك

(١) يوجد وصف موجز لحكومة كردفان في :

G. A. Reid : , Story of a Mahdist Amir S. N. R. IX / 2, 1926, 79 - 82.

(٢) يذكر « Reid » أن شط « Shatt » دخلت ضمن حدود كردفان خلال ادارة محمود أحمد . S. N. R. IX/2, 80.

البحرى (١) *

وقد تغير الحد الجنوبي لهذا الاقليم من وقت لآخر وان بقى دائما شمال أبو حراز عند التقاء الرهد مع النيل الأزرق وإلى الجنوب يقع اقليم أبو حراز وود العباس . وقبل إعادة فتح السودان ضمت البلاد الواقعة على النيل الأزرق من العيلفون وما بعدها جنوبا مع ارض الجزيرة في اقليم واحد تحت اشراف أحمد السنى . أما قبل تعيين أحمد السنى فلم تكن الجزيرة اقليما موحدا بل مجموعة من الاقاليم واطلق على الجزء الواقع شمال خط يبدأ من القداسى على النيل الأزرق الى ود الزالى على النيل الأبيض اسم اقليم الخرطوم (قسم الخرطوم) وأعطت عبود وودمدنى اسمهما لأقاليم أخرى تقع في الجنوب ووصل الحد الجنوبي للمناطق التى تسيطر عليها المهدية الى أرض الفونج بجبل ادريس .

والقول بأن الاقاليم المدنية كانت أقساما مالية أكثر منها وحدات ادارية جاء من واقع قيام محصلين آخرين بالعمل داخل حدودها وخارجها الى جوار العملاء الاقليميين . ومن ثم كان هناك الاقليمان الفرعيان « عمالة البادية الشرقية وعمالة البادية الغربية » والأولى حددت افريقيا في ربيع الثانى ١٣١٣ (سبتمبر - أكتوبر ١٨٩٥) باعتبارها واقعة بين حجر العسل وجزيرة الرهد وتمتد شرقا حتى قايلى (Qaali) وقد ضمت بذلك أصحاب الابل من البدو في تلك المنطقة . وفيما بين عامى ١٣١٢ هـ ، ١٣١٤ هـ تحددت معالم اقليم تابع آخر عرف باسم أطيان الغنائم يقع جنوب اقليم الحلفاية . واختص أحمد السنى بالإضافة الى ما قام به من اشراف ادارى عام - بالاشراف على الشؤون المالية والتحصيل من البقارة المهاجرين في الجزيرة الذين كونوا بذلك اقليما ثانويا جديدا .

وتوقفت نوعية الهيئة التى تشرف على اقليم ما على نوعية الاقليم ذاته سواء أكان عسكريا أم مدنيا . وعند إعادة الفتح كان جميع الحكام العسكريين - مع الاستثناء الوحيد الخاص بعثمان دقنه - تعيشية من ذات الفرع الذى يضم الخليفة والذى عرف باسم الجبارات وتحت

(١) كان اسم « العديك » يطلق فى الماضى على النيل الأزرق .

أشرافهم وجد قادة تابعون لهم ومحصلون وشيوخ قبلون • واشتمل الترتيب الاقليمي أيضا على أمين للخزينة ووكيل قضائي (١) وكان الموظفون الماليون مسئولين أمام كل من الحاكم المحلي وأمين خزينة أم درمان الذي يتصلون به سنويا لتقديم الحساب النهائي له • ويتم اختيار القضاة الاقليميين وأحيانا أمين بيت مال الاقليم بواسطة الحاكم المحلي على أن يخطر الخليفة بالاختيار • ولكل حاكم كاتبه الخاص الذي كان يشغل دائما بالمكاتبات المطلوبة من الخليفة • ويتلقى أولئك الكتاب تعيينهم من عبد الله ويستلزم تكليفهم الطاعة الخالصة لحكامهم « مثل الجثة بين أيدي غاسليها » بالإضافة الى طبيعة وظيفتهم القائمة على الكتمان • ويبدو أن تعيين الكتاب كان مرتبطا بالحكام أكثر منه بالأقاليم ومن ثم صدر تعيين جديد لكتاب عثمان آدم عندما تولى محمود أحمد عمالة دارفور •

وتزايد عنصر البقارة في القوات العسكرية التابعة لحكام الأقاليم خلال عهد الخليفة • وبرغم أن الوحدات أو القوات النيلية واصلت القيام بدورها في القتال حتى النهاية إلا أنها لم تكن محلا للثقة كما فاقها الجهادية والبقارة من حيث العدد وزاد الاعتماد على القادة الذين يرجعون الى أصل بقارى • ومن بين رجال محمود أحمد وكبار قواده لم يكن هناك الا واحد فقط من أصل نيلي كما يبدو وهو الشائقي العطا أصول • ووجد تفاوت طبيعي في حجم القوات الاقليمية والخليط الذي تتكون منه وفقا للمسؤوليات الملقاة عليهم ومدى ما يصيبها من تغير ، فعلى سبيل المثال انكسرت القوة التي كانت بالقلابات عندما انتهى مع موت الملك جون التهديد القادم من الحبشة •

ويمكن التعرف بوضوح على التكوين القبلي للقوات المهدية من واقع هيئتي القوات التي وضعت باقليم دنقلة في عام ١٨٩٦ • فالقوات الأمامية في سوارده كانت تحت قيادة حموده ادريس الذي كان كمساعدية الثلاثة

(١) ذكر ونجت في (8 (GMRES (1890) أن تغيير هؤلاء الموظفين سنويا كان هو القاعدة ولكن الواقع هو أنهم — باستثناء نواب الخزينة — استمروا في تولى وظائفهم طالما كان الخليفة راضيا عنهم •

الرئيسيين بقاريا من الهبانية • أما القوات القبلية المعبأة فكانت مقسمة الى أربعة أرباع مسلحة بالحرا ب والسيوف ومكونة أساسيا من ربعين للبقارة تحت قيادة ضابط من الهبانية وربع من كل من الدناقلة والجعليين . والواقع ان الربعين النيليين كانا مطعنين بكثير من البقارة • وتم امداد الجهاديه بالأسلحة النارية وكان أكبر قادتهم هما اثنان من التعايشة بينما كان الضباط الذين يقلون عنهم مرتبة « رؤوس الميات »^(١) على وجه التأكيد من السودانين اى من غير العرب • وتولى حموده أيضا الاشراف على قوة من فرسان البقارة وقوة من راكبي الابل معظمها من الجعليين والدناقلة تحت قيادة دنقلاوى ومحسى^(٢) •

أما عن الجيش الرئيسى فى العرضى فكان صورة مكبرة للتكوين السابق وان بدا فيه نفس التنظيم العام وكان للحاكم العسكرى محمد بشارة مساعد هبانى هو « مساعد قيديم » انذى كان يليه فى مركز القيادة • وتكون معظم حرسه الخاص الذين انقسموا الى خمس فرق من السودانين المسلحين بالأسلحة النارية وجميع قادة هذه الفرق كانوا من البقارة وبينهم اثنان من التعايشة • واشتملت فرق المحاربين القبليين أيضا على أربعة أقسام أو أرباع اثنان منها من البقارة وواحد من الدناقلة وواحد من الجعليين والشايقية وكان هناك ثلاثة أرباع من الجهادية كل منها تحت قيادة رجل تعايشى له مساعدون من السودانين • أما الفرسان والابال (فرق تركب الابل) فكان تركيبها مماثلا لتلك التى كانت فى سوارده • ووجدت قوة مدفعية تولى قيادتها العليا مصرى يساعده سودانى تدرب فى القاهرة • وجلب معظم رجال المدفعية لدى الخليفة من الجيش المصرى السابق فى السودان • وأخيرا ترك المركب البخارى انذى كان موجودا اذ ذاك لقيادة ضابط محسى وميكانيكى مصرى^(٣) •

(١) هذا الاصطلاح يشبه الاصطلاح التركى (يوزباشى) ويعنى رئيس المائة وهى الوظيفة أو الدرجة المقابلة لكاتبين وعربت الكلمة التركية واستخدمت فى الجيش المصرى •

I R E, 48, 16 • 17

(٢)

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ ، ٣٤ - ٣٥ والمركب هى الطاهرة التى استخدمها المهدي •

وكان التكوين العام للهيئة الادارية في الأقاليم المدنية يتميز بالبساطة كما كان يتفق مع الأغراض المالية المطلوبة • واعتمد هذا التنظيم على وجود أربعة موظفين كبار هم المحصل وقائد الجهادية والكتاب وأمين بيت المال • وعند إعادة فتح السودان لم يكن بين المحصلين بقارة •

أما الجهادية الذين عاونوا في جمع الضرائب متلما فعل الباشبوزق في عهد المصريين فكانوا بمثابة قوة بوليسية أكثر منهم حامية عسكرية • وقوادها كانوا دائما من التعايشة • ووجد بعض القبط والمواليد بين الكتبة والأمناء • وكانت تتبع أحمد السني الذي تولى حكم الجزيرة ومنطقة أخرى كبرى على الجانب الشرقى للنيل الأزرق هيئة كبيرة العدد • فبخلاف قائد جهاديته كان لديه أربعة كتبة ثلاثة منهم من المواليد والرابع جعل على وعمل الكاتب المختص بالمكاتبات كوكيل محصل • وعمل اثنان ككتبة لحسابات الجزيرة والضفة الشرقية • وقسمت الجزيرة والضفة الشرقية الى ٣٠ قسما كل منها تحت اشراف ضابط له لقب وكيل • وكل وكيل اقليمى يتبعه كاتب ومندوب أو مناديب بحسب الحاجة •

والمشكلة الأساسية التى لم يستطع « عبد الله » حلها هى تحقيق الرقابة الفعلية على الحكام العسكريين لأن تباعد المسافات بين أنحاء السودان جعل ذلك أمر صعبا • وقد بدأ الخديو اسماعيل مشروعه لانشاء الخط الحديدى ادراكا منه لهذه الصعوبة ولكن محاولاته لم تشر وتعدر إعادة تشغيل الخط البرقى الذى كان بمثابة الأداة الرئيسية للرقابة والسيطرة الادارية في عهد المصريين خلال الحرب والثورة باستثناء حلقة اتصال وحيدة بين الخرطوم وأم درمان • وورث الخليفة عددا من المراكب البخارية من العهد السابق استطاع تشغيلها خاصة لنقل القوات والغلال على النيل الأبيض واعتمد الاتصال عبر معظم بلاد الخليفة على الابل ووضع نقل البريد (الهجانة) (١) تحت اشراف كزار بشر العبادى الذى عمل مع المصريين قبل المهديّة باعتبارهم وكلاء للبريد بكردفان • وقد أصر

(١) يلزم التنويه بأن هذه الفرق شبيهة في وظيفتها بفرق البريد الحكومية في عهد الأمويين والعباسيين •

الخليفة على أن تصله دائما مراسلات وافية من حكام الأقاليم وكذلك كان الحال بالنسبة لمراسلاته التي كانت رغم إيجازها متوالية . أما الأوامر انعاجلة وطلب البيانات في حالة تأخر مراسلات أحد الحكام فكانت ترسل مع مخصوص .

ولم يحاول « عبد الله » ممارسة الرقابة على الأقاليم بمروره شخصيا عليها لتفتيش أعمال وكلائه . ولعله لم يجرؤ على ذلك فان تركيز قواه في أم درمان ضمن له خلافته وأعطاه فيما بعد النصر على الأشراف وان اعتمدت سيطرته على عزمته اثباته ووجوده الشخصي . وظل حتى النهاية يمثل رأس جماعة ناجحة في نضالها ولعله كان يخطئ لو تغيب عن مركز قوته حيث كثر منافسوه وأعداؤه المستترون . وفي الأزمات استعان بالأمناء الذين أرسلوا في بعثات خاصة وجرت العادة على أن يشترك ثلاثة أو أربعة في كل من تلك البعثات وكان يتم اختيارهم من بين رفاق المهدي . ومن ثم فانهم كانوا رجالا من ذوى المكانة الدينية الخاصة والأسبقية في الحركة . وكان في اختيارهم تشریف لهم - وهو أمر هام منذ استبدل رجال هذه الطبقة بالتعايشة في شئون السلطة الدائمة . وكان من شأنهم أن يكونوا أكثر موضوعية في تقاريرهم من البقارة ذاتهم لو كلفوا بكتابة تقارير عن زملاء لهم من القبيلة . وقد أرسلت بعوث من هذا النوع لبحث مؤامرة « النبي عيسى » في القلايات عام ١٨٨٧ ولعلاج مشكلة العلاقات بين البجة والعرب سنة ١٨٨٩ ثم لاعادة الاستقرار الى دنقله بعد معركة توشكى (١) .

٢ - الإدارة المركزية ورجالها :

كانت أم درمان هي قلب حكومة المهدي وعاصمتها جغرافيا واداريا وقد أطلق عليها « بقعة المهدي » أو « البقعة » وهو تعبير سبق إطلاقه على الأماكن الأولى التي استقر بها المهدي في الغرب . وتطورت أم درمان من مجرد معسكر الى مدينة كبيرة تمتد نحو ستة أميال على الضفاف

(١) انظر ما سبق ، الفصلين الثامن والعاشر .

الغربية للنيل • وفي قلب المدينة وجدت المنطقة التي جمع فيها عبد الله أكثر أقاربه اخلاصا بالاضافة الى حرسه الخاص وهذا الجزء من أم درمان هو الذي أحيط بالنور العظيم الذي لم يبق من آثاره الآن الا باب واحد قرب شاطئ النيل • وبالقرب من هذا النور أو داخل نطاقه أقيمت المباني المركزية للمهدية وحكومتها • أما مباني المسجد فكانت ملاصقة لمدفن المهدي ومنزل الخليفة • وعلت هذا المدفن قبة كما جرى العرف بالنسبة لمدافن شيوخ السودانين وبناء هذا المدفن فوق الحجرة التي مات فيها المهدي كان عملا دينيا عاما قاده الخليفة • وشابه منزل الخليفة المتأهية من كثرة حجراته وهو المبنى الوحيد في أم درمان الذي يتكون من طابقين • وبالقرب منه وجد بيت يعقوب وليس بعيدا منهما « بيت الأمانة » أو دار صناعة السلاح وأدوات الحرب بملحقاتها • وتكون « بيت المال » أو دار الخزانة من مجموعة أخرى مختلطة من المباني تشتمل على إدارات ومخازن بالاضافة الى مطبعة حجر ودار سك للنقود •

وكان يلي ذلك سوق الرقيق ومصنع يحتكر صناعة الصابون • كل هذه المباني كان موقعها مجاورا للنهر حيث نقل مقر بيت المال بواسطة ابراهيم محمد عدلان ووجد أيضا بالقرب من النهر وان يكن أكثر تطرفا نحو الجنوب السجن الرهيب الذي عرف باسم « السائر » نسبة الى اسم مأمور السجن ادريس السائر • وشغل السوق مساحة شاسعة من الأرض غربي المدينة وعلى حافتها وكان مقسما الى عدة أقسام وفق أنواع التجارة والبضائع •

وتكون الجزء الأكبر من أم درمان من مساكن مختلطة بعضها ببعض دون تخطيط تفاوتت بين منازل من الطوب وأكواخ من اللبن تفصلها عن بعضها البعض حارات ضيقة • وكان المسجد هو نقطة البداية بالنسبة لجميع الطرق الرئيسية • وأحدها يتجه شمالا الى الحجرة وهو فضاء خال تتجمع فيه الفرق قبل قيامها بالرحلة في اتجاه مصر • وحمل هذا الطريق الاسم المشؤم « درب الشهداء » (١) والثاني يتجه من الباب

(١) في الاسلام الشهيد هو المسلم الذي يموت محاربا للكفرة •

الغربي للمسجد نحو الصحراء حيث تنهم المسيرات كل يوم جمعة وعرف باسم درب العرضه . واتجه طريق ثالث نحو الجنوب مارا بدار صناعة الأسلحة والكاره ، وهو الحصن القديم الذي أصبح قشلاقا ومقرا للجهادية ، الى حيث تتجمع الحملات المتجهة للجنوب والغرب والى حيث يتم تموين المراكب القاصدة لأعالى النيل . وعرفت هذه النقطة باسم حجرة القصير نسبة الى قلعة القصير ووجدت حجرة ثالثة على الشاطئ الشرقى للمجرى الرئيسى للنيل قامت منها الحملات ضد الأقاليم الجبشية . أما الخرطوم فبقيت مهجورة . ونقل سكانها الى أم درمان بعد وفاة المهدي كما نقلت الخامات من مبانيها لبناء مقبرة المهدي . ولم يبق بها عاملا سوى الترسانة (دار الصناعة البحرية) التي ربطت بأم درمان بخط برقى .

وتركزت في شخص الخليفة عبد الله السلطة الادارية في حكومة المهدي واعتمدت عليه كلية فلم ينفرد هو بكل السلطة في التنظيم الحكومي فقط بل انه أيضا كان المحرك الأول لهذه الأداة . ولم تقلل الرفاهية المتزايدة في حياته ولا انحرافاتة الصحية - وأحدها على الأقل كان بالغ الخطورة - من قدرته على السيطرة على شئون الدولة . ولم يكن من الممكن الوصول الى قرار سياسى على أى درجة من الأهسية دون الرجوع اليه . والواقع أن الأمر بقى طوال حكمه في يده هو وحده .

ومن المسلم به أنه كان يستشير يعقوب وفي أواخر أيامه كان يستشير عثمان شيخ الدين بانتظام . وهناك اشارات الى خلافات مرة وقاسية حدثت بين شقيقه وابنه ولكن من المحال التأكد من نوع ما كان لكل منهما من تأثير على تصرفاته واجراءاته أو اثبات عدم صدق ولأتهما له (١) ومن المؤكد أن الخليفة كان له مستشارون آخرون . فيظهره يوسف ميخائيل في أواخر أيامه وهو يطلب استشارة أهل البصيرة من رجال قبيلته الذين استطاعوا بفضل أحاديثهم عن الذكريات المجيدة التأثير في

(١) يمكن الرجوع الى هذا الكتاب بشأن العلاقات بين يعقوب وعثمان وإيضا بشأن وضعهما في حكومة المهدي .

عثمان شيخ الدين ووضع حد لاستهاتته • وتضمن العمل الروتينى الذى كان يقوم به يوميا الاجتماع فى المسجد برجال قضائه وكبار الشخصيات حيث كان يملئ قراراته ويفحص مخالفات ابياعه • وقد درر أحدهم فيما بعد لنعوم شقير « أن هذه الساعة كانت من أشق الساعات عليهم وفى مناسبات خاصة كان يعقد اجتماعا لمجلس الحكومة يدعى اليه الأحياء من رفاق المهدي البارزين • وفى أحد هذه الاجتماعات صدر القرار بالقضاء على الخليفة محمد شريف • وفى اجتماع آخر عقد فى ٢٣ شعبان ١٣٠٩ (٢٤ مارس ١٨٩٢) أعطيت للخليفة سلطة مصادرة جميع المراكب النيلية لصالح الخزينة (١) « ولا شك أنه قصد بهذا القرار الأضرار بالدخلة باعتبارهم أهم أصحاب القوارب ولما كان كل من هذا القرار والقرار السابق له الخاص بالقضاء على الخليفة محمد شريف مما يشير سخط القبائل النهرية فإن هدف عبد الله من أخذ الموافقة عليهما بواسطة مجلس من شيوخ معظمهم من أولاد البلد أمر واضح • وأخيرا فقد كانت هناك المجالس او الاجتماعات التى تعقد بانتظام بمناسبة الرجبية (٢٧ من رجب) وعيد الأضحى (العاشر من ذى الحجة) وكان من عادة الخليفة أن يحدد فى الرجبية سياسته بالنسبة للعام التالى •

وكما كان الحال فى عهد المهدي فإن الوظيفتين الرئيسيتين بقيتا كما هما أى أمين بيت المال وقاضى الاسلام • أما الترسانة ودار صناعة الأسلحة فكان لكل منهما رقباء كما كان « حاكم دار البوليس » رجلا مهما فى أم درمان مسئوليته الأساسية هى حفظ النظام فى الأسواق •

ولم يمتد استئثار البقارة والتعاشية على وجه الخصوص بالمناصب الى أكثر من وظائف الحكام العسكريين والقادة الرئيسيين لأنه لم يكن لديهم صلاحية للمراكز الكتابية أو الفنية فاحتاجوا لخدمات مجموعة من الأتباع المدربين أخذ معظمهم من « أولاد البلد » • من لم تعرضت أمانة بيت المال لأحداث مؤلمة حيث شغلت هذه الوظيفة بأفراد ينتمون

(١) القرار الصادر عن هذه الجلسة موجود فى مكتبة جامعة كيمبردج

تقوم لا يضع فيهم الخليفة الا قليلا من الثقة • فأحمد سليمان المحصى عزل وسجن • وابراهيم محمد عدلان من ود مدني شق •

وخلال معظم ما بقى من حكم للمهدية تولى أمانة بيت المال النور ابراهيم الجريفاوى^(١) وأصله غير مؤكد وان يكن من غير البقارة ، وعوض المرضى وهو من الموظفين الذين عملوا مع الحكم المصرى السابق وقد نقل الجريفاوى الى دار سك النقود بينما عزل عوض المرضى مرتين من منصبه ، وشغل أمانة بيت المال فى العام الأخير ثلاثة أفراد أحدهم ابراهيم رمضان الذى رافق محمد خالد فى رحلته المشؤومة من دارفور •

وقد أمدتنا قائمة أعدت بعد استعادة السودان مباشرة (٢) بفكرة عامة عن الهيئة التى عملت فى الحكومة المركزية وفى الادارات الفنية • وتحليلها نجد أنه من بين ١٥٢ موظفا مسجلا بها كان هناك ٦٣ من المصريين الأقباط أو المولدين ، وانتسب ٣٨ القبائل الشمالية النهرية ، ٣٢ من غير العرب « سودانيون » ومن الباقين ٨ جاءوا من عرب كردفان ودارفور ، ٦ من الشعوب غير العربية فى ذات الاقليم أو ما يقع الى غربه ، واثنا من العبايدة ، وثلاثة من أصول غير معروفة •

ومما يلفت النظر الطريقة التى تم بها توزيع العناصر البشرية بين الأعمال المختلفة - ففى بيوت المال المركزية الأربعة ، اذا استثنينا الأقسام الملحقة بها مثل شئون المراكب وسك النقود والمطبعة - نجد بين العاملين فيها ١٢ شماليا ، ١٠ مصريين من القبط أو المولدين وأربع فقط من أصول أخرى أحدهم هو أمين بيت مال الحرس الخاص الذى

(١) سلاطين : النار والسيف ص ٢٧٧ ويذكر أن جسد النور تكبروى Hill. فى كتابه Bing. Det. ص ١٧٦ يرى أنه كان شائقيا ولعل لقب الجريفاوى ينسب الى قرية الجيراف على النيل الأزرق على بعد عدة أميال من الخرطوم •

(٢) توجد هذه القائمة فى صورتين الأصل العربى موجود فى وثائق : المهديّة ١/٤٣ ، ٨ ، ٢ ، والترجمة الانجليزية التى طبعت فى ١٩٠٤ - ١٩٠٥ ، وقد قارنا بين الاثنين ولاحظنا أن القائمة العربية حذفت صناعات الترسانة واسما أو اسمين آخرين ولكنها عموما أوضح من الترجمة الانجليزية وأدق •

كان من التعايشة • وكانت للجعليين أهمية خاصة في إدارة بيوت المال • وكان المشرف على دار صناعة الأسلحة من دارفور ولكن مساعدته كانوا اثنين من المولدين وجعلى ، أما المشرف على الترسانة فكان مولدا و كاتبه من المحس •

ولم يكن العنصر الجعلى بارزا في الوظائف الفرعية حيث يحتاج الأمر الى فنيين مدربين أكثر مما يحتاج الى هيئة كتابية • وفي المطبعة كان المشرف عليها واحد من كتبها الدناقلة بينما الكاتب الآخر ورئيس العمال والمشرف على التجليد من المولدين • وكانت الهيئة القائمة بالعمل في الورش المحيطة بدار الصناعة لانتاج الذخيرة واصلاح الأسلحة كلها بدون استثناء من المصريين أو المولدين • وبرز العنصر السوداني بين الفنيين العاملين بالترسانة حيث يصل عددهم الى ٢٩ من بين ٤٧ عاملا بينما كان الباقي وعددهم ١٨ من المصريين أقباطا ومولدين • وقد أبقى الخليفة لبضع سنوات على نظام التلمذة الذي أشرف بمقتضاه المصريين والمولدين الفنيون ممن حصلوا على تدريب في العهد السابق ، على اعداد جيل جديد من الصناع الذين أخذ بعضهم من الجنوب •

وقد احتاجت الادارة المركزية لخدمات عدد كبير من الكتاب • وبخلاف أولئك الذين لهم اتصال بالأقسام ممن سبقت الإشارة اليهم فان القائمة تحوى أسماء أربعة كتاب لكل من الخليفة ويعقوب ، ٣ كتاب لكل من عثمان شيخ الدين وجماعة الراية السوداء ، وأربعة لجماعة الراية الخضراء واثنان للحرس الخاص • ومن بين هؤلاء الكتبة العشرون اتسب أحد عشر لأصول نهرية بما في ذلك بعض الجعليين ، ستة للعنصر المصرى سواء من القبط أو المولدين واثنان من الغرب من غير العرب وواحد جنوبى •

وهناك حقيقة هامة تبرز مع تحليل هذه القائمة وهى أن نحو من ربع الى ثلث الموظفين في الأقسام الرئيسية كانوا ممن سبق لهم العمل مع الحكم المصرى - وحتى اذا استبعدنا من الرقم الاجمالى ٥٣ من الحرفيين فان النسبة تكون أعلى اذ عمل ٤٤ موظفا من بين ٩٩ لمدة

لا تقل عن ١٤ عاما في السابق مع الادارة المصرية • وكثير منهم شغلوا وظائف مماثلة خلال العهدين وفي كلا الحكومتين • فالخدمة البرقية شغلها كلها رجالها السابقون دون تغيير وعمل أمين الزكاة في الخزينة العامة كمشرف حسابي لخزينة الخرطوم والكاتب الأول كان كاتباً بشار واثنان آخران عملاً ككتاب قبل عهد المهدي • ويمكن الكشف عن وظائف مماثلة عند فحص حالة العاملين بالخزائن الأخرى ودار الصناعة وبين الكتاب الخصوصيين وشغل مكانان على الأقل في الترسانة البحرية رجال عملوا بها تحت حكم المصريين • والاستمرار في هيئات العاملين بين العهدين المصري والمهدي أكبر بكثير مما عرف على وجه الاجمال • ومع أنه كان هناك انقطاع أو استبعاد مؤقت لمثل هؤلاء خلال مرحلة جهاد المهدي الا أنهم أعيدوا لأعمالهم خلال حكم الخليفة • ومن الواضح أيضاً أن الأوتوقراطية التعايشية اعتمدت حتى في أوجها على القبائل النهرية والمولدين في القيام بالأعمال الروتينية وفي تحرير المراسلات التي اعتمدت عليها إدارتها • ولا يوجد من ينكر وجود عداوة خفية بين البقارة وأولاد البلد اشتعل أوارها أحيانا قبل ثورة الإشراف وتمرد المتهمة • ولكن لا يجب لهذه الأحداث الدرامية الحمقاء أن تخفي العلاقات الطبيعية التي أراح عنها الستار التاريخ الإداري لحكومة المهدي •

٣ - الزراعة ، التجارة ، المال : الخزائن المركزية :

كانت الصورة الاقتصادية للسودان خلال حكم الخليفة قاتمة ، فقد استنزفت الزراعة في سبيل امداد التنظيم العسكري المتضخم بما احتاج اليه • وما لم يتول أمره المحصلون تولاه الجنود الجائعون أو الخارجون عن النظام وقلبت التعبئة القبلية والهجرة الاجبارية للسكان التوازن الاقتصادي • فقد طرد مزارعو الجزيرة جزئيا من أراضيهم التي وضعت في أيدي البقارة المهاجرين •

واتشرت الأوبئة والمجاعات وأخصها مجاعة ١٣٠٦ هـ التي بقيت في الذاكرة فترة طويلة • وعلى كل فمن العدل أن تدرس الأحوال في ظل الحكم المصري قبل أن تصدر الحكم بتدهور الموقف خلال عهد

ال خليفة • ومن الأحكام الخاطئة ذلك الذى جرى تناقله بأن السكان انكمشوا خلال المهديّة من ثمانية ملايين الى مليونين لأنه انبنى على معلومات متناقلة ووقتيّة ولم يستند الى احصائيات معروفة فلم يسبق للإدارة المضريّة قبل المهديّة ولا للحكم الثنائى فيما بعد أن قام بتعداد رسمى •

ولعل دراسة الفرق العسكرية التى جرى تحريكها أو تسريحها وغيرها من المواد الاحصائية الموجودة فى أرشيف المهديّة بالخرطوم كفيّلة باعطائنا صورة أكثر دقة للتعداد فى عهد حكومة المهديّة مما قدم سابقا •

وقد فشلت الاجراءات التى اتخذها « عبد الله » من حين لآخر لمنع الاضرار بالمزارعين ، وحاول العمل خلال فداءات وتعليمات أصدرها لعماله وأن تعذر عليه ضبط سلوك وكلائه العسكريين وموظفيه لأنهم لم يملكوا الا قدرا محدودا من السيطرة على رجالهم ومما يوضح الموقف خلال المرحلة الأخيرة من الحكم تلك المراسلة التى تبودلت فيما بين محمود أحمد والخليفة فقد مسحت شواطئ النيل وجزره من المتمة وشندى شمالا بواسطة قوات محمود بحثا عن الغلال •

ومع تزايد الأزمة اتجهت بعض الفروع جنوبا مع الشاطئ الشرقى الصاعد حتى الاقليم المواجه لأم درمان • ولم يستطع محمود إيقافهم عند حدهم وتعامل الخليفة معهم بخير ما استطاع ولكن القوة الدينية التى استند اليها وقفت عاجزة أمام الانصار الجياع ممن يحملون السلاح • ولم يكن فى الامكان وضع حد لسلوكهم الا بآخرين فى مثل استماتتهم • أما أوامر الخليفة المتطرفة التى لم تكن تقبل المناقشة فلم تكن دليلا على قوته وجبروته بقدر ما كانت الدليل على عجزه ازاء المارد العسكرى الذى صنعه يده •

ولقد أساء عجز الخليفة عن حماية المزارعين الى رخاء دولته ولكنه أدرك على الأقل أهمية الزراعة وضرورتها وحاول أن يحد بشدته من عنف قواته ومحصلى الضرائب وإن لم يصب فى ذلك سوى قليلا من النجاح •

ولم تجد التجارة منه حتى هذا القدر المحدود من التعاطف والمعونة فعبد الله بصفته منتسبا لقبيلة رعوية اتصفت بالتأخر والعزلة لم يكن في نفسه الا القليل من التعاطف على تجار وادي النيل . وأكدت اتجاهاته الدينية تفكيره العقلي . وأدى التصاقه بالمهدى الى تقوية الجانب الغيبي في طبيعته كما أعماه حماسه الديني عن الاعتبارات الاقتصادية فجميع العالم بالنسبة له خارج حكومة المهديّة « دار حرب » لا علاقة له به الا علاقة الغزو والحرب ومراسلاته مع منليك (١) تكشف عن هذا الاتجاه ومن ثم فإن وجود تجارة خارجية أمر غير شرعي ومناقض لمبادئ المهديّة . وفيما يتعلق بمصر فإن عدااء الخليفة للتجارة عززه خوف طبيعي جدا من الجواسيس .

ويتمثل اتجاه عبد الله في نداء صدر عنه في سنة ١٣٠٤ هـ ووجه الى التجار القادمين من مصر في وقت كان فيه جهاد المهديّة ضد مصر أمرا متوقعا ومنتظرا وقد جاء فيه ما يلي :

« وحيث أن أهالي السودان الآن في حكم المهديّة وموضوع أمرها الدين والاتفات لما ينفع في الآخرة من الأعمال المقربة الى الله كالجهاد ونحوه لا الانشغال بالدنيا وان جهتكم الحاضرين منها الآن هي في حكم الكفرة والمواصلة بين أهاليها وبين أهل البلاد التي هي في حكم المهديّة لا تصح وان حضوركم على ذمة التجارة فقط لا غير فمن باب الأصاح في الدين فقد رأينا أوفقية عدم بيع البضائع التي حضرتم بها في السودان ... وان شاء الله بعد دخول بلادكم في حكم المهديّة وانتزاعها من أيدي الكفرة يكون الاتصال التام فيما بينكم وبين أهالي السودان (٢) »

ومع ذلك وبرغم المنغصات والعقبات ظلت التجارة مستمرة طوال حكم عبد الله . وقد وجدت ثلاثة طرق للتجارة أحدها يسر ببربر شمالا الى الحدود المصرية في كورسكو أو أسوان ، والثاني يسر ببربر شرقا الى

(١) انظر الفصل الثاني عشر .

(٢) وثائق المهديّة ٣١/٢ ، ٤ ، ١١٢ .

سواكن ، والثالث يخترق كسلا الى مصوع . ولا يمكن تحديد مقدار التجارة التى كانت تتخذ من الطريق الأخير سبيلا لنقلها وان أمكن الحصول على بعض أرقام خاصة بالتجارة مع الحدود المصرية وسواكن من ادارة المخابرات . ففيما بين ٢٠ ديسمبر ١٨٩٢ ، ٢٨ يناير ١٨٩٤ قدرت صادرات السودان الى مصر بمبلغ ٨٢٩٧ جنيه والواردات بمبلغ ٨٤٢٩ جنيه وكانت تجارة سواكن أكثر قيمة مما ساعد على اعادة التوازن ففي ذات الفترة بلغت قيمة صادرات سواكن ٩٠٩٠٩ ووارداتها ٤٧٢٩٧ وذكر أن أهم الواردات خلال عام ١٨٩٠ كانت السكر والبن والزبدة والزيت وبضائع مائستتر والجبن والعطور بخلاف المهربات من الدخان والحشيش والأفيون وأحيانا الذرة كما جاء قدر طيب من الدقيق من سواكن بصفة مستمرة قبل غلق أبوابها (١) هذا بخلاف المواد الحربية مثل الرصاص وملح البارود التى كانت تهرب من الحجاز . أما أهم صادرات السودان فكانت الصمغ وسن القيل وحتى عندما لم تكن التجارة الخارجية مقيدة سواء من قبل الخليفة أو السلطات الانجليزية المصرية فان عوامل عدة تضافرت على تشييطها - فموقف التجار الأجانب (المصريون على سبيل المثال) كان شائكا فتجارتهم بل وأرواحهم كانت تحت رحمة الموظفين المحليين والضرائب كانت عالية وهى أصلا $\frac{2}{3}$ تدفع كزكاة عن قيمة البضائع ولكن عندما أصبح ابراهيم الجيرىفاوى أمينا لبيت المال فرضت ضريبة أخرى قدرها $\frac{10}{100}$ وهى العشور (٢) وكانت تدفع فى عام ١٨٩١ فى كوكرايب على طريق سواكن بربر وفى العرضى وبربر وكسلا والقضارف . وكان على التجار استخراج شهادة بما دفع كزكاة وعند وصول البضائع لأم درمان يدفع « عشر » آخر هناك .

والعامل الثالث الذى عاق التجارة هو عدم وجود عملة طيبة الأمر الذى تسبب فى أزمة فعلية فى أوائل حكم الخليفة • وكانت العملات المتداولة متنوعة منها الريال الأسباني والنمساوى (ماريا تريزا) (١) والتركى (المجيدى) وقد أطلقت أسماء دارجة على المسكوكات المختلفة وان أطلق عامة على العملة السودانية اسم « مقبول » وقد حاول الخليفة فى أوائل عهده - متبعا فى ذلك سنة المهدي - علاج مشكلة العملة باعلان سريان قيمة العملة رسميا وفقا لما هو مدون عليها بصرف النظر عن قيمتها الفعلية •

وقد ازداد الموقف سوءا فى الأعوام التالية مع توالى التدهور فى العملة المهدية • فقد اكتشف أن استبدال الفضة بجانب أكبر من خليط معدنى فى صناعة العملة يحقق كسبا طيبا لبيت المال • وفى عهد ابراهيم محمد عدلان نقصت كمية الفضة فى الريال المهدى من سبعة أثمانه الى نصفه • وأنقص النور ابراهيم الجيرىفاوى وزن الريال بمقدار الثمن وتزايد الهبوط فيما بعد حتى اقتصر استخدام الفضة على مجرد طلاء خارجى سرعان ما يصيبه التآكل • وبالإضافة الى هذا فان استمرار تزييف العملة أدى الى أزمة ١٨٩٤ فى النقد والى اصدار « العملة الجديدة » ولم يترتب على هذا الاجراء أى تحسن واقعى (٢) •

وتتميز السنوات الأخيرة من عهد عبد الله بتقديم ملموس فى الشؤون المالية سواء المتعلق منها ببيت المال ونظامه أو بالضرائب المفروضة • وصاحب تطور نظام الحرس الخاص وتزايد رجاله بعد عام ١٨٩٢ انشاء خزانة خاصة عرفت باسم « بيت مال الملازمة » ومن المؤكد أن هذه الخزانة كانت موجودة فى عام ١٨٩٤ حيث ورد فى تقارير شهر فبراير من ذلك العام « أن الضرائب التى تجمع من البلاد الواقعة على الضفة الشرقية للنيل الأزرق خصصت لتغطية أجور حرس الخليفة الخاص » (٣) وكان

(١) عرف بالاسم التركى العربى ريال خشلى بمعنى ريال الطائر نسبة الى النسر النمساوى المرسوم على العملة •
(٢) انظر ما سبق فى الفصل الحادى عشر •

باشكاتب فاشوده أول أمين لهذه الخزينة وسرعان ما خصصت لها أيضا ضرائب الجزيرة • وعند استعادة السودان كانت هذه الخزينة تتلقى بالإضافة الى ما سبق إيرادات اقليم الحدود الجبشية (١) •

وهناك خزينة أخرى خاصة يرجع انشاؤها الى ما قبل هروب سلاطين في فبراير ١٨٩٥ وهي خزينة الخليفة الخاصة وأطلق عليها سلاطين « بيت مال الخمس للخليفة » وأطلق عليها شقير « بيت مال الخليفة للخمس والنقء » • وعرفت في العادة باسم « بيت مال النقء » • وليس من شك فيما كان للخليفة من خزينة خاصة (غير رسمية) لبيته منذ بداية حكمه أو ما قبل ذلك • ولكن يبدو أن تحول هذه الخزينة الى ادارة حكومية صاحب زيادة الأوتوقراطية التعايشية بعد ثورة الأشراف • والخمس المشار اليه (ولا يقصد به الخمس حرفيا) كان يمثل جزءا أو جانبا من البضائع والأموال التي تؤخذ كغنيمة في الحرب أو من القبائل المتمردة • أما النقء فشمل اقليم دنقله بأكمله وكما هو ظاهر أيضا جميع الجزر والمناطق التي تشمل اقليم الحلفاية والكاملين التي كانت ملكا للخديو سابقا • وامتلكت الخزينة الخاصة عددا كبيرا من المراكب ويبدو أن مصادرة المراكب حدثت أكثر من مرة • ففي عام ١٨٩٠ تقرر اعتبار جميع المراكب ملكا لبيت المال وتم الاستيلاء عليها (٢) ومرة ثانية في عام ١٨٩٢ (٢٣ شعبان ١٣٠٩) صدر القرار العالي للمجلس الكبير الذي سبقت الاشارة اليه بمصادرة جميع المراكب الموجودة لحساب بيت المال اذا ظهرت حاجة طارئة اليه كما تقرر أن تدفع ضريبة سنوية (٣) • ويبدو برغم عدم الاشارة الى الخزينة الخاصة في القرار أو الدكريتو السابق فانه هو الذي تلقى المراكب المصادرة في هذه المناسبة بالإضافة الى الضريبة

(١) وثيقة بدون أرقام انظر وثائق المهديّة / ٢ التي جمعتها المخابرات العسكرية المصرية فور سقوط أم درمان .

G M R E S (1890), 9 (٢)

Cambridge University Library, M. S. Or. 234 C. F. (٣)

report of Ahmad Muhammad Kawi in I R E, 27, 4

السنوية وليس بيت المال الأصلي • وقد أشير الى الضرائب في تقرير أعد بعد اعادة الفتح مباشرة ثبت منه أن بناء مركب كان يحتاج أولا الى ترخيص لا بد من الحصول عليه من أمين بيت المال الخاص الذي يحدد بالتبعية الضريبة التي تؤخذ من المراكب • ويذكر هذا التقرير في جزء آخر منه أن مراكب بيت المال الخاص كانت تسلم للمعديات (ربما في المنطقة المجاورة لأم درمان) التي كانت تؤجر للتجار أو تستغل بواسطتهم (١) وتلقى بيت المال الخاص أيضا العثور على البضائع القادمة من بربر لأم درمان وجانب من ميزانية الخزائن الاقليمية وكل الرقيق القادم من الأقاليم (٢) •

وهكذا فقد بيت المال الأصلي موارد ذات قيمة للدخل وأصبح يعرف في هذا الوقت باسم « بيت مال العموم » لتمييزه عن بيت المال الخاص وبيت مال الحرس الخاص وأيضا لتمييزه عن قسمين أقل دخلا هما خزانة ادارة الحرب وخزانة شرطة السوق بأم درمان (٣) • وقد جاءت موارد بيت مال العموم من الأقاليم المدنية باستثناء تلك الأقاليم (الجزيرة أو الضفة الشرقية للنيل الأزرق) التي خصصت لخزانة الحرس الخاص ، والضرائب الأساسية وهي زكاة الفطر • والأخيرة كانت بمثابة ضريبة رأس على كل فرد تدفع في نهاية شهر رمضان • وجمع جانب كبير من الزكاة عينا خاصة من الذرة واحتفظ بيت مال العموم بكشوف حساب

S I R, 60, 147

(١)

Slatin : Fire and Sword, 539.

(٢)

G R E S (1895) 8

ولعل المقصود هو الذكور من الرقيق وحدهم حيث كانوا يدرجون في الجهادية والحرس الخاص •

Slatin, F and S., 540; G R E S (1895) 8-9

(٣)

ويبدو أن استقلال هاتين الخزينتين كان مؤقتا حيث أن بعض بنود الدخل والصرف فيهما وردت أيضا في حسابات بيت مال العموم في عام ١٣١٤ - ١٣١٥ • وهناك خزانة أخرى مؤقتة هي الخاصة بالجهادية وقد ذكرت في تقرير محمد هندی فبراير ١٨٩٤ (IRE. 2٩, 2) وخصص لها الدخل الوارد من الاراضي الواقعة على الضفة الغربية للنيل الأزرق التي كانت تدفع لخزانة الحرس الخاص •

شهرية تبين كميات الحبوب التي يجرى تسليمها من هذا المصدر وغيره وكيفية توزيعها • أما النقد الذي كان يتم تسليه عن الزكاة أو الفطر فكان قليلا بالنسبة لما سبق • ومن الموارد المربحة للدخل مصادرة (تجريد) أموال الأعداء والمخالفين • ومثلت الغرامات التي كانت تفرض على المدخنين ومن يتناولون المشروبات مصدرا منتظما للدخل بالنسبة الى هذا البند • وعرضت الخزينة ما كانت تعانيه من نقص أحيانا بالضغط على أشخاص من ذوى الثراء المعروف • وهكذا جرى فيما بين شهرى صفر وجمادى الثانية ١٣١٥ ارغام الياس أم بربر ، الذى ساهم كثيرا فى قيام الدولة المهدية ، على دعمها فى وقت انحلالها • وأخذت منه أموال وأملأك قيمتها ٨٤٩٠ ريال ، متفاوت بين مبلغ ستة آلاف ريال أخذت منه نقدا فى شهر صفر ، وبين حمار قيمته ريال أخذ منه فى شهر ربيع الثانى •

ومن أساليب الحصول على الأموال من أصحاب الثراء ما جاء تحت بند (تبرعات) وهو أشبه بما عرف فى التاريخ البريطانى باسم الاكراميات • وقد قدم تجار الصمغ والسمسم تبرعات أو اكراميات منتظمة وتم الحصول على مبالغ أخرى من بعض الأفراد (دفع أحدهم ٢٠٠٠ ريال فى احدى الحالات) وتحت بند « مساعدات » ورد مبلغ يزيد على عشرة آلاف ريال فى شهر صفر ١٣١٥ هـ • وقد تلقى بيت مال العموم شأنه شأن بيت المال الخاص حظا طيبا من الغنيمة فى شهور قليلة من عامى ١٣١٤ - ١٣١٥ ، لم تندثر كشوف حساباتها (١) ، حدث نمرد الجعيلين بالمتمة ؛ وبرغم الكثير الذى تسرب ليدى محمود أحمد الا أن مالا كثيرا دخل بيت المال لا يقل عن مائة ألف ريال تحت بند

(١) توجد صور فوتستات فى وثائق مهدية ٢/ لكشوف حساب تطفى الفترة من شوال ١٣١٤ (الاثنى عشر يوما الأخيرة منه) الى رجب ١٣١٥ ويمكن الاطلاع عليها فى مكتبة

الغنائم فيما بين ربيع الأول وجمادى الثانية ١٣١٥ هـ (أغسطس - نوفمبر ١٨٩٧) •

وقد استقى مورد ثابت وان كان غير منتظم من تجارة الصمغ واستولى بيت مال العموم على ثلث كميات التجار مما جلب حصينة تراوحت بين سبعة آلاف وسبعة وأربعين ألف ريال في شهور متتالية حسب ما ورد في قوائم الحساب التى بقيت سليمة • وأضيفت الأرباح المستقاة من سك العملة ومن التبادل لبيت مال العموم كما أضيف ايجار المحلات التجارية التى كانت تضاف فى عهد سلاطين الى خزانة الشرطة • وكان على المنتجات السودانية أن تقدم العشور • وقد سجلت بعض هذه المنتجات فى كشوف الحساب مثل البن والعسل وريش النعام والفلفل • وتاجر بيت مال العموم فى كثير من الأشياء ، ماشية من الغرب وابل زائدة عن الحاجة فى هيئة البريد الحكومية وما يزيد عن الحاجة من انتاج التريزة والخطاين التابعين لها • وكان هناك عدد كبير من لبنود المتفرقة • وقد أدرج بينها سلاطين فى عام ١٨٩٥ ضريبة المراكب والمعديات • ولعل هذه البنود أضيفت لبيت مال العموم وأحياناً أخرى لبيت المال الخاص •

وقد انصب معظم ما كان ينفق من بيت مال العموم على الأغراض العسكرية والأجور أو المعاشات • ومن ثم صرف فى شهر ذى القعدة ١٣١٤ (ابريل - مايو ١٨٩٦) ١٠٤٩ ريالا لجهادية الكاره ، ١٥٩٠ ريال للمدفعية • وصرفت مبالغ أخرى أصغر لحساب القوة الموجودة فى دنقلة ولحساب التعايشة • ودفعت هذه الخزينة أجور رجال بريد الابل وبحارة المراكب البخارية والعمال فى مصنع الذخيرة والمؤذنين وموظفى المحاكم والمطبعة والسوق • وتلقت أرامل المهدي معاشات تصل الى ٦٠٠ ريال مقبول كما تلقى شيخ الدين مائة ريال بينما تلقى كل من الخليفين الأصغر ٣٠٠ ريال • وان صرف مبلغهما بالريال المقبول المنحط القيمة بينما صرف لشيخ الدين المبلغ المخصص له بريال ماريا تريزا • ويرينا كشف الحساب الخاص بشهر ذى القعدة من عام ١٣١٤ هـ قدرا كبيرا من المصروفات على

بنود متفرقة من بينها تكاليف بيت الضيافة وثمان جلود عشر بقرات
سغطية الطلبة الكبيرة .

٤ - القضاء :

يبدو أن محاولة بذلت في عهد عبد الله لإعادة تنظيم القضاء أشبه
بذلتي التي بذلت لإصلاح بيت الله تحت إشراف إبراهيم محمد
عدلان . وعندما فقد الأشراف مركزهم الممتاز وجد قاضي الإسلام
أحمد علي نفسه وقد ازدادت وظيفته قوة (١) وفي شهر صفر ١٣٠٤
(نوفمبر ١٨٨٦) تقريرا عين سليمان الحجاز وديلا للمحكمة وصدرت
معظم القرارات والأحكام بختمها سويا . ومارست محكمة أم درمان
(محكمة الإسلام) مهامها عدة بالإضافة إلى اختصاصها الخاص بانفصل
في الشئون القضائية المحلية فنظرت في الحالات التي أحالها إليها الخليفة
بالإضافة إلى شكاوى الأفراد العاديين من خارج العاصمة . ويعطى
ما تبقى من أوراق أحمد علي أمثلة لكل هذا . فمثلا تقدم شخص
يدعى الأمين خوجلي في عام ١٣٠٧ ، وهو من عائلة متدينة تعيش في قبة
خوجلي قريبا من الخرطوم بحرى المدينة بشكوى للقاضي والوكيل ضد
جار له منح أرضا من بيت المال وكان يحاول آنذاك تجريدته من جانب
مما امتلكه وراثيا . واستند الأمين في شكواه إلى أن أرضه « لم تدخل
ضمن أرض الغنيمة وما أشبهها فضلا عن أنه وضع منذ بدء حصار
الخرطوم تحت حماية رفاق المهدي لأن قرية القبة نفسها كانت حصنا
للأنصار وأن أرضه بالذات كانت ضمن الأرض المحمية (٢) » ومما يؤسف
له عدم علمنا بما انتهت إليه الشكوى من نتائج .

والحالات التي كانت ترسل للمحكمة من قبل الخليفة هي الشكاوى
التي كانت تقدم إليه في أمور لها صلة بالشرع والقانون . ومن ثم

Chrwalder : 214 - 215.

(١)

ويخطئ أورفالدر بطبيعة الحال عندما يذكر أن عبد الله عين أحمد
على قاضيا للإسلام .

(٢) وثائق المهدي ٤٢/١ ، ٥ ، ٣٣ .

أحيل لأحمد على وسليمان الحجّاز في ١٣٠٤ هـ الفصل في شأن بعض
ماشية وبضائع صودرت من الجوامعة على يد أحد ضباط النجومى .
وفي ذات العام حول عثمان آدم للخليفة شكوى زوجة من اعتداء زوجها
عليها بالضرب وطلبها الطلاق ومن ثم أحيلت شكواها للقاضى والوكيل
اللذان لم يفتحا بالقصة ورفضوا الدعوى .

وكثير من الأوراق والمستندات الباقية تمثل عرائض موجهة
لأحمد على وسليمان الحجّاز مضمونها الشكوى من الاغتصاب وطلب
اصدار أمر « للعامل » أو المحصل المحلى ليحث الحالة . ويبدو أن مثل
هذه الأوامر كانت توضع موضع التنفيذ بصورة آلية وجرت العادة
على تنبيه العامل الى عرض الحالة أمام وكلاء القضاء المحليين . وكثيرا
ما وردت عرائض وشكاوى من جنّات بعيدة - ففى شهر رجب ١٣٠٧ هـ
(فبراير - مارس ١٨٩٠) شكا رجلان من استيلاء مندوب محمد عثمان
خالد الذى كان يعمل فى ذلك العام كمحصل فى مقاطعات خرسى والطيارة
على غلالهما وبضائعتهما قسرا أو بالاغتصاب . وأجاب أحمد على وسليمان
الحجّاز على الشكوى بتأنيب طويل لمحمد عثمان خالد لعدم اتباعه
الكتاب والسنة ونداءات المهدي بشأن جمع الزكاة مع التنبيه عليه
بكتابة تقرير عن مدى صدق الشاكى فى شكواه .

وحدد سقوط أحمد على فى عام ١٨٩٤ نهاية المكانة البارزة التى
أعطيت لهذه الوظيفة . وترجع أهمية الفترة القصيرة التى اتصفت
بعدم الاستقرار والتى شغل فيها الحسين ابراهيم ود الزهرة المنصب
الى أنها كشفت عن عدم وضوح اختصاصات قاضى الاسلام بسبب ارتباطه
الثنائى بكل من السلطة السياسية ونواحي الشريعة (١) .

ويبدو أن لقب قاضى الاسلام اندثر مع سقوطه . وفى قائمة موظفى
المهدية، كما سجلت عند استعادة السودان، لا توجد إشارة لأى من قاضى
الاسلام أو لوكيل المحكمة . فعلى قمة القضاء وجد « قاضى العموم »

(١) انظر نهاية الفصل الخامس حاشية رقم ١ .

ومعه ستة نواب لاثنتين منهما مهام خاصة متصلة بالحرس الخاص • وبين الأسماء التي وردت بالقائمة لم يكن منها الا اثنان من الرجال ذوى الاعتبار والمكانة السابقة هما النائبان عبد القادر أم مريوم ومحمد المكي أبو حراز اللذان كانا من رفاق المهدي واشتركا في اصدار قرار اعدام الخليفة محمد شريف • وقد مارس محمد المكي القضاء في العهد المصرى هو وأحد زملائه •

ووجدت محاكم جزئية بأمر درمان تختص بشئون معينة • ويحتمل أن محكمة السوق عملت متعاونة مع قائد الأمن محمد حسين وهو الذى شغل وظيفته لسنوات عديدة وسبق له العمل كقائد لقوات غير نظامية • ويكشف أمر موجه لهذه المحكمة في عام ١٣٠٧ ما لها من سلطة لزوج الأفراد في السجن • وكانت تلك المحكمة مكونة آنذ من نائبين وعدد من « المصلحين بالسوق » وقد أصبح محمد المكي أبو حراز فيما بعد نائبا في هذه المحكمة • وعند استعادة السودان كان تكوينها مشتملا على أمين وأربعة مساعدين وكاتب • ووجد مجلس قضائى أصغر له اختصاصات محلية عرف باسم محكمة الموردة • وتكون من أمين ونائب وكاتب • وأكثر مما سبق أهمية محكمة بيت المال التى اختصت بتماع الحالات المتصلة بالشئون المالية ؛ وعند استعادة السودان تكونت من نائب وموظف مختص بقسم الدعاوى وكاتبين •

ومن سوء الحظ أنه لم يبق الا القليل مما يكشف عن نشاطها • وتنسب احدى أوراق أحمد على التى ترجع الى ١٣٠٧ الى محكمة الأموال حالة رفعت من أحد الأفراد ضد محمد كرجساوى بشأن رقيق ادعى كرجساوى أنه ملك لبيت مال بحر الغزال •

والشواهد المتوافرة أيضا بالنسبة للعمل في المحاكم الاقليمية محدودة للغاية • ويبدو أنها عملت مرتبطة بالحكام العسكريين مثلما عملت محكمة أم درمان متصلة بالخليفة بفارق وحيد هو الرجوع دائما في قراراتها الى أم درمان لاعتمادها • وعلى سبيل المثال عرضت في عام ١٣١٢ هـ حالة من قبل أمين بيت المال في اقليم بربر على المجلس المحلى

للقضاء (أو على المحكمة المحلية) التي تكونت من سبعة نواب يتهم فيها شخصا يدعى ادريس الكعدور باخفاء مبلغ قدره ٥٠٠٠ ريال مجيدى .
وطالب أمين بيت المال باعتبار هذا المبلغ غنية حيث أنه كان ملكا لتاجر مسيحي هرب عند قيام الحركة المهدية . واعترف المتهم بصحة الوقائع وفقا لما ذكره أمين بيت المال وأمر من قبل المحكمة بدفع مبلغ خصمه آلاف ريال للأمين الذى أرسل قرار المحكمة لحاكمه محمد الزاى عثمان طالبا تعليماته بشأن التنفيذ حيث أنه رغب فى تسليم المبلغ بريال ماريا تويزا بسعر مناسب . ولكن محمد الزاى لم يقبل التصرف دون أمر من الجهات الأعلى . وبناء عليه حول المستندات المتعلقة بالحالة للخليفة الذى لم نعر على قراره الصادر فى هذا الشأن (١) .

وتتضح القيود التي وضعت على القضاء وأحكامه من المستندات المتعلقة بجولة قام بها سليمان الحجّاز وثلاثة آخرون من الاعيان فيما بين ربيع الثانى ١٣٠٨ وشوال ١٣٠٩ (نوفمبر ١٨٩٠ - مايو ١٨٩٢) وقد صاحبوا محمود أحمد عند تعيينه خلفا لعثمان آدم فى كردفان ودارفور .
وبرغم أننا لم نشر على التعليمات الخاصة بمهمتهم الا أنه من الواضح أنها كانت تختص بإعادة تنظيم القضاء فى الغرب وقد عملوا طوال الجولة تحت رئاسة محمود أحمد . وفى الأبيض والنهود والفاشر ثبت الحاكم العسكرى النواب القضائيين المحليين فى وظائفهم وأخذ عليهم اليمين بمرعاة العدل . ووجدت حاجة الى تعيين نائب عموم جديد لدارفور . واختار الأمناء من يشغل هذا المنصب بعد استشارة محمود أحمد .
وتقرر بذلك أن النواب المحليين يعينون بأمر الحاكم ، ومن ثم ترسل الأسماء للعرض على الخليفة وقاضى الاسلام .

ولم يكن سليمان بيت فى أمر ما حتى فى الاستماع الى القضايا أو الاشتراك كمشير لنواب القضاء فى الفاشر قبل أن يطلب تصريحاً بذلك من محمود . وبالنسبة للشكاوى المثيرة ضد الاستبداد فى الأبيض التى بدا من الممكن أن تثير اضطراباً تم الرجوع فى الأمر الى الخليفة . وعندما

(١) وثائق المهديّة ١/١٧ ، ٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ .

تسبب الجهادية الثائرون في اراقة الدماء بالفاسر رد سليمان على ذلك يكتبه « اعلام شرعى » أرسله لمحكمة أم درمان لأخذ رأى الخليفة عليه بينما أخذ محمود أحمد على الموظفين الأقل شأنًا ميثاقًا بالحفاظ على القانون . ومن الواضح أن تحقيق العدانة كان بطيئًا وغير كامل وأدت تبعية رجال القضاء في اصدار أحكامهم للخليفة الى زيادة المشقة عندما كانوا يبعدون عن العاصمة .

٥ - الخليفة ونظام الحكم في عهده :

تولى المهدي وقد وصلت حرته الى مرحلة حرجة تأكد فيها نجاحها وقدرتها على الهدم ووقع على عاتق خلفه تحقيق مهمة مزدوجة هي تأكيد مكانسب الثورة في السودان ببناء حكومة على الطراز الاسلامى البسيط وعلان الجهاد العالمى خارج حدود السودان . وقد تطلب الهدف الأول مجتمعًا يمارس دائما وبإخلاص أسلوب الحياة الاسلامى على حين تطلب الثانى قوة عسكرية كبيرة . وقد أثبتت الأحداث عدم امكان تحقيق أى من الهدفين وحينئذ ركز عبد الله أكثر فأكثر على الحفاظ على استقلال أملاكه وانشاء ادارة فعالة .

ووقع على عاتقه علاج أكبر مشكلة سياسية ألا وهى اعادة النظام بعد ثورة تم لها النجاح . فقد تمت اثارة الجماهير نتيجة للحرب والهجرة الجماعية كما هزتها بالوؤى السماعية وشجعته الانتصارات العسكرية المستمرة كما أثارت الثورة الفوضى الكامنة لدى القبائل وصعوبة كبح جماحها فى الوقت الذى لم تربطها فيه الا برباط واه هو الولاء للشئل المهدية والأمل فى الكسب المادى .

ولما كان الخليفة منذ البداية ، يواجهه باستمرار احتمال تفكك أواصر الوحدة القصيرة المدى للسودان الشائلى فانه حاول منذ البداية اقرار النظام الادارى . وما استطاع ذلك الا بالاستعانة مرة أخرى برجال العهد السابق وأفكارهم . وهؤلاء جلبوا معهم المفسدات التى اعتادوها من رشوة واهمال واستبداد ، وهى المفسدات التى حاول المهدي القضاء عليها . وكان هذا الموقف معقدا وعلى رأسه عبد الله ذو الشخصية

المعقدة • وقد صورته الكتاب الأوروبيون المعاصرون باعتباره منافقا وضع على وجهه قناع الدين واستخدم لغة المهديّة لتحقيق أطماعه الشخصية • ولكن الحقيقة كانت أبسط من ذلك • ففى عبد الله تضافر الحماس الدينى مع الموهبة الادارية والطموح الشخصى من أجل السيطرة •

وقد سلطت الأضواء خلال عهد الخليفة ومنذ ذلك الحين على نقط الضعف فيه باعتبارها من مسببات الأخطاء التى تردى فيها خلال حكمه • وهذا التقييم الذى يعتبر سلاطين مسئولا عن كثير من جوانبه قد بالغ فى ابراز عيوب الخليفة دون أن يعطى تفسيراً واضحاً للأخطاء • وقيل الكثير عن جهله وأميته وإن أنكرت أسرته ذلك (١) • على كل حال فالتهمة ليست ببالغة الأهمية • والأمية ما كانت أبداً تشكل عقبة يتعذر على حاكم موهوب التغلب عليها فضلاً عن أن كمية الأعمال الكتابية كانت كبيرة للدرجة التى دعت الخليفة الى الاستعانة بكتابه كائى حاكم كثير الأعمال • وأما قسوته أحيانا على القبائل والأفراد فلم تكن عن تعطش طبيعى منه للدماء أو عن ميل ثابت نحو الاستبداد فقدّر ما كانت سياسة حاكم يائس وجد أن أتباعه لا قدرة لهم على استمرار حكومة قوية منتظمة • ومثل هذه الاجراءات كانت دليلاً على الضعف لا القوة وفى بعض المناسبات أبدى الكثير من الصبر وضبط النفس وإن يكن معظم ذلك متعلقاً بقبيلته ورجال عشيرته • ولا شك أن طموحه كان غنياً وإلى حد ما متناسباً مع قدراته ، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك دليل على أن منافسيه كانت لديهم قدرته على إقامة حكومة تسيطر على معظم أجزاء السودان • أما حبه للمال الذى دفعه الى توجيه جوانب كبيرة من الدخل لأغراضه الخاصة فكان من المظاهر المميزة لحاكم أوصلته الثورة الى السلطة وأراد إقامة حكومة ثابتة وتأسيس أسرة حاكمة •

ولكن أصله شكل باستمرار عقبة كأداء اعترضت طريقه • وقد أغراه شعوره القبلى ، الذى اتضح لديه حتى فى الأوقات التى كان يشتد فيها غضبه على التمايشة باتباع أسلوب يتصف بالبساطة النسبية فى سبيل

توفير القوة العسكرية التي احتاج اليها • وفي النهاية أدى استناده الى البقارة الى افساد التوازن القبلى والاقتصادى فى البلاد وفقدانه ثقة القبائل المقيمة على ضفاف النيل • وأدى تفانيه الشديد للمهدية ومبادئها الى استحالة تفاهمه مع حكام مصر (الكفرة) أو مع الفرنسيين وقبوله الاعتراف به باعتباره مجرد سلطان سودانى يخضع للحماية • وأعماه جهله بالعالم الخارجى عن تصور ما لأعدائه فى مصر من تفوق كبير سواء فى وسائل النقل أو التسليح ومن ثم أرسل النجومى أولا ثم محمود أحمد على طريق الشهداء لكى يقضى عليهما فى الشمال •

ومع أن نواياه ازاء شعبه كانت طيبة أحيانا الا أنها تأثرت نتيجة كفاية موظفيه وضعف الرقابة على الرؤسين وهو ما بدا فى كل مرحلة فى السلك الادارى • وحتى الوسائل التى اتبعها لكبح جماح اداريه انقلبت عليه وأدت الى دماره • فسيل أوامره الى حكام الأقاليم وما كانوا يرسلونه من رسائل أحيانا عن مسائل شديدة التفاهة كل ذلك قضى على ما لديهم من مبادرة دون أن يحول دون الفساد • كما أن تكليف الأتباع والأمناء والمبعوثين الشخصيين بكتابة تقارير عن الحكام أضعفت سلطتهم وان لم تؤد بالتالى الى تضيق فرصتهم فى تحقيق مكاسب شخصية لهم • وتعيينه للبقارة لشغل المناصب الرئيسية كان المقصود منه ضمان الولاء وان لم يعن بالضرورة توخى الكفاءة •

وأخيرا فقد طغى على عهد الخليفة شبح الخطر البريطانى الرابض فى مصر • وبرغم أنه هوَّعن من شأنه الا أنه كان دائم الشعور به • وحتى بعد تخليه عن سياسة الجهاد اضطر عبد الله الى الابقاء على الطابع العسكرى لعهدده ومن ثم تعذرت عودة الاستقرار الكلى للبلاد • وقد قيض لاسترجاع السودان أن يودى الى وقف تطور الحكومة المهدية وتحولها من نظام ثيوقراطى الى ملكية وراثية • فالظروف السائدة فى أواخر القرن التاسع عشر كانت لا تسمح بقاء دولة اسلامية مستقلة فى جزء من افريقيا يتعرض لصراع الدول الأوروبية الاستعمارية •

موضوعات الكتاب

المقدمة	٥
مقدمات المهدية	٣٤
ظهور المهدي	٥٠
معركة الشيطان	٧٦
عزل الخرطوم وسقوطها	٩٣
دعاية المهدي وادارته	١٢٣
تولى الخليفة عبد الله الحكم	١٤٨
الدولة المهدية المحاربة - المناطق الغربية	١٦٤
الدولة المهدية المحاربة - المناطق الشرقية	١٨٢
المناطق المهدية المحاربة - مصر	١٩٣
السياسة والتطورات الداخلية بعد معركة توشكى	٢٠٣
'وتوقراطية التعايشى ١٨٩٢ - ١٨٩٦	٢٢٦
لقضاء على الدولة المهدية	٢٥٠
النظام الادارى فى عهد الخليفة	٢٧٥